جيفري بارندر



في أديان العالم





جيفري بارندر

الجنس في أديان العالم

ترجمة : نورالدين البهلول

أنَّى للأمواهِ مهما كَثُرَتْ،
أنْ تُطفئ جذوة الحبِّ،
وللفيضانات أن تغمره:
فلو وَهَبَ المرءُ كلّ ما يملكه
إكراماً للحبِّ،
أبداً لن يفيهِ حقّه.

الناشر

الفصل الأول

مقدمة(*)

يُعتبر الجنس والدين من أكثر الاهتمامات شيوعاً بين البشر. وهما متعارضان في أغلب الأحيان، فالأول جسَدَاني زائل، والثاني روحي سرمدي. ويبدو أن كليهما يشغل حيّزاً مختلفاً وواضح التخوم، رغم ذلك فإن تخومهما تتشابك على طول الخط. ولأن المرء لا يستطيع أن يعيش بالخبز وحده، حتى أن ممارسته الجنسية تكون طافحة بالخيال الجامح، نجد أن الدين يعتبر العالم بأسره أشبهَ بدائرةٍ اختصاصٍ له، ويلفت نظره أي مظهرٍ من مظاهر الجنس مهما صَغُر، حسبما يتأكّد من تاريخ الأديان الرئيسية في العالم.

ولكن ما الجنس؟

يعرّفه قاموس أكسفورد الانكليزي، بصورة أوّلية، على أنه: كلّ من قسمي الكائنات العضوية على حدة، والمصنَّفين ذكراً وأنثى على التوالي، أي الذكور والإناث بالإجمال كما هم عيانياً، وهذا تعريف عام جداً ويشمل الرجال والنساء ككل. وبهذا المعنى فإن الجنس سمة أصيلة في الطبيعة البشرية. ومن المهم ألّا يغيب عن أذهاننا هذا المفهوم العام مادام ضرورياً أن نعتبر الجنس

(*) تجدر الإشارة إلى أن الهوامش في أسفل الصفحات هي للمترجم، أما حوامش المؤلف فقد أُعطِيَتْ أرقاماً وورد شرحها في نهاية كل فصل.

مستغرِقاً جماع الشخصية الفردية، للرجل والأنثى على السّواء، وليس مجرّد فعل الجماع الجنسي. إن فهمنا لدور الرجل ودور المرأة، بوصفهما كائنين آدميين مكتملي الخصائص، أمرٌ جوهري في دراسة الجنس.

على أية حال ثمة تعريف معجمي آخر يعكس استخدام كلمة الجنس في وجوهها المتغيّرة والحصرية. «في الاستخدام الحديث، غالباً ما يشتمل الجنس على مفهوم أوضح: مجمل التباينات القائمة في بنية ووظيفة الأعضاء التناسلية التي على أساسها تصنّف الكائنات ذكراً وأنثى». وفي العصر الراهن، حين نتكلّم عن الجنس، لا نعني في الغالب الجنس من حيث الذكورة والأنوثة، أو الاختلافات بين الذكر والأنثى فحسب، بل نعني، وبشكلٍ أوضح، الاتحاد الجنسي بدنياً. فهذا **هربرت جورج ولز** في كتابه «حول الزواج»، الذي صدر في عام 1912 ، ذكر أنه من الضروري أن نعلّم الناشئة كلّ ما نعرفه عن القضايا الأساسية الثلاث، «التي أوّلها الله... وثالثها الجنس». إن معظم الناس في الوقت الحاضر يناقشون «العملية الجنسية» أو «الجنس»، ببساطة، بمعنى الجماع.

هنالك كلمات أخرى بهذا الصدد خضعت لتغيُّرات مماثلة. فمثلاً كلمة إتصال intercourse(*) كانت في الأساس تُستخدم بمعنى العلاقات المتبادلة؛ وحسب الاستخدام القديم كانت مقتصرة على التبادلات التجارية. وفي روايات العصر الڤيكتوري كان استخدامها مرتبطاً بالاجتماعات والمداولات. ولعلَّ مستخدميها من الكتّاب السابقين كانوا سيُصدمون لو شهدوا مرادفتها الجديدة الشائعة، الاتحاد الجسداني، رغم أن كتّاب القرن التاسع عشر المشتغلين في حقل العلوم التطبيقية سبق لهم أن تحدَّثوا عن «الاتصال الجنسي المحظور illicit intercourse».

(*) وتعني معجمياً: اتصال، جماع، علاقات، وقد اخترنا المعنى الأول في هذا السياق انسجاماً مع النص. م.

ولأن كلمتي «الجنس» و«الاتصال الجنسي»، تنطويان على معانٍ مفتوحة ومقيَّدة في آن، وربما تكون الأخيرة هي السائدة حالياً، فقد سعى بعض الكتَّاب لاشتقاق مصطلحات أو كلمات أخرى مكافئة. إذ أن **د. س. بيلي** D.S.Baily، أحد الخبراء البارزين المختصين بتاريخ التعاليم الجنسية في المسيحية، قد استخدم في كتاباته مصطلح العلاقات أو «الاتصال التناسلي»، بدلاً من الاتصال الجنسي أو الجماع المستخدَمَيْن تقنياً. فكلمة تناسلي Venereal مشتقة من ڤينوس Venus، إلهة الحب والجمال عند الرومان، ولكن، لسوء الحظ، فإن هذا الربط مُلتبس في الاستخدام اللغوي الشائع في الانكليزية، لأن كلمة «تناسلي» توحي، ببساطة شديدة، بداءٍ بغيض مرتبط بالاتصال الجنسي. ومن غير اللائق أن نحمِّل الجنس هذا المعنى الازدرائي الشائع حالياً، وعلى وجه الخصوص في دراسة الأديان التي لها عراقة في الحطّ من قدر الجنس.

رغم الجهود المبذولة في هذا الكتاب كيما يكون أميناً للوضوح والدقة، فإن توخِّي ذلك لم يكن بالأمر اليسير. إذ سيجري استخدام كلمة «الجنس» بالمعنى الواسع للعلاقات بين الذكر والأنثى، و«العلاقات الجنسية» بالمعنى الأكثر تخصيصاً، والمندرجة في سياق الجماع أو الاتصال الجنسي. وستستخدم كلمة «الحب» بالمعنى الواسع للعلاقات الغرامية، دون أن نختزلها إلى حدود «ممارسة الحب» كما يحدث حالياً وفي أغلب الأحيان.

من المعروف أيضاً أنه يصعب تحديد تعريفٍ للدين. فبعض الأديان يؤمن بالإله الأسمى، وبعضها الآخر يتحدَّث، وبدرجة أكبر، عن القوَّة أو الحقيقة، حتى أن هنالك أدياناً اهتمت أساساً بعبادة الأسلاف والحياة بعد الموت. وانسجاماً مع تبنّي وجهة النظر المنفتحة سوف يجري تضمين مذهب **ين ويانغ** Yin and Yang الصيني في الإطار الديني أو الروحي، إضافة إلى الإله القادر، أو كلمة الرب (التوراة، الإنجيل).

يُعنى هذا الكتاب بـ «الدين-المقارَن»، ليس من قبيل التباري بين الأديان، وإنما لمعاينة التقاليد الدينية على اختلافها. ويبدو أن إجراء دراسة حول الجنس

والدين معاً أمر شديد الغرابة من منظور الأديان الرئيسية الحيّة. فرغم توفّر عددٍ لا يُحصى من الكتب التي تناولت الأديان في العالم، وتوفر عروض موجزة لقصص الأديان الكبرى تقوم على أساس المقارنة، يبدو أن جُلّ هذه الأعمال تقريباً يستخف بالعناصر المرتبطة بالجنس على وجه التحديد، رغم الاعتراف بأهمية الجنس فيما يخص الدين. كما أن العديد من الدراسات المقارنة التي تناولت أسفار الأوبانيشاد Upanishads الهندية على سبيل المثال، تعرض أفكارها حول الروح الفردية والروح الكونية، غير أنها تتجاهل التعاليم الأوبانيشادية بصدد الطقوس الخاصة بالاتصال الجنسي، وغالباً ما تُحذف أيضاً في النصوص المترجمة. وهنالك نصوص حول اليوغا تنزع إلى إهمال التمرينات الجنسية التي يمكن استخدامها وكذلك النظريات الفيزيولوجية المتصلة بالسلوك الجنسي، والتي تشكّل العنصر الأساسي المكوّن لطرائق اليوغا الهندية والصينية.

إن القسم الأكبر من هذا المُؤَلَّف هو عمل تمهيدي، ذلك أنه لم يُكتَب حول هذه القضايا إلّا القليل نسبياً. يقول **كانون بيلي** إنه في مجال الديانة المسيحية «لم تجرِ أية محاولة حتى الآن» من شأنها تقديم عرض تفصيلي حول التعاليم الجنسية. أما عن الصين فيقول الدكتور **ڤان غاليك**: «تبيّن لي أنه لا يوجد عملياً أي أثرٍ أدبي هام يمكن الإفادة منه سواء في المراجع الصينية المعترف بها أم في الكتب والأبحاث الغربية حول الصين»[1]. غير أن بعض الأديان تمّ توثيقها بصورة أفضل من سواها فيما يتعلق بالقضايا الجنسية، وثمة ميل لأن يكون هنالك بعض اختلال في البحث المبني على المقارنة. وأقدّم اعتذاري سلفاً عن ثغرات كهذه، آملاً أن يُفتح هذا الموضوع الهام على مداه مستقبلاً، وبشكل تام وتفصيلي من خلال تناول الديانات الخاصة.

إن هذا الكتاب غير مخصص لأتباع المانوية Manishees الذين يعتبرون الاتصال الجنسي كبيرةً من الكبائر ورجساً أو وضاعةً، ويُؤمرون بعدم الاطّلاع عليه، لأنه: (إذا كنت عاجزاً عن تحمُّل الحرارة، فاخرج من المطبخ). ومن جهة أخرى فإن هذا الكتاب غير معنيٍّ برصد الأفعال الداعرة التي تتطلّع إلى وجبات

نكهة؛ إنه معدٌّ كيما يكون واقعياً وعلمياً، وتُستخدم فيه الأسماء المرتبطة بالعلوم التطبيقية بدلاً من مرادفاتها الشائعة بين الناس. وإن الهدف من إجراء المقارنات قد حدَّد مضامين الكتاب، من خلال السعي لرؤية الآخرين في كيفية مزاوجتهم بين الجنس والدين، وبالتالي، لرؤية أنفسنا، ربما، بطريقة أفضل.

لقد أثارت هذه الدراسة ردود فعلٍ عديدة، ليس أقلّها ما أُثير حول سجلّي المعقَّد في الإخلاص الموروث، أباً عن جد، لهذا الميدان. إن النشاطات الحيوية للبشر غالباً ما تبدو غريبة أو حمقاء، بيد أن الحياة الجنسية للناس، شأنها شأن جوانب الاهتمام الأخرى، تبرز أوجه الفرح والحزن على السَّواء، تلك الأوجه التي تتجلَّى في القضايا الإنسانية. فبعض الممارسات الجنسية تكاد لا تستأهل اسم الحب، مع ذلك غالباً ما ينبع الحب في أماكن غير متوقَّعة. فأحياناً يكون أشبه بسرابٍ مخادع، وأحياناً أخرى يعكس رؤيا دانتي عن «الحب الذي يحرّك الشمس والأنجم الأخرى».

هوامش المؤلف للفصل الأول

1 – D. S. Bailey, The Man – Woman Relation in Christian Thought, ,1959 p. vi: R. H. van Gulik, Sexual Life in Ancient China, ,1961 p. xi.

الفصل الثاني

الجنس المقدَّس في الهند

ما من مكان في الدنيا عرض بوضوح العلاقات الوثيقة بين الدين والجنس كما حدث في الهند، إذ تمَّ إيضاحها من خلال عرضٍ وافرٍ لنماذج النشاط الجنسي الإلهية والبشرية، وكذلك للأهداف المقدَّسة للجنس. وبالتالي من المفيد أن نبدأ هذا البحث المقارَن انطلاقاً من الديانة الهندوسية القديمة، رغم تعقيدها البالغ، واشتمالها على طيفٍ من المواقف نحو الجنس تمتد من الانغماس الكلي وصولاً إلى نكران الذات التزهُّدي. وعلى الرغم من أنه يُنظر إلى الهندوسية غالباً بوصفها مصدراً لنزعة اعتزال الدنيا والتشاؤمية في قارة آسيا، فمن الممكن عدّها أيضاً مذهباً طبيعياً وشهوانياً. وقد ورد في بعض النصوص الهندوسية أنه ينبغي على الحكيم أن يكون مستهتراً بكلِ ما يمت إلى البشر بصلة، وفي الوقت ذاته أكدت تلك النصوص أن الآلهة والحكماء هم الذين لقَّنوا البشر علوم اللذة والحب.

نماذج إلهية:

إن الحفريات الأثرية التي أُجريت في مدن سهول السند البائدة تعيدنا إلى كتاباتٍ مغرقة في القِدم لنعثر على بقايا ممارسات جنسية ارتبطت بها أزمنة لاحقة. وحسب الغزاة الآريين الذين اجتاحوا شمال غرب الهند فإن الشعوب التي قهروها كانت سوداء البشرة، وأنوفها فُطْس، ولغتها غير مفهومة، ولم يكن

لديها طقوس دينية. إذ «لم تكن مكترثة بالآلهة»، وربما كانت تمارس عبادة القضيب phallus

كان الآريون، شأن معظم الفاتحين، يزدرون رعاياهم، لأن هؤلاء ما كانوا يتحدّثون لغتهم أو يتّبعون ديانتهم. إلّا أن عبادة القضيب، أي اللينغا (the linga)، في الهندوسية اللاحقة تبدو واضحة بين شعوب السهول السندية بعد كشف النقاب عن الكثير من النقوشات المحفورة على القطع النقدية، وهي على الأرجح رسوم قضيبية. ومن بين الأختام القليلة المنقوشة التي عُثر عليها كان العديد منها يُبرز شكلاً ذا قرونٍ، مثلّث الوجوه، يجلس عارياً في وضعية اليوغا، ومحاطاً بأربعة حيوانات متوحّشة. إنه إثيفاليك Ithyphallic[*] المحاط بالحيوانات، والذي يطلع من رأسه غصن يشبه النبتة، ويدل على أنه إله الخصب. وكان هذا الشكل يُعرف كثيراً باسم شيڤا الزمن Shiva - Porto لأنه كان في الهندوسية اللاحقة الإله العظيم شيڤا الذي يُصوّر أحياناً بثلاثة وجوه أو أربعة، وهو إله الخصب الذي يُرمز إليه بالقضيب، كما كان يُعرف بإله اليوغا أو رب البهائم.

وفي خرائب سهول السند كُشف النقاب عن الكثير من التماثيل الطينية الخشنة الصغيرة لنساءٍ عاريات أو شبه عاريات، ويُعتقد أنها أيقونات «الإلهة ـ الأم» ذات الشأن العظيم، ورمز الخصوبة الأنثوية وصحة الأطفال. وثمة الكثير الكثير من هذه التماثيل التي يُرجّح أن سكان وادي السند كانوا يحتفظون بها في كل بيت من بيوت مدنهم المحصّنة. أما في الأدب الڤيدي الآري فليس ثمة ذكر للإلهة ـ الأم الكبرى. ولكن على افتراض أنها دُفنت مع سواها من الآثار التي تشهد على حضارة السند، ونجت كغيرها من الدمار، فقد ظهرت مجدّداً بعد ألف عام. ويقال إنها غدت رمز القوة العظمى في الشرق، متخذةً أسماء عديدة: الإلهة العظيمة، الأم، ابنة الجبال Parvati، دورغا Durga العصيّة على

(*) متعلّق برمز الاستيلاد أو صورة عضو التناسل الذي كانوا يحملونه في الأعياد. قاموس المورد.

البلوغ، كالي Kali السوداء - إنها إحدى الإلهات الكبرى في الهند الحديثة.

وهنالك أيضاً تمثال صغير من البرونز، جدير بالاهتمام، وقد ظهر عليه شكل فتاة نحيلة، عارية إلّا من قلادة وخلاخيل، واقفة في وضعية مثيرة؛ ومن المفترض أنها كانت النموذج الأسبق لديڤاداسي Devadasi، راقصة المعبد وإحدى بغايا العصور اللاحقة. بيد أنه من غير المؤكد أنها كانت راقصة أو مكرّسة للمعبد. كما كُشف النقاب عن حجارة على شكل خواتم زُعم أنها تمثّل رسوماً للمهبل The yoni الذي غدا في الهندوسية اللاحقة موضع تبجيل. غير أن هذه المماثلة تبقى مثار جدل. وثمة ختم آخر يظهر عليه شكلٌ ذو قرون، ولعلَّه إحدى الإلهات منتصبة وسط شجرة تين المعابد، وهي شجرة بو (Bo - tree) المقدسة، التي سادت عبادتها في وقت لاحق. وتظهر أمامها سبعة أشكالٍ بذيول خنزيرية ربما تمثّل لوازب المرأة (أو خادماتها). وختم آخر يظهر صورة رجل يصارع نمرين، وقد جرت مقارنته بمنحوتةٍ عثر عليها في بلاد ما بين النهرين تظهر جلجامش البطل وهو يصارع أسدين.

تعرّضت مدن سهول السند للتدمير في الألف الثاني قبل الميلاد. ولم يُعثر على أثرٍ لفنٍّ معماري مشابه على مدى ألف عام تقريباً. ومن المرجّح أن الأفكار الدينية المرتبطة بثقافة السند بقيت حيّة، وربما تكون فلسفة اليوغا، والإيمان العميق بالتقمُّص(*) قد انحدرا من تلك العصور السالفة. وتظهر هذه المعتقدات في أسفار الأوبانيشاد الفلسفية، ويُزعم أن التقمُّص على الأقل كان اعتقاداً غريباً على الكهنة الآريين. أما الإله شيڤا، الذي لم يرِد ذكره في الترانيم الڤيدية، إنما ورد في سفر شيڤتاشڤاتارا أوبانيشاد الذي أُدرجت فيه فلسفة اليوغا أيضاً. وكان قد أُشير إليه في البدء على أنه إحدى صفات الإله الڤيدي رودرا (Rudra)، واسم شيڤا يعني «الرحيم» أو «الميمون»، بيد أن أسطورته تطورت لاحقاً.

(*) rebirth: التقمّص أو التناسخ، وهو انتقال النفس الناطقة من بدنٍ إلى آخر. أي جعل الأجساد أقمصة للأرواح تنتقل من واحدٍ إلى آخر منها. المنجد في اللغة.

برز شيڤا في القصيدة الملحمية العظيمة مهابهاراتا Mahabharata بوصفه أحد الآلهة الرئيسية، وقد تطوَّرت أسطورته وشخصيته المعقدتان في هذه الملحمة وفي حكايات بورانا Purana الشعبية. فقد كان شيڤا إله الجنس وإله التزهد اليوغي في آن معاً، كان إله الفحولة والدمار، وكان يُرمز إليه باللينغا إبرازاً لنشاطه الجنسي مكثّفاً في تأمله الزهدي. ولم يلمّ أي نص بكامل الحوادث المرتبطة بنشاطات شيڤا على نحو متعاقب، إلا أنه قد يكون جرى تلخيص لبعض عناصر تلك النشاطات.

كان شيڤا قابعاً في خلوة المتأمّل الزاهد في الجبال، حين رامت بارڤاتي، ابنة هيمالايا، الزواج منه. وكان أبواها مستائين لولا أن أُرسل كاما Kama إله الحب، كي ينفح شيڤا بالرغبة تجاه بارفاتي. فقام شيڤا بحرق كاما، مسلّطاً عليه نار عينه الثالثة، فأحاله إلى رماد، بيد أنه أعاد إليه الحياة فيما بعد. بعدئذٍ ظهر شيڤا أمام بارڤاتي في هيئة كاهن وراح يختبرها، مفنّداً خصائصه البغيضة على أنه «المدمِّر، ذا العيون الثلاث، العاري، ذا الأفاعي وطوق الجماجم، وموطنه محرقة جثث الموتى. ولمَّا لم يتزعزع موقف بارڤاتي، وافق شيڤا على الزواج منها. وفي حفل الزفاف أثار شيڤا فضيحةً حيث ظهر بملابس تزهدية غير لائقة.

بعد حفل الزفاف مارس شيڤا وبارڤاتي الحب. لكن إفراطه اللاحق في مغامرات مثيرة أفقده طاقاته الجنسية تدريجياً، فاعتزل في غابة أملاً في استعادتها عن طريق التزهُّد. وزلزلت الأرض زلزالها من جرَّاء طاقته التزهدية Tapas، الأمر الذي جعله يتخلى عنها. وهام في الغابة عارياً على نحو فاسق، راقصاً، مستجدياً، وفي يده جمجمة، ووقعت زوجات الحكماء في حب شيڤا، وتبعنه إلى حدٍ جعل الحكماء يصبون لعناتهم على عضوه الذكوري (لينغاه)، فيطرحونه أرضاً؛ مما سبَّب اندلاع نار رهيبة، وبذل الإلهان براهما Brahma وڤيشنو Vishnu جهودهما للعثور على نهايتي اللينغا الهائل، لكن دون جدوى. ولم يستتب الأمن، كسابق عهده، إلّا بعد أن وافق الحكماء وزوجاتهم على عبادة اللينغا. وحين عاد شيڤا إلى بارڤاتي، مارسا فصلاً من العشق بلغ معه احتكاك الجسدين ذروةً أدخلت الهلع من جديد في نفوس

الآلهة، فأرسلت إله النار أغْني Agni ليحول بينهما. لكن هذه المعاشرة بين الزوجين الإلهيين تمخَّضت في النهاية عن ولد[1].

لقد أصبحت هذه الأساطير، بتنوعاتها الغنيَّة، شائعة عبر القرون في الهند؛ وقد شكَّلت موضوعات ملهمة لفن الرسم والنقش. وذكرت نصوص عديدة أن شيڤا كان فاسقاً، حتى أن هذه السمة كانت الأكثر شيوعاً في الأيقونات التي صوَّرته، وأبرزت اللينغا مولجاً في اليوني (العضو) الأنثوي. وقد ورد في اللينغا بورانا Linga Purana أن الآلهة ذهبت لزيارة شيڤا في فردوسه، فوجدته منغمساً في مضاجعة بارڤاتي، ورغم حضور الزوار، واصل الزوجان فعلهما الجنسي. فشرع ڤيشنو بالضحك، أما الآخرون فانتابهم الغضب ورشقوا شيڤا وزوجته باللعنات، فماتا لتوّهما في حالة الجماع، بعد أن قال شيڤا إن هيئته اللاحقة (الجديدة) ستتخذ شكل اللينغا الذي سيقتدي به الرجال ويعبدونه. فاللينغا هو شيڤا نفسه، واليوني بارڤاتي نفسها، وهما معاً أصل الأشياء كلِّها.

كان شيڤا وزوجته يُجسِّدان في تمثال بشري خنثوي واحد كما تبيَّن في المنحوتة الشهيرة التي عثر عليها في كهوف إلفانتا قرب بومبي. وقد يكون أمراً محيّراً لعقول الأجانب أن تجتمع عبادة القضيب (الفالوسية) والتزهدية معاً في شخصية شيڤا؛ مع ذلك فإن الكثيرين من الهندوس لا يعدّون هاتين الخاصتين متعارضتين تماماً، وإنما ماهيتين تبادليتين. فالطاقة التزهدية tapas والشهوة الجنسية Kama ليستا في تناقض كلي، بل يُنظر إليهما بوصفهما تمظهرين للطاقة. ويرى الكثير من الهندوس في شيڤا الإله الرئيسي، ويعدّون عضوه الذكوري، المنحوت غالباً من الحجر، رمزاً لعبادته الطاغية. كما عدّت عبادته الحديثة، خاصة في الجنوب الهندي، الصيغة الهندية الأوضح للتوحيد (عبادة الإله الواحد)، لأن عباده المخلصين يبتغون فضله وحدَه، ومن الشائع الاعتقاد بأنه يتراءى لهم في الأحلام كي يلهم الأرواح المتوحّدة ويقدّم لها العون[2].

كان للآله الهندوس إلاهات متمّمة، رغم أن معظمها كانت صوراً باهتة عند أربابها، وتحمل الأسماء ذاتها ولكن بنهايات مؤنثة، مثل إندراني أو

براهماني. من جهة أخرى كانت زوجة الإله العظيم ڤيشنو تدعى شري Shri أو لاكشمي Lakshmi، وقد أظهرت تماثيلها أنها كانت امرأة رائعة الجمال، تحمل في يدها زهرة اللوتس، وهي مشهورة بأنها إلهة الحظ السعيد والنعمة. لكن الإلهة ـ الأم الكبرى، زوجة شيڤا كانت الإلهة الأرفع شأناً، وقد اتخذت أسماء عديدة. كانت تدعى شاكتي Shakti أو قوة نظيرها الذكر، فهي نشيطة وكلية الوجود حين يكون نظيرها سلبياً ومبهماً (لامادياً)، وكان لها أثر عظيم في نصوص تانترا Tantra اللاحقة.

كانت الإلهة أماً كبرى، ولها في الوقت ذاته وجوه رهيبة، ولاتزال تُرسم في اللوحات التي تُعرض في الأسواق على شكل عفريتة سوداء، عارية تماماً إلا من عقد الجماجم، ولها أنياب ولسان مندلق، والأسلحة مُشْهرَة في يديها، تسحق جسد شيطان برأس جاموس، حتى أنها تنتصب فوق جسد زوجها شيڤا المُمدَّد. وتُعبد هذه الإلهة مجسَّدة في اليوني الأنثوي. وتذكر الأسطورة أنها، حين تشاجر أبوها مع شيڤا، ألقت بنفسها في نار القربان، فانذرى رماد عضوها الأنثوي في أماكن شتى من الهند، فاستحالت هذه إلى مزارات تُمارَس فيها عبادة اليوني.

ثمة إله هندوسي آخر ذو شهرة واسعة، إنه إله الحب، كريشنا Krishna، وله حكاية مماثلة من حيث تعقيداتها. واسمه يعني «الأسود»، ويُرجّح أنه خَلَفَ لإله قديم عند شعوب سوداء البشرة. وقد ورد في المهابهاراتا بوصفه بطلاً لرعاة البقر، مع أنه برز في كتاب البهاغاڤات غيتا Bhagavad Gita(*) كمعلِّم ضليع في الفضيلة، وأنه الإله الأسمى. وقد ظهر كريشنا في حكايات البورانا كراعي بقرٍ مغامر وأميرٍ قاتل للشياطين في آن واحد. وقد جعلته ظرافاته الطفولية اللعوبة أثيراً لدى النساء، وصار أكثر جاذبية إثر مغامراته العشقية مع راعيات البقر. فبينما كانت الفتيات يستحممن، سرق كريشنا ثيابهن وأجبرهن على أن يأتين

(*) ورد بمعانٍ متعددة: أنشودة للمولى، أو ترنيمة للمبارك. م.

إليه عاريات ليستقبلهن وأيديهن فوق رؤوسهن. وقد حُمِّلت قصة العري الأمامي الكامل هذه تأويلات صوفية عن عري الروح في حضرة الإله، ولاتزال شائعة في مجال الشعر والرسم.

كان يجري التعبير عن الرغبات الشهوانية من خلال ممارسة التعبُّد وقرض الشِّعر المكرَّسين لكريشنا. حين كان كريشنا يعزف على نايه في الغابة، هجرت النسوة بعولهن، خارقاتٍ التقاليد التي كانت تلزم النساء بالامتثال الدائم لأزواجهن والوفاء لهم، إلَّا أن تركهن لأزواجهن لم يكن سوى تعبيرٍ مجازي عن الروح التي انعتقت من كل شيء كُرمى للإله. كانت الفتيات يرقصن حول كريشنا في حلقة، فاستطاع عبر استخدام قواه السحرية الموهِمة أن يوفِّر لكل فتاة نظيراً لشخصه، فخلعن ثيابهن وحليهنّ وقدَّمنها له عن آخرها، وبعد أن استحمَّ معهن، أرسلهن إلى بيوتهن.

إن الفكرة الرئيسية التي تطورت في الأسطورة هي اختفاؤه من حلقة الرقص وممارسة الحب في الغابة مع فتاة على وجه التحديد، وكانت تدعى آنئذ رادا Radha خليلته الأجمل بين كل راعيات البقر. وغدت غراميات كريشنا و رادا موضوعات محورية لاحقاً، حيث تُعدّ رغبتها الجنسية، وممارستها الزنى بعد هجرها لزوجها من الأوليَّات التي يقضي الله بتحقيقها إخلاصاً للحب. وبعد القرن العاشر للميلاد طوَّرت البراهما ڤاڤاترا بورانا Brahma vavatra purana علاقة الممارسات الشهوانية بالعبادة، ووصفت اتحاد الزوجين بأكثر التعابير حسيَّة «بكلتا ذراعيه جذب كريشنا رادا إليه، فعرَّاها، ثم قبّلها بطرائق أربع مختلفة إلى أن تخلَّعت أجراس حزامها في معركة الحب هذه. وفيما بعد اعتلت رادا صدر كريشنا، فولجها بطريقة معكوسة، واتخذ معها بعدئذ ثماني وضعيات مختلفة، فتمزَّق جسدها بالعضِّ والخدش إلى أن أصبحت عاجزة عن تحمّل المزيد، إذ ذاك أوقفا معركتهما».

كان لايزال هناك راعيات بقرٍ أخريات، وكن يعددن تسعمئة ألف راعية؛ ولكي يشبع رغباتهن جميعاً، استحال كريشنا إلى عدد مكافئ من الرجال،

حتى أن كلاً منهن خالت كريشنا يعاشرها. كن رائعات الجمال في عريهن، وقد ثملن باللّذة إلى أن ضجَّ المرعى بهذه الممارسة الجماعية. إن لغة طافحة بالشهوانية كهذه، هي التي وُصف بها الأسلوب الحميمي للانغماس في عبادة كريشنا. وحتى أيامنا هذه يزور ملايين الحجاج المطارح التي حدثت فيها الأساطير، ويتابعون باهتمام موضوعات هذه القصة[3].

مثل عليا ملحمية:

إن المثل الأخلاقية السامية للهندوس حول الروابط الإنسانية تجسَّدت في الملاحم الشعرية، المهابهاراتا ورامايانا Ramayana، وفي كتب الشريعة المقدسة التي تكاد أن تضاهي أسفار الفيدا Vedas قداسةً، وتحظى بمحبةٍ أكبر بين البشر. وفي الملاحم، لعبت مغامرات الرجال والنساء، الحكام والأبطال، الآلهة والشياطين، دوراً بارزاً في الديانة الشعبية، وقدَّمت نماذج معيارية للسلوك.

طُرحت أمام الإنسان أربعة مثل عليا أو أهداف بوصفها أفكاراً رئيسية تنظم حياة وسلوك الهندوسي، وكانت: الواجب، الكسب، الحب، الخلاص (دارما، آرثا، كاما، موكشا dharma, artha, kama, moksha). وجرت العادة أن ترد الأفكار الثلاث الأولى في النصوص القديمة، لأن الفكرة الأخيرة كانت تقتضي ضمناً التخلي عن النشاطات الأخرى بغية الانعتاق من الشؤون الدنيوية. فالدارما، أي الواجب أو الفضيلة، تكتنف المثل العليا الأخرى بكاملها، لأن الكسب المادي يفترض أن تحكمه الفضيلة، أما الحب أو المتعة فلا يجوز أن يدخلا في نزاع مع حقوق الآخرين.

وُضعت هذه المثل من أجل الطبقات الرئيسية في المجتمع وهي: الكهنة، الحكام(*)، التجار، الخدم. وتمرُّ الطبقات الثلاث الأوَل بثلاث أو أربع مراحل

(*) rulers: هكذا وردت في النص الأصلي، لكنها وردت في النصوص التاريخية «طبقة المقاتلين وكذلك طبقة [الجُند والملك]». م.

خلال حياتها(*): مرحلة الطالب، رب الأسرة، الناسك، الزاهد. ومن الطبيعي أن مرحلة رب الأسرة المتزوج كانت الأوسع انتشاراً، كما أنها عدّت في بعض النصوص المرتبة الأسمى بين المراتب الأربع. أما حياة الطالب فهي مرحلة تمهيدية، فيما مرحلة الناسك أو الاعتزال لا يمكن بلوغها قبل أن يرى رب الأسرة أحفاده كضمانة لاستمرار النسل وأداء طقوس الأسلاف. ولم يكن التزهّد مفروضاً على كل شخص، كما كان يسمح لرب الأسرة بممارسة الجنس، شأنه شأن الكسب المادي، بالأحرى كان الجنس يحظى بالتنظيم والتوجيه تحاشياً للإفراط في الكبت والفجور على السواء.

في المهابهاراتا، وهي أطول قصيدة في العالم(**) ظلّت فكرة الواجب (دارما) تتكرر كلازمة ثابتة، إلى أن ورد في النهاية أن الكسب والحب ينبثقان كلاهما من الواجب، ومادام هذا الأخير سرمدياً، ينبغي أداؤه عبر الألم واللذّة. ولكن رغم المنزلة التي مُنِحها هذا المبدأ الأخلاقي، فإن العديد من الحكايات الواردة في الملحمة كانت تظهر الإنسان بنجاحاته وإخفاقاته، بحبّه وهمجيته، وبمغامراته السامية والبهيمية على حد سواء.

لم تكن البهاغافات غيتا (أنشودة الرب) سوى جزء صغير من المهابهاراتا، بيد أنها تعرضت للأفكار اللاهوتية والأخلاقية بأسلوب تزهدي مُسهب. ورغم أن الدارما (الواجب) كانت الكلمة المفتاحية في الغيتا، إلا أن ما يُفهم من الكتاب مراوحته بين التوكيد على ضرورة العمل في الدنيا ونبذ

(*) وردت هذه المراحل في نصوص أخرى تحت التسميات الأربع التالية: 1 ـ التنسُّك (براهماتشاريا) وملازمة أحد المرشدين الروحيين. 2 ـ الواجب العائلي، أي أن يصبح رب أسرة (غريهاستا) ويتولى الطقوس الدينية. 3 ـ الهجرة إلى الغابة، وهي شكل من أشكال التنسك أيضاً (فانابراستا) 4 ـ الزهد (سانياسا) وهو آخر المراحل قبل الانعتاق. م.

(**) تُعد 107000 زوج من أبيات الشعر ذات المقاطع الثمانية، أي ما يساوي سبعة أضعاف الإلياذة والأوديسة مجتمعتين. م.

الأهواء والنوازع الدنيوية (نتائج الفعل). وقد اعترفت تعاليم الغيتا حقاً بـإلهها السرمدي المحايث الذي قال: «حيث أن دارما لا يحظّره، فمن بين الخلائق كلها أنا الحب [Kama]»، وكذلك، «أنا الإله الخالق للحب Kandarpa» (7 ، 11 - 10 ، 28). بيد أن السمة الغالبة على لهجة الغيتا كانت سلبية وتزهدية. مع ذلك لم تكن ترى في الواقع أن نكران الذات بحد ذاته يفضي إلى الكمال، معتبرة أنه لا يمكن لأي إنسان أن يُعرِض عن كل الأفعال دفعة واحدة، فالزهّاد يمكنهم الامتناع عن كل الأفعال الشهوانية، مع ذلك يظلّون يهجسون بها مثلما جرى مع القديس أنطوني في الصحراء.

في سِفر غيتا يُوصى أرجونا Arjuna بأداء واجبه بمعزلٍ تام عن النتائج، ودون حساب للثواب أو العقاب. فضلاً عن ذلك ينبغي أن يتساوى عنده الكاهن والمنبوذ، فيرى فيهما الكائن البشري نفسه، وأن يتحلّى أيضاً بعقلٍ باردٍ تجاه الصديق والعدو، وأن يكون غير مبالٍ إزاء الأعداء أو المحايدين أو الأصدقاء. وقد وردت إشارة طفيفة إلى الحب الإنساني، أو إلماحة عابرة إلى المرأة. إلا أن تعاليم لامادية كهذه قد تكون حَريَّةً بالكهنة المتبتّلين أو بالرجال الذين في المراحل الأخيرة من حياتهم أكثر من ملاءمتها للجنود المفعمين بالحماس أو أرباب الأُسر المتزوجين. وقد تعرّضت هذه الرزانة المتسمة بالبرودة إلى انتقادات في العصر الحديث لكونها لا تقيم وزناً للتباينات بين الخير والشر، وتفسح في المجال لاقتراف الأعمال اللاأخلاقية، ورغم ذلك تبدو أقل قسوة مما جاء في أحد أسفار الأوبانيشاد والتي تؤكد على أن «من يتوصّل إلى معرفتي لا يضيره القيام بأي فعل: لا السرقة، ولا التسبُّب بالاجهاض، ولا قتل أبيه ولا قتل أمه»[4].

على النقيض من هذه اللامبالاة كانت حكايات الملحمة تزخر بالأمثلة التي تلامس الوجدان، ومن أفكارها الشائعة التركيز على قيم الحب الزوجي وإخلاص المرأة. وثمة قصة محبَّبة في المهابهاراتا، وهي العلاقة الغرامية بين نالا Nala ودامايانتي Damayanti التي لها العديد من الترجمات في اللغة الانكليزية[5]. كان نالا ملكاً مُنح الفضائل طُرّاً، كان وسيماً وفارساً لا يُشق له غبار، وما كان لينطق بالباطل، بيد أنه كان مولعاً بالقمار. أما دامايانتي فكانت

آية في الجمال، لها عينان نجلاوان، وأطراف لا يعتورها عيب، وقد وقعت في حب نالا، ووقع في حبها، لمجرّد أن سمع كل منهما الآخر يتغنّى به. قرَّر والد دامايانتي أن يترك لابنته «حرية الاختيار» أو «حرية اختيار العريس»، وهو امتياز تحظى به بنات طبقة المحاربين. حضر أربعة من الآلهة الرئيسية واتخذ كل منهم هيئة نالا لتشويش الفتاة، بيد أنها أفلحت في تمييز محبوبها من ظلّه وإكليله الذاوي، وتعفّره بالغبار، وعرقه وبريق عينيه؛ وهي إمارات لا تخصّ الآلهة المتسمين بالكمال. فعُقد قرانهما وعاشا في حب ميمون إلى أن خسر نالا كل ما يملك في لعب القمار، كما حدث لبعض الأبطال الآخرين، فكان لا بدَّ له إذ ذاك من الرحيل إلى الغابة مع زوجته.

وفي غمرة اليأس هجر نالا زوجته دامايانتي أملاً في عودتها إلى بيت أبيها. واستحال نالا إلى نباتٍ قزمي من جرّاء تعرّضه للدغة أفعى. وبعد تجشم مغامرات مثيرة شتى، التقى الزوجان ثانية، وما إن ميَّزت دامايانتي زوجها حتى عادت إليه هيئته الآدمية السابقة. واستعاد مملكته بلعبة النرد. ثم عاشا في سعادة، وغدا نالا راضياً مطمئناً بالتئام شملهما، أما دامايانتي فانتعشت روحها «مثل أرضٍ عطشى يتلقّى نبتُها المطر». إن كل من يروي أو يستمع إلى هذه الحكاية سيُرزق بالأبناء والأحفاد، وينعم بالصحة والحب.

والعاشقة المخلصة، ورمز التضحية، كانت الأميرة سافيتري Savitri التي مُنحت هذا الاسم تيمُّناً بإحدى الإلهات. ومع أنها كانت مليحةً، دقيقةَ الخصر، وركاء، أشبه بتمثال من ذهب، لم يطلب يدها طالب لأنه كان ينبهر بعينيها مذ رآهما، عينان كما تويجات اللوتس المتألقة بالروعة. وهكذا فقد ترك لها أبوها «حرية الاختيار»، فاستقلّت عربة ونزلت إلى الميدان باحثة عن عريس، ووقع اختيارها على ساتياڤات Satyavat، الأمير الذي لم يتبقَّ له من الحياة سوى عام واحد. ورغم اعتراضات أبيها، أصرّت على الزواج منه. وعندما حان أجلُه، ألقى ساتياڤات رأسه في حضن سافيتري، وتحت ناظريها ظهر إله الموت ياما Yama وانتزع روح ساتياڤات التي كانت بحجم الإبهام. فلحقت به سافيتري، وكان شديد الاغتباط بإخلاصها الشديد، فعرض عليها ثلاث

أعطيات يقدمها لعائلتها باستثناء إعادة الحياة لبعلها، ولكن بفضل إصرارها أحرزت ذلك أيضاً. أفاق ساتيافات من الموت، ثم عادا معاً إلى منزل أبويه، حيث سردا القصة. وهكذا أنقذت سافيتري زوجها بفضل إخلاصها له، وأنقذت عائلته وسلالته الحاكمة برمّتها. ومُنح ساتيافات أربعمئة عام من العمر، أما سافيتري فغدت موضع تبجيل لقاء إعادته إلى الحياة، وأنجبت منه مئة ولد كان لهم أن يزيدوا شهرتها شهرة(6).

تولي الحكايات الشعبية عموماً أهمية قصوى لـ كاما: الحب، المتعة أو النشوة. وعلى الرغم مما قيل في السابق عن الدارما، فإن مقاطع أخرى في الملحمة تعتبر الكاما القاعدة الأساسية للدارما والآرثا، وهو ماهيتهما ورحمهما المُوَلِّد، وقلب الكون الصميمي. وبدون الحب يفقد الإنسان الرغبة في ملذّات الحياة الدنيا، وكذلك كل ضروب النشاط التي يلهمها الحب. ومن أجل الحب درس الحكماء تعاليم الفيدا، وقدَّموا القرابين، وكرّسوا أنفسهم للتزهد. الحب كلي القدرة، لا يعترف بالشرائع، ويطفح بالرغبات. بيد أن الحب ينبغي أن يشتمل على طرفين، وأن يفضي إلى ملذات الاتحاد الجنسي، فإذا ما أحبّ رجل امرأة لا تحبه فإن جسده يحتدم عن آخره في أتون الألم. وبالتالي لا بد أن يكون الحب متبادلاً، وأن يمارس بتعقُّل(7).

أما القصيدة الملحمية الأخرى، رامايانا، فقد اعتُبرت دائماً أحد أكثر النماذج إلهاماً للإقدام الملحمي والفضيلة، والإخلاص الزوجي. وتحكي لنا قصة راما Rama هذه عن الوريث الشرعي لعرش أيوديا Ayodhya، الذي كان قد حُرم من خلافة العرش، فاعتزل في غابة مع زوجته سيتا Sita وأخيه لمدة أربعة عشر عاماً. وعاشوا هناك حياة قاسية؛ ينامون في العراء ويكتسون لحاء الشجر، فيما يلجأ الحكماء إليهم طالبين مساعدتهم في درء الشياطين التي كانت تذيقهم مرَّ العذاب. وقاتل راما الشياطين مما جعل ملكها يختطف سيتا وينقلها إلى حصن في جزيرته في سري لانكا (سيلان). وبمساعدة القردة تمَّ تحرير سيتا، ولكن كان لا بدَّ لها من الوقوع في محنة كي تثبت عفّتها، ووفاءها لراما، وقد خرجت مظفّرة. فاستعاد الزوجان العرش ليحكما بعدئذ باستقامة.

تُعتبر مغازي الحكاية واضحة، وهي منبثقة إلى حدٍ ما عن العلاقات الشخصية لراما وسيتا. ولكن في فصل لاحق يتبدَّى أن راما لايزال يعتوره الشك في سلوك سيتا إبان أسرها، فاعتزم توفير دليل آخر على طهارة ذيلها. ومن جرّاء ذلك ردَّت سيتا على الفور: «إنني ماضية إلى بيت أمي»، فابتلعتها الأرض. وسيتا الذي يعني اسمها «الأخدود»، هي ابنة الأم ـ الأرض، تعود إلى مسقط رأسها، حينئذ نزل راما إلى النهر، كما فعل الرَّحالة في رحلة الحاج[*] The pilgrim's Progress، «كانت الأبواق كلها تدوّي من أجله على الضفة الأخرى»، حين عاد إلى الإله ڤيشنو مصحوباً بالموسيقا السماوية. وقد تكشَّفت هذه القصة البطولية، من خلال التفاني، عن فكرة التجسيد الدينية أو «التجسيد الإلهي» لڤيشنو في شخص راما. وغدا راما وسيتا نبراسين للقيم العليا الدينية والزوجية على السَّواء، وكُرِّست من أجلهما جميع الممارسات التعبدية التي اجتاحت الهند بكاملها، سواء في مجال المسرح أم الغناء، وفي المعابد وفن النحت، وجعلت صيتهما شائعاً بين عامة الناس. وتقام احتفالات سنوية تكريماً لراما وسيتا، كما وتجتذب الأعمالُ المسرحية التي تتناول قصتهما حشوداً جماهيرية، حتى أنها امتدت إلى جنوب شرق آسيا، في حين تقدّم السينما عروضاً شيّقة عن مغامراتهما وقصة غرامهما.

الزواج والاتحاد الجنسي الشعائري

يمكن تعقّب الشعائر المرتبطة بالاتحاد الجنسي من خلال العودة إلى أسفار الڤيدا، رغم أن هذه الشعائر كانت معنية أساساً بعبادة آلهة الطبيعة، أما التفاصيل فقد جاءت لاحقاً. كانت ترانيم الڤيدا بالدرجة الأولى عبارة عن ابتهالات تُرفع لهذه الآلهة، وكانت تترافق عادة مع سكب شراب السوما Soma وتقديم القربان للنار المقدسة المُشعَلة بالزبدة المذابة. وقد ورد في ترنيمة مرفوعة إلى السماء والأرض أن أغني Agni إله النار «استخلص من الثور

(*) جون بَنيان (1828 ـ 1688) واعظ وكاتب انكليزي، مؤلف «رحلة الحاج». المورد.

الغزير المني نداوته المشعّة، وهذا يعني أن أغني، عبر ناره المقدسة، جعل السماء تخصِب الأرض، وجعل الأرض تثمر[8].

هنالك طقس ڤيدي قديم يدعى «تضحية الحصان»، وكان في ذلك العهد الأضحية الأكثر أهمية. فبعد أن يكون الملك قد أطلق حصاناً يصول ويجول على هواه لمدة عام، بغية توسيع رقعة ملكيته، يقدِّم الحصان قرباناً، وتستلقي زوجة الملك بجانب الحصان في وضعية تحاكي فعل الجماع، وفي ملحمة المهابهاراتا يطلق الملك يوريشترا حصاناً بالطريقة ذاتها قبيل مراسيم تتويجه، وخلال طقس التضحية النهائي تضطجع دروبادي(*)، الزوجة المشتركة لخمسة من أمراء الباندو، بجانب الحصان.

غدت طقوس الزواج أكثر الطقوس تعقيداً فيما يتعلق بتقديم القرابين المحلية، رغم أن القليل فقط من الشعائر اللاحقة يمكن إرجاعه إلى العصر الڤيدي. إذ كان يعتبر الزواج بحد ذاته تضحية، وكان الرجل غير المتزوج يعتبر «شخصاً بلا تضحية». كان الكهنة والناس العاديون يتزوجون أيضاً، وحيثما دعت الحاجة إلى العزوبة، تكون هذه المهمة في العادة من نصيب الزهاد، ولكن ليس بالضرورة على مدى الحياة. وقد جاء في أحد نصوص البراهمية أن «من يكون بلا زوجة يكون بلا تضحية»، ويضيف «لأنه بذاته نصف رجل، ونصفه الآخر هو الزوجة»، ومع أن الرجال تواقون إلى إنجاب النسل، فقد أشيع عن الحكماء بأنهم تخطّوا رغبة كهذه[9].

في أزمنة غابرة خضعت طقوس الزواج الرسمية إلى بعض التغيّرات علماً أنها كانت تُرتَّب من قِبَل الآباء، وكان يُحتفل بها على نحو صاخب في الأيام الميمونة. وكانت العادة أن يجهِّز الأب ابنته ويكسوها بأحسن الثياب والحلي، أما العريس فكان يسبغ على العروس وأقاربها الذكور من النِعم ما تتيحه إمكانياته. وكان من شأن الأب أن يتوجّه إلى الزوجين بكلمات بسيطة:

(*) Drauapadi: إحدى شخصيات المهابهاراتا التي تزوجت خمسة أخوة. م.

«فلنتعارفا على أداء واجباتكما». أما في الملاحم فتظهر تفاصيل إضافية أخرى، حيث يقدّم الأبوان الكثير من الهدايا إلى العائلة والموتى والأتقياء الصالحين. حين زُفَّت سيتا إلى راما، أضرم أبوها النار على مذبح العائلة، وقدّم القربان وهو ينشد الأشعار التقليدية. وبعدئذ أجلسَ العروس المجلوّة، سيتا، أمام النار، قبالة راما وقال: «هذه سيتا ابنتي، زوجتك

هي لك فخذها،

وشدّ على يدها بيدك

فالزوجة المخلصة، المنعمة بالسعادة، مادامت كذلك،

ستبقى منك كظلك،

تابعتكَ إلى الأبد»[10]

وهنالك الكثير من الطقوس الاحتفالية للزيجات الحديثة المتمسكة بالتقاليد فيما يخص أولئك القادرين على تحمُّل أعبائها، وغالباً ما يمثِّل العريس والعروس الإلهَ شيڤا وزوجته بارڤاتي، مجسَّدين كزاهدين، وكإلهين عظيمين في الحين ذاته. إذ يرتدي العريس مئزراً وتاجاً موشًّى برقائق الذهب أو الفضة. وربما يرتدي أزواج آخرون ملابس أكثر بذخاً، حيث يتقدم العريس في موكب مهيب، ممتطياً صهوة جوادٍ استُعير على الأرجح خصيصاً لهذه المناسبة. أما في حفلات الزفاف الملكية الفخيمة فقد يمتطي العريس ظهر فيلٍ. وللمهتمين بالمزيد من التفاصيل المتعلقة بطقوس الزواج يمكنهم العودة إلى دراسات خاصة بهذا الشأن[11].

ترقى عادة زواج الأطفال (قبل سن البلوغ) إلى عهود مغرقة في القِدَم، رغم أن المدافعين عن هذه العادة يزعمون بأن التشريعات قد سنَّت كي تكون فقط بمنزلة توجيه حول الأعمار المناسبة. وينص المبدأ الرئيسي على أنه ينبغي أن يكون عمر الرجل ثلاثة أضعاف عمر زوجته، مثلاً، رجل في الثلاثين من عمره، ينبغي عليه أن يتزوج من عذراء في الثانية عشر من العمر، أو رجل في الرابعة

والعشرين يتزوج من فتاة في الثامنة. أما إذا كان ثمة ما يحول دون أدائه لواجباته، وبأي شكل من الأشكال، ينبغي عليه أن يتزوج قبل هذه السن، لأن الزوج يتلقّى زوجته من الآلهة وليس وفقاً لمشيئته الخاصة»[12]. أما قوانين نظام الطبقات المغلقة Caste فقد تركت الخيارات معوَّمة بخصوص اختيار الزوجة، رغم أن المسؤولية كانت تُلقى على عاتق الرجل وحميه، وليس على عاتق المرأة.

وعلى نحو مماثل حُرِّم زواج الأرملة منذ عهد بعيد، لأنها كانت ملزمة دوماً بحفظ عهد زوجها، «فالمرأة المخلصة يجب عليها أن تحافظ على عبادته كما لو أنه إله، حتى لو كان خِلواً من كريم السجايا، أو يسعى وراء الملذات في مكان آخر... والزوجة الفاضلة التي تحرص على عفتها باستمرار بعد وفاة زوجها، فالسماء مثواها؛ أما المرأة التي تدفعها رغبتها في إنجاب الأولاد إلى خرق واجباتها تجاه زوجها الفقيد، فإنها تجلب العار على نفسها، وتفقد بالتالي مكانها عند زوجها في السماء». وقد لاحظ بعض المراقبين في العصر الحديث أن «الخوف المريع من الترمُّل يضفي لوناً واتجاهاً جديدين على صلوات المرأة الهندوسية وكامل اهتماماتها»[13]. إن المتعة في ممارسة الجنس قد تكون مقيدة جداً فيما يخص المرأة.

تحدثت بعض النصوص القديمة عن تعاويذ الحب المرصودة لإنجاح الحياة العائلية، ولاستمالة أو إلزام الرجل أو المرأة لمحبة أحدهما الآخر. وتنصبُّ النقمة على النساء المنافسات، ويُرشقن بلعنات التَّعَنُّس. وكان العاشق الذي يدخل بيت الفتاة ليلاً يتمتم بتعاويذ من شأنها أن تجعل أهل البيت ينامون. وقد بُذل اهتمام خاص للمحافظة على طاقة الرجل الذكورية وتجديدها، وتوفير خصوبةٍ وحمل ناجعين لدى المرأة، وتحصينها ضد الشياطين، وأخيراً إنجاب موفّق للأولاد. وكان هنالك معالجات طبية وسحرية، ومداواة بالأعشاب والرقى[14].

وجنباً إلى جنب مع الحوارات الفلسفية الواردة في أسفار الأوبانيشاد ثمة وصف لضروب الاتصال الجنسي الشعائري. وقد ورد في أحد المقاطع الأولى المتعلّقة بالتأمل الكوني أنه في البدء لم يكن يوجد سوى «النفس» في هيئة

إنسان. وكان وحيداً وخائفاً، وفاقداً البهجة، فتطلّب رفيقاً. كان ذلك الإنسان ـ النفس بحجم يعادل رجلاً وامرأة في حالة عناق متماهية؛ فشطرت النفس ذاتها إلى نصفين، نشأ منهما زوج وزوجة، لأن «النفس الواحدة أشبه بجزء مبتور». وهكذا امتلأ هذا الفراغ بزوجة، فضاجعها الزوج بعدئذ، وأنجبا الجنس البشري... ثم اختفت في هيئة بقرة، فانقلب ثوراً وجامعها، فتولّدت الماشية. وعلى هذا المنوال خَلَق كل أنواع الحيوان وسواهما من كل شيء، أياً كان، ومن كل صنف زوجين، حتى أدناهما ـ النمل. وخَلق كلَّ ما فيه ندىً من ماء الرجل (المني)، وكذلك خلق النار من الفُوَّهة التي تشبه وجار النار أو المهبل (اليوني)[15]. وعلى نحو ما ورد أعلاه كان أفلاطون قد صوَّر في محاورة «المأدبة» كائناً حياً جوهراً فرداً انقسم إلى رجل وامرأة.

وفي الأشعار اللاحقة الواردة في السفر الأول من الأوبانيشاد وُصِف الاتصال الجنسي على أنه طقس احتفالي مصحوب بإجراءات طهارة تمهيدية ومقارنات رمزية وصلوات، كما هو الحال في طقوس ڤيدية أخرى. والمثال المطروح كان براجباتي Prajapati، إله المخلوقات، الذي خلق امرأة وبجَّل أعضاءها السفلى، فكان على أتباعه أن يحتذوه. ومن ثم ضُخِّم ذلك الحجر(*) الذي ينتأ، ولقّح المرأة؛ فتغيَّر مظهرها على نحوٍ ماجدٍ، لتستحيل إلى مكانٍ مقدّس تُقدَّم إليه الأضحيات: «حجرها مذبحٌ قرباني، وشعر عانتها العشبُ القرباني، بشرتها معصرةُ شراب السوما، وشفرا مهبلها نار الوسط»(**)، كما يتقوَّى المرء في تقديم القربان، هكذا تماماً تكون حياته الدنيا واسعة ذلك الذي يمارس الاتصال الجنسي وهو متسلّح بهذه المعرفة الطقسية. وبالتالي فإن الجماع لم يكن حدثاً عرضياً، أو جسدياً وحسب، وإنما حالة تماهي المرء بكليته في السر المقدس[16].

(*) يُقصد عضوه الذكوري. م

(**) أو نار المحور: ويعتقد أن إله النار (أغني) هو المحور الذي يربط عالم البشر بعالم الآلهة. م.

منذ ذلك الحين على الأقل، ساد الاعتقاد بأن جزاء تقديم القربان يمكن أن يُحرز عبر الاتحاد الجنسي المحقَّق طقسياً. بيد أن الذَّكر كانت له اليد العليا، لأنه إذا ما اشتهى امرأة بعد طهارتها من الطمث، جرت العادة أن يدعوها للتمدد بجانبه، فإن هي لم تستجب لرغبته (Kama)، كان يرشوها، وإن أصرَّت على رفضها، يجب عليه أن يضربها بيده أو بعصا حتى يخضعها ثم يقول: «ها أنا أنتزع مفخرتك بقوّتي ومجدي»، فتغدو بلا مجد[17].

من هنا نبع الإيمان بالقوة الخفية للمني، والتي كان لها أهميتها في طرائق اليوغا لاحقاً، فإذا قُذف المني في اليقظة أم النوم، ينبغي أن يؤخذ بين الإبهام وإحدى الأصابع ثم يُفرك بين الثديين أو بين الحاجبين مصحوباً بالقول: «إنني أسترد هذا المني، فلأُمنح القوة من جديد»، وقد ظهرت مفاهيم ذات طابع سحري حول إعادة امتصاص المني من قبل الجسد، وجاءت على شكل إرشادات يجري تطبيقها استناداً إلى توفر أو عدم توفر الرغبة في الإنجاب، وهي أشبه بطرائق منع الحمل، ولكن بوسيلة خارقة للطبيعة. فإذا رغب رجل بمضاجعة امرأة وفي نيّته «ألّا تحبل منه»، يُفترض به، بعد أن يولج عضوه الجنسي artha فيها ويلصق فمه على فمها، أن يأخذ شهيقاً وزفيراً ثم يقول: «بالقوة، بالمني، أسترد المني منك». أما إذا كان يرغب في أن تحبل منه، فيقول: «بالقوة، بالمني، أودع فيك المني». وإذا كان لزوجةِ الرجلِ عشيقاً، فمن شأن الرجل أن يرتّب تعويذه ضده، وتقضي بأن يصُفَّ رتلاً من السهام بنظام معكوس، ويقدّم قرباناً بطريقة معكوسة أيضاً وهو يردد: «لقد أرقتَ شراباً في ناري، وها أنذا أسلبك أنفاسك شهيقاً وزفيراً»، مشهِّراً بغريمه.

إذا كان الرجل راغباً بوليد، كان الحمل يتحقق بإذن الآلهة. حيث يُحضَّر الشراب للآلهة، وبعد أن يأكل الرجل ويغتسل، يرش المرأة بالماء ثلاث مرات قائلاً: «أنا هذا الرجل، أنت تلك المرأة... أنا السماء، أنتِ الأرض». ثم يباعد ما بين فخذيها مردداً: «أيتها السماء، أيتها الأرض، تباعدا». ثم يولج عضوه الجنسي فيها، ضامّاً فمه إلى فمها، ممسّداً شعرها ثلاث مرات قائلاً:

«فليُهيِّء ڤيشنو الرحم... إيه براجباتي، دعه يتدفّق في الداخل»، إلى أن ينتهي إلى: كما تكتنف الأرضُ بذرة النار،

وكما السماء حبلى بالعاصفة،

والريحُ بذرة الجهات،

هكذا أودع بذرتي (نطفتي) فيك[18].

لم يكن الاتصال الجنسي مجرّد فعل جسدي وحسب، فقد اكتسب قيمة الطقس الديني، وعبّد الطريق بالتالي لتطورات لاحقة عُرفت باسم تانترا Tantra. وعلى نحو متماثل يمكن تفسير الطقس بطريقة جنسية، حتى أن التفاصيل من الممكن تأويلها بهذه الطريقة الرمزية. فمثلاً أثناء إلقاء الشعر، إذا ما فصل الكاهن البيتين الأوّلين من المقطع ودمج البيتين الأخيرين معاً(*)، كان يجري تفسير ذلك في أن المرأة تباعد ما بين فخذيها إبّان المضاجعة والرجل يضمهما. أما إلقاء النص بشكل غير مسموع فكان يُقارن بقذف المني. وحين يدير الكاهن ظهره، ويجثو على ركبتيه، كان يجري تفسير ذلك مجازياً على أنه التسافد بين الحيوانات[19].

في السفر الثاني من أسفار الأوبيشاد الكلاسيكية، كان الاتحاد الجنسي يتم تداوله وتعظيم أهميته بوصفة ترنيمة ترتبط بالطقوس الدينية (Saman)، وبصورة خاصة الڤاما دڤيا The vama devia، وهو اللحن الذي كان يترافق مع اعتصار النبات وتحضيره لشراب منتصف النهار.

وضِعت الخطوات الست المرافقة لعملية الجماع بحيث تكون موافقة للمراحل التي يفترضها الطقس: الدعوة، الطلب، الاضطجاع مع المرأة، التمدُّد فوقها، بلوغ الذروة الجنسية (رعشة الجماع)، انتهاء العملية الجنسية، وقد ورد في الختام: «بالتالي كل من يلمّ بهذه السامان ڤامادڤيا، كما نُسجت حول الجماع، لا بدّ له من بلوغ الجماع، ولا بدَّ من أن يتوالد بعد كل جماع، ويبلغ

(*) تتألف هذه الأناشيد عادة من مقطوعات قوام الواحدة منها أربعة أبيات.. قصة الحضارة، الكتاب الثاني، الهند وجيرانها.

من طول العمر أقصاه، فيعمَّر طويلاً، ويكون له شأن في ذريته وأنعامه، ويغدو عظيم الشهرة. ولا يجوز للمرء أن تعافَ نفسه أية امرأة، فهذا شرعه الطبيعي»[20].

قيل إن سن البلوغ قد حددته الملحمة بالمرحلة التي «يصبح فيها المرء ناضجاً للحب»، وأنه ينبغي على المتزوجين أن يمارسوا واجباتهم الجنسية. أما مصطلح Ritu الذي يعني الموسم أو الأوان، فكان يُستخدم للتعبير عن فترة الحيض، وكذلك عن الأيام اللاحقة المُبشِّرة بالإنجاب. وكان بمنزلة إثم عظيم ألّا يزور الزوج زوجته في الفترة اللاحقة رغم أنه محظَّر عليه مقاربتها جنسياً خلال فترة الحيض، اللهم إلّا ماسمحت به نصوص التانترا من طرائق شجَّعها عليها ما كان يحدث من خرقٍ للمحرَّمات. وينبغي على الرجال العقلاء أن يترددوا على زوجاتهم خلال الأوان الثاني (الإنجاب)، وأن يتجنّبوا النساء الغريبات. وذُكر أن هذا القانون يرقى إلى عهد قديم، وكان مقدّساً لدى الطبقات الأربع جميعها، وكان نافذاً خلال العصر الذهبي.

لم تكن العلاقات الجنسية طليقة. كان ينبغي أن تُمارَس سرّاً لا جهاراً، وتقتصر على الاتصال المهبلي، لأن الممارسة الفموية كانت محرَّمة. كما كان محظّر أيضاً الجماع مع نساء غريبات، وخاصة اللواتي يتحدّرن من الطبقة الدنيا، ومرة أخرى إلّا ما أجازته نصوص التانترا، وقد أدانت الملاحم، وكذلك شرائع مانو Laws of Manu ، الاتصال بزوجة المعلّم، معتبرة ذلك عملاً شائناً من نوع خاص، رغم أن التحريمات قد وردت مفصَّلة فيما بعد، متضمنة: دهنها بالزيت، أو مساعدتها في الاستحمام، أو تدليك أطرافها بالصابون، أو تسريح شعرها؛ لأن المخاطر الناجمة عن ملامسات كهذه لا بدّ أن تكون جسيمة على التلاميذ الشباب. وقد اشتمل التحريم على الإغواء أيضاً، وهذه الشرائع نفسها حرَّمت الاعتساف الجنسي وعاقبت عليه بقطع إصبعين، وكذلك السحاق Lesbiaism تحت طائلة ضرب الفتاة وتغريمها؛ أما المرأة التي تتسبَّب بتدنيس فتاة فيُحلق شعرها عن آخره أو تُقطع لها إصبعان، وتُلزم باجتياز

المدينة من أدناها إلى أقصاها راكبة على ظهر حمار. أما ممارسة اللُّواط فيبدو أنها تخضع لعقوبة أدنى، «إذا ما ارتكب رجل ـ مولود مرتين(*) ـ إثماً شاذاً مع ذَكَرٍ، يُلزَم بالاستحمام وهو مرتدٍ ثيابه»، وفقاً لأحد البنود القانونية، ويقضي بند آخر بتجريد الرجل من طبقته. ولقد اعتبر بعض كتّاب القرون الوسطى «اللُّواط» سلوكاً مألوفاً تماماً لا شاذاً.

أما سفاح القربى فقصاصه مشدَّد، ويندرج في إطار السفاح الاتصال الجنسي مع الأخوات من أم واحدة، ومع زوجات الأصدقاء أو بالأبناء، وهو لا يقلُّ فظاعة عن انتهاك سرير الزوجية لمرشد روحي Guru، الذي بسببه تغيَّرت العقوبات. وقد يندرج في سياق القصاص تمديد الجاني على سرير من الحديد المحمَّى، أو وضعِه في حالة عناق مع تمثالٍ متوهجٍ باللظى لامرأة، أو بتر قضيبه وخصيتيه وإلزامه بحملهما والسير بهما ويداه مقيدتان إلى أن يخرّ المجرم صريعاً، ومن الممكن أن يعاقب نفسه تكفيراً عن إثمه عبر الاعتزال في غابة لمدة عام، أو أن يعيش على عصيدة الشعير لثلاثة أشهر أداءً لكفّارته[21].

التقشُّف والعفّة

رغم وجود مواقف عامة من الجنس متَّسمة بالإيجابية، فقد اعتبر بعضهم أن كل ما يتعلّق بالشؤون الدنيوية يبعث على الاشمئزاز، ومن هنا ظهرت فكرة اعتزال الحياة الطبيعية من قبل الزهّاد الهندوس والرهبان الجانيتين (اليانيين) Jain والبوذيين. ويُحكى في أحد أسفار الأوبانيشاد عن الملك (بريهاد راذا) الذي غدا زاهداً في الدنيا بعد أن نصَّب ابنه ملكاً على العرش، ثم اعتزل في غابة، وظل واقفاً ويداه مرفوعتان، وبصره شاخص نحو الشمس، طيلة ألف يوم. وقد قال لأحد زوّاره: «ماذا يجدي إشباع الرغبات في هذا الجسد الوهمي النتن، المتشكّل من العظم والجلد والعضلات والنخاع واللحم والمني والدم والمخاط

(*) تطلق هذه التسمية على كل من أصبح عضواً في الجماعة الدينية، وتمَّ ترسيمه حسب الطقوس، ويُقصد أن الرجل قد مُنح ميلاداً جديداً في الحياة الدينية. م.

والدمع وارتشاح الأنف والغائط والبول وريح البدن والصفراء والبلغم؟»[22].

تطور مذهب الثنائية dualism، حسبما وُجد في أديان أخرى، بين مبدأي الروح والجسد. ولم يكن يتضمن ما يوحي بأن للاتصال الجنسي مقاصد صوفية، وأن هذا الاتصال يساعد حقاً في إحراز الخلاص، بل على العكس كان يعتبر أن شرط الانعتاق يكمن في كبت الرغبة الجنسية وكل الرغبات الأخرى. وبشكل مماثل ورد في الملاحم أن ملايين الحكماء عاشوا طاهري الذيل تماماً تكفيراً عن آثامهم كلّها، فضلاً عن أن تزهُّدهم الحقيقي، بِوصفه ينمّ عن قوة فعّالة، أصبح يشكّل خطراً على استقرار الكون ومصدر تهديدٍ للآلهة نفسها. وكانت الحوريات يُرسلن من أجل إغواء الزهاد، حيث يفقد هؤلاء تقواهم حالَ رؤيتهم للنساء الجميلات.

حين اكتشف الإله (إندرا) Indra الخطر الذي تنطوي عليه الفعال التقشفية الجبارة التي يمارسها العرّاف فيشامترا، أرسل الحورية ميناكا كي تلهيه عن تزهده. حيّت الفتاة الزاهد وبدأت تتراقص أمامه بخصرها الجميل وردفيها الفاتنين. وعبثت الريح بثوبها فأبرزت عريها، إذ ذاك بدأ الزاهد يتحرّق رغبة لمضاجعتها، فمارس معها الحب لزمنٍ طال كثيراً، لكنهما حسباه يوماً واحداً فقط. وأثمر جماعهما وأنجبت ميناكا ابنة للراهب سُميّت شاكونتالا، وأصبحت بطلة قصة لاحقة.

وهنالك العديد من الحكايات عن زهّادٍ سرت بهم رعشة التهيُّج الجنسي لاإرادياً لمجرّد رؤيتهم امرأة فاتنة. كما أرسل الإله إندرا حورية إلهية أخرى لاختبار مدى أصالة تقشّف شارادفات، وحين وقع بصره عليها داخل الغابة وهي مرتدية ثوباً واحداً فقط، وتمتّع بجمالٍ لا نظير له في الدنيا، تفرّس فيها الحكيم وراح يرتعش، وهو متسمّر في مكانه، إلّا أن نوبة تشنّج مباغتة استولت عليه فجعلته يقذف ماءه دون علم منه، فتقطّر السائل داخل سويقة قصب انفلقت إلى نصفين وتخلّق منها توأمان.

أما المحارب أرجونا فلم يكن من السهل إغواؤه على أية حال. إذ أن الإله

إندرا أرسل الحورية أورڤاشي لإغوائه، وقد وُصفت مفاتنها على نحو مترف: كان وجهها القمر، وشعرها مكلّل بزهر الياسمين، ونهداها يتراقصان بحلمتيهما اللمياوين، وصدغها، كصدغ إله الحب، يعلو كجبل، وكاحلاها تتدلّى منهما الخلاخيل، وأصابع قدميها طويلة وردية. لكن أرجونا لم يحرّك ساكناً؛ انحنى أمامها كما خادم، وشنّف أذنيه مصغياً لحديثها، وأبدى لها احترامه كما لو كانت أمه مما جعلها تقذفه بلعنة العُنَّة. مع أن (أرجونا) كان لديه من الزوجات والخليلات الكثير، إلا أن نجاحه في مقاومة الإغواء لاقى استحسان إندرا، أبيه، وهذا ما أظهرت الحكاية أهميته؛ ورغم ذلك فقد لازمته لعنة العُنَّة لمدة عام. وفي الفصل الأخير من ملحمة رامايانا تُشاهَد الحورية أورڤاشي ذاتها تلهو في المياه قبالة الإله ڤارونا Varuna الذي راح يتحرّق رغبة فيها. إلّا أنها زعمت بأنها مخطوبة، فاضطر أن يقذف بذرته في ورقة النابنط[23](*).

غالباً ما سَمَتْ الملاحم بالعفَّة إلى منزلة الفضيلة الأسمى. فلا يجوز للرجال أن يعطوا أذناً للحديث الفاسق الذي يتناول النساء، ولا أن ينظروا إليهن عاريات. وإذا ما أضلّته شهوة في غير محلّها ينبغي عليه أن يغطس في الماء البارد كي يتهدَّأ. وقد أُوليت عفة المرأة أهمية أكبر أيضاً. كانت دروبادي المتعددة الأزواج «تستعيد عذريتها كل يوم» إثر مضاجعاتها الخمس المكتملة والمتعاقبة، بحيث أن كلًّا من الأخوة الخمسة كان يأتيها فيجدها عذراء. وكان يجري التركيز على ضرورة الاحتشام، فقد حظَّر على المرء أن ينام أو يستحم عارياً، ماخلا استثناءات وردت في قصص كريشنا، وعلى الرغم من الروعة التي يكتنفها الأدب الهندي في تصويره للجمال الحسي، يبدو من الغرابة ألّا يظهر العُري إلا قليلاً في التصوير الزيتي الهندي، وفي الكثير من التماثيل التي تبرز الجسد الأنثوي المكوَّر، وبالطول الكامل، لكنها توحي مع ذلك بأن الجسد متّشح بثوب رقيق مثبَّت بإحكام عند الرسغين والكاحلين.

(*) Pitcher: السَّلوى، وهو نبات تنتهي أوراقه بحقاقٍ صغار فيها سائل سكّري إذا وردته الحشرة أطبقت عليها الأوراق وامتصتها. المورد.

قَدَرُ المرأة

في العهد البطولي تم تصوير النساء في الملاحم على أنهن تواقات إلى الاتحاد الجنسي بشبقٍ يضارع شبق الرجال، حتى أنهن قد يكنّ أكثر شبقاً في بعض الأحيان. فالحكيم أغاستيا Agastia ابتدع امرأة فاتنة الجمال، فشكّلها من أعضاء مخلوقات متنوعة، وجعلها تُولد عند ملك يتوق إلى طفل. وحين بلغت سن الزواج عقد عليها، كانت الزوجة، لوبامودرا، ذات عينين نجلاوين، وفخذينٍ كأقراط موز الجنة. اطَّرحت ثيابها الناعمة وارتدت أسمالاً بالية استجابة لطلب زوجها. وحين اجتازت فترة الحيض واغتسلت، بدت آية في الجمال، فدعاها أغاستيا للجماع. غير أن لوبامودرا طلبت من الحكيم، ويداها مضمومتان، ووجهها متورّد خفراً، طلبت بكلمات تفيض هوىً ألّا يتخذها زوجة من أجل الإنجاب وحسب، بل أن يطارحها المتعة، الأمر الذي يفترض به أن يضاجعها على سرير وثير، ويزيّنها بالحليّ وأن يضاهيها زينةً وبهرجة. وهذا ما دفع الزوج للسعي وراء الثروة وتوفير الجواهر والحلي إلى أن حقّق كل متطلبات زوجته. حينئذٍ قالت له: «الآن حققت لي كل رغباتي». وبكل إخلاص ضاجع الناسك زوجته التي كانت مثيلاً له بالفضيلة»[24].

جاء في الدارما أن نبل المرأة وكرامتها يتّسمان بالنقاء والقداسة، إذ كانت المرأة تجلّ زوجها أكثر من إجلالها للزهاد، وكانت قادرة على اجتراح المعجزات، وتحظى بالتكريم في الحياة الآخرة. غير أن متطلبات الرجل كانت ملحاحة، بينما هي ينبغي عليها أن تسير وفق قانونه وحده. وحين تقترن النساء بأزواج غليظي القلوب، كن يجدن صعوبة في تحمّل ذلك. صحيح أنهن كنّ موضع تبجيل، إلا أنهن كن يتعرّضن أحياناً للاتهام بالكذب والمخاتلة والدنس، وبأنهن مصدر الشر. كن يُعاملن كالعبيد، بينما كانت الفتيات يُقدَّمن كهباتٍ. وكان يضحّى بالبنات إنقاذاً لشرف الأب، وتُعرَض البنات والزوجات على الضيوف كي يشبعوا رغباتهم بهن.

ورد في تشريع (مانو) أنه «ينبغي على النساء أن يقين مدى الحياة في تبعية

الذكور من عائلاتهن، وإذا ما دخلن سن المتع الحسية (سن النضج) ينبغي أن يصبحن في عهدة رجل». ففي سن الطفولة تكون المرأة في حماية أبيها، وفي سن الشباب في حماية زوجها، وفي الشيخوخة تكون تحت إشراف الأبناء، فهي إذن «ليست أهلاً للاستقلال قط». ينبغي تحصين النساء من الميول الآثمة، وتشغيلهن في الأعمال المنزلية والتجارية، والواجبات الدينية. وينبغي أن يُمنعن من تعاطي الكحول، أو النوم في غير وقته، أو القيام بنزهات خارجية، أو زيارة بيوت الآخرين. إن الكثير من الأخطاء تُعزى إليهن في نصوصٍ ألَّفها الرجال دون ريب[25].

ولمَّا كانت الأم هي محور العائلة، فإن أمل المرأة الوحيد هو إنجاب الأطفال. وكانت بمنزلة المعلّم المادي والروحي لأولادها، وقد ذكرت نصوص عديدة أن «الأم هي المرشد الأعلى»، وأنها «تربو على عشرة رجال» وأنه «ليس ثمة دارما أسمى من الحقيقة، ولا مرشد روحي يضاهي الأم». وقد كان الحب الأمومي موضوعاً ملحمياً دائماً، فالأولاد يبجّلون أمهم ويشغفون بها أيضاً. ويتجلّى ذلك حين يغادر الأولاد البيت، أو حين يتوفّى الزوج. لقد كان قدر المرأة موجعاً، كما أنه قيل «إن الترمُّل مدعاة للأسى الأكبر».

غالباً ما قيل إن النساء قد أعلنَّ عن رغبتهن في الالتحاق بأزواجهن بعد الموت، إلا أن عادة حرق الأرامل التي سادت في أزمنة لاحقة، وفي مناطق محدَّدة، كان لها، كما يبدو، أساسٌ ضعيف في الأزمنة الغابرة. وثمة مثال واحد موثَّق ورد في الروايات المتعددة للمهابهاراتا، ومثال آخر في السفر السابع الملحق بملحمة الرامايانا، وهي ساتي Sati أو Suttee «المخلصة»، أو حرق الأرامل(*) التي عرفت في الهند ما قبل العهد المسيحي، وقد تمَّ التعقيب عليها من قبل الإغريق على أية حال. وتطورت في القرون الأولى من عصرنا الحديث ثم امتدت إلى جنوب الهند مع حلول القرن التاسع. حيث يُقال إن الآلاف من زوجات الملوك تم حرقهن أحياناً لحظة إحراق جثة الملك. وقد شُجب هذا

(*) Suttee تعني بالسنسكريتية: موت الزوجة لموت زوجها. م.

التقليد من قبل المشرّعين والشعراء الهندوس، غير أن إلغاءه نهائياً كان عليه أن ينتظر حتى العصر الراهن، أي في ظل الإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر، ومع ذلك سُجّلت بعض الحوادث العرضية في هذا القرن بالذات.

ما من شكٍ أنه رغم وجود بعض الاعتراضات، فإن عدداً لا يُحصى من الأرامل كنَّ قد أُحرقهن مع أزواجهن في طقوس جنائزية، أحياناً طوعاً وأحياناً كرهاً. وثمة الكثير من التقارير قدّمها مراقبون خارجيون، وتغطي المرحلة الممتدة من القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين. كما ويمكن الحصول على المزيد من التفاصيل من أبحاث خاصة ووثائق قانونية[26].

أما الحجاب وعزل النساء فكانا تقليدين إسلاميين على وجه الخصوص، وسيكون لهما أهميتهما في ظل ذلك الدين. بيد أن الفتوحات الإسلامية للهند، والتي بدأت منذ القرن الحادي عشر، فرضت قيوداً مشدّدة على النساء اللواتي كن لايزلن يمارسن حياتهن وفقاً لشرائع البرهمية وأعرافها. ففي المجتمع الهندي كان يحق للرجل، سواء أكان أباً أم زوجاً، التصرّف الكامل بالمرأة، ابنة كانت أم زوجة. وحتى وقتنا الراهن يحظى الكثير من الرجال، وخاصة من أبناء طبقة البراهمة، بالخدمة الكاملة من قبل زوجاتهم. وبحسب الأعراف ينبغي على زوجة البرهمن أن تستيقظ قبله، فتغتسل وتنظّف البيت، وعندئذ فقط يحق لها أن توقظ زوجها، شريطة أن تبقى على مسافةٍ ما من سريره (لأنه من عادتهم أن يناموا في أسرَّةٍ منفصلة، وحجرات منفصلة بعد ولادة الطفل الأول)، ثم تنحني ويداها مضمومتان، وتقول: «سلاماً أيها الإله كريشنا». وإن كان لديها بعض الوقت، قد تتبارك بإبهام قدمه اليمنى، ماسةً إياها بقطعة من خشب الصندل، ثم تقدّم البخور وتشعله كما لإله.

على أية حال، حدث قبل ستين عاماً أن كانت سيدة من طبقة البراهمة تدقق في مدوّنات السيدة ستيفنسون حول الواجبات، فعلّقت ضاحكة: «ما من شك في أن هذه هي الطريقة التي ينبغي علينا أن نبدي فيها التبجيل لأزواجنا، لكننا لم نعد نملك الوقت في هذه الأيام... فكل ما أستطيع فعله حالياً أنني

أقف عند طرف سريره كل صباح وأقول: «أوثا ـ أوثا Utha - Utha»(*) (فلتنهض!)، وبعدئذ أجدني غارقة في عمل المطبخ، ولن يكون لدي من الوقت ما أبدّده في التمسُّح به»! إذا كان الحال كذلك في عام 1920 ، فمن المرجّح أن هذا الموقف أصبح أكثر شيوعاً في الوقت الحالي وذلك من جرّاء الدور العظيم الذي لعبته النساء في المجتمع الهندي، وفي الحركات السياسية أيضاً. مع ذلك، ربما لاتزال النساء الطاعنات في السن، والقرويات أيضاً، ملتزمات ببعض العادات الأمينة للتقاليد. وفي ظلم الانبعاث القومي الراهن، يحدث أحياناً إعادة إحياء القديم الرديء والقديم الجيد من هذه التقاليد.

البغاء

حسبما ورد في الملاحم والنصوص الهندية الكلاسيكية اعتُبرت العلاقات الجنسية، خارج نطاق الرباط الزوجي، فيما يخص الرجال طبعاً، أمراً مقبولاً بوصفه جزءاً لا يتجزأ من الحياة. فقد كان هنالك محظيات من منزلة رفيعة، مكرّسات لإشباع الحاجات الشهوانية لدى الذكر، وكان يفترض بهن أن يكنَّ ضليعات بالأربعة والستين فناً وعلماً. وكانت هذه الفتيات بمنزلة الهيتيري (hetarae)(**) عند اليونان، وفتيات الغيشا geishas(***) عند اليابانيين. وكنّ على ثقافة عالية، وكان ينبغي أن يُدفع لمعلميهن من قبل الدولة. ومن المهام التي كن يضطلعن بها: الرقص، الغناء، التمثيل، الخياطة، تنسيق الأزهار، وسواها من الفنون المنزلية الأخرى. كما كان يجري تمييز المحظيات المثقفات ganikas عن البغايا غير الشرعيات من الطبقة الدنيا Kalutas

ظهرت أوجه التضاد في الحياة الهندية التقليدية من خلال المقابلة بين الزاهد والمحظية، أو بين بطلات القصص المتزوجات والبغايا. ففي ملحمة

(*) وردت في السنسكريتية وتعني: إنهض، إنهض. م.
(**) وتعني المحظية في اللغة الإغريقية. م.
(***) وتعني المومسات المحترفات. م.

المهابهاراتا كان الملك الصالح يوديشترا يحظى ليس فقط بعددٍ من الزوجات، وبحصته في دوربادي الفاتنة، بل كان يبعث تحياته إلى «النساء المتأنقات، المتبهرجات، المعطرات، المبهجات، اللواتي ينعمن بالسعادة في بيوت البغاء». وحين قام راما بحملته الواسعة بحثاً عن زوجته المخلصة سيتا، اصطحب مع جيشه عدداً من «بائعات الهوى»؛ ولم يكنَّ مجرد معسكر للبغايا، وإنما كان لهن دور بارز في الحياة وفي شؤون المدن. أما عندما نُصِّب راما ملكاً، أصدر كاهنه أوامر تقضي بأن يتخذ كلُّ شيء طابعاً احتفالياً بهيجاً، وأن تجهَّز المعابد، وأن تحظَّر بنات المتعة داخل القصر الملكي.

من جهة أخرى تَبرزُ التوترات في الحياة وفي التعاليم الهندية من خلال ما ذُكر في الملاحم أيضاً عن حملات مضادة للبغاء العادي. إذ كان يلزم فرض رقابة صارمة على المباغي وصالات الشراب، لأنها تسبّب الأذى للمملكة؛ وكان يتردد أن المومس أسوأ مئة مرة من المسلخ الذي يفتك بالكائنات الحية؛ حتى أن اللصوص والمجرمين يندرجون في عداد البغايا. كما وشدّد كتاب مذهب الشهوة Kama Sutra على أنه ينبغي إلحاق المومسات بجهاز الشرطة، أو أن يكن في عهدة رجال أقوياء من أجل حمايتهن من تنمُّر الآخرين.

أما الديڤا ـ داسيز deva - dasis أي «خادمات الله» فكنَّ محظيات من منزلة رفيعة، مكرسات لخدمة الآلهة في المعابد الهندوسية. وهذه الممارسة ترقى إلى عهود غابرة، وقد ظلت مستمرة حتى نهاية القرن الماضي. وكانت الفتيات في طفولتهن يقدَّمن كهبات للإله، ربما أملاً في إنجاب طفل، أو أية منفعةٍ أخرى. وذُكر أنهن كن يُزَوّجن إلى أحد الآلهة، كريشنا أو شيڤا غالباً، وحسب الطقوس كانت بكارتهن تُفضّ في حفل زفاف رسمي من قبل كاهن أو عرَّاب ثري، أو أن يُجلسن على حجر قضيبي. وكانت الفتيات يتلقين دروساً في فنون الإثارة الشهوانية كيما يصبحن مؤهلات لخدمة زوار المعبد لقاء أجر، لأن واجباتهن كانت تشتمل على الرقص والغناء؛ وغالباً ما كان يُنظر إلى الرقص بوصفه عملاً لاأخلاقياً، إلى أن أسهمت الإصلاحات الحديثة في نزع هذه الصفة عنه.

لقد ساءت سمعة البغاء المقدس في المعابد الهندية، وبات الحجاج يتشكّون أحياناً بسبب إغواءات فتيات المعبد التي كانت تلهيهم عن العبادة. حتى أن المعابد الكبيرة، وخاصة في جنوب الهند كانت تبدو في نظر المراقبين الخارجيين أشبه بالمواخير، إذ أنها كانت تعجّ بمئات البغايا اللواتي يسددن الضرائب للسلطات المحلية. وربما من خلال هذا المثال عن فرض الضرائب جرى استثمار البغاء العادي (غير الديني) كمصدر للدخل الخاص والعام.

أما إلغاء البغاء في المعابد فقد تقرّر على يد البريطانيين وبدعم من الإصلاحيين الهندوس، وترافق ذلك مع حظر حرق الأرامل. وفي زمن أسبق، أي تحت الحكم الإسلامي، اختصّت المومسات المحترفات ـ اللواتي لم يكنّ في عهدة المعابد الهندوسية ـ بالرقصات المثيرة للشهوات، وأصبحن مشهورات على نطاق واسع. ويطلق عليهن في الهند وجنوب آسيا اسم «فتيات الرقص المحترفات nautch girls»، واشتقت هذه التسمية من كلمة nach الهندوسية، وتعني «يرقص». وفي هذا القرن لاتزال تُبذل مساعٍ حثيثة لتحرير الرقص من إيحاءاته الشبقية اللصيقة، وإعادة إحياء أنماط الرقص التقليدية من قبل الراقصين والراقصات على السواء. كما أن معابد كثيرة حافظت على الرقصات التقليدية التي غالباً ما ينفّذها الرجال فقط، إضافة إلى أولاد تُعهد إليهم الأدوار الأنثوية، لكن الجميع يرتدون أقنعة ترمز إلى الآلهة أو من ينوب عنها.

مراجع تعليمية حول الجنس

قيل إن أول من تحدَّث عن فنون الاتصال الجنسي كان براجاباتي إله جميع المخلوقات، ومن ثم تمَّ تصنيف هذه الفنون في بحث مُطوَّل استقى مثاله من قصة الغرام بين شيڤا وبارفاتي الإلهيين. ويُفترض أن هذا البحث الأسطوري المنشأ قد غدا مرجعاً لعدد كبير من الأعمال الأدبية التي تناولت موضوع الإثارة الجنسية، والتي لم يتبقَّ منها سوى شذرات تبحث في فن المغازلة والاتحاد الجنسي والحب الزوجي والبغاء، والمانترا Mantras(*) والتعاويذ والمقوّيات

(*) وهي الأقوال المقدّسة في الهندوسية والبوذية ذات الفاعلية الخفيّة. م.

والعقاقير المنشطة للشهوة الجنسية، إضافة إلى تطبيقات خاصة. فيما بعد غدت العلاقات الجنسية بين كريشنا وخليلته إذاً موضوعاً محورياً للعديد من المؤلّفات، واللوحات الفنّية التي صورت الشبق الجنسي.

إن الكتاب الهندي الأشهر بلا منازع في تصوير الشهوانية، والذي اقتبس منه الكثير من الكتّاب اللاحقين، كان الكاماسوترا Kama Sutra أي «مذهب الشهوة أو الحب»، الذي نُسب إلى المعلّم البرهمي ڤاتسيايانا Vatsyayana، في القرن الثالث أو الرابع للميلاد، والذي ظلَّ طيلة حياته عازباً، زاهداً، عملاً بالتقاليد؛ رغم أنه من الصعب التصديق أنه كان بريئاً من بعض تجربة شخصية. يُعدُّ الكتاب مأثرة إبداعية مع أنه مجرّد نسخة موجزة عن مواد مرتبطة بتقاليد أكثر قِدماً، وقد استخدم كنموذج صالح لتربية الأجيال. فهو كتاب يتوجه إلى رب الأسرة أساساً، يشتمل على إرشادات حول تقنيات وفنون الاتصال الجنسي، ولكن دون أية أفكارٍ باطنية من قبيل الاتحاد المباشر بالله عن طريق الجنس؛ وهي الفكرة التي ربما سادت لزمن طويل في الأعراف القديمة، وعادت للظهور في التانترا لاحقاً.

استُهِلَّ كتاب الكاماسوترا بتمجيد دارما وآرثا وكاما، المـُثُل العليا التي وردت في الوصايا التي أقرّها إله المخلوقات في النصوص القديمة. أمّا الآرثا والكاما، أي الكسب والحب فينبغي تعليمهما لمن هم في سن الشباب، وتعليم الدارما في سن الشيخوخة بغية إحراز الخلاص. والكاما هو إمتاع الحواس الخمس بكل ما يلائمها مستعينة بالعقل والروح. ورداً على الاعتراض القائل إن الاتصال الجنسي لا يحتاج إلى أية دراسات بحثية، فالحيوانات نفسها تمارسه، نجيب أن الفعل الجنسي يتوقف على الرجال والنساء معاً، ويتطلب تطبيق طرائق ملائمة، وتختلف مع اختلاف الأوقات وتقتضي إعمال الفكر، وهذا ما يميّز الإنسان عن الحيوان.

يؤكّد كتاب الكاماسوترا أيضاً على أنه ينبغي على النساء أن يتعلمن فنون الغرام كما الرجال تماماً. أما تعلُّم الفتيات فيُعدُّ جزءاً من تحضيرات الزواج،

ويكون بموافقة أزواجهن فيما بعد. ويسرد الكتاب الأربعة والستين فنّاً، يتعلّق معظمها بالتدبير المنزلي، بما في ذلك طبعاً القراءة والشعر وإتقان اللغة الرمزية الـمُلَغزة. أما فيما يخص الرجال فيقرّ بضرورة أن يكونوا مَهَرَةً في أنواع الرياضة واستخدام السلاح والمراهنة. ويمكن للمحظيات أن يكنّ بارعات في هذه الفنون، كما أنه يمكن للنساء المتزوجات أن يزدن من جاذبيتهن عبر الإلمام بهذه الطرائق، حتى إذا ما انفصلن عن أزواجهن، يجدن وسيلة يعتمدن عليها. وثمة تعاليم أخرى تبحث في التدبير المنزلي والحياة اليومية للناس، وكذلك نوعية النساء والأصدقاء الذين تنبغي مصادقتهم.

يُعنى الجزء الرئيسي من الكاماسوترا بتقديم أمثلة عملية للاتصال الجنسي، مُميِّزاً بين الشريك المناسب وغير المناسب. ويتطرّق أيضاً إلى أنواع العناق، والتقبيل بمختلف أشكاله، والهصر والخمش والعضّ. وإذا كانت النساء من مناطق مغايرة فينبغي على الرجال أن يراعوا تقاليدهن لدى الشروع في ممارسة الحب. وسواء كانت وضعية الجماع «جانبية» (جنباً إلى جنب) أم «من فوق» أم «من تحت»، يجب على الشريكين أن يتضاجعان بالطريقة الأكثر امتاعاً. ويورد الكتاب تفاصيل عن وضعيات متعددة الأنماط، بعضها يتميز بمهارة بهلوانية تتطلب الكثير من التدريب. وتتجلى هيمنة الذكر حين «ينعم الرجل بمضاجعة امرأتين في وقت واحد» أو عدة نساء معاً. ويمكن للمرأة أن تتخذ دور الرجل حين يكون متعباً أو من قبيل التغيير. غير أن الممارسة الفموية oralsex مقتصرة على الخصيان المتنكّرين بهيئة ذكور أو إناث. وذكر فاتسيايانا أنه لا يجوز مطلقاً للمعلّم البرهمي أو «للرجل ذي السمعة الحسنة» أن يمارسا ذلك، لأنه لا داعي لممارسةٍ كهذه إلا بشكل استثنائي، رغم جوازها في النصوص.

هنالك أجزاء أخرى من الكاماسوترا تبحث في موضوع المغازلة، من خلال زرع الثقة في الفتاة الساعية للظفر بقلب رجل، وعلى يد فتاة أخرى، وكذلك موضوع الخطبة وأنماط الزواج. بعدئذ يتناول الكتاب سلوك المرأة الصالحة، وليس سلوك الرجل، وما ينبغي عليها فعله خلال غياب زوجها. كما ينبغي على حريم الملك أن يسهرن على تلبية حاجاته. أما الرجل المتعدد

الزوجات فينبغي عليه أن يُنصفهن جميعاً. وعلى النساء أن يرفضن العروض التي يقدّمها رجال آخرون غير أزواجهن، رغم أن الرجال يسعون للظفر بنساء أخريات. وهنالك مقطع إضافي يناقش موضوع المومسات وسعيهن لاجتذاب الرجال وكسب المال، والطريقة التي بواسطتها يتملّصن من عاشق مضجر. وثمة ملاحظات ختامية تتطرّق إلى تزيين الجسد، وأبعاد الأعضاء الجنسية، وشراب المحبة (عقار أو تعاويذ)، والجرعات السحرية. لقد أُلّف الكاماسوترا خدمة لبني البشر، على يد مؤلفٍ كان منهمكاً بدراسة علوم الدين ومستغرقاً في تأمل الله.

إن الأثر الذي تركه كتاب الكاماسوترا والأعمال المماثلة الأخرى على فنون النحت والرسم وصنوف الأدب كان له أهمية اجتماعية بالغة قبل أن تقوم البيوريتانية(*) في العصر الحديث بإخفاء كل ما يتعلّق بشؤون الجنس عن الرأي العام والمناقشة. وقد استمر الكاماسوترا حوالي ألف عام نموذجاً أدبياً معيارياً حول الجنس، سواء فيما يتعلق بالجماع أو بالعلاقات الأخرى بين الرجال والنساء. ففي المجتمع الهندي القديم كان بوسع الجنسين الاختلاط بحريةٍ أكبر مما صار إليه الحال لاحقاً، إذ أن ذلك المجتمع شهد علاقات جنسية قبل الزواج، وأخرى خارج نطاق الرباط الزوجي. ورغم أن الزواج كان أمراً طبيعياً، فقد كثر تعدُّد الزوجات لدى الرجال القادرين على القيام بأعبائه. ولم تكن عادة عزل النساء معروفة، كما حدث لاحقاً في نظام الحرملك الذي فُرض في ظل الحكم الإسلامي، على الرغم من أن نظام العزل قد أنتج شبقية جنسية من طراز خاص، وقدَّم امتيازات لصالح الذكر.

حوالي القرن الثاني عشر الميلادي شرع كوكا أو كوكوكا Kokkoka بنشر أفكاره حول المتع الجنسية مسترشداً بتجربته الخاصة، وقد ضمَّنها في

(*) Puritanism جماعة بروتستانتية في انكلترا ونيوإنكلند (في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين)، طالبت بتبسيط طقوس العبادة، وبالتمسك الشديد بأهداب الفضيلة، وتسمّى التطهّرية أو الترمّت. المورد.

كتاب كوكا شاسترا Koka shastra أو راتيراهاسيا Ratirahasya، أي «التعاليم السريّة لبهجة الحب». وحسب الأسطورة أن امرأة مصابة بالغُلمة (الشبق المَرَضي) انبرت أمام الملأ في بلاط عرّاب كوكا فخلعت ثيابها وأعلنت أنها ستهشل في أصقاع الأرض عاريةً إلى أن تلتقي بشريكها الكفؤ، مادام لا الآلهة ولا العفاريت ولا الرجال نجحوا في إشباع غُلمتها. إذ ذاك ضمَّ كوكا راحتي يديه، وبكل تواضع طلب إذناً لترويض هذه المرأة السليطة. وكان له أن مارس فعله بفعالية أدت إلى إصابتها بالإغماء من جرّاء رعشات الجماع المتكرّرة، وفقدت منذئذ رغبتها الجنسية لسبعة تناسخات لاحقة. إن هذه التعاليم (شاسترا) تعدّ مرجعاً في ممارسة الحب، إذ أنه يدرس نماذج مختلفة من النساء، مستعرضاً خصائصهن التناسلية، وعاداتهن، وطباعهن، كما ويتناول المغازلة والعناق والقُبَل وتعاويذ الحب، وتفاصيل أكثر اتساعاً مما ورد في الكاماسوترا حول الجماع ووضعيات الاتصال الجنسي.

وفي القرن السادس عشر غدا كتاب أنانجا رانجا Ananga Ranga «منزلة إله الحب» أحد أهم النصوص التي تناولت موضوع الشبقيّة. حيث يوضح كيف يمكن للزوجين «أن يقضيا حياتهما في وئام». وقد قيل إن ممارسة الجنس خارج نطاق الرابطة الزوجية لَهُوَ أمر كارثي، ولكن مادامت الرتابة هي المسؤولة عن انحراف كهذا، ولأن الزواج يتطلّب تنوُّعاً في تحقيق المتع الجنسية»، فقد أوضح الكاتب كيف يمكن للزوج والزوجة أن يعيشا كما لو أنهما شريكان في سن الثانية والثلاثين دائماً، وذلك من خلال ابتكار وضعيات متجددة للجماع، من شأنها أن تجنّبهما بلوغ حد التخمة. إن المتعة الجسدية حاجة جوهرية، وبتحقيقها يغدو ممكناً أن يعيش الزوجان «كما روح واحدة في جسد واحد»، وهي الضمانة الأكيدة لسعادة دنيوية وأُخروية(*) على السواء. وقد حُظّرت بعض حالات الاتصال الجنسي بشدة، مثلاً: إن مجرّد النظر إلى زوجة البرهمن نظرة اشتهاء كان يعتبر خطأً، أما مضاجعتها فاعتُبرت إثماً مميتاً. حتى أنه جرى

(*) في الدنيا والآخرة. م.

تقييد الأزمنة والأمكنة المشروعة للمارسة: يجب حصر الاتصال الجنسي في الليل فقط، وفي أماكن محدَّدة وطقس معتدل. رغم أن الطرائق المتنوعة لممارسة الحب، والتي أوصي بانتهاجها، يمكن لها أن تسير ضمن هذه التقييدات بدرجة ما. وقد أكدت كل الكتب المهتمة بالتعاليم الجنسية على أن التحلي بالحرص، واختيار الوقت المناسب، والاهتمام بالتفاصيل، كلها أشياء ضرورية للعلاقات الجنسية بوجه عام، والجماع بوجه خاص. وبات من الممكن الاستنتاج بأن أفعال الجماع المتعجّلة التي يمارسها الأوروبيون في الهند كانت السبب في تسميتهم «ديوك المزابل»، لأن ممارساتهم الجسدانية كانت معزولة عن بُعديها الروحي والشخصاني.

الدين والجنس في الفن

كان تأثير الكاماسوترا والمراجع التعليمية الأخرى ملموساً في العديد من الأنواع الأدبية، بما في ذلك الشعر التعبُّدي. وهذا لا يثير الدهشة إذا أخذنا بعين الاعتبار وجهة النظر التقليدية التي تضفي القداسة على الجنس، وكذلك الخشية العميقة التي ترافق عملية الجماع، تلك الخشية التي بواسطتها واصل الخالق تأثيره على الجنس البشري. وقد ضرب العشاق الإلهيون، شيڤا وبارفاتي، كريشنا ورادا، مُثُلاً عليا في الإخلاص والإلهام اللذين ينبعان من الاتحاد الجنسي.

في القرن الثاني عشر كتب الشاعر البنغالي جاياديڤا بالسنسكريتية قصيدة غيتا غوڤيندا Gita Govinda «أغنية راعي البقر». هذه القصيدة التي صورت ممارسة الحب عند الإنسان الإلهي بلغة تنضح بالشهوانية، رغم أنها لم تنِ تمجِّد كريشنا بوصفه إلهاً: هذه رادا تراقب كريشنا وهو يتنقل بين فتاة وأخرى، «مقبِّلاً هذه ومتودداً لتلك»، تارة يظهر وتارة يختفي عن ناظريها. كانت تتصوَّره يداعب صديقاتها فتسترجع ممارساتهما العشقية الماضية؛ كريشنا «المتأجج بالشهوة أبداً» و«أنا المنهكة من ممارسة الحب، يتصبب العرق من كل أنحائي». إنها الغيرة من الإله، إنه الجفاف والقنوط، وهي أطوار تتوسط المسافة

بين لحظات النشوة المبكرة، وذروة الاتحاد النهائي. وفي نهاية المطاف عاد كريشنا إلى الغابة فمضت إليه رادا ترف بأبهى زينتها. فبلغا معاً من المسرّة أقصاها، في دنيا من المداعبات العشقية والقُبل والخمش؛ واتخذت رادا الدور النشيط، «متمددة فوق جسده الجميل كي تبتهج بنشوة النصر على حبيبها»، إلى أن «شُلّت فخذاها» و«ثقلت عيناها، فأغمضتا»[28].

إن أغنية راعي البقر التي لاتزال تُنشد بصورة دائمة في معابد جنوب الهند، ويُنظر إلى مؤلفّها على أنه قديس، تتفوق من حيث لغتها الفيّاضة بالعاطفة الحسيّة على نشيد الإنشاد The Song of Songs التي لاتزال تُعدّ منذ نشوئها قصة رمزية لحب الإنسان الإلهي المُعبَّر عنه بالنشوة الجنسية. أما العلاقة بين أغنية راعي البقر والكاماسوترا فتتّضح بدلالة الشروحات المفسّرة لبعض إلماحات القصيدة المسنَدة إلى النص الأقدم.

ويُستشفّ تأثير الكاماسوترا أيضاً على أشعار الحب الدينية التي كتبت بلغات هندية أخرى. ففي القرن الخامس عشر صوَّر كلٌّ من ڤيدياباتي الميثيلي وشاندي داس البنغالي العلاقات الغرامية غير الشرعية بين كريشنا ورادا بتعابير مفعمة بالحيوية. حيث يحكي ڤيدياباتي، بلغته الشعرية، عن ثديي رادا العامرين، وعن عذابات الحب الأولى، وألم الفراق المبرّح، ومن ثم بلوغ حالة الكمال عندما عاد الإله، وفكَّ لرادا أزرار ثوبها و«يقضي كريشنا ليلة بطولها في ممارسة الحب»[29]. وبعبارات مشابهة صوّر شاندي داس القبلات، وعناقات العشيقين الإلهين التي تطفح بالشهوة، ثم ليعقبها الفراق والدموع إلى أن يتحدا من جديد.

في القرن السادس عشر اعتَبَر المصلح الديني البنغالي كيتانيا أن كريشنا هو الإله الأسمى، وأن ديانته هذه، الشخصية إلى حدٍ كبير، جاءت لتعارض بشدة مبدأ وحدة الوجود أو اللاثنائية الذي تمَّ تبنّيه من قبل معظم الاتجاهات الفلسفية في الهند. وكانت العبادة الرئيسية مكرسة لكريشنا ورادا، وتجد تعبيرها في النشوة الجنسية، ويرمز إليها بالحب الشهواني. وقد اعتبر كيتانيا نفسه

تجسيداً لكريشنا ورادا معاً في الصلوات التي يؤديها الذكور والإناث، وقيل إن أتباعه كانوا يتخذون محظيات كوسيلة ناجعة لبلوغ الاتحاد بالله.

يُنسب إلى كيتانيا نفسه بضعة مقاطع شعرية ثنائية فقط، إلّا أن حركته الإصلاحية أسهمت في تطوير الأدب البنغالي، ولاتزال تحظى بنفوذ واسع. كما ويعود له الفضل الأكبر في ترميم المزارات المقدسة التي ترتبط بكريشنا ذهنياً، وكذلك له الفضل في بناء المعابد التي يؤمّها ملايين الزوار حالياً بقصد الحج.

كان الجنس والدين مصدري إلهام لمعظم رسّامي اللوحات الزيتية، وقد تجلّى ذلك خصوصاً في اللوحات المنمنمة، منذ القرن الرابع عشر حتى التاسع عشر. أما في البنجاب وكانغرا فتُشاهد رسوم تصوّر الغيتا غوفيندا على نحو دقيق، مبرزةً، بأسلوب رشيق، طرائق المشي والعناقات والغياب واللهفة والقبل، وأخيراً اتحاد الزوجين الإلهيين. فأحياناً يصوَّر كريشنا ورادا في ذروة الاتصال الجنسي، ورادا من الأعلى غالباً، إلّا أن اهتمام الفنانين الرئيسي كان منصبّاً على العاشقين بذاتيهما أكثر منه على الفعل الجنسي. وفي العصر الحديث، حين ترجم جورج كيت السريلانكي قصيدة غيتا غوفيندا إلى الانكليزية، رسم لوحة للإله كريشنا بوصفه العاشق الإلهي، بينما في رسوم رادا وراعيات البقر أبرز البهجة والنشوة الجنسية في صيغتهما الأنثوية.

ثمة تفاصيل إضافية أكثر وضوحاً وردت في أحد المراجع الجنسية التعليمية ويدعى غالباً كوكاشاسترا. وقد صُوِّرت وضعيات الجماع بدقة في ذلك النص الشعبي المعروف. وهذه الوضعيات لم تُعدّ من أجل المنفعة الذاتية وحسب، وإنما في الغالب بغية إظهار مدى الفحولة التي يتمتع بها أبناء البلد. فقد رُصد أمراء هنود يمارسون الجماع في «غمرة الحياة» مع امرأة أو أكثر في وقت واحد، وعلى ظهور البعير أو الفِيلة، وهم يطلقون النار، ويحتسون الشاي، ويدخنون الغلايين. وثمة تنوعات هي من الغنى بحيث تضارع ما يتصوّره خيال أو تبدعه ريشة فنان. أما الأوروبيون الذين يظهرون دائماً مرتدين القبعات والشعر المستعار، ناهيكم عن أشياء أخرى، فقد صوِّروا في وضعيات متمسكة بالشكليات، بيد

أنها لا ترقى إلى مستوى اللياقة التي يتمتع بها الهنود. من الممكن أنه تمَّ التعتيم على الأفكار الدينية، أو أن تكون قد جُيِّرت لصالح الحاكم الذي تعيش زوجاته حياة الحريم التي لا يمكن التكهن بخباياها. أما «القصص الغرامية» للملك فكانت تتسرب عبر المحظيات وفتيات الرقص، اللواتي كن دائماً من الشابات الغواني. بيد أن الرمزية الدينية كانت تعبّر عن نفسها بأساليب تجريدية. إذ كان اليوني (المهبل) يُرمز إليه بدائرة أو مثلث أو زهرة لوتس في رسم أو مندالة(*). وربما كانت هذه المراجع التعليمية لفنون الجنس، واللوحات الشهوانية أيضاً، مساعِدةً في تأجيج الأحاسيس، وإثارة الطاقات الخامدة، وإطالة وقت الاتصال الجنسي، وربما بلوغ الحب الإلهي. إذ يمكن للغناء والموسيقا والصور والكتب أن يكون لها دور في بلوغ درجة الاتحاد بالله، رغم أنها تنطوي بلا شك، وفي الغالب على غايات جسدانية مباشرة أكبر.

وقد ضُمِّن الجنس والدين في النحت والعمارة أيضاً. حيث ظلّ اللينغا واليوني (عضوا الذكورة والأنوثة) رمزين للخصوبة، ممثِّلان بـ شيڤا وزوجته شاكتي عبر العصور؛ ولايزالان يُشاهدَان بأشكال لا تعد ولا تحصى حتى يومنا هذا. وقد شهدت القرون الوسطى موجة من بناء المعابد أَتحفت الهند ببعضٍ من أعظم نصبها التذكارية، اتسمت غالبية زخارفها بطابع جنسي واضح. كما أن فن النحت المصوَّر للحب الجنسي في المعابد كان قديماً ومايزال يُمارس، وخاصة في نيبال، على شكل زخارف تظهر عمليات الجماع بالجملة. ومن بين المعابد الرئيسية الأكثر شهرة في إبراز التفاصيل معابد كاجوراهو وكاناراك. والمعابد مكرَّسة عادة لشيڤا أو ڤيشنو، وهي أقرب شبهاً للقصور، حيث يبرز الإله الأكبر ودونه قاعة الآلهة وفتيات الرقص. وتنتصب التماثيل متراكبة صفًّاً فوق الآخر، فيما الفتيات ذوات الخصور النحيلة والأثداء العامرة والأرداف الممتلئة يساعدن في تشكيل الحركة موحياتٍ بغبطة الاتحاد الجنسي.

(*) Mandala: رمز الكون عند الهندوس والبوذيين وبخاصة: دائرة تطوق مربعاً وعلى كل من جانبيها رسم إله. المورد.

وما أكثر الوضعيات التي تعرض تنوعات الاتصال الجنسي، حتى أن الوضعيات المائلة منها تبدو غير ممكنة التحقق. وفي بعض الأفاريز الشهيرة يبدو العاشق كأنه واقف على رأسه، مستثيراً ثلاث نساء دفعة واحدة. ولأن التماثيل جميعها تُظهِر الرصانة، فمن المرجّح أنها مُعدَّة للممارسات الطقسية، وربما لتمارين اليوغا التي لا بدّ أن الخبراء المهرة فقط بوسعهم ممارستها. على أية حال يفترض بأن تلك المجموعات التي تمثل وضعيات النشاط الجنسي الأفقية، لم يكن ثمة بدٌّ من تشكيلها شاقولياً لضرورات يقتضيها الفن المعماري. غير أن الرمزية الدينية تبدو مبهمة أحياناً في التماثيل المرصودة لأغراض دنيوية. فمعبد إله الشمس في كاناراك على وجه الخصوص يصوّر الرجال وأعضاؤهم منتصبة، وقد استثيرت فموياً من قبل خادمات، ربما لإيقاظ شهواتهم الهاجعة، أو شهوات الزبن الدائمين للنحّات[30].

كان من شأن هذه المعابد أن تصدم بعض المشاعر المعاصرة. فـ (سي. جي. يونغ) عندما زار كاناراك في عام 1938 أبلغه مرشده البرهمي، (كما لو أن الأمر ينطوي على سرٍ عظيم)، بأن «هذه الحجارة أعضاء ذكورية». وقد ذُهل يونغ أن تكون حقيقةٌ ساطعة كهذه بحاجة للشرح، وبدا ذلك كما لو أن الأوروبي جاهل بحيث ما كان له أن يفكّر بهذا الأمر، أو أن الهندي العادي يعتريه الخجل حين يذكر ذلك. ولحسن الحظ أن كاجوراهو وكاناراك بقيا سليمين، ويعود الفضل في ذلك جزئياً لصعوبة الوصول إليهما في الأزمنة السالفة؛ ورغم بعض الإرباك الذي لايزال قائماً، واستثمارها لأغراض سياحية، هنالك اعتراف متزايد بأهميتهما للثقافة الهندية[31].

اليوغا والتانترا:

إن كلمة يوغا Yoga السنسكريتية ترتبط ذهنياً بالكلمة الانكليزية «Yoke» وتعني النير، المشتقة من المعنى الجذر «يقرن ما بين» أو «يشد إلى نير»؛ وصارت تعني لاحقاً الاتحاد أو الاقتران بشيء ما، وهي قابلة لتغيرات طفيفة في المعنى حسب السياق الذي ترد فيه. اشتملت اليوغا على طرائق متعددة من

الانضباط الصارم في ممارسة تمارين بدنية وذهنية تهدف إلى تحكم المرء بطاقاته الجسدية والذهنية والروحية، وبالتالي تمكينه من اكتناف قوى خفية خارقة للطبيعة وصولاً إلى الاتحاد بالله أو بالجوهر الكوني.

وانتهت اليوغا إلى أن تصبح متلازمة مع مذهب سانخيا Sankhya بوجه خاص، وسانخيا تعني «السرد»، وهو مذهب فلسفي يعرض مناهج عملية خدمةً للنظرية. ويرى هذا المذهب أنه يوجد نظامان مترابطان لبلوغ الحقيقة، نظام روحي، بوروشا Purusha ونظام مادي، براكريتي Prakriti فالروح متعددة، ومؤلفة من عناصر وجود أولية Monads لا حصر لها، أو عناصر ذكورية متشابكة بطريقة ما مع الوجود المادي، أو العنصر المادي الأنثوي. أما الخلاص فيتأتّى عن الانعتاق التام من أدران العنصر المادي، والعودة من ثم إلى الحالة البدئة غير القابلة للتغيُّر، والمفارِقة للزمان والمكان.

وضعت سانخيا ـ يوغا نظاماً من التمرينات اليوغية لتحقيق هذا الانعتاق عبر اتباع ثماني مراحل من مجاهدة النفس، مشابهة للطريق البوذي ذي الثماني شُعب. وقد طوَّر بعض معلّمي اليوغا أفكاراً فيزيولوجية (وظائف الأعضاء) هندية قديمة لإعداد أساسٍ لممارسة تمريناتهم. قيل إن في الجسم وريد رئيسي يمتد مع العمود الفقري ويدعى سوشومنا Soshumna، ويحتوي على ست حلقات Chakras(*) أو نقاط ارتكاز الطاقة النفسية الموزعة في مواقع مختلفة على امتداده. ويوجد في قمة الوريد مركز الطاقة النفسية الفعَّالة، ويرمز إليها بزهرة اللوتس، وهي استعارة أنثوية، وتتوضع في الدماغ، وتدعى ساها ذرارا (Sahasrara). ويوجد في الحلقة السفلى قوة الأفعى Kondakini وهي هاجعة بصورة عامة. وينبغي إيقاظ قوة الأفعى بواسطة تمرينات يوغية كي تصعد عبر الوريد الفقري مجتازة كل حلقات (دوائر) القدرة النفسية لتتحد مع زهرة اللوتس في القمة. وبـإيقاظ قوة الأفعى هذه يأمل اليوغي (ممارس اليوغا) بـإحراز طاقة روحية، ويسود الاعتقاد بأن توحيد هذه الطاقة مع زهرة اللوتس في

(*) ويطلق عليها اسم دوائر أو عجلات حسبما ورد في نصوص أخرى. م.

الأعلى يحقق الخلاص، رغم أن الكثير من اليوغيين يهدفون من وراء ذلك إلى إحراز قدرات خارقة للطبيعة عوضاً عن الخلاص.

أُطلق اسم تانترا على تعاليم بعض الفرق الهندوسية والبوذية التي كانت تتعبَّد آلهة أو كائنات لها صلة بالطاقة الجنسية على وجه الخصوص، وعلى عبادات صوفية ألهمتها تصوراتُ النشاط الجنسي الكوني. وليس من اليسير تعريف التانترا، لكن هذه الكلمة استُخدمت في النصوص المقدسة التي وُجد منها تشكيلة متنوعة، وربما اشتُقت من المعنى الأصلي «خيط»(*)، موحية بمبدأي الذكورة والأنوثة اللذين نُسج منهما الكون. وكان يطلق على أتباع التانترا اسم الشاكيتين Shaktic نظراً لعبادتهم شاكتي الأنثى، أو القوة الإلهية، وكانوا يُسمّون أيضاً «الجناح اليساري» بحكم طبيعتهم السرية والتواثقية، وكذلك نظراً لعامة جلوس الإلهة على يسار الإله. وتعرض النصوص التانترية حوارات لا تنتهي بين الإلهين، الذكر والأنثى، حيث يعلّم كل منهما الآخر ويسأله على نحو متبادل. وقدَّمت هذه الحوارات دروساً في مغازي تمرينات اليوغا وطقوسها.

ظهرت التانترا في القرون الأولى من تاريخنا الراهن، كحركة واسعة الانتشار كان لها تأثيرها على الفلاسفة واليوغيين، وعلى عامة الناس، سواء في مجال ممارسة الشعائر أم في التنسُّك، أم في علم الأخلاق وفن النحت والأدب. بيد أنها كانت أقدم بكثير على الأغلب. إذ أنها لم تكن فيدية، وغالباً ما كانت معارضة لفلسفة اعتزال الدنيا، ولتعاليم مذهب الأُحدية Monistic للأرثوذكسية الهندوسية. وبدلاً من أن تقمع اللذَّة بوصفها خطراً أو وهماً، انغمست فيها معتبرة إياها وسيلة لبلوغ الهدف الأسمى.

قيل إن التانترا شكَّلت إعادة اكتشاف لأغوار المرأة، لأن كل امرأة غدت تجسيداً لشاكتي، الأم، والمرأة ـ الإلهة. وحسب الشعائر كانت المرأة اليوغية

(*) thread وتعني في اللغة السنسكريتية خيوط الطيف. م.

تمارس التمرينات وهي عارية، مستثيرة المشاعر العاطفية الهائلة في حضرة السرّ الكوني للخلق. وبذلك كانت كل امرأة عارية تجسِّد براكريتي، العنصر المادي (المولّد)، ووفقاً للطقوس غدت هي الإلهة شاكتي ذاتها. أما فلسفة سانخيا فقد استطالت حتى بلغت منزلة الأسطورة التي يكون فيها بوروشا الذكر، الروح، الخامد، والمتفرّج(*)، مقابل براكريتي النشيطة والقوة المولِّدة.

عُدّت الطاقة الجنسية في التانترا طاقة لا تُضاهى، وتمثِّل الأعضاء الجنسية، من وجهة نظرها، القوى الكونية التي يُرمز إليها بعضو شيڤا الذكوري (اللينغا). وكان بعض اليوغيين يعبدون أعضاءهم الذكورية بممارسة طقسية كاملة، واستثارة جنسية توحي بقدوم الحضرة الإلهية. كما أن الأفعى كانت تُعدّ رمزاً طبيعياً للقدرة الجنسية، ممثَّلاً بالكونداليني أو بمفاهيم أخرى. وعلى نحوٍ مماثلٍ كان اليوني الأنثوي محطَّ عبادة. والكثير من النقوشات كانت قد صوَّرت الجسد الأنثوي، وأبرزت بشكل خاص الأعضاء التناسلية.

عُولجت العملية الجنسية maithuna بكل أنواعها، بأسلوب طقسي، سواء بين الزوج والزوجة أو بين شريكين أو مع فتاة المعبد، كما تحوَّل فعل الاتحاد الجنسي إلى طقس احتفالي يصبح عبره الزوجان البشريان زوجين إلهيين، وكان يجري إعداد الطقس بواسطة التأمل وممارسة الشعائر كيما يعطي ثماره، لأن الاتحاد الجسداني وحده لا يُعتقد أنه كافٍ لبلوغ الخلاص. فالعملية الجنسية كانت منهجية لاعشوائية، والجماع لم يكن مجرد ترويح سريع عن النفس تحققه هزة التهيج الجنسي، وإنما عملية طويلة تُمارَس فيها المداعبات ومختلف الوضعيات، التي من أجلها كان الكاماسوترا والمراجع التعليمية الأخرى ذات فائدة جلّى.

سعى بعض التانتريين إلى المضي أبعد من حدود الطقوس الجنسية العادية التي كان الهندوس يؤدونها، معتبرين أن المحرَّمات التي كانت صائبة فيما يخص

(*) المتأمل أو المتفرج، ويقصد الدور السلبي هنا. م.

آخرين ينبغي تحطيمها بُغية إحراز قدرات استثنائية. كانت بعض المجموعات الصغيرة تلتقي غالباً في الليل، وأحياناً في أراضٍ مفلوحة، وتجلس في دائرة سحرية(*) أو نمط سحري. وبعد أداء طقس العبادة الشكلي، كان أعضاء المجموعات ينغمسون في تعاطي الميمات الخمسة المحظورة، أو المقيَّدة عند طوائف أخرى، وهي الخمر (Madya)، واللحوم (mamsa)، والسمك (matsya)، والإشارات الجنسية باليد (mudra)(**)، والجماع (maithuna). وحسب طقوس الجناح اليساري المتطرف ينبغي أن تحيض المرأة خلال عملية الجماع حيث تكون طاقاتها، كما يعتقد، في ذروة الحظر العظمى. ويدَّعي خصوم الجناح اليساري أن هذه العربدات الجنسية كانت نهجاً ثابتاً؛ ولكن مادامت هذه الطقوس تمارس سرّاً، كان من الصعب دحض هذه التهمة. أما المنافحون عن التانترا فقالوا إن الاتصال الجنسي يقتصر على الزوج والزوجة. غير أن أحد علماء الأنثربولوجيا البارزين قدَّم الدليل على حدوث تزاوجات واتصالات جنسية عشوائية أخرى في الوقت الراهن. لم يكن الأعضاء الجدد ليُقبلوا إلا أزواجاً، وإن حدث أن رفضتْ زوجةُ طالب الانتماء مرافقته، فلن يُقبل إلّا «إذا رافقته أخته بالتبنّي». وبذلك يكون هذا الثنائي قد خرق تحريم السفاح، لأن جماعاً كهذا كان تدنيساً للمقدّسات، لكنه ليس قصدياً أو عشوائياً. وخلال الاجتماع الطقسي كانت النساء يخلعن القسم العلوي من ثيابهن (الصّدار)، ويرمينه في وعاءٍ كبير، و«خلال إنشاد التراتيل تقوم المعلّمة الروحية المُشْرقة باستدعاء الرجال، واحداً تلو الآخر، وتختار لكل منهم صدّاراً على نحو عشوائي، وبعدئذ ينسحب الثنائي خلف ستارة لممارسة الفعل الجنسي

(*) Magical circle: الدائرة السحرية، وهي دائرة ذات خصائص مماثلة لخصائص المربع السحري، وهذا الأخير عبارة عن سلسلة من الأرقام مثبتة في مربع بحيث يكون مجموعها واحداً سواءٌ أجمعت عمودياً أو أفقياً أم قطرياً. المورد.

(**) وردت في هذا النص (الانكليزي) بمعنى الإيماء باليد hand-gestares، رغم أن كلمة mudra السنسكريتية تعني: الحبوب الجافة. م.

الشعائري»[32]. ومن المحتمل أن عدد مجموعات كهذه بات قليلاً جداً في وقتنا الحالي.

إن السمة العامة للجِماع التانتري هي احتجاز المني، عبر ما يُدعى باللاتينية الجماع المحترَس Coitus reservatus. ولتعجيل صعود الكونداليني، كانت الوضعيات الجسدية تخضع لتنويعات تهدف إلى احتباس التنفّس والتفكير والمني. وكان يُعتقد بأن للمني (bindu) قوة سحرية حسبما ذكرت بعض نصوص الأوبانيشاد. فإذا ما بقي محتبساً في الجسد، لن يكون هنالك خوف من الموت، وحتى لو قُذِف في نار اليوني، فثمة إمكانية لإيقافه واسترجاعه. كما أنه يُعتقد بإمكانية الرجل والمرأة على استرداد جوهرهما الحيوي وإعادة امتصاصه جسدياً، حفاظاً على استمرارية الحياة. ومن الممكن أن تكون هذه العادة قد جاءت من الصين؛ ولكن سواء أكانت استعادة المني ممكنة أم لا، فإن احتباسه يتطلب انضباطاً وتدرُّباً كبيرين. وكان طريقة من طرائق منع الحمل.

نصَّت التعاليم التانترية على أنه ينبغي تحديد كل مرحلة من مراحل الاتصال الجنسي عبر إنشاد تراتيل من نصوص المانترا Mantras، بحيث تُتلى مراتٍ عدة فوق مختلف الأعضاء الجسدية للمحبوب. ولكن ليس عشوائياً، ولا لمجرّد أغراض شبقية، لأن من شأن هذا الإجراء أن يوفّر مداعبة واتحاداً مديدين طقسيين، بهدف تمكين طاقات الذكر والأنثى من الانتقال فيما بينهما. ويكون الاتصال الحميمي بين شريكين مستقلين قد سما فوق الوجود المادي عبر اتحاد وتداخل كاملين بحيث يستحوذ كل منهما على الآخر. وبذلك يكون الاتحاد الجنسي قد حقق نموذجاً تاماً لاتحاد الروح بالله. ومادام هذا الطقس هندياً في العمق، فقد شهدت التانترا ازدهاراً ليس فقط في الهندوسية ذات المذهب التوحيدي، وإنما أيضاً في الديانة القائلة بوحدة الوجود. كما أنها ظهرت في البوذية التنسّكية، حتى أن بعض طرائقها اعتُمدت بشكل أكبر من قبل الجانتيه (اليانية) التزهدية Jainism.

ردة فعل

ظهرت في القرون الحديثة ردات فعل مختلفة على النزعة الشهوانية للهند القديمة، وبشكل خاص على منحوتاتها وأحجارها القضيبية. كان الحكام المغول مسلمين من محطّمي الأوثان في الغالب. ويُحكى أن أورانجزب Aurangezeb المتشدّد دينياً دمَّر ما يزيد على مئتي معبد خلال عام واحد وضمن إقليم واحد. ولا يُعرف كم قُوِّض من المعابد إبّان سني حكمه الخمسين (1658 - 1707)؛ ولم تقتصر أعمال التدمير على التماثيل التي تبرز الجنس بشكل واضح، بل تعدَّتها لتطال تلك التي تبرز عرياً عادياً، كالتماثيل الحجرية لقديسي اليانية في غواليور، والتي قطعت رؤوسها وأعضاؤها الذكرية. إلا أنه جرى ترميم الرؤوس في الوقت الحاضر، ولكن من الطين النضيج.

وأعقب التعصّب الديني الإسلامي تعصب آخر أوروبي، فالأب دبوا (The Abbe Dubois) الذي طاف مناطق جنوب الهند ما بين 1792 و 1823 خلَّف وراءه الكثير من الكتابات الوصفية الحيّة، مع أنه ركّز فيها على ما اعتبره الوجه الأخلاقي الفاسد للهندوسية. في كتابته عن العضو الذكوري - كلي الحضور لشيڤا، اعتبره نوعاً من «الرموز الفاحشة» وأن «أسماءه الحقيقية تُعدّ إهانة للآداب العامة في أوساط الأمم المتمدنة». كان المراقبون البريطانيون الأوائل يقارنون أحياناً بين الهندوس والإغريق من حيث المعتقدات وفن النحت، وحاولوا التعاطي معها بعين العطف، بيد أن الحماس المتعاظم للمساعي التبشيرية حَمَلَت آخرين على تصوير كل ما يمت للهندوسية بصلة بأشد الألوان قتامةً. لنأخذ مثلاً تشارلز غرانت الذي كتب في عام 1792 عن (لاأخلاقية وظلم ووحشية) الهندوسية، وعن أتباعها الذين اعتبرهم (فاسدين أخلاقياً بقدر ما هم عميان، وسفلة بقدر ما هم فاسدون»[33].

من جهة أخرى، وفي حوالي 1920 حاولت السيدة ستيفنسون، المتَّسمة بالموضوعية «أن تدوِّن الوجه الأكثر نبالة في الشعائر الهندوسية، فوصفت العضو الذكوري لشيڤا على أنه «رداءٌ خُزْيه»، «وهو من القذارة بحيث لا يمكن ذكره

هنا». ولكن في عام 1970 لاحظ العالم الكاثوليكي الروماني العلماني آر. سي. زايهنر:

كان الفالوس (القضيب) ولايزال رمز شيئا على طول الخط. ومرة أخرى نجد أنفسنا أمام انسجام متناقض، وتناقض منسجم، ولكن من الممكن للهندوسية وحدها أن تستطيع رؤية هذا الانسجام بوضوح أكبر مما تراه المسيحية الأوغسطينية التي كانت متسرّعة جداً في رفضها لهذه «القضية الخلافية جداً»(*)، والتي نشأ عنها الوعي والحياة أساساً[34].

كان لإنكلترا ـ الڤيكتورية تأثير فعال على المثقفين والإصلاحيين الهندوس من الذين اعتنقوا بيورتانية (تطهرية) حكامهم، حتى أنهم غدوا في بعض الأحيان أكثر تشدداً واعتزالاً لشؤون الدنيا، إذ أن حميَّة غاندي التطهرية قادته إلى الدفاع عن الطهارة الصارمة، والتي كان من شأنها حرمان زوجته من أي اتصال جنسي لسنوات. رغم أنه يُحكى عن المهاتما أنه كان يمتحن قدرته على ضبط النفس من خلال النوم مع فتيات شابات. ويقول أحد الكتّاب الهنود الجدد إن المدرسة الڤيكتورية (أي كل ما يمت إلى العهد الڤيكتوري من اتجاهات فكرية وأخلاقية)، والإصلاحية البرهمية، والغاندية المتشددة «قد طوقت العقل الهندي بمحظورات معقدة». ثم يضيف بأن أعمال فرويد، شأنها شأن أسفار الڤيدا، قلّما كانت تُقرأ من قبل الكتّاب الهنود. أما الآن فأصبح لفرويد تأثير مهم، ساعد في تخفيف بعض المحرّمات. مع ذلك ثمة ميل ينحى إلى تطرّف آخر. «إذ أن التأمل الحديث في الجنس يلازمه شعور دائم بالذنب إذا ما مُورس سرّاً، وشعور بالتبجُّح إذا كان علنياً. وما كان يُعتبر وسيلة لتحقيق المتعة المشروعة لدى القدامى، بات الآن مصدراً للإثارة المَرَضية لدى المحدثين»[35].

(*) أي مثار خلاف بين الناس. م.

هوامش المؤلف للفصل الثاني

1– See W. D. O'Flaherty, Asceticism and Eroticism in the Mythology of Siva, ,1973 pp. 30 ff.
2 – See M. Dhavamony, Love of God according to Saiva Siddhanta, 1971.
3 – See W. G. The Love of Krishna, 1957; N. C. Chaudhuri, Hinduism, ,1979 p. 275.
4 – Kaushitaki Upanishad, 3.1
5 – Mahabharata, 50,3 ff; see transion by J. A. B. van Buitenen, vol. ,2 p. 322 ff.
6 – Mahabharata, 3.277 ff.
7 – Ibid., 12.167.
8 – Rig Veda, 1.60.
9 – J. J. Meyer, Sexual Life in Ancient India, ,1952 p. 150 ff.
10 – Laws of manu, 3.26 ff.; Ramayana, 1.73.
11 – S. Stevenson, The Rites of the twice–born, ,1920 chs. 3–5; Ri Bi Panday, Hindu Samskaras, 2nd edn. ,1969 ch. 8.
12 – Laws of Manu, 94.,9
13 – Ibid., 5.154 ff, S. Stevenson, op. cit., p. 108.
14 – See H. Zimmer, Philosophies of India, ,1951 pp. 147 ti:
15 – Brihad–aranyaka Upanishad, 1.4.
16 – Ibid., 6.4.
17 – Ibid.
18 – Brihad–aranyaka Upanishad, 22.,6.4
19 – Aitarea Brahana, 10.3.
20 – Chandogya Upanishad, 2.13.
21 – Laws of Manu, 8.367 f.; 11.59.104f., 175.
22 – Maitri Upanishad, 1.3.
23 – Mahabharata, 1.66; 1.120; 3.45; Ramayana, 7.56.
24 – Mahabharata, 3.95 f.
25 – Laws of Manu, 9.
26 – See E. Thompson, Suttee, 1928.
28 – Stevenson, The Rites of the Twice–born, p. 251.
29 – D. Bhattacharya, tr. Love Songs of Vidyapati, 1963.
30 – A. Watt, The Temple of Konarak, 1971.
31 – Memories, Retlections, ,1961 p. 278.
32 – G. M. Carstairs in Aspects of religion in Indian Society, ed., L. p. Vidyarthi, ,1961 p. 67.
33 – J. A. Dubois, Hindu Manners, Customs and Ceremonies, ,111 V; and see P. J. Marshall, ed., The British Discovery of Hinduism in the Eighteenth Century, ,1970 p. 42.
34 – S. Stevenson, Rites of the Twice–born, p. 374; R. C. Zaehner, Concordant Doscord, ,1970 p. 171.
35 – K. Kripalani, in A Cultural History of India, ed., A. L. Bashani, ,1975 p. 417.

الفصل الثالث

التقشُّف البوذي

الطريق الوسط التزهدي:

غوتاما Gautama، وهو البوذا Buddha الأفضل الذي عرف على مدى هذه الحقبة من التاريخ البشري، كان قد تزوّج وأنجب ابناً. وكان ينتمي إلى طبقة الحكام المحاربين، شأنه شأن مهاڤيرا Mahavira عند اليانيين، وبالتالي فهو مختلف في بعض المناحي عن المعلّمين الكهنة. ربما شاعت روايات عن ميلاد بوذا في وقت سابق، ثم دوِّنت بعد قرون لاحقة، إلا أن هنالك ما يشير إلى نشوء وتنامي التنسُّك في مختلف الروايات.

تزوج أَبَوا بوذا، وكان والده زعيماً أو ملكاً يُدعى (سود هودانا)، وأمه الملكة (مايا). ولم يرد في الروايات الأقدم أي شيء خارق عن مولده، اللهمّ إلّا التوكيد على نبالة مَنبته. فيما بعد روت الأسطورة أن أمه حلمت بفيلٍ أبيض يدخل من خاصرتها اليمنى إلى رحمها. وقصَّت الحلم على الملك، ففسَّره كهنته على أنه بشارة ولادة «ذكر وليس أنثى»، ولسوف يصبح ملكاً على كل البلاد، أو بوذا(*). فكان الفيل الأبيض هو البوذا نفسه، هابطاً من السماء، مختاراً رحم الملكة[1].

(*) ورد معنى بوذا في عدة تأويلات: المستنير أو الحكيم، أو المنقِذ المنتظر، وتعني حرفياً في السنسكريتية (الشخص الذي حضر) وهو أحد أسماء بوذا الثلاثة. م.

لم تكن هذه الولادة عذرية، بيد أن الروايات اللاحقة بالغت في اعتبارها إعجازية ودون اتصال جنسي: بعينين متوردتين كعيني شادنٍ، قالت الملكة بجدية لزوجها: «أرغب بقضاء الليل بعيداً عنك». عندئذ دخل البوذا المنتظر رحمها وترعرع، «دون أن يخطر في ذهنها رجل»، لأنه لا يجوز أن «يستحوذ عليها أي رجل ذو ميل شهواني». وحين وُلد الطفل لم تلده جالسة أو مضطجعة، كسائر النساء، بل واقفة. وربما كان ذلك، حسبما يعلّق عالمٌ فرنسي، أكثر روعةً لكنه ليس أكثر راحة على الأغلب. وقيل إن الطفل قد «ولد نظيفاً، غير ملطخ بماء المشيمة، ولا بالبلغم ولا بالدم، ولم تكن تشوبه شائبة». وأن دفقاً سماوياً من الماء الحار والبارد انسكب كي يغسل الأم والطفل[2].

قورنت الحكايات المروية عن ولادة بوذا بتلك التي تحكي عن الولادة العذرية للميسيح، رغم الاختلاف الكلي بين النواميس في الحالين. ففي حكايا الإنجيل ليس ثمة ما يدل على شعورٍ مُعادٍ للجنس أو الجسد، في حين يكثر ذلك في الحكايات البوذية. كما وظهر هذا الشعور في مجال آخر من الروايات التي ذكرت أن أم بوذا هذا، وأمهات كل البوذات[*] الآخرين، كن قد مُتنَ بعد سبعة أيام على إنجاب أولادهن، تجنّباً لأي اتصال جنسي آخر مع أزواجهن، «لأنه لا يليق بمن أنجبت كائناً لا نظير له أن تنغمس في ممارسة الحب بعدئذٍ». ورغم هذا الميل المناوئ للجنس، لم يفلح كَتَبة الروايات الرهبانيين في الامتناع عن إيراد تفاصيل حسيّة في وصفهم للملكة، على سبيل المثال، الراقدة في سريرها: «متألقة كانت، وفاتنة، متلألئة كما لو أنها موشّحة بثوب من ذهب... يالتلك المرأة التي يتقوّس بطنها، كراحة اليد، بزغبه الناعم اللامع كالشعاع»[3].

إن بوذا الحديث الولادة قد جاء إلى الحياة حاملاً معه الأمارات الاثنين والثلاثين التي تنبئ عن رجل عظيم: عجلات ضوئية تحت أخمص قدميه، عَقِبان بارزان، أنامل وأصابع قدمين طويلة، يدان وقدمان رَخْصة، ذراعان

(*) يُقصد هنا جمع بوذا، إذ ورَد في كلاسيكيات البوذية أن 24 بوذا وُلدوا قبل بوذا غوتاما ـ موضوع البحث. م.

طويلتان، بشرة غضَّة، صدر مدوَّر، أربعون سنّاً نظامية، عينان مشبعتان بالزرقة، شامة تتوسط حاجبية، ورأس كتاج ملكي. وكانت أعضاؤه الذكورية محجوبة في جراب. وذات يوم، في ردّه على متسائل شكّاك «تدبَّر بوذا قضاء حاجاته بفضل موهبته المذهلة، بحيث أن البَرْهَمِي رأى رأي العين كيف أن ذلك الجزء من الكائن المقدس كان محجوباً في جراب بدلاً من أن يكون مغطّى بالثياب»(4).

تزوج البوذا المنتظر من يوسودهارا، التي أنجبت له طفلاً سمِّي راهولا Rahula، وأصبح فيما بعد راهباً سار على خطى أبيه. وتحكي الأساطير الكثير عن حياة غوتاما المُترفة، في قصر يعج بالخدم من الذكور والإناث. بيد أنها تتفق جميعها على أن سكينة غوتاما قد اختلَّت في عمر التاسعة والعشرين بعد أن شهد بأم عينه، وعلى نحو غير متوقع، حالات الشيخوخة والمرض والموت، وبعد رؤيته لأحد الزهاد أيضاً. هجر بيته وذويه ليلاً؛ وفي رواية لاحقة أنه أُصيب بالاشمئزاز من جرّاء الوضعيات الخليعة التي كان الخدم، من الذكور والإناث، يتخذونها في نومهم. غدا بوذا زاهداً متجولاً يعايش يوغيين (ممارسي اليوغا) ومعلمين آخرين، وكان يظل صائماً حتى يصير جلداً على عظم، وحينئذٍ فقد يتناول طعامه. وقرر اتباع الطريق الوسط الواقع بين تطرّفي الشهوانية الحسّية والتزهد المحض، وهذا هو الموقف البوذي الرسمي، أي رفض تعذيب الذات الذي ينتهجه الزهّاد الهنود المتطرفون. وقد خضع بوذا لإغواء كاما ومارا Kama, Mara أي الحب والموت، لكنه قاومهما واختار طريق التقشُّف الدنيوي، ولم يَعد إلى زوجته قط. وبعد أن غدا مستنيراً التحق به رجال آخرون فشكّلوا معاً جماعة من الرهبان أو الأخوة.

مُورِس الاعتزال الدنيوي بأشكال مختلفة في الهند، ليس فقط من قِبَل أولئك الذين بلغوا من العمر أرذله، بل ومن قِبَل رجال كانوا منكبّين على المعرفة أكثر من انشغالهم بقصص الحب. وورد في أسفار الأوبانيشاد الأولى أن أولئك الذين يعرفون كُنه الروح، يقهرون «الرغبة في إنجاب الأولاد، وإحراز الثروة وملذّات الحياة ويعيشون عيشة المتسولين»، وينفرون من التعلُّم ومن بساطة

الطفولة(*) إلى أن يصبحوا زهّاداً[5]. أما البوذية فقد وسّعت حياة العازب عبر التأكيد على الحياة الجماعية. كان سابقاً البوذي المتوحد «أشبه بوحيد القرن»، بينما كان الأخوة يعيشون في جماعة تدعى السنغا Sangha، الأخوية، والتي غدت أحد العناصر الثلاثة المكوّنة للبوذية، تلي بوذا والدارما أو التعاليم.

ثمة انتقاد تعرّضت له هذه الطريقة الزاهدة في الدنيا، التي فنّدها بوذا في أحد حواراته القديمة، مبرزاً مشقّات الحياة العائلية وإغواءاتها حيث يقول:

إن الحياة العائلية مليئة بالعقبات، وهي طريق تفضي إلى ضِعة الهوى. وكم هو عسير على رجل يسكن في بيت، أن يحيا الحياة الأسمى بكل مستحقاتها ونقائها وكمالها. حرّةٌ كما الهواء حياة ذلك الذي زهد في كل ما يمتّ إلى الدنيا بصِلة[6].

وبالتالي يمكن للراهب ـ حتى لو كان عبداً من قَبْل ـ أن يلقى الاحترام من قِبلِ سيده السابق، وقد يوفّر له مكاناً للسكن وعلاجاً وكساءً وأواني، وربما يرعاه ويحميه، فالراهب الذي أدار ظهره لكل ضروب الإغواء، يكبح الانحرافات الآثمة، ويسيطر على قواه الكامنة ويهتم بالمغزى العميق لكل أفعاله. إنه منعتق من لوثة النزوات القاتلة ومن الجهل والألم. وقد أكدت الحقائق الرئيسية السامية الأربع بأن الولادة والحياة والموت، كلها مؤلمة؛ إذ يتأتّى الألم عن الشهوة المؤتلفة مع اللذة والتحرّق إلى الإنغماس فيها، والسعي الحثيث وراء المتعة هنا وهناك، إنه التوق إلى الهوى، التوق إلى الحياة، والتوق إلى العدم. ومن الممكن إيقاف الألم عبر قمع هذه الشهوة، باتباع الطريق السامية للتعاليم الروحية والأخلاقية ذات البنود الثمانية.

كانت البوذية مقتصرة أساساً على الرهبان، وكان يقال إن الراهب هو البوذي الحقيقي الوحيد. منذ عهدٍ مبكّر التحق بالبوذية مريدون من عامة الناس،

(*) هكذا وردت في النص الذي بين يدينا، إلّا أن أسفار الأوبانيشاد تذكر حرفياً تبعاً لـ «قصة الحضارة» ـ الكتاب الثاني «الهند وجيرانها» ـ الباب الرابع عشر ـ الفصل السابع ـ الأوبانيشاد ـ ص46 «فليطرح البرهمي العلمَ ليجعل من نفسه طفلاً».

رجالاً ونساءً، ولكن ما من شك أن الغلبة كانت للذكورة والرهبنة، أما سواد الناس الذي لم ينضموا إلى الأخوية في هذه الحياة، بوسعهم أن يأملوا بولادة جديدة كرهبان في الحياة اللاحقة، رغم أنه سرعان ما انتشرت حياة الأديرة بصورة واسعة.

العَزَب (العازب) والطاقة الجنسية:

على شاكلة الملك (برهاد ـ راذا) في تزهده بالدنيا، حسبما ورد في ميتري أوبانيشاد، تمَّ إعداد الراهب البوذي للتأمل في الجسد «السجين في إهابه، والمليء بأرجاس مختلفة: الأظفار والجلد والأسنان... والمعدة والغائط، والصفراء والبلغم والقيح والدم والعرق والدمع». ينبغي عليه أن يتأمّل فيه كما يفعل جزّار الماشية بعد ذبحه لبقرة؛ أو قد يجلس عارضاً ذبيحته على مفترق الطرق، ومن الممكن له أن يتأمل جثة في مختلف مراحل انحلالها في مقبرة بغية الوصول إلى التجرّد التام من اللذة أو الألم المرتبطين بالجسد ورغباته»[7].

أما عن خطورة النساء على الرهبان فقد عُبِّر عنها من خلال نصيحة شهيرة قيل إنها قُدِّمت على لسان بوذا نفسه. فقد سأله تلميذه أناندا: «كيف ينبغي لنا أن نتصرَّف حيال النساء؟».

«لا تنظر إليهن». أجاب بوذا.

«ولكن ماذا نفعل إذا كان لا بدَّ لنا من رؤيتهن؟» سأل أناندا معترضاً.

«لا تتحدث إليهن». قال بوذا.

«افترض أنهن تحدثن إلينا، ماذا نفعل عندئذ؟» تابع أناندا بإلحاح.

فقال بوذا محذِّراً: «حذاريكَ منهن يا أناندا»[8].

ثمة دواع عديدة تجعل من المرأة خطراً على الراهب. فقد تفضي العلاقات الجنسية إلى ارتباط من شأنه أن يصرف الراهب ليس فقط عن الامتثال لعهد العفّة، بل وعن بحثه عن الانعتاق. فضلاً عن ذلك، قد يُرزق بأطفال وتكبِّله الحياة العائلية بقيود إضافية. ولهذا رفض الرهبان العلاقات الجنسية بوصفها

«عملاً بوهيمياً»، ونظروا إلى المرأة نظرة خوف وازدراء. وسمِّيت الحياة الرهبانية (براهما ـ تشاريا) وتعني حرفياً سلوك البرهمي أو الرجل المقدس، لكنها عُدّت مرادفاً للعفّة أو الامتناع عن أي اتصال جنسي.

كان الجنس مثار خوف لأنه قد يغدو نِدّاً للسكينة والبهجة اللتين ينشدهما الراهب بطريقته التي اختارها لنفسه في إنكار الذات. فقد يجد العاشق الطمأنينة والإشباع في نشوة الجماع التي تتناقض ونشوة النرڤانا Nirvana. فبين الاتصال الجنسي وإنكار الذات قواسم مشتركة، غاية وحيدة تماماً من حيث الطريقة، ومن حيث تلاشي الذات في نعيم لا يوصف. بيد أن الرهبان يعدّون نعيمهم هو الطريق الأسمى، وأنه يحول دونهم والاستسلام للأهواء الوضيعة. وعلى مدى ألف عامٍ تقريباً لم يطرأ أي تغيير على العزوبة (التبتُّل) الرهبانية؛ ولاتزال القاعدة سارية في معظم الأماكن.

كانت البوذية الحقّة نظاماً صارماً يتطلب التبتُّل الذي ربما كان ضرورياً في الحياة الجماعية المشتركة. ففي الهندوسية كان الكهنة يتزوجون، أما في البوذية القديمة فلم يكن ثمة كهنة، وقد تحدثت عن الزواج قليلاً، إلا أنها لم تخصّ الحياة الجنسية بأية إيجابية. وقد دوِّنت ضوابط تفصيلية جمّة لتنظم سلوك الراهب إزاء النساء اللواتي يلتقيهن، أو الراهبات اللاتي يقوم بتعليمهن، وكان يُعاقب على انتهاك العفة بالطرد من الأخوية الرهبانية.

بيد أن الجنس ما كان ليُستبعَد ببساطة. فما دام الرهبان والراهبات لديهم غرائز جنسية، يصبح مفهوماً أن هذه الغرائز تعبّر عن نفسها مهما قُنِّعت واستنكرت. ورد الفعل الأول المُسهب من كتابهم المقدس حول التعاليم الأخلاقية لبوذيي تراڤادا Theravada Buddhists (طريق الشيوخ) تحت عنوان ڤينايا بيتاكا Vinaya Pitaka أي «مجموعة الشرائع» التي وضعت القوانين الناظمة للسنغا (الأخوية). وكانت تُتلى 227 قاعدة ناظمة كل أسبوعين، يتناول عدد منها الإغواءات الجنسية أو الآثام. لا يجوز الاستمناء أو إغواء امرأة بقصد الاتصال الجنسي. لا يجوز لراهب أن يلامس امرأة أو أن يمسك يدها أو

ذراعها. ولا أن يمسّد شعرها أو يداعب أو يفرك أي جزء من جسدها. ولا ينبغي عليه أن يطلب من امرأة أن تمنح جسدها للرهبان كخدمة للجماع المقدس. ولا ينبغي له أن يجلس بمفرده مع امرأة في العراء، ولا أن يقوم بدور الوسيط بين الرجال والنساء لتأمين اللقاءات للزنى أو للزواج.

إن التفصيلات التي سيقت من خلالها هذه النواظم تدل على طبيعة الإغواءات وسطوتها، وقد جرت الروايات على توضيح النواظم التي تبحث في النقاط الشهوانية. وجاءت الترجمة الانكليزية لِـ الڤينايا Vinaya في خمسة مجلدات، وكانت السيدة العانس التي ترجمت العمل قد وضعت علامات نجمية عند المقاطع الصفيقة جداً، لكن العديد منها تُرك لتبيان إغواءات الرهبان، والسحر الذي يمنحهم إياه تخيّل المغامرات. وثمة بحوث عديدة تعالج سلوك الرهبان والراهبات، ووظائفهم الطبيعية، والاتصالات الجنسية العابرة، والأخطاء التي قد تتأتّى عن الإمكانات الأقل احتمالاً، لذلك كان من المسموح به قذف المني في الحلم أو في حالة اللاوعي، لكنه ممنوع في حالة اليقظة. ولإيضاح الأمر يُحكى عن راهب كان غارقاً في نومه على قارعة الطريق، وقد لوحظ الانتصاب عنده لدى مرور بعض النساء، فجامعنه جميعهن بالتعاقب، ومع ذلك لم يستيقظ، فقلن: «إنه من فحول الرجال»[9]. إن حكايات كهذه يمكن أن تتاخم الإباحية، لكن الڤينايا كانت أطول وأعقد من أن يستوعبها ناشرو الأدب الشبقي الحديث. وعلى النقيض من الهندوسية فإن هذه الأشعار الشبقية لا تخدم أي غرض لاهوتي يظهر فكرة الاتحاد البشري أو الإلهي عبر الجنس.

توحي حكايات جاتاكا Jataka، أي «قصص ميلاد» بوذا، بإغواءات جنسية، حتى فيما يخص مؤسس الديانة، فحين كان زاهداً في ولادة سابقة ذهب إلى نبارس في جولة تسوّل، فأُخذ إلى بلاط الملك، وعاش هنالك ستة عشر عاماً. وخلال غياب الملك كانت الملكة تقوم بمتطلبات الزاهد. وذات يوم، وبعد أن حضّرت له الطعام، استحمت ثم خلدت إلى الراحة. وحين دخل الزاهد جفلت الملكة فانحسر ثوبها، فتفرّس في جمالها العاري بغاية التمتُّع، واضطرمت نار الشهوة في داخله، وطاش صوابه، فتهاوى كشجرة قطعتها

فأس. وحين عاد الملك اعترف له الزاهد برغبته في الملكة، فوهبها له؛ لكنه كلَّفها سراً بمهمة إنقاذ الرجل المقدس، فوعدت بتنفيذ ذلك. طلبت الملكة منزلاً من الزاهد، فبنى لها كوخاً بائساً؛ وأمرته أن ينظِّفه من النفايات، وأن يجهِّز سريراً وطاولة وبساطاً، وأشياء أخرى لا حصر لها. وأخيراً بينما كان يهم بالاقتراب منها على الفراش، أمسكت بسَبَلتي لحيته وقالت: «أنسيتَ أنك بَرْهَمِي ورجل مقدس؟» إذ ذاك عاد الزاهد إلى نفسه، وأرجع الملكة إلى زوجها ثم فرَّ إلى هيمالايا على جناح البرق؛ وهناك راح يتأمل ببصيرة خالصة، وقد نُقل عن بوذا قوله: «أنا كنت ذلك الراهب»[10].

كم من قصص رُويت عن قمع الرغبات الجنسية، وعن فتنتها لدى الرهبان البوذيين. إلا أن الفكرة الأرثوذكسية الثابتة أكدت على أن الانغماس في الشهوات الجنسية مناقض للشريعة البوذية ومدمر للطاقة الروحية أيضاً. وقد ورد في الڤينايا أنه لحريّ بالراهب أن يولج عضوه (اللينغا) في أفعى أو في نار موقدة (وكلاهما رمزان جنسيان) على أن يولجه في مهبل (يوني) امرأة. واتسعت المحظورات لتطال ليس فقط النساء، العجائز منهن والصبايا والأمهات والبنات، بل وملامسة أنثى الحيوان، بما في ذلك تحظير النوم معها تحت سقف واحد. وحين يقوم الراهب بتعليم مجموعات مختلطة، ينبغي عليه أن يبقي تلميذه تحت ناظريه كي لا يقع في إغواء امرأة فاتنة. حتى أنه لا يجوز للراهب أن يلمس أمه، ولو سقطت في حفرة، بل أن يناولها عصاه بدلاً من يده، مفترضاً أن يسحب قطعة خشب. إن من شأن هذه المحرَّمات في الغالب إما أن تقتل الشعور الطبيعي أو أن تؤجج الرغبة المكبوتة.

لقد حافظ الرهبان البوذيون، في جنوب آسيا بشكل خاص، على قواعد العزوبة حتى يومنا هذا، وفي تلك البقاع التي لايزال يُسمح فيها للأديرة بالبقاء. وفي بورما يقول أحد علماء الأنثربولوجيا إنه يمكن الكشف عن حالات قليلة من اللاعفّة، ولكن مادامت الأديرة مفتوحة أمام عامة الناس، فمن الصعب إخفاء الخروقات. وثمة مثال عن علاقة جنسية لراهب مع امرأة حبلت منه ثم أجهضت. وظلَّ الراهب لخمس سنوات لاحقة يؤدي دوره الطقسي ككاهن

اعتراف. لكن الرهبان البورميين عموماً يُعرفون باحترامهم لمحظورات العلاقات الجنسية، المثلية والمغايرة على السواء. وفي الأديرة المنفتحة يمكن لأولئك الذين لا يصمدون جنسياً مغادرة الدير، وبالتالي بوسع الذين تبقّوا أن يزعموا بأنهم ملتزمون بعهد العفّة[11].

دوّن الكتّاب الأوروبيون في القرن الماضي ملاحظات مشابهة عن إخلاص الرهبان البورميين لعهد الصوم الجنسي، مؤكدين أن الخروقات كانت نادرة الحدوث. ولكنَّ كتاباً آخرين أكدوا أن نساء سيام (تايلاند) كن يترددن على الأديرة، حتى أنهن كنَّ يعشن فيها أحياناً، في حين قيل إن الممارسة المثلية (اللواطة) بين الرهبان وتلاميذهم المبتدئين والأشخاص العاديين كانت شبه مألوفة في سيلان (سري لانكا)، وإن أحد الرهبان كانت له خليلة مداومة في منطقة الدير. من جهة أخرى تشكّل انطباع لدى أحد علماء الأنثربولوجيا المعاصرين، من وسط تايلاند، أن معظم الرهبان هناك كانوا ملتزمين بقواعد التبتُّل، ولم تُسجَّل إلا خروقات نادرة، وإن القلّة الذين اتُّهموا بإبداء اهتمام كبير «بالطريق الدنيوية للحياة»، كان ذلك لمجرد أنهم شوهدوا يلقون نظرات عَرَضية، غير متحفظة على النساء الشابات بين جماعة المصلّين. وذكر الرهبان التايلنديون أن الرهبان البورميين هم الذين يصطحبون الفتيات إلى مباريات كرة القدم وأماكن التسلية. وتنمّ ملاحظات كهذه عن التحيّز والغيرة القوميين[12].

في بعض البلدان الشمالية المعتنقة للبوذية ثمة رأي أخذ يتنامى تدريجياً، ومفاده أن الحياة الجنسية لا تتعارض مع حياة الراهب، وخاصة خارج الأديرة ذات الحياة الجماعية. وهنالك رهبان متزوجون في كشمير منذ حوالي القرن الخامس للميلاد، وقد تزايد عدد الرهبان المتزوجين مع صعود التانترا هناك وفي أمكنة أخرى من الشمال المعتنق للبوذية. كان مؤسس البوذية في التيبت في القرن الثامن هو (بادما ـ سامبهافا Padma-Sambhava) «المولود من زهرة اللوتس» والذي عُدَّ بمنزلة بوذا ثانٍ، وقد وُهب زوجة من قِبَل الملك التيبتي، وكان لديه زوجتان رئيسيتان على الأقل ورد اسماهما من قبل. كما أن المترجم البوذي ماربا Marpa من التيبت، والذي عاش في القرن التاسع، كان متزوجاً،

ولديه ثماني حواريات أخريات، كن يُدعين رفيقاته الروحيات. وفي الصين واليابان، فإن الكهنة البوذيين الذين يرأسون القداديس في المعابد غالباً ما كانوا متزوجين، لكن الرهبان داخل المجموعات المشتركة كانوا يبقون متبتّلين.

نُوقشت مسألة تشكيل أخويات للناسكات والراهبات منذ قرون مبكرة، وتتحدث أساطير عديدة عن كيفية السماح للنساء بحق تشكيل أخويات بوذية. أبدت عمة بوذا المترملة رغبة في اعتزال الدنيا، لكنه رفضها ثلاث مرات. بعدئذٍ، وبناء لطلب تلميذه الأبرز أناندا، قُبلت العمة، ولكن مع إشعار يقول إنه لو لم يقبل دخول النساء في هذا النظام لكان نظام الأخوية، والمذهب سيستمران لألف عام، ولكن مادُمن قُبلن فقد يستمران (الأخوية والمذهب) لخمسمئة عام فقط. لكن تلك كانت نظرة تشاؤمية جداً، مادامت البوذية قد عاشت 2500 عام حتى الآن، ومن المحتمل أن النساء يشكّلن غالبية أنصارها كما هو الحال في أديان أخرى.

التانترا البوذية:

كانت التانترا، كما رأينا، قديمة في الهند، ورغم أن النصوص الكاملة الأقدم التي بقيت حية، كانت بوذية وترقى إلى حوالي القرن الخامس للميلاد، فإن ممارستها العملية تعود إلى عهد موغل في التاريخ، ثم أُعيد إحياؤها وتنظيمها منهجياً في وقت لاحق. وتعرف التانترا البوذية عموماً باسم ڤاجرايانا (Vajrayana عربة ألماس)، وقد ظهرت في مطلع القرن الرابع وبلغت أوج ازدهارها في القرن الثامن على الرغم من أن التعاليم تقول إنها ابتدعت في البداية في زمن أبكر من هذه التواريخ. ومن الجدير بالملاحظة أن التانترا البوذية تطورت في شمال وشرق الهند، وفي الأماكن الأخرى التي لم تطغ عليها هندوسية كلياً، وفي التيبت وجنوب شرق آسيا.

كانت (عربة الألماس) كشف جديد في العقيدة البوذية التي كانت تعمل على التلاؤم مع المتطلبات التي يقتضيها توسع وانتشار الدين. فقد قيل إن ملكاً ذهب إلى بوذا والتمس منه طريقة يوغا من شأنها أن تنقذ البشر في هذا العصر

المظلم. فأوضح له بوذا بأن الكون مكثَّف في جسد الرجل بكل طاقاته الجنسية المركزية، وعلَّمه كيفية إحراز التحرُّر بطرائق طقسية ملائمة، ورفضت بعض المدارس التانترية الممارسات البوذية الأساسية، كالتأمل مثلاً، مادامت تستهدف البساطة والعودة إلى الحالة الطبيعية. وورد في أحد النصوص التي تتوخى تحقيق الكمال الروحي Buddahood أن إشباع الحواس كان مسموحاً به: أكل السمك، الكذب، السرقة، واقتراف الزنا.

يمكن تقسيم التانترات البوذية إلى أربع مجالات اهتمام، فالنوعان الأوَّلان مأخوذان عن نص يُعنى بالطقوس، والآخران يتعلقان بالطرائق اليوغية للوصول إلى الحقيقة الأسمى. وفي الواقع إن غالبية النصوص التانترية تشتمل على موضوع الطقوس، إضافة إلى تعاليم اليوغا والتأمل الفلسفي. فيما كانت أنواع مختلفة من التانترا مُعَدة كي تناسب أنشطة وأمزجة الرهبان وعموم الناس.

كانت البوذية القديمة تحت هيمنة الرجل، ولأن التانترا جمعت ما بين المستويين الشعبي والفلسفي أصبح العنصر الأنثوي مهماً جداً. فـ تارا Tara، وهي إلهة مخلِّصة تساعد في عبور نهر الموت، كانت كائناً بوذياً شعبياً ليس لها أصل هندي واضح. وبراجنا باراميتا Prajna Paramita، «كمال الحكمة» كانت إلهة العناية الفلسفية، وهي مبدأ أنثوي يضاهي منزلة بوذا، أو تدعى «أم البوذيين جميعاً». وبوصفها أُمَّاً، جرى التركيز على ثدييها العامرين، رغم أنها كانت تدعى أيضاً العذراء التي «لم تُمس».

ميَّز البوذيون، كما الهندوس، بين جناحي التانترا، اليميني واليساري. فاليميناويون الهندوس كرَّسوا اهتمامهم للمبدأ الذكوري، واليسراويون كرسوه للمبدأ الأنثوي. وفي البوذية كان نهج الجناح اليساري معنياً بالجنس على نحو خاص. أما الفلاسفة البوذيون من الجناح اليميني فكانوا يلقِّنون تعاليم متناقضة بوضوح أو ليست ذات معنى، من مثل «التقمُّص هو النيرڤانا» أو «لا وجود للكائنات»، أو «الواقع هو الخواء». وأكَّد جماعة الجناح اليساري أن الأهواء هي النيرڤانا ولا يجوز كبتها. كما أن التانتريين تبنّوا التعاويذ السحرية

(المانترا Mantras)، والرموز الطقسية (المودرا Mudras)، والرقصات: «التي تتغنى بالجسد». وكانت الدوائر السحرية Mandals تستخدم كوسائل مساعدة في التركيز، كما أضيف عدد كبير من الآلهة والشياطين المرعبة إلى مجمّع البوذات والآلهة الكرام. وذكر الجناح اليساري للتانترا أنه لكي يصبح المتمرسون بوذات، ينبغي «الاهتمام بصقل كل المتع الحسيَّة». وينبغي انتهاك المحرَّمات، ليس فقط من خلال أكل لحم الحيوانات المحرَّمة، بل وخلطه بالبراز والبول لإثارة الأحاسيس عبر الاشمئزاز (التناقض). وفي الصوفية الجنسية لـ ڤاجرايانا (Vajrayana)، «الصاعقة» هي القضيب، وفي نصوص أخرى هي بوذا نفسه بصورة قضيب، بينما سوخاڤاتي Sukhavati أو الفردوس هو اليوني Yoni، والمظاهر الحيوية الخمسة تمثل المني.

كانت التانترا اليسارية تتعبَّد آلهة ذكرية وأنثوية في عناقات الاتحاد الجنسي، وقيل عن بوذا نفسه إنه مؤتلف في نشاط جنسي متواصل، لأنه كشف عن الحقيقة التي تقول: «إن الكمال الروحي يكمن دائماً في اليوني». وغالباً ما كان الفن البوذي، مثله مثل الفن الهندوسي، يعبّر عن هذا الاتحاد الإلهي في تماثيل تبرز الجنس. كما رُسم ونُحت البوذات Buddhas والبوذات الصغرى Budhisattvas[*]، «كائنات الاستنارة» في وضعية الجماع. كما أن هنالك أشكال لا تُحصى لبوذا متعانقاً مع شاكتي كنماذج للإتصال الجنسي، والتي يماثلها في التيبت (ياب - يام Yab-Yam «الأب - الأم»، أي الأسلاف. وكانت اللوحات النحاسية التيبتية والنيبالية تجسّد أرباباً متحدين جنسياً، وفي طقوس الدخول في بعض الطوائف التانترية (التلقين) كانت صورة الإلهة توضع في حضن الملقَّن الذكر، وساقاها مفتوحتان كتعبير عن الجماع الرمزي، ويعتقد أن القوة تنتقل من الصورة المفعمة بالطاقة الإلهية. والرايات الملوَّنة الشهيرة في التيبت غالباً ما تظهر عليها هيئة أنثوية نصف عارية في الوسط، وتحيط بها كائنات ومستلزمات اللذة الأخرى التي تشكل هدف الممارسات التانترية.

(*) وتعني حرفياً «القريبون من اليقظة أو من هم على أعتاب الصحوة». م.

من المفترض بمعتنقي التانترا أن يحرزوا الخلاص عبر محاكاة هذا التزاوج الإلهي مع شريكاتهم الإناث. وكان ثمة علاقات مناقضة للقوانين مع زوجة الغير أو مع عذراء أو ابنة أو أم أو حتى مع شيطانات مفترضات. وفي التانترا البوذية الهندية القديمة التي انبعثت مؤخراً في مناطق البنغال والتيبت، كان يوجد نساء مخصصات لتلقين الرجال الطقوس السرية للتانترا، ويدعين داكيني «رقيبات السماء»، أو اليوغيات الإناث، وغالباً ما كنَّ يُصوَّرْنَ بأشكال مروِّعة؛ نساء عاريات مثل كالي Kali أو عفريتات. ونساء كهؤلاء، مفعمات بقوة خارقة للطبيعة استُمدت من خلال الطقوس، والمضاجعات مع رجال دخلوا التانترية من قبل، يعتقد أنهن ينقلن طاقاتهن إلى الرجال الذين يبتغون التلقين عبر الاتصال الجنسي. وقيل إن بادما سامبهاڤا تناول تلقينه عبر مضاجعة إحدى الداكينات في محرقة جثث الموتى، وهو المكان الذي ينطوي على قوة رهيبة حسب التانترا الهندوسية.

عرضت كتب اليوغا التيبتية تمرينات يتمكن المريد بواسطتها من تحقيق الاتصال بالكائن الإلهي. وكان يتوجب عليه أن يتخيَّل نفسه ڤاجرا - يوغيني (Vajra-Yogini) ذاتها، قانية الحمرة، عارية كما لو أنها مجرَّدة من كل شيء في الدنيا، وفي أوج تفتّح بتولتها الطاهرة؛ فيراقص ساقها اليمنى المرفوعة، فيما قدمها اليسرى تطأ الجسد الذكري الذي يجسّد حالات الجهل كلّها. وڤاجرا - يوغيني لها ثلاث عيون، والثالثة منها عين البصيرة؛ فيما يدها اليمنى تشهر سكيناً مقوسة مشعّة، كي تبتر فيها كل الأفكار المشوَّشة، ويدها اليسرى، المستندة على ثدييها، تحمل جمجمة بشرية دامية، رمزاً لاعتزال الدنيا. وعلى رأسها تاج من الجماجم البشرية، وتطوق عنقها قلادة من خمسين رأساً بشرياً تقطّر دماً، قيل إنها تدل على انقطاع السمسارا Samsara، الحلقة المفرغة لتجدد الولادة والموت بشكل متكرر. إن الأطوار المرعبة لهذه الإلهة العارية، السوداء أو الحمراء، المماثلة لـِ كالي الهندوسية، كانت مُعدَّة للإيحاء بالخوف والزهد، ولخرق كل المحرَّمات، ومن المحتمل أنها ترقى إلى طقوس ومعتقدات تيبتية وهندية ما قبل تاريخية.

إن التأمل في الـ(يوغيني) أدى إلى استثارة الاهتياج البدني الداخلي. وإن المقطع الحرفي HAM ، وهو ضمير المفرد المتكلم لدى التيبتيين (أنا)، كان يُتخيَّل أبيضَ كلون المني الذي تَوَضَّعَ في الطاقة الحيوية إلى هذا الحد. والإلهة كونداليني، أي قوة الأفعى، تفيق من سباتها تحت السرَّة لتتّحد مع بعلها في النقطة الأعلى من الجمجمة. وكانت هذه إشارة رمزية لانتصاب القضيب، ولكن مع احتباس المني، أو «سائل القمر»، الذي كان يستحيل إلى طاقة بدنية ـ نفسية. والهدف من ذلك، كما في التمرينات الجنسية الأخرى ذات الطبيعة المشابهة، لم يكن قذف المني، بل تحوُّل الطاقة الفيزيولوجية (البدنية) إلى طاقة روحية، وبالتالي إحراز الخلاص(13).

يبدو أن الڤاجرايانا قد اندثرت في الهند مع حلول القرن الثاني عشر، مثلما أَفَلت البوذية قبيل انبعاث الهندوسية. إلا أن تعاليمها انتقلت إلى التيبت وانبثقت مع عبادات محلية، ثم امتدت إلى منغوليا فالصين حيث اعتنق قبلاي خان ومن أعقبه من الحكام المنغوليين في الصين، الصيغ التيبتية للبوذية. وقد أحاط قبلاي خان نفسه بخبراء تانتريين نصّبوه عاهلاً على العالم وفقاً للمراسم الطقسية التانترية. وقد روى علماء كونفوشيوسيون صينيون حكايات مرعبة من عربدات جنسية، وحتى عن تقديم قرابين نسائية دامية من بين المنغوليات. بيد أنهم كانوا منحازين ضدهم بالتأكيد، وجاهلين بمعتقداتهم وطقوسهم. وستجري لاحقاً مناقشة علاقة البوذية والتانترية بالتاوية الصينية والشنتو اليابانية.

تسرَّبت التانترا البوذية إلى جنوب شرق آسيا، ووصلت إلى جاوا في حوالي القرن العاشر. وقد عُرف في القرن الثامن ازدهار الشعائر الجنسية في بعض من الأديرة الوثنية العديدة في بورما؛ وفي القرن الرابع عشر ادَّعى رحّالة صينيون أن كل عذراء في كمبوديا ينبغي أن يفضّ بكارتها كاهن بوذي قبل زواجها، رغم أنه ليس من الواضح ما إذا كان هذا بفعل الطقوس التانترية أم أنه مرتبط بعرفٍ أقدم. إن غالبية هذه العادات قد انقرضت، وما تبقّى منها كنَّسته الشيوعية الصينية. وقد صُدم البوذيون الأرثوذكس بهذا الانتهاك المتعمَّد للمحرَّمات على يد التانتريين وتخيلاتهم المرعبة. فالتانترا، في أحسن حالاتها،

أفادت في إضفاء القداسة على الاتصال الجنسي، وعدّته صورة طبق الأصل عن وحدة الكون.

الزواج العادي والمبادئ الأخلاقية:

بدأت البوذية أولاً بمجموعة من التلاميذ تحلّقوا حول مؤسسها، في شكل نواة لأخوية رهبانية، وسرعان ما تطورت هذه الحركة فيما بعد إلى دين له أتباع كثر من الرجال والنساء شكلوا دعماً للرهبان. وكان الكثير من البوذيين العاديين والمترهبين يعرفون القليل، أو لا شيء البتة، عن الممارسات التانترية حتى في أوج ازدهارها، وما كان يُسمح للعضو المرشّح للتانترية بتكوين صورة عن الافتتان المَرَضي أو المرعب للشبق الجنسي.

في العهد الڤيدي كانت الزيجات تُرتَّب من قِبَل الأب، على الرغم من أن المرأة قد حظيت في ظل البوذية بدرجة ما من الاستقلال، فقد ازداد حضورها وزناً في اختيار الشريك، مع ذلك كانت النصوص لاتزال تتحدث عن آباء «يقررون مصير زواج بناتهم» وعن أولاد قيل إنهم ملزمون أيضاً بالحصول على موافقة ذويهم قبل الزواج. فالأميرة كانها Kanha طلبت من أمها أن تقنع أباها أن يعقد اجتماع «حرية الاختيار الذاتي»، «كي يختار لها زوجاً». وإذا ما أخفق الأب في إيجاد طالب ليد ابنته بعد أن تكون قد انتظرت تعليماته لمدة ثلاث سنوات، يصبح بوسعها في السنة الرابعة أن تختار بنفسها زوجاً لها، مكافئاً من حيث المنزلة[14].

كان يُنظر إلى البنات غالباً على أنهن أعباء غير مرغوب فيها، رغم أن بوذا كان قد واسى ملكاً وضعت زوجته أنثى، حيث قال له إنها قد «تتكشّف عن نتيجة أفضل» من الولد، لكن هذا لم يكن أكثر من قول معزول، فالواضح أن وجهة النظر القديمة هي السائدة. أما وأد البنات الذي كان لايزال يُمارَس في بقاع أخرى من العالم، فلا يبدو مطلقاً أنه ساد في الهند، ناهيك عن البوذية. وثمة إشارة طفيفة في النصوص حول زواج الأطفال، ومع ذلك هنالك قصة

تحكي عن فتاة دون الثانية عشر من عمرها، كانت عروساً حين رُسِّمت في أخوية رهبانية نسوية. وقيل إن البنات حين يبلغن السادسة عشرة من العمر «يتحرّقن ويَتُقْنَ للرجال»، فيبادر الأهل بسرعة لتزويجهن قبل أن يهربن بقصد الزواج دون موافقة ذويهن، مثلما كان يحدث أحياناً. والنساء اللواتي كن يبقين رهينات البيوت، ربما مارسن الجنس مع عبد، كما نقل عن امرأة فعلت ذلك حين جُنَّت بها نزوة الشباب والتوق إلى رجل.

كان موضوع ترتيب الزواج شأناً عائلياً، وقد رفض البوذيون العادات الهندوسية في استشارة العرَّافين، على الأقل في الفترة الكلاسيكية. وكان الآباء يقدّمون البائنة(*)، وبشكل رئيسي الثياب والحلي، أما الأغنياء منهم فكانوا يضيفون أشياء أخرى كثيرة بما في ذلك العبيد والماشية. وكان يُدفع مهر العروس(**) أيضاً للأهل، ويخفَّض في الزواج الثاني. أما مراسم العرس فكانت عائلية أو مدنية دون إشراف طقسي من قبل كاهن. وكان حفل الزفاف يعقد في بيت العروس، ويستمر لعدة أيام تبعاً للحالة المادية للأهل، وكانت تُعدّ له الأفراح والولائم، وبعد ذلك تذهب العروس مع زوجها «لتعيش في منزل أبويه»، حيث يفترض أن تكون «سعيدة» وأن تبدي الاحترام والتواضع لحمويها.

أما تقاليد الزواج في الوقت الحاضر فتختلف من بلدٍ إلى آخر، وحتى من إقليم إلى آخر. وغالباً ما يؤدي الرهبان طقس المباركة، وتستتبعه طقوس الزواج المدني، وفي بعض البلدان يكون تسجيله إلزامياً. وهذا من الممكن أن يحدث في المدن أكثر منه في القرى، «حيث التعايش المشترك بين الزوجين الشابين يُعتبر بمنزله ضمانة للزواج في عيون الجماعة البشرية»[15]. ومن وجهة قانونية كان للزوج اليد العليا في هذا الاتحاد الزوجي، ولكن مع الاحتفاظ بحق كل من الشريكين في ممارسة طقسه الديني الخاص بوصفه شأناً فردياً.

(*) dowry = وتعني معجمياً بائنة أو مهر. م.

(**) bride-price وتعني ثمن العروس. فاعتبرنا الأولى ما يُدفع لها من أهلها، والثانية مهراً، يدفع للأهل. م.

إن الواجبات المتبادلة بين الزوج والزوجة نُصَّ عليها في أحد الأجزاء الرئيسية من الكتاب المقدس البوذي. ينبغي على الزوج أن يساعد زوجته وفقاً لخمس طرائق: الاحترام، الكياسة، الإخلاص، منحها الحلي، إطلاق سلطتها على أهل البيت. وينبغي على المرأة أن تساعد زوجها وتحبه بطرائق خمس: عبر القيام بواجباتها كما ينبغي، وأن تكرِم أقاربهما معاً، وأن تكون مخلصة، وأن تسهر على مصلحته، وأن تكون دؤوبة في جميع أعمالها[16].

تم إيضاح تقاليد البوذية المتطورة في حكايات جاتاكا. من المفترض أن تعدد الزوجات عُرف بصورة رئيسية عند الأغنياء وذوي النفوذ، لكنه كان يلقى الاستحسان. كان هنالك بَرْهَمِي لديه أربع بنات، فجاءه أربعة خُطَّاب على التوالي: وسيم، وعجوز، ونبيل، وفاضل. فلأيّ خاطب منهم ينبغي أن يعطي بناته؟ استفسر من معلم بوذي فقدَّم له جواباً معيارياً يقول إن الفضيلة هي القيمة الأسمى، فكان أن زوَّج الرجلُ بناته الأربع للخاطب الفاضل. وانتهت الحكاية بقول بوذا: «أنا كنت ذلك المعلّم الشهير»[17].

على الرغم من أن البوذية عارضت التقسيمات التي جددها نظام الطبقات، ووسَّعت من حرية النساء، فلا تزال الهيمنة التقليدية للذكور قائمة. إذ كانت المرأة تابعة للرجل وملكاً له، وكما ورد في أحد المراجع، إنها «لم تكن أهلاً للاستقلال قط». وقد أوردت الڤينايا لائحة بعشرة أصناف من الزوجات: أولئك اللواتي كنَّ يُشتَرَيْنَ بالمال، اللواتي يعاشرن بطيبة خاطر، اللواتي للمتعة أو للعلاقات العَرَضيّة، اللواتي ينسجن الثياب، اللواتي يزودن البيت بالماء، اللواتي يحملن وسادة كعكية على الرأس لنقل الأواني، اللواتي هن جوارٍ وزوجات، اللواتي هن حرفيات بارعات وزوجات، اللواتي هن سبايا، وأخيراً أولئك اللواتي هن زوجات بصورة مؤقتة أو لحظية. إن مِحن تعدد الزوجات سبق أن أشير إليها في قصائد تعتبر أن قدر المرأة يُرثى له عندما يَشاركها في المنزل زوجات أخريات[18].

قامت البوذية الكلاسيكية بتقديم دروس العفة لكلا الزوجين. ويقال إن

بوذا قد نصح قائلاً: «فليتجنب الرجل الحكيم الحياة غير العفيفة كما يتجنب كومة جمر مشتعلة؛ فإن لم يكن بوسعه أن يعيش حياة العفّة، عليه ألّا ينتهك حرمة زوجة رجل آخر». وأيضاً «مثلما يخترق المطر سقف بيت رديء الصنع، كذا الهوى يشق دربه إلى العقل الطائش». لأن «الأهواء مسرّاتٌ ضئيلة، تولّد الألم في الرجل الحكيم». لكنّ هكذا عِظات كانت موجهة للرهبان كما للناس العاديين، ولو بصورة أقل[19].

تروي إحدى حكايات جاتاكا عن أميرة كانت طاهرة الذيل تماما، لكنها أطلّت ذات يوم من نافذةٍ فوقع بصرها على أحد نواب الملك. وكان وسيماً؛ ويجلس خلف الملك على ظهر فيل. ووقعت في حبّه، وخطر في ذهنها أنه لو مات زوجها، سيكون بوسعها أن تتزوج من نائب الملك، لكنها تذكّرت أنها متزوجة فاجتاحها الندم. وأعلنت ذلك لبعض البراهمة فطمأنوها أن ذلك أمر بسيط، وأنها لم تنتهك العفة لمجرّد مرور هذا الخاطر. مع ذلك ظلّت، هي نفسها، تهجس بأن عفتها ما عادت تامة[20].

ينبغي على البوذيين جميعاً الالتزام بالوصايا (المبادئ الأخلاقية) الخمس، (سيلاس Silas):

1 ـ ألّا تقتل كائناً حياً.

2 ـ ألّا تسرق.

3 ـ ألّا تنغمس في الرذيلة.

4 ـ ألّا تكذب.

5 ـ ألّا تتعاطى المسكرات.

وذكرت جاتاكا نفسها (قصص الميلاد) أن جميع سكان المملكة تقيّدوا بالوصايا الخمس، بما في ذلك، وياللغرابة، المومسات. وخدمةً لموضوع الحكاية، تقدَّم إندرا، سيّد الآلهة، من مومسٍ، في هيئة شاب وأعطاها ألف قطعة نقدية، ووعدها بأنه سيعود إليها سريعاً، إلّا أنه عرّج إلى السماء وبقي ثلاث سنوات

لكنّها ظلت مخلصة له «إكراماً للشرف»، وأنفقت المال تدريجياً إلى أن أصبحت مُعدمةً. وفي النهاية توجهت إلى رئيس القضاة. وقصَّت له حكايتها، فقضى لها بجواز العودة إلى عملها السابق في البغاء. انصرفت المومس، فبادرها على الفور رجل وعرض عليها ألف قطعة نقدية أخرى، وبينما كانت تمدّ يدها، أفصح إندرا عن نفسه وأطرى على وفائها، فاعترضت المومس قائلة إن عفّتها لم تعد تامة مذ مدَّت يدها ثانية، إلا أن البراهمة أكدوا لها أن مجرّد مدّ اليد لا يُعدُّ انتهاكاً للعفة.

كان لدى بوذا نفسه عدة مريدات، إحداهن أمبابالي وكانت مومساً. دعت بوذا إلى مأدبة، «فأعطى موافقته بالصمت». وحضر مع عدد كبير من تلاميذه، فطُعِموا جميعاً، وجلبت المومس كرسياً خفيضاً وجلست بجانب بوذا فراح يعظها بحديث ديني أبهج قلبها، ثم غادرت بعدئذ. فأبلغ بوذا تلاميذه، بأن العقل المستنير منعتق من أدران الشهوات الحسية، والاستحالة(*) والوهم والجهل[21].

وظهرت مومسات أخريات في تاريخ البوذية، أحياناً كن يعشن على شكل مجموعات، ويتمتعن بين وقت وآخر بثروة كبيرة. ولم تُدَنْ مهنتهنَّ بشكل صريح قط، إذ كانت ترد في ذيل قائمة المهن الأخرى، أي أنها تُعدّ في مرتبة دنيّة أكثر مما هي موضع لوم. ففي البوذية، وفي الفكر الهندي بوجه عام، كانت البغي تنجز عملها (كارما) شأنها شأن كل الطبقات في المجتمع. ولا بد أنها تناسخت إلى هذا القميص الوضيع بسبب إثم ارتكبته في حياة سابقة، ولكن ليس بالضرورة أن تبقى فيه، إذ يمكنها أن ترتقي إلى مرتبة أسمى في حياة لاحقة، من خلال الممارسة الفاضلة. فقد تحوَّلت بعض المومسات إلى راهبات، ولكن رُوي عن واحدة فقط أنها اهتدت بفضل وعظ أحد الرهبان البارزين، حيْن كان يتحدث عن قذارة الجسد لثنيها عن الاستمرار في مهنتها.

(*) تغيُّر الحال وتبدُّله. م.

شكّلت أخوية الراهبات فرصة وملاذاً لشتّى أنواع النساء، وربما بشكل خاص لأولئك اللواتي كن بلا حماية، كاليتيمات وغير المتزوجات والأرامل والأرامل الفعليات (بحكم الواقع). ولكن في السنوات المبكرة، على الأقل، قدم عدد من الراهبات من أسر ملكية أو ثرية أو متنورة. بعضهن غدون مبشّرات شهيرات، وقيل عن واحدة منهن إنها كانت حكيمة، بارعة، داهية، واسعة الاطلاع، خطيبة مفوَّهة، وحاضرة البديهة. وتبرز المختارات الشعرية أو الترانيم خصائص نسائية كهذه، بيد أن الرهبان الذكور كانوا على طول الخط الأبرز أهمية بين نوعي السنغا (الأخوية)[22].

إن الدراسات الغربية التي ظهرت في القرنين التاسع عشر والعشرين، قدَّمت البوذية بوصفها منظومة أخلاقية أكثر مما هي ديانة، وأنها بلا إله ولا روح (جوهر روحي)، وتشتمل على أخلاق إنسانية بسيطة معدَّة للمثقفين. إن عرضاً كهذا لم يكن قادراً على تبيان كيف صارت البوذية ديانة تغطي نصف آسيا. وبجرَّة قلم عُدّت المعابد بيوت أوثان تقوم على الخرافة، أما التانترا فغير أهل للذكْرِ. ولم يُعترف بالانتشار الواسع للديانة البوذية ومواقفها من الجنس إلا في السنوات الأخيرة.

عكست البوذية الشعبية في فنها الكثير من المواقف الهندية العامة. كان تمثال بوذا المنحوتة الرئيسية في مجموعات النحت، رغم أن صورته البشرية لم تكن تمثّل أو تصوَّر في القرون المبكّرة، وإنما يُرمز إليه بحذائه أو مظلته. لكن الأشياء الملازمة لبوذا كانت تشابه تلك التي تُرى في الكثير من المنحوتات الهندوسية؛ ملوك وعامة (سواد الناس)، رجال ونساء، حيوانات وشياطين. فالبوابات الحجرية العظيمة لـ سانتشي لاتزال تُظهر صفاً واسعاً من التماثيل البشرية، بما في ذلك فتيات عاريات بفروج واضحة تماماً (Yonis)، وفي الكثير من المراكز الرهبانية في أجانتا وأمارافاتي ثمة تماثيل نسائية عديدة تبرز الجنس أيضاً. وما يثير حيرة أولئك الذين يتصوَّرون البوذية ديانةً إلحادية، ظهور تماثيل

الآلهة بشكل دائم، فحتى هذا اليوم تُرى تماثيل ڤيشنو أو شيڤا أو إندرا داخل المعابد البوذية في مناطق جنوب آسيا، يتوسطها مع ذلك تمثال بوذا.

اشتملت البوذية في فنونها وأساطيرها على تجارب إنسانية غنيّة. وإذا كان الأمر على هذا المنوال فيما يخص مدرسة تراڤادا Theravada[*] البوذية في الهند وجنوب آسيا، فإن هنالك لوحات أكثر تعقيداً استُمدت من الحياة البوذية في الصين واليابان، وفي البلاد الشمالية حيث ازدهرت البوذية لزمن طويل، بيد أن المواقف البوذية نحو الجنس سيكون لها شأنها الكبير في هذه المناطق.

(*) وتعني مدرسة الشيوخ، وكانت مسيطرة في سيريلانكا، وقد اعتمد أتباعها المحافظة على الكتب المقدسة. م.

هوامش المؤلف للفصل الثالث

1 – Digha Nikaya, ,2.52 and Nidanakatha.
2 – Mahavastu, 2.1 f., and Lalita–vistara.
3 – Mahavastu, 2.1.
4 – Digha Nikaya, ,3.106 etc.
5 – Brihad–aranyaka Upanishad, 3.5.
6 – Digha Nikaya, 1.62 ff.
7 – Ma,hima Nikaya, 1.55 ff.
8 – Digha Nikaya, 2.141.
9 – Vinaya, 21.,1.10
10 – Jataka, 66.
11 – M. E. Spiro, Buddhism and society, ,1971 pp. 366 f.
12 – J, Bunnag, Buddhist Layman, ,1973 pp. 30 f.
13 – W. Y. Evans–Wentz, Tibetan Yoga and Secret Docret Doctrinesl,968 pp. 173 f., 191 f.
14 – See I. B. Horner, Women and Primitive Buddhism, ,1930 pp. 19 ff.
15 – J. de. Young, quoted in J. Bunning, Buddhist Monk, Buddhist Layman, p. 15.
16 – Digha Nikaya, 3.190.
17 – Jataka, 200.
18 – Vinaya, 3.139 f. See I. B. Horner, Women and Primitive Buddhism, pp. 43 ff.
19 – Dhammapada, 13 f., 186 f.
20 – Jataka, 276.
21 – Digha Nikaya, 2.97.
22 – I. B. Horner, op. sit., part II.

الفصل الرابع

تقاليد هندية أخرى

لم تكن الهندوسية ديانة مُحكمة التنظيم، ذات سلطة إكليركية مميَّزة، وإنما مجموعة واسعة من التيارات الدينية. وقد تأثرت الديانات الهندية الأخرى بالكثير من مواقفها، كما لاقت مثلها العليا وتعاليمها قبولاً عاماً. فـ راما و سيتا كانا نموذجين للشجاعة والفضيلة الزوجية تردّد صداهما خارج حدود الهند، وظهرت الآلهة الهندوسية في التقاليد الهندية الإصلاحية أيضاً.

التزهُّد الياني (الجانتي)

ظهر الدين الياني Jain في التاريخ بالتوازي مع البوذية الهندية، مع أن اليانيين يعتبرون ديانتهم أبدية. كان مهاڤيرا Mahavira «البطل العظيم»، معاصراً لبوذا تقريباً، وقيل إنه الأخير في نسق من المعلمين يرقون إلى ملايين السنين. وهؤلاء كانوا أربع وعشرين يانياً، ويدعون (الفاتحين)، أو (صانعي المخاوض) Tirthankaras. ويعتقد بعض العلماء أن اليانية والبوذية على السواء قد حافظتا على بعض من عناصر الديانة الهندية القديمة، المتحدّرة جزئياً على الأغلب من وادي السند، والتي تختلف عن الديانة الآرية الڤيدية.

كانت اليانية أكثر زهداً من الطريق الوسط ـ البوذي، وكانت تُعتبر إلحادية، أو إلحادية متطرفة، لأنها كانت تشتمل على آلهة هندوسية، بيد أنها

تضعها في تبعية مؤسسي اليانية Jainas كان أَبَوَا ماهاڤيرا من حواريي ياني السابق، بارشاڤا Parshava، وقد عاشا نظام حياة صارم جداً، ورفضا أخيراً كل أنواع الطعام وجاعا حتى الموت، وبالتالي تجنَّبا القيام بأي فعل Karma من شأنه أن يعيدهما إلى التناسخ. فاستحالا إلى إلهين، وكان لا بد لهما في النهاية من بلوغ الكمال المطلق، والتحرر من كل ضروب الألم، وتحقيق النيرڤانا (السعادة القصوى)[1].

يقال إن ماهاڤيرا، مثله مثل بوذا، هبط من السماء، وتخلَّق جنيناً في رحم أمه. بعدئذ لم يستطع الكتَّاب الرهبانيون إلّا أن يزيِّنوا هذه القصة التزهدية بتفاصيل حسيَّة. كانت الأم قد رأت أحلاماً ميمونة، ومن بين أربع عشرة علامة مبشِّرة بالخير، رأت الإلهة الكبرى شري Shri[*] التي وُصف جسدها في الأسفار المقدسة بعبارات مفعمة بالحرارة: كانت يَداها وقدماها كأوراق اللوتس، ولها ساقان رشيقتان، وركبتان بغمازتين، وفخذان مكتنزان كجذع فيل، وبطن واسع جميل يكسوه زغب أسمر ناعم، وخصر نحيل يمكن ليدٍ واحدة أن تطوِّقه، وثديان كما كُوْبين، ووجه فتَّان، وعينان صافيتان كسوسنات الماء، وضفائر سوداء لامعة[2].

بعد امتداحٍ جماليّ كهذا، لا عجب، ربما، أن تغادر الأم ـ المُنْتَظَرة سريرَها «بمشية رشيقة أشبه بـإوزة ملكيَّة»، وتقصّ أحلامها على زوجها. إلا أن ما جرى كان حدثاً تمهيدياً غريباً، حيث لأول مرة تحبل امرأة براهمية من زوج براهمي، من خلال التمتّع «بالملذات الحسية النبيلة المتاحة للطبيعة البشرية، ولكن الجنين انتقل بعدئذ بمشيئة الآلهة إلى رحم الحكام الكشاتريين، وبذلك تحرَّرا «من كل عناصر الرجس» وأثمرا «عناصر الطهارة». إن طفلاً وليد المقايضة كهذا يظهر أيضاً في حكايات كريشنا، لولا أن الحال هنا قُدِّر له كما يبدو، أن يعطي للمجتمعين البراهمي والكشاتري طفلاً هو الأفضل بلا منازع.

(*) الإلهة شري أو سري: ربَّة الثراء. م.

استدعى الزوج الكشاتري، وهو والد مهاڤيرا في النهاية، استدعى مفسّري الأحلام كي يقدّموا تأويلاً لما حدث مع زوجته، فأعلنوا أن الطفل سيغدو، شأنه شأن بوذا، إما حاكماً على جميع البلاد وإما ياني (فاتحاً)(*). ولد الطفل عند طبقة الحكام المحاربين هذه، مكتملاً وجميلاً، في ليلةٍ حين «حدث نور إلهي مقدس ولّده صعود ونزول آلهة وإلهات بشكل متواتر»، في روعة كونية مشبعة بنورٍ فريد. ترعرع ذكياً وعلى قدرٍ عظيم من الجمال، متحكّماً بحواسه، محفوظاً ومتواضعاً. وعاش كما يعيش رب الأسرة، وتزوج من امرأة تدعى ياشودا، أنجبت له ابنة. بيد أن طائفة ديغامبارا Digambara رفضت هذا الزواج، مادام التبتُّل يحتل مرتبة أرفع.

في الثلاثين من عمره، وبعد أن التحق أبواه بعالم الآلهة، تخلّى عن مملكته وممتلكاته لصالح أخيه. غادر إلى حديقة عامة، وهناك خلع ملابسه وحليه المبهرجة، واقتلع شعره بجُمْع كفّه خمس مرات ليدخل عالم التشرُّد. كان مهاڤيرا يظل مرتدياً ثيابه لمدة عام، فيسير شبه عارٍ ويتقبّل الصدقات براحة كفه. وقد أهمل جسده لما يزيد عن اثني عشر عاماً، وبعدئذ بلغ درجة الاستنارة، فصار ياني Jina، العارف بكل شيء عن الآلهة والبشر. كان يطوف في كل مكان، معلّماً الشرائع للآلهة والناس إلى أن توفي في الثانية والسبعين من العمر، وأصبح كاملاً، وأحد البوذات، متحرّراً ومنعتقاً من كل الآلام في النيرڤانا (الغبطة أو السعادة القصوى) المطلقة.

كانت اليانية نظاماً تزهدياً صارماً، ورغم أنها كانت تتطلب شريحة واسعة من المؤيدين العاديين، إلا أن الراهب فقط كان بوسعه إحراز الخلاص الكامل. فبلوغ النيرڤانا يلزِم المرء بأن ينبذ كل ما يقيّده، بما في ذلك ثيابه. فالغرفة الرئيسية في اليانية تبنّت نظام العري، وكان يسمح لمن هم في الجزء الشمالي البارد من الهند بارتداء الثياب البيض، وكانوا يدعون طائفة شڤيتامبارا Shvetambara أي «ذوي الأردية البيض»، في حين أن الطائفة

(*) يقصد هنا زاهداً وهي صفة تطلق على مؤسسي اليانية وتعني أيضاً الظافر... م.

الأكثر تطرفاً والتي يتحرك أعضاؤها عراة على نحو دائم، فكانوا يدعون ديغامبارا Digambara أي «المتدثرين بالسماء». على أية حال، فإن معظم الرهبان في الوقت الحاضر، ومن كلا الطائفتين، يرتدون الثياب، علي الأقل في العلن. وهنالك حركة دينية معاصرة تدعى اجيڤيكاس Ajivikas حظّرت ارتداء الثياب، بما في ذلك ستار العورة. لكن اليانيين لازالوا يؤكدون بأن العري مبدأ أساسي لبلوغ النيرڤانا التي لم يبلغها إلّا قلّة، إن لم يكن لا أحد، في هذه الأيام.

يعيش الرهبان والراهبات اليانيون حيوات زاهدة إلى حدٍ بعيد. فشعورهم لا تقصّ قصّاً، وإنما تُقْتَلع عند التلقين، ويأكلون من الطعام أقلّه، ويصومون كثيراً، حتى أن عدداً كبيراً من الرهبان قضى نحبه جوعاً. ويقطع الرهبان على أنفسهم خمسة عهود.

- ألّا يزهق روحاً.
- ألّا يسرق.
- ألّا يكذب.
- ألّا ينغمس في أرجاس الجسد.
- ألّا يرغب في امتلاك شيء.

إن النهي عن إلحاق الأذى a-himsa(*) الذي يجري تفسيره حالياً بعدم ممارسة العنف بوجه عام، يؤخذ به حرفياً أكثر مما هو الحال في ديانات هندية أخرى. فأكل اللحم وقتل أي كائن هي محرّمات على الرهبان وعامة الناس على السواء. ولا يمكن لليانيين أن يصبحوا مزارعين مخافة قتل حيوانات أو حشرات، ولذلك كان الكثيرون منهم تجاراً حققوا ثروات كبيرة. وكان الرهبان مُوَسْوَسين حيال إلحاق الأذى بكائن حي، ويرتدون أقنعة على أفواههم، وينظفون الأرض أمامهم حفاظاً على حياة الحشرات.

(*) وردت بمعنى النهي عن القتل Not killing ، في حين تعني هنا عدم إلحاق الأذى، وهو المعنى المرادف للكلمة السنسكريتية Ahimsa م.

كان الرهبان اليانيون يتلقون تحذيرات شديدة عن المخاطر التي تأتي من النساء: «إن من يجامعون النساء ليسوا أكثر من أرباب بيوت في أحسن حال، لكنهم ليسوا رهباناً أبداً». لأن «الرجال في هذه الدنيا تواقون فطرياً إلى النساء»، ومن ينبذهن يمكنه ببساطة أن ينجز واجبه الرهباني. ويدرك الرجل الحكيم أن «النساء لوثة»، وأنهن أشبه بالزعرور السام». وقد ورد في حيثيات الإغواء أن النساء يختلقن ذرائع ماكرة؛ فيكشفن عن آباطهن أو عن الأجزاء السفلية من أجسادهن، أو يغرينهم بأسرَّة وثيرة. وينبغي على الراهب ألّا ينظر إليهن أو يمشي معهن، أو يذهب إلى بيوتهن بدون رفيق، أو ينفرد بحديث مع بناته أو خادماته أو الراغبات في أن يغدون مريدات. فأولئك الذين تحدَّثوا إلى نساء كفُّوا عن أن يكونوا وسطاً بين رب البيت والراهب، رغم أن البعض قد حاولوا التسامح مع أنفسهم باتخاذ هذا الموقع الوسط. وقد فُرضت عقوبات مشددة على الزناة تضمّنت بتر الأيدي والأقدام، رغم أنهم قد يتعرضون في الغالب لعقوبات القانون المدني بدلاً من العقوبات الرهبانية.

أما عقوبة الاستبعاد (التخفيض إلى مستوى العبد) التي قد تنزل بالراهب في حال انغماسه في حب امرأة فقد فُصِّلت بشكل جلي. فيما لو أفلحت المرأة في أسر لبّه، من الممكن لها أن تكلّفه بكافة الأعمال: أحضر لي بعض الفاكهة، لقِّم النار بالحطب، ادهن قدميَّ، دلِّك ظهري، ابتع لي بعض العطور والحلي والمساحيق، اشترِ لي مظلَّة وخفّاً ومروحة ومشطاً ووشاحاً ومرآة وفرشاة أسنان وحبَّ الكوثل(*) وإبرة وخيطاً ومبولة وسلَّة وملاطاً وقدر ماء. وقد يؤمَر الرجل بحفر مرحاض، أو حمل طفل، أو الاستيقاظ في الليل كي يهدهد له لينام، كما تفعل المربية، أو غسل الثياب كما عمال المصابغ، ويصبح بالتالي دابَّةً للحمل أو شخصاً لا قيمة له. وبناء على ذلك ينبغي على الراهب ألَّا يكترث بتوسلات النساء، وأن يكون مدركاً لخطورة رغباتهن التي لن تكون في صالحه مطلقاً، ولا

(*) betel - nut: بذرة الفوفل أو الكوثل وهو شجر من النخليات. المورد.

بدَّ له بالتالي من أن يأنف عن النساء، وأن يتجنَّب أي فعل شائن، ويقهر الإثم والوهم، ويهيم في البلاد إلى أن يبلغ الانعتاق النهائي[3].

وبمقتضى ذلك فإن النساء «شياطين أنثوية» تطلع من صدورهن نتوءات لحمية. لا تركن عقولهن على حال، يغوين الرجال، ويجعلن منهم ألعوبة كما لو أنهم عبيد. أما كيفية وضع حدٍّ لهذا الضلال العقلي فقد توضّح في قصة الملك (نامي) الذي بعد أن انغمس باللذات الحسيّة الفائقة، «بصحبة السيدات الجميلات في جناح الحريم»، كي يباري أولئك الذين في السماء، غدا مستنيراً بالقياس إلى طبيعتهم الحقيقية. فنصَّب ابنه ملكاً على العرش واعتزل الحياة الدنيا، ولجأ إلى مكان مقفر. واستحالت المملكة إلى حالة من الفوضى، فهبط إندرا، ملك الآلهة، كي يتبيَّن حقيقة ما كان يجري. وأبلغ نامي أن قصره تلتهمه النيران، وينبغي عليه أن يهتم بحريمه، لكن نامي أجابه بهدوء: «إننا سعداء، نحن الذين لا نملك شيئاً، فعندما تحترق المدينة، ليس لدي ما تلتهمه النيران؛ وفيما يخص راهب تخلّى عن أولاده وزوجاته، وانقطع عن كل عمل، لن يسرَّه أو يؤلمه شيء مما يحدث؛ فأثنى إندرا على الزاهد الملكي، وأبدى له التبجيل مراراً، ثم عرّج عائداً إلى السماء، «فيما أقراطه وتاجه يتردّد صداها الجميل»[4].

كما أن اليانيين من العامة التزموا بعهود خمسة مماثلة لعهود الرهبان. فقد فُسّر عهد العفة على أنه ينبغي على الرجل أن يبقى مخلصاً لزوجته على طول الخط، وألّا يعقد على فتاة قاصر، أو يقيم علاقة عابرة مع امرأة لايمكنه الزواج منها. كان الكهنة البراهمة يُعتبرون رجال دين مكرّسين لخدمة اليانيين العاديين، ويشرفون على طقوس الزفاف والولادة والموت. أما سن الزواج فيختلف بين طائفة يانية وأخرى؛ فالبنات يُزوجن عموماً في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، والأولاد في سن التاسعة عشرة أو العشرين، مع أن طائفة ديڤامبارا كانت تزوج بناتها في العاشرة أو الحادية عشرة من العمر. وأجازت طائفة شڤيتامبارا الزواج الثاني، خلال وجود الزوجة الأولى على قيد الحياة، في حال

عدم إنجابها للأطفال، لكن الديغامبارا كانت عادةً ترفض ذلك. أما تحريم زواج الأرملة فقد أجمعت عليه جميع الفرق بوصفه تقليداً هندياً عاماً، لأن الشخص الذي تحرّر من كل القيود الدنيوية لا ينبغي عليه أن يسعى إليها مرة أخرى(*). مع ذلك فقد سمحت الفرق جميعها للمترمّلين بالزواج. ولم يكن ثمة تقليد ياني بصدد عزل النساء، ولكن بتأثير الإسلام تبنّى اليانيون بعض أشكال نظام الحجاب الهندي، وكان ذلك بمنزلة تحصين للمرأة ومؤشر على منزلتها الاجتماعية الرفيعة[5].

وبحكم حرمان اليانيين العاديين من الكثير من الأعمال، فقد أصبحوا أغنياء في الأشغال التجارية، وتشهد المعابد اليانية البديعة، ذات الزخارف الباذخة، على سخاء الملوك وشيوخ التجار. وهذه المعابد الخلّابة المنتشرة في بقاع عديدة من الهند تثير الدهشة نظراً لارتباطها بديانة لاتكترث بمتع الحياة الدنيا. والمعابد الأكثر شهرة من بينها تقع على جبل (آبو) الذي تتوّج قمته المباني المنيفة. كما وتنتصب تماثيل عملاقة في أماكن أخرى مثل غواليور، وقد نُحتت بين القمم والسفوح؛ وكذلك في منطقة (شرافانا بلغونا) جنوب الهند حيث يرتفع من قلب ساحة مكشوفة تمثال هائل لذكرٍ عارٍ، يبلغ ارتفاعه سبعة وخمسين قدماً. وترى على جانبي هذا التمثال العملاق الياني كثبان نمليّة، وتعلو ساقيه وفخذيه نباتات متسلّقة، رغم أن ملامح الصرامة مطبوعة على وجهه.

من بين معابد خاجوراهو، ثلثها على الأقل خُصِّص لـ (ياني)، وقد زُيِّنت بصفوف من التماثيل المنحوتة. وقد كُرِّس الأضخم من بينها لليانى الثالث، بارشفا Parshva وفيه عدد كبير من التماثيل معظمها تقريباً يبرز العري الذكوري والأنثوي، بشكل مشابه للمعابد الهندوسية المجاورة. وبعض تلك التماثيل تُظهر فتياتٍ بكامل زينتهن، إحداهن تنتزع شوكة زعرور من قدمها؛ وثمة ثنائي لطيف يتكوّن من رجل وامرأة، كلٌّ منهما منحنٍ نحو الآخر؛ المرأة

(*) حسب التقاليد الهندية أن المرأة (الأرملة) ينبغي أن تمتنع عن كل متع الدنيا قاطبة. م.

مشدوهة في بحر من الهيام، فيما ذراع الرجل تطوّق خصرها، ويده فوق ثديها العامر.

تحتوي الشروحات التي تتناول الرسوم والكتب اليانية على الكثير من الأفكار المماثلة لما ورد عند الهندوس. فالصليب المعقوف كان رمزاً قديماً مشتركاً في الهند، ويُقال بأنه مستمَدّ إما من أشعة الشمس أو من اليوني، أما المقطع اللفظي السحري أوم OM فكان بمنزلة نويّات للعديد من المخططات التانترية للهندوسية واليانية. وقد صَوَّرت المخططاتُ الكونية اليانية الكونَ في سبعة محيطات منفصلة، وفُسِّرت على أنها الجسد الكوني والـ (أوم) مركزه. أما المخططات الكونية الهندية، والتي كان معظمها يانياً، فقد أوضحت الأفكار الهندية بوجه عام دون أن تولي اهتماماً خاصاً للتانترية. وكانت عقلانية وتفتقر إلى النزعة العاطفية التانترية، مع ذلك أمكن استخدامها من قبل التانتريين بوصفها أجساداً بشرية وكونية على السواء. كما أن اليانية قبلت بعض الطرائق التانترية، ولكن ليس طرائق «الجناح اليساري» قطعاً. والتعاليم التانترية التي ترقى إلى القرن السادس، إن لم نقل قبل ذلك التاريخ، والتي أفضت في النتيجة إلى صياغة النصوص الهندوسية والبوذية، كان لها تأثيرها على فن صنع الأيقونات اليانية، وأدى بالتالي إلى تطوير طقوسهم ومجمعات آلهتهم.

كانت المعابد اليانية تحتوي على تماثيل كثيرة، وكان تمثال ياني هو الرئيسي بينها، حيث يقابله الحجر القضيبي في معبد شيڤا الهندوسي. ويبرز على قبة هذا التمثال المركزي برجٌ يمثل قبة العالم، ماونت ميرو Mount Meru. وبعيداً عن المركز تترامى القارات والبحار في المخطط الكوني، أما الأجزاء السفلى المائلة فتعجُّ بكائنات سماوية وأرضية. ووفقاً للمذهب الياني فإن البشر يواصلون الجهاد للارتقاء إلى الأعلى من خلال ملايين التناسخات، علماً أن اليانيين يعتبرون أن هنالك وفرة من الأرواح، خلافاً لوجهة النظر الهندوسية والتانترية التي تتبنى فكرة أن الأرواح الفردية قاطبة هي شرارات منبثقة عن روح مطلقة وحيدة. والأرواح الفردية اليانية من الممكن أن تبلغ جميعها النيرڤانا،

بوصفها منعتقة من قيود الكارما (الفعل)، لتعيش في عزلة أبدية في قمة الكون. وتصوِّر الأيقونات اليانية الروحَ المنعتقة على شكل رجل عارٍ دون أي تلوين.

ربما كان التطرف التزهدي لدى اليانيين سبباً في قلة عددهم، فهم اليوم يعدُّون أقل من ثلاثة ملايين من أصل حوالي 600 مليون هندي وفقاً لآخر إحصاء سكاني(*). حتى أن الطريق الوسط (الاعتدال) البوذي، الذي ازدهر على نطاق واسع في الهند لما يزيد عن ألف عام، تعرَّض إلى إبادة فعلية من قبل الهجمات الإسلامية التي اعتدت على الأديرة والنصب التذكارية، وكذلك، وبصورة أكبر، على يد الهندوسية المنبعثة، والتي اجتاحت الهند بكاملها، مصحوبة بالنداء الحماسي لشيڤا وڤيشنو وتجسيداته. ونجى اليانيون، بأعداد قليلة، ربما لأنهم كانوا أقل اعتماداً على أنظمة الدير مما في البوذية، وكذلك بسبب دعمهم من قبل بعض المؤيدين العاديين من ذوي النفوذ.

الرجولية (الفحولة) السيخية(**):

منذ القرن الخامس عشر بدأت الحياة الدينية تضطرب في وسط وشمال الهند على يد حركات دينية نهضوية مستقلة، وخاصة بين أوساط أتباع (كبير) Kabir (1440 - 1518)، وناناك Nanak (1469 - 1539)، رغم وجود فرق أخرى عديدة. كان (كبير) نسَّاجاً، مسلماً، ينتمي إلى الطبقة الدنيا، وموطنه بنارس Benares، وهو الذي تخطَّت نظرته حدود الآلهة الأنداد والمعابد، متجاوزاً الهندوسيين والمسلمين، ومتطلّعاً إلى الإله الواحد الذي تكثَّفت عبادته في أحرف كلمة بريما Prema «المحبَّة». وقد استخدم (كبير) مصطلحات ورموز التانترا، إلا أنه رفض طرائقها وممارساتها بوصفها تحريفية وعديمة الجدوى.

(*) يُقصد آخر إحصاء اعتمده الكتاب الذي بين أيدينا. م.

(**) مشتقة من السيخ (Sikhism) وهي جماعة دينية في الهند والباكستان، أسسها المعلم الروحي (ناناك 1469) نادت بالوحدانية والتقارب بين جميع الأديان، عارضت نظام الطبقات المغلقة بالهند والنظام الكهنوتي.

في الأسطورة الشعبية لشمال الهند كان الرجل والمرأة المثاليان هما السور Thesur، البطل راجبوت Rajput الذي قاتل في أرض المعركة حتى الموت وفاءً لعهده، وساتي Sati، زوجته المخلصة التي ارتقت المحرقة المأتمية كي تتَّحد من جديد مع زوجها في موته. استخدم (كبير) هذين النموذجين للتعبير عن المثل العليا للإخلاص والمحبة الحقيقيين لله. ولكن رغم أن (كبير) تزوج وأنجب أطفالاً، إلا أن آراءه حول الجنس والحياة العائلية كانت تشاؤمية ومتعصّبة. إذ كان يعدّ المرأة «أتونَ الجحيم»، «كوبرا سوداء»، «ثمرةً سميّة»، «ناراً تلظّى».

كانت بعض هذه الكلمات اللاذعة بمنزلة تحذيرات لمنع الاتصال بزوجة الآخر، التي «تشبه تماماً أكل الثوم»، لأنها «شفرة حادة لا ينجو منها إلّا القلائل». وبعدئذ هاجم (كبير) العلاقات الجنسية بشكل عام:

«كل فعل يشترك به الرجل والمرأة هو الجحيم بعينه، مادامت الرغبة مهماز الجسد»، لأن المرأة تقوّض كل شيء. «فحين يقع رجل في حب امرأة، يطيش صوابه ورجاحة عقله». وهذا لا ينسحب على الزُّناة وحسب، فالرجل الشهواني العادي أيضاً يفقد الخجل»، حتى أن «العلماء أصبحوا فاقدين لماء الوجه»[6].

وبالتالي فقد واصل (كبير) تقاليد التزهُّد، وبلغ عدد أتباعه الحديثين أكثر من مليون بقليل. كما أنه يحظى باحترام واسع جداً في الهند، وغالباً ما يقارنونه ببوذا، وتعتبره البعثات التبشيرية المسيحية مُوَحّداً، أما السيخ فيبجّلونه ويحتفظون ببعض أشعاره في كتبهم المقدَّسة. لكن أشعاره المناوئة للجنس غالباً ما تمّ تجاهلها أو لم تُقدَّر حق قدرها.

المرأة حثالة العالم الناضحِ بالخير والشر،

نبلاءُ هُم الرجال الذين ينبذونها،

ووحدهم الفاسدون من يجدون فيها المتعة.

كان المعلّم الروحي ناناك، وهو مؤسس جماعة السيخ، معاصراً لـ(كبير)

وأصغر منه سناً، إلا أنه كان هندوسياً من طبقة الحكّام المحاربين. ويزيد عدد السيخ اليوم في الهند عن عشرة ملايين، معظمهم في إقليم البنجاب حيث عاش حياته، وهنالك جماعات عديدة من السيخ في أفريقيا وأوروبا. تزوج ناناك وأنجب ولدين، وحسب الأسطورة أن أمهما حملت بهما حين ناولها ناناك كبشين من القرنفل، لعلهما رمزان لعبادة القضيب. على أية حال، يقال إن ناناك «كان فاتر المشاعر حيال زوجته»، وكان ضجراً وغير سعيد، ربما من جرّاء تفاقم النداء الديني الباطني لديه. أما زوجته فكانت كثيرة الغياب بسبب المشاحنات الأسرية. وناناك كان يُدعى «المجنون»، وأخيراً انفصل عن زوجته وغدا معلّماً جوّالاً.

تحدث ناناك عن الله الواحد، الأزلي، المحايث في كل المخلوقات، ولم تكن عبادة ڤيشنو موجودة أصلاً، حتى «ولا تلك العبادة التي تستند إلى فكرة أن شيڤا هو الذكر، السلبي، وشاكتي هي الأنثى، النشيطة، ولم يكن ثمة وجود لعلاقات صداقية أو نزوات جنسية». وكذلك «ليس ثمة كريشنا أو حالبات البقر». مع ذلك كان اسم الله يرد في كتب السيخ المقدسة تحت اسم ڤيشنو وشيڤا، كما وظهر كريشنا بتجسيداته في الفن الشعبي للسيخ. وتم الاحتفاظ بالمعتقدات الهندوسية الأساسية في الكارما والتناسخ، ولكن بدمجها مع المعتقدات التوحيدية التي تؤمن بالنعمة الإلهية والخلاص[7].

في القرن السابع عشر أسس المعلم الروحي العاشر، غوبند سنغ (Gobind Singh)، الخلسا Khalsa أي «الأبرار الأنقياء»، وهي جماعة من السيخ المقاتلين، أُنشئت لمقاومة ظلم الحكام المسلمين، فقد طلب من كل السيخ أن يقيموا احتفالاً في عيد الإلهة دورغا (كالي)، وأعلن بأنها محتاجة لقربان دم. وكاستهلال دراماتيكي مثير قاد عدداً من المتطوّعين إلى خيمته على أنهم أضحيات للإلهة دورغا، ثم خرج وسيفه يتقطّر دماً. وكان ذلك بمنزلة اختبار للشجاعة، فقد بيَّن لهم أن ذلك كان دم ماعز، الأثير إلى قلب دورغا، وقد شكل هؤلاء المتطوعون نواة للخلسا. وكان المنتمون إلى هذه الجماعة يتلقون

ترسيمهم أو تطهيرهم من ماء يُصَبُّ في وعاء حديدي، ويحرَّك بواسطة خنجر، بينما جيتا Jita زوجة (غوبند) ترمي فوقه بعض الحلوى. وكان الملقَّنون يرتشفون هذا الرحيق الإلهي الذي يُرش فوقهم، وكان الجميع يشربون من القدر نفسه، خارقين بذلك محرمات نظام الطبقات المغلقة في طقس ديني جماعي.

إن إحدى العلامات الخمس البارزة التي تميز أعضاء الخلسا هي إطلاق الشعر واللحى، مع أن جماعة السيخ الجدد يشذِّبون لحاهم حالياً. أما كبس العمامة لتغطية الشعر والمشط(*) فهو تقليد مستحب أكثر مما هو واجب نصِّي. وقد تسبَّب في بعض المتاعب لجماعة السيخ من المهاجرين. ولكن من الصعب معرفة دواعي إطلاق الشعر. وقد جرت بعض المحاولات السيخية القليلة لتفسير ذلك. إن عادة حلق الشعر أو اقتلاعه، التي رأيناها سابقاً، كانت تُمارس على نطاق واسع بين الزهاد الهندوس واليانيين والبوذيين، وكان هنالك رجال مقدسون بشعور لبادية طويلة أو مشعَّثة. وربما كانت حلاقة الشعر دليلاً على الزهد في الدنيا. ففي حين كان بعض الزهاد يبقون على خصلة شعر أو قنزعة في قمة الرأس، إلا أن معظمهم قصَّها في نهاية المطاف، ورماها وهو يقول: «لا أنا لأحدٍ، ولا أحدَ لي». وإنه لأمر لافت للنظر وغير مفسَّر أن يصوَّر بوذا في تماثيله بشعر مشذَّب، ولكن دون حلاقة. وأحياناً في شكل تاج أو هالة بينما رؤوس تابعيه من الرهبان تكون حليقة تماماً.

على النقيض من حلاقة الشعر لأغراض زهدية، ابتدع السيخ صيغة رمزية معكوسة، وهي إلزام الملقَّنين من السيخ بعدم قص شعورهم أو لحاهم. وكان ذلك بمنزلة رمزٍ للفحولة، مثلما كان شعر شمشون الجبار، مصحوبٍ بأزياء أخرى من الثياب. كان الزهاد الهندوس يخرجون عراة ومعفَّرين غالباً بالرماد، مثل شيڤا، بينما كان يتوجب على السيخ أن يأتوا إلى طقس التلقين بكامل

(*) يقضي التقليد أن يضعوا مشطاً خشبياً طويلاً في شعورهم. م.

أناقتهم. وكان اليوغيون غالباً ما يضعون الأقراط، وهذا محرّم عند السيخ. وكان الزهاد الهنديون في حِلٍّ من أي قيد، بينما أكد السيخ أن غوبند سنغ هو أبوهم، وأن كل المعلمين الروحيين سواء. كما أن اليوغيين قطعوا عهداً بأنهم لن يلمسوا الأسلحة أبداً، لكن السيخ كان عليهم أن يتمنطقوا بالخنجر للذود عن دينهم وجماعتهم[8].

بعدئذ غدا مذهب السيخ ديناً قوياً ودنيوياً إلى حدٍ كبير مقارنة بمعظم اتجاهات نكران الذات التزهدي في الهند. وكانت الخلسا عبارة عن أخوية مفتوحة لكل الطبقات من كلا الجنسين. وبدلاً من التخلّي عن البيت والدنيا، أكّدت جماعة السيخ أن الحياة الطبيعية هي أرض معركتها، حيث ينبغي الدفاع عن حقوقها، وبالقوة إن استدعت الضرورة. وثمة ما يمكن استغرابه في أن يكون للسيخ حضور بارز في الجيش الهندي، والأفضلية لدى الإمبراطورية البريطانية، وأن يكونوا خبراء في مجال الصناعة والزراعة والتجارة، وقد أثارت عدوانيتهم في المظاهرات الجماهيرية احتجاجات الهندوس. يمكن للنساء أن يُقبلن كأعضاء في الخلسا ويخضعن لطقس التلقين نفسه والواجبات نفسها التي يقوم بها الرجال. وهنّ لا يتعرضن للعزل ولا يُلزمن بارتداء الحجاب، ويتعبدن مع الرجال في المعابد. وكانت الملَقَّنة من النساء تعمَّد باسم كور Kaur أي «الأميرة»، بينما الرجال يتخذون اسم سنغ Singh أي «الأسد». وقد اتّخذ بعض من المعلمين الروحيين التسعة الذين أعقبوا ناناك أكثر من زوجة واحدة، أما حاكم السيخ الشهير، رانجت سنغ Ranjit Singh، الذي أسس مملكة للسيخ في القرن التاسع عشر، فقد كان له عدة زوجات، بعضهن زوجات رسميات وبعضهن محظيات. وسمح هذا الحاكم بحرق الأرامل في أوساط السيخ، كما أن ضريحه في لاهور يحتوي على رموز تشير إلى أن أربع زوجات وسبع محظيات أحرقن في مأتمه الجنائزي.

رغم التجارب المريرة التي عاشها ناناك، يقال إنه كان يمتدح النساء، ويشجب اضطهادهن، حيث يقول: «إن المرأة، ذلك المخلوق الذي يقابل

بالازدراء، هي التي حملت بنا، وأنجبتنا. والمرأة هي التي نعقد عليها ونتزوجها. وهي رفيقة دربنا طيلة العمر، ويعود لها الفضل في استمرار جنسنا البشري»[9].

خلال تصنيف المجلد الأول Adi Granth من كتب السيخ المقدسة، يُقال إن أحد الشعراء الهندوس عرض مقطعاً شعرياً شبَّه فيه النساء بالقراصنة المكرة الذين يختطفون البشر كي يذبحوهم، إلا أنه رُفِض.

في عام 1945 كرَّمت لجنة الأضرحة السيخية ريهات مارياداا، وهو أحد مرشدي طريقة الحياة للسيخ، وكانت تعكس نفوذ الحركات الإصلاحية الحديثة على حساب التقاليد الهندوسية التي كانت قد انتعشت من قبل في مذهب السيخ. ونقل عن السيخ أنهم ما عادوا مضطرين للقيام بأي شيء حيال نظام الطبقات المغلقة، أو أفكار التدنيس، أو طقوس الاحتفال بالبدر، أو التمنطق بالخيوط المقدسة، أو الصلاة عند القبور. إن قتل الأطفال مدان بالمطلق، مثلما كان الحال في زواج الأطفال. وينبغي على المرء أن يحترم زوجات الآخرين كما احترامه لأمه، وأن ينظر إلى بناتهم كأنهن بناته. وينبغي على الزوج أن يستمتع بعِشْرَة زوجته، وعلى النساء أن يكنَّ مخلصات لأزواجهن، ولا ينبغي إلزام النساء بارتداء الحجاب، أما نظام الطبقات فينبغي ألَّا يكون له وجود في الزواج[10].

تم تقييد الاختلاط الاجتماعي بين الجنسين عند السيخ، حتى في المدارس المختلطة، باستثناء بعض الجماعات المدينية المتأثرة بحضارة الغرب. واعتُبر الزواج شأناً عائلياً وشخصياً على السواء، وينبغي أن تكون الزوجة موضع قبول لدى العائلة كلها، رغم أن السيخ يفضّلون التحدث عن الزيجات المبنيّة على التعاون بدلاً من تلك المحضَّر لها مسبقاً. وقد أبدع السيخ، وبخاصة المنتمون إلى الخلسا، طريقتهم الخاصة في الزواج، والتي تعترف بحقوق المرأة. وكانت تلك الطريقة عبارة عن طقس احتفالي ديني، وليس مجرَّد عِقد مدني، وقد تم قبول هذه الطريقة في الزواج، وصدَّقت عليها الحكومة منذ عام 1910

يمكن لحفل الزفاف أن يُعقد في أيّ مكان، ولكن بشرط إحضار الكتاب المقدس، (غورو غرانت صاحب Guru Granth Sahib). حيث يجلس الزوجان أمامه وتُتلى منه فقرات حول طبيعة الزواج واندماج روحين في روح واحدة: «إنهما ليسا مجرّد زوج وزوجة جمعهما اتصال جسدي؛ فالزوجان الحقيقيان هما من يصيران إلى روحٍ واحدة في جسدين».

الأعراف البارسيَّة(*)

يُعتبر البارسيون الهنود الجماعة الأصغر بكل معنى الكلمة، وعددهم حوالي 120 ألف، لكنهم يعتنقون الديانة القديمة التي أسَّسها زرادشت في إيران، ومن هنا جاء اسمهم. وقد اكتسبوا بعض عادات الزواج الهندية، ومواقفها العامة، إلا أنهم يرفضون الأسطورة الجنسية لشيڤا ـ شاكتي أو كريشنا ـ رادا، ويتطلعون إلى الإله الأسمى، رب الاستقامة، أهورا مزدا (Ahura Mazda)، من أجل «دين للحياة الصالحة».

ورد في الأسطورة الزرادشتية أن الزوجين البشريين الأولين، ماشي وماشيان Mashye - Mashyane، قد طلعا من الأرض في شكل نبتة الراوند. وعلى غرار الكائنات البدائية الخنثوية التي عُرفت في الڤيدية والأفلاطونية، كانا مندمجين جسداً لجسد. ثم انفصلا ليتخذا هيئة ذكر وأنثى، ويجدا نفسيهما في عالم خلقه الله ولكن تسود فيه الآثام. وخاطبهما الله محذِّراً: «أنتما كائنان بشريّان، أبوا البشر، فاعملا إذن طبقاً للنظام القويم والعقل السديد، ولا تعبدا الشياطين»[11].

وفي الأسطورة ثمة ثنائية على مستوى خارق للطبيعة، بين رب الحكمة، أهورا مزدا، والقوى الشريرة أو الكذب، أنغرا مينيو Angra Mainyu أو أهُرِمان

(*) Paris: الزرادشتي المتحدّر من أصلاب اللاجئين الفرس المقيمين في بومباي وغيرها ـ المورد.

(Ahuriman). ومن غير المؤكد ما إذا كانت خرافة التوأمين الإلهيين جديدة على زرادشت نفسه أم أنه كان يعيد صياغتها، إلا أنها حددت ملامح انقسام العالم الروحي بين الخير والشر الظاهرين على الأرض. إن الخلاف، على أية حال، كان بين الخير والشر، وليس بين الروح والجسد، لأن الديانة الزرادشتية تعتبر الجسد والعالم المادي خيّرين، وهما من صنع الله، وينبغي تحريرهما عبر تدمير الشر. ومن الضروري إجراء هذا التمييز لأن فكرة الشر وعلاقته بالجسد أُصيبت بعدوى بعض الأديان الأخرى، كالمانوية في بلاد فارس بصورة أبرز، وكان لها تأثيرها اللاحق على المسيحية.

ومع أن الزرادشتية تؤمن إيماناً عميقاً بالحياة بعد الموت، فقد كانت دنيوية إلى حدٍ كبير جداً، ولم تتبنَّ مطلقاً مبدأ الاعتزال التزهدي للدنيا. وفي سفر الڤنديداد Vendidad من النصوص الدينية المقدسة، قُدِّر لـ (أهورا مزدا) أن يقول: «إنني لأفضِّل رجلاً متزوجاً على عازب، ورجلاً مع أسرة على آخر بدونها، ورجلاً مع أطفال على آخر بدونهم». ويقول أيضاً: «بهيجٌ ذلك المكان الذي يبني الرجل فوقه بيتاً فيه نار وماشية وزوجة وأطفال وأزهار رائعة»[12]. إذن لقد نبذت الزرادشتية التبتُّل والحياة الرهبانية والتسوُّل والصوم وإماتة الجسد.

ولم تكن الديانة البارسية خيِّرة بالمعنى السلبي فقط[*]، وإنما كانت تبدي مقاومة للشر، وممارسة فعَّالة للخير. فالزواج كان مؤسسة خيرية أوصت بها الكتب المقدسة لديهم، وتعتبر فضيلةً مساعدةُ الآخرين على الزواج حين يكونون فقراء. ورغم وجود بعض الأعراف الهندية، كان الزواج البارسي يجري أساساً وفقاً للتقليد الفارسي في الجزء الذي يغلب عليه الطابع الديني، وكان يشرف عليه الكهنة. وفي السابق كانت الزيجات تُرتَّب من قبل الوالدين، أما حالياً فيتزايد دور الشباب في اختيار شركاء حياتهم. وكانت زيارات التمهيد

(*) أي أنها لم تلتزم بالنواهي وحسب، بل وبالأوامر الأخلاقية المترجمة عملياً. م.

للزواج تشتمل على هبات من النقود الفضية وقناديل الإنارة وتقديم الخواتم ودفع المهر.

كان يجري الاحتفال بالزواج البارسي في يوم ميمون، ولايزال يُوحى بموعد الاحتفال من قبل منجِّم هندوسي. وفي اليوم الأول يُغرس غصين شجرة كرمٍ للخصوبة. وقيل إن وضع علامات حُمر على جبيني العروس والعريس ترمز إلى أشعة الشمس والقمر، وربما تحمل أيضاً دلالات الخصوبة. وثمة وفرة من التفاصيل الطقسية، بما في ذلك الستائر القماشية التي تفصل ما بين العريس والعروس، وتُزاح بعدئذٍ دلالةً على تحقق الوصال الجنسي؛ وتُحل أيضاً الخيوط السبعة التي كانت تقيد أيديهما بشكل محكم. وهناك مباركات تقدَّم باسم (أهورا مزدا)، تدعو بطول العمر، وبعشيرة من الأبناء والأحفاد: «تعلَّم أن تقوم بالأفعال الحميدة.. ابتعد عن زوجات الآخرين... كن خصباً كما الأرض. فكما الروح متّحدة بالجسد، لتكن متّحداً وحميمياً مع أصدقائك وأخوتك وزوجتك وأطفالك»[13].

تعدُّ العفّة فضيلة بارسية متميزة، حيث كان الزوج والزوجة يقطعان عهداً بالولاء والإخلاص لله، وبإخلاص كل منهما للآخر. وقد عُدّ الزنى كبيرة من الكبائر، وهو مناقض للروح الخيّرة، ويحول دون تطور الكون. قديماً كان من شأن الزوج أن يطلّق زوجته إن هي مارست الزنى، ومنذ القرن الماضي على الأقل غدا ارتكاب الزنى من قبل الرجل سبباً أيضاً للطلاق. وكذلك يمكن للعُنَّة أو العقم أن يسبّبا الطلاق. وكان يسمح للزوج، حتى القرن الماضي، أن يعقد على زوجة ثانية إذا كانت الزوجة الأولى عاقراً، ولكن هذه الأخيرة تبقى سيدة البيت.

خلال فترة الحمل يفترض بالزوج ألّا يجامع زوجته بعد الشهر الخامس، وينبغي على الحامل أن تمتنع عن ملامسة أي جسد ميت أو مادة متعفنة. وكان يجري عزل المرأة في غرفة وسرير منفصلين لمدة أربعين يوماً بعد ولادة الطفل، وكانت تتناول طعامها بشكل مستقل. وكانت تتطهَّر بعد الولادة بالاستحمام

بماء مقدّس، وتحت إشراف أحد الكهنة. أما شراشف سريرها وثيابها فكانت تُتلف جميعها أو تعطى إلى الكنّاسين.

ويعدُّ الطمث دناسة، لأنه خاضع لنفوذ أهرمان، الروح الشريرة. وقد خُصِّص في كل قرية أو شارع بيت للحوائض من النساء، ولايزال يُعدُّ لهن معتزلٌ حتى الوقت الحاضر. كل ما تلمسه الحوائض كان يغدو دنساً؛ وكنّ يغتسلن قبل خروجهن من البيت فيما لو أردن اصطحاب أطفالهن. أما الاتصال الجنسي مع امرأة حائض فكان يستوجب عقوبات شديدة. وكان يقدَّم لنساء كهؤلاء كميات محدودة من الطعام، على أن يتناولنها في أوعية معدنية بدلاً من الأوعية المصنوعة من الطين النضج أو الخشب، وينبغي أن يرتدين القفازات. وبعد انقضاء فترة الطمث، تستحم المرأة وتغسل ثيابها وشراشفها. ولاتزال تُلاحظ معظم هذه الممارسات، ولكنها، على العموم، ما عادت تحدث في بيوت منفصلة، وإنما في غرف خاصة من الطوابق العلوية من بيوتهن[14].

أدانت البارسية الموسسات بوصفهن خطراً على الطبيعة والمجتمع؛ فمن شأن نظراتهن أن تجفِّف المياه، وتسلب الأشجارَ أزهارَها، والأرضَ خضرتها وتشلّ الشجاعة والقوة والصدق لدى الصالحين. وقيل إن نساء كهؤلاء يستأهلن الموت أكثر من الأفاعي وإناث الذئاب والضفادع المفقِّسة.

فيما يخص الزرادشتية، تصدَّى الدين نفسه لمشكلة الشر الأبدية في العالم من خلال رؤيته للحياة أنها معركة بين إله الخير والقوى المساعدة له من جهة، وحشود الشياطين والأرواح الشريرة من جهة أخرى. وينطوي السلوك البشري على أهمية في هذا الصراع، لأن الأعمال الخيّرة تعزّز نصرة الرجال والنساء لله وتسهم في إحراز النصر النهائي للخير.

ديانات قَبَلِيَّة:

لايزال في الهند الكثير من القبائل التي تعيش في الغابات والهضاب الجبلية، والتي يمكن لعاداتها الاجتماعية ودياناتها أن تسلّط الضوء أحياناً على المعتقدات الهندوسية، وتبرز بعض التباينات أيضاً، حيث تتعرَّض هذه

الجماعات، في العصر الحديث، إلى ضغط متزايد من قِبل الدين والثقافة الهندوسيين.

حتى في أوساط التشنتشو Chenchu، وهي قبيلة بدوية تعيش في أدغال جنوب الهند، يطلقون على الأرواح التي يؤمنون بها أسماء هندوسية، مثلاً بْهَغَڤانتارو Bhagavantaru الذي يقطن في السماء ويتحكم بالرعد والمطر. وبهَغَڤان Bhagavan وهو اسم هندوسي، إله الحظ والمجد أو الجدير بالعبادة، وينطبق اسمه على العديد من الآلهة والبوذات والقديسين اليانيين. والألوهية الرئيسية لدى التشنتشو تحتلها إلهةٌ، فإذا ما قتل صيادٌ أنثى حيوان، يتوسّل الغفران من الإلهة. وتصوَّر هذه الآلهة في هيئة بشرية، لكنها لا تولي اهتماماً كبيراً لأخلاق البشر، بما في ذلك الزنى والقتل.

أما قبائل الغوند Gond المتمركزة في وسط الهند، وتَعدُّ حوالي ثلاثة ملايين نسمة، فإنها متطورة اقتصادياً أكثر من قبائل التشنتشو، ودينها أكثر تعقيداً. ولديهم أيضاً الإله بهَغَڤان Bhagavan الذي يسيطر على الكون بأسره، وغالباً ما يماثلونه بـ(شيڤا)، إلا أنه يحظى بعبادة طقسية طفيفة. أما آلهة العشائر فتلقى المزيد من الاهتمام، ومعظمها يمثّل مزيجاً من الذكورة والأنوثة، ويُعتقد أنهما أم وابنها، ولكن غالباً ما يشار إليهما بوصفهما إلهاً واحداً. وهنالك أيضاً مزارات لأمهات القرية، أقرب شبهاً بالإلهات - الأمهات المنتشرة في قرى هندوسية لا تعد ولا تُحصى، أما أوصياء القرى فتنصب من أجلهم سَوَارٍ خشبية مدبَّبة. وللأم - الأرض أهمية خاصة في مواسم البذار والحصاد. مع ذلك يبدو أن آلهة الغوند أيضاً لا تهتم كثيراً بالأخلاق البشرية. ويقال إن الدين لديهم هو نظام من الشعائر والقرابين، تتلقّى الأعمال البشرية بواسطته العون من السلطة الإلهية، أكثر مما هو علاقة بين الفرد والكائنات غير المرئية[15].

من ناحية أخرى ثمة الكثير من المحرّمات التقليدية التي تُعنى بسلامة المجتمع، وترتبط أحياناً بقوى خارقة للطبيعة. فهم يتسامحون بوجه عام مع

ممارسة الجنس قبل الزواج، أما الزنى فيعدّونه مخالفاً للنظام الاجتماعي، إنما لا يصل عموماً إلى حد إغضاب الله، إلا إذا اقترفه الكهنة والشامان(*) الذين يُعتبرون قنوات السلطة الإلهية. فرجال مقدسون كهؤلاء يمكن أن يحظّر عليهم الاتصال بزوجاتهم قبيل وخلال الاحتفالات الدينيةُ التي يكون لهم دور فيها.

وتروي قبيلة الـ(سورا Saora) ، المتاخمة لقبائل الغوند، قصة عن كاهن كان نائماً وزوجته وأخاه الأصغر في حجرة واحدة، وكان الكاهن مثقلاً بالثمل فنام بعمق، وانتهز الأخ الأصغر الفرصة لإغواء الزوجة. وبينما كانا يتمددان معاً، سقط الإبريق المقدَّس، المعلّق فوقهما، وأصاب رأس الأخ، فأفقده الوعي لمدة ثلاثة أيام. وأصيبت الزوجة أيضاً بحمى شديدة ما كان لها أن تبرأ منها إلا بعد تقديم خنزير كأضحية. إلا أن الكاهن نفسه لم يبدُ عليه أي تأثر.

إن الإخلاص في الزواج لهو أمر تتطلّع إلى تحقيقه جماعات قبلية كثيرة، رغم أن الكهنة معنيون أكثر من الناس العاديين بالالتزام بالمعايير القصوى، نظراً لقداسة واجباتهم الدينية المحفوفة بالمخاطر. وقد وُضع حظر على الاتصال الجنسي خلال فترة الطمث، ومن يخرق هذا التحريم من الكهنة قد يتعرض للموت. أما النساء الحوائض فيمنعن عموماً من الطبخ أو جلب الماء أو الرقص أو تقديم القرابين إذا كن كاهنات. ومن المحتمل أن بعض هذه المحرَّمات بدع جديدة تماماً خلقتها تأثيرات الديانة الهندوسية. وقد تحظّر الممارسات الجنسية حين يحدث زلزال، ربما بسبب الاعتقاد السائد أن الزلزال ينتجُ عن لقاء إله الأرض مع زوجته.

إن السفاح محرَّم في كل مكان، وبصورة خاصة الاتصال الجنسي مع ذوي القربى، وثمة اعتقاد يقول إنه لمن الخطأ أن يتزوج المرء من قريبته، إلى حد

(*) Shaman: هو شخص يشتغل بالتطبيب والكهانة والسحر عند الشعوب البدائية والكلمة نفسها تعني «ذلك الذي يعرف»! ـ عالم المعرفة ـ المعتقدات الدينية لدى الشعوب.

أن هنالك قوانين نافذة تلزم بالزواج من الأباعد (الأباعدية). أما اللواطة، والعلاقة الجنسية مع الحيوانات فهما محرَّمان دينياً، ويُتوقع أن ينال مرتكبو هذه الأفعال عقوبة مباشرة من قبل الآلهة والأسلاف. ولكن حين يحاكي الأولاد الفعل الجنسي خلال لعبهم مع بعضهم بعضاً، فإن ذلك يعدُّ عموماً في سياق العلاقة الطبيعية بين الذكر والأنثى، ولا يثير تخوّفاً حيال خرق المحرَّم[16].

ثمة محرمات كثيرة اقتصرت على المرأة. فإذا كان الاتصال الجنسي محظَّراً خلال فترة إرضاع الطفل، فهذا سبب كافٍ بحد ذاته كي يتّخذ الزوج زوجة أخرى. وهنالك أطعمة محرّمة في الغالب على الأبوين لبعض الوقت، بُعَيد ولادة الطفل. ويوجد نساء كاهنات وشامانات، إلا أنه لا يحق غالباً للنساء أن يذبحن حيوانات الأضاحي أو يدفنّ رماد الموتى المحروقين. وإن السبب الذي يقف خلف هذه المحرمات هو الخشية من التلوّث بدم المرأة، كما هو الحال في شعائر الأديان الأخرى وقيودها على الكاهنات.

تروي السورا قصة تفسّر لماذا تستلقي المرأة تحت الرجل خلال عملية الجماع. في السابق كانت العادة تقضي بأن تكون النساء من الأعلى والرجال من الأسفل. وفي أحد الأيام حملت امرأتان خنزيراً لتقديمه كقربان لإله الأرض، فاختلفتا حول الطريقة التي ينبغي عليهما أن تمشيا بها، وكانتا متقابلتين، وجهاً لوجه، وبينهما الخنزير محمولاً على خشبة. وراحتا تتشاجران فسقط خطم الخنزير ودخل في العضو التناسلي لإحداهما، بينما دخل الذيل في عضو الأخرى ـ لأن الناس كانوا يمشون عراة في تلك الأيام. طرحت المرأتان الخنزير أرضاً وأقسمتا أنهما لن تذبحا حيوانات قربانية بعد ذلك أبداً، ولن تأكلا لحم الخنزير، ولسوف تستلقيان مستقبلاً تحت الزوج لا فوقه[17].

هنالك بعض الجماعات القبلية تعيش في الأدغال بين أنقاض حضارات أعرق، وقد يكون من شأن عادات هذه الجماعات أن تلقي ضوءاً على معتقدات سالفة. ويحيط بقبائل (ناغاس الآسامية) آثار عاصمة مملكة كاتشاري

(Chachari) التي بقيت مزدهرة حتى القرن الخامس عشر. ولايزال في الأدغال خمسون نصباً تذكارياً حجرياً هائلاً، أشبه بنصب حجري شهوي بدائي. وأكثر من نصف هذه النصب تجسّد القضيب الحجري لشيڤا منحوتاً بأدق التفاصيل، كما يوجد بينها أحجار متشعّبة كبيرة تمثل مهبل شاكتي. والنصب القضيبي الحجري الأطول من بينها يربو ارتفاعه على عشرين قدماً، حتى أن خمسة رجال مبسوطي الأذرع بالكاد يستطيعون تطويقه. وقد زُخرفت معظم هذه الحجارة بنقوش لطواويس وببغاوات وجواميس ونباتات. والمغزى من هذه النُصب، التي لا نظير لها في الهند بأكملها، يتجلى بوضوح من خلال طقوس الـ (ناغاس) أنفسهم، ففي مهرجاناتهم كانوا ينصبون حجارة غير مصقولة، ويستخدمون اللينغات (الأعضاء الذكرية) الخشبية المحفورة، والفروج الخشبية المتشعّبة. لأنه فيما يخص الكاتشاريين القدامى فإن اللينغات كانت تذكارات واضحة للأعياد القربانية الكبيرة ولطقوس الخصوبة حيث يراق الدم بلا حساب. وإن استخدام الحجر من شأنه أن يضمن الاستمرارية للقدرة الإخصابية التي توفّرها الطقوس[18].

في العصر الحديث تعرضت جماعات قبلية هندية كثيرة لضغط متعاظم، ليس فقط من قبل البعثات التبشيرية المسيحية والإسلامية، بل وبصورة أكبر من قبل الهندوسية بهدف صهرهم في أنماط الثقافة الهندوسية الموحّدة. في السابق كان ثمة الكثير من الشعوب القبلية تتجول عارية أو نصف عارية، لكن الحكومات الآن أعدت حملات لإلباسهم. وعندما تم التقاط بعض الصور الفوتوغرافية لبنات البهيل Bhil في راجستان وهن عاريات حتى الخصر، سارعت الحكومة المحلية إلى تزويدهن بآلاف السواري[*] البيضاء. ومادام الأبيض لون الصباح في الهند، فقد كانت النتيجة أن هؤلاء الفتيات الجميلات صرن يبدون كالأرامل الهندوسيات.

(*) Sari ثوب ترتديه النسوة الهندوسيات. المورد.

لقد أثيرت ضجة حول المصافحة بالأيدي التي تمارسها الشعوب القبلية لأن تشابك الأيدي هو رمز هندوسي للزواج، وأن لمس شخص من الجنس الآخر يعتبر حطّاً من قدر المعايير الهندية السامية للطهارة الأنثوية. وقد علق (ڤيرير إلوين) قائلاً إن بعض الإصلاحيين كرّسوا حياتهم لسلب هذه الشعوب القبلية متعها الصغيرة التي يعيشونها. وبتحويلهم إلى نباتيين، فقد حرموهم من عناصر غذائية أساسية، وهذا الحظر المفروض عليهم حرمهم من المقوّيات الضرورية، وجرّد الزيجات والاحتفالات من بهجتها السابقة، كما أفقد المآتم بعض سلوانها. وبالإصرار على إلزامهم بارتداء الثياب، أُوحي بأن العري غير لائق. وبذلك ألقوا ظلالاً على مباهج الحب، وأودوا ببريق الحياة وحريتها، وهذا من السوء بحيث أنه يضاهي تماماً الأشكال الأخرى من الاستغلال[19].

هوامش المؤلف للفصل االرابع

1 – Acharanga Sutra, 2.16.
2 – Kalpa Sutra, 36.
3 – Sutra Kritan, 1, 4.
4 – Uttaradhyayana, 8–9
5 – See S. Stevenson, The Heart of Jainism, 1915, ch. 9.
6 – C. Vaudeville, Kabir, 1974, pp. 295 ff.
7 – T. Singh, etc., Selections from the Sacred Writings of the Sikhs, 1860, pp. 104 f.
8 – J. P. Singh Uberoi in Sikhism, ed., D. S. Maini, 1969, pp. 125 ff.
9 – W. O. Cole and P. Singh Sambhi, The Sikhs, 1978, p. 142.
10 – Ibed., pp. 168 ff.
11 – R. C. Zaehner, The Dawn and Twilight of Zoroastrianism, 1961, pp. 42, 267.
12 – J. J. Modi, The Religious Cermonies and Customs of the Parsees, 1937 edn., p. 14.
13 – Modi, op. cit., 14 ff.
14 – Modi, op. cit., pp. 3 ff, 161 ff.
15 – C. von Furer–Haimendorf, in Man and his Gods, G. Parrinder, 1971, pp. 36 ff.
16 – V. Elwin, The Religion of an Indian Tribe, 1955, pp. 507 ff.
17 – Ibed., p. 521.
18 – C. von Furer–Haimendorf, The Naked Nagas, 1962 edn., pp. 27 tf.
19 – V. Elwin, The Tribal World of Verrier Elwin, 1964, p. 336.

الفصل الخامس

(ين) و (يانغ) الصينيان

الأنثى والذكر

تُعتبر النظرية الثنائية للذكورة والأنوثة إحدى أقدم الطرائق وأكثرها شيوعاً في توضيح العلاقات والقوى الكونية. وقد استُخدمت هذه الثنائية الرمزية في العديد من الثقافات، مثلاً: السماء الأب والأرض الأم، زيوس وديمِتر، ديوس وبريثيڤي، شيڤا وشاكتي، يانغ وين. إلا أن الرمزية الصينية تطورت بطرائقها الخاصة بفضل عزلتها الفعلية جغرافياً، حتى أن التأثيرات الجديدة التي رافقت دخول البوذية إلى الصين في القرن الأول بعد الميلاد اكتسبت الطابع المحلي مذ تمَّ تمثُّلها.

إن النقوشات الصينية التي بقيت لنا من عصر ما قبل التاريخ - أي الكتابات المصوَّرة (بيكتوغراف)(*)، والتي كانت حجر الأساس للكتابة الصينية اللاحقة - كانت تصوّر رسماً لامرأة بثديين عامرين، ورسماً لأم بحَلَمات إضافية. وثمة رمزٌ حَرْفي لرجل في لوحة متقنة تَظهرُ عليها أرض مفلوحة تدل على الكدح. وهذه اللوحات توحي بمركز الصدارة للمرأة التي هي الأم المغذّية،

(*) Pictograph: صورة أو حرف هيروغليفي يمثل فكرة - المورد.

والرجل هو المزارع، وبأن المجتمع الصيني القديم كان أمومياً على الأرجح.

علاوة على ذلك، كان الأحمر لوناً ملازماً للمرأة، رمز القدرة الخلّاقة، والطاقة الجنسية، حتى أن طقس الزواج سمّوه لاحقاً «الشأن الأحمر» مع كل ما يرافقه من هدايا وحلي مزخرفة بهذا اللون المبشّر باليُمن. أما اللون الأبيض فكان يرمز إلى الضعف الجنسي والموت، وكان يطلق على المأتم الجنائزي اسم «الشأن الأبيض». وفي علم الكيمياء والأدب الشهوي الصينيين اللذين ظهرا لاحقاً كانت المرأة تُلقَّب بالأحمر والرجل بالأبيض، وغالباً ما كان فن التصوير يبرزهما بهذين اللونين وكان الأطفال في العصور القديمة يتخذون أسماء أمهاتهم، وحسب الخرافات القديمة كانت النساء يتمتعن بقدرات سحرية، بينما أوردت كتيبات الجنس أن النساء كنَّ يلقِّن التعاليم الجنسية[1].

لقد تمَّ إبطال هذا النظام الأمومي المغرق في القدم على يد أسرة تشو التي حكمت ما بين 1100 إلى 221 قبل الميلاد، وفُرِض بعدئذ النظام الأبوي الذي عزّزته تعاليم الكونفوشيين (الكونفوشيوسيين)، التي كانت تشدّد على مقدرة الرجل وتفوّقه، بوصفه رأس هرم العائلة وسيدها. مع ذلك بقيت هنالك تيارات مضادة فاعلة، خاصة في التاوية Taoism بمفاهيمها عن الأم الكبرى، والأنثى ذات الطاقة التناسلية الفعّالة التي، عبر الاتصال الجنسي، تشحن قوة الحياة المحدودة لدى الرجل، من مخزونها الذي لا ينضب. كان العنصر السلبي مُمجَّداً على العنصر الإيجابي، والمنفعل على الفعّال(*).

في النصوص التاوية الكلاسيكية فإن تعابير صوفية من مثل «الوادي العميق» و«المدخل الغامض» قد تمَّ تفسيرهما في نصوص علم الجنس على أنهما الرحم والمهبل. وثمة فصل مشهور من كتاب التعاليم التاوية الكلاسيكية، (تاو تي تشنغ Tao te ching)، يمكن له أن يشتمل على هذا الأسلوب الرمزي:

(*) السلبي والمنفعل هو اليانغ، أما الإيجابي الفعّال فهو الين. م.

إن روح الوادي لا يدركها الفناء أبداً.

إنها تُدعى الأنثى الغامضة.

ومدخلُ الأنثى الغامضة

هو الأصل الذي انبعثت منه السماء والأرض[2].

إن تناوب النهار والليل، والصيف والشتاء، والشباب والشيخوخة، قاد الصينيين إلى الاعتقاد بتفاعل وتداخل القوى الكونية الثنائية، والجنس البشري يؤدي وظيفته كما الكون، كما أن الاتصال الجنسي بين بني البشر يشابه الاتحاد بين السماء والأرض عبر العواصف المطرية التي تحقق التزاوج بينهما. وقد اعتبر الصينيون أن الغيوم هي بويضات الأرض التي أخصبت بمني السماء عند انهمار المطر. وقد استُبدلت الإشارات الرمزية عن الشمس والقمر، أو السماء والأرض بمصطلحين رسميين هما اليانغ والين، مع الاحتفاظ برمز التزاوج بين السماء والأرض عبر العواصف المطرية، ولايزال مصطلح «الغيوم والمطر» يُستخدم حتى وقتنا الحاضر بوصفه تعبيراً نموذجياً عن الاتصال الجنسي.

وثمة قصة تقليدية عبَّرت عن هذه الفكرة وتحكي عن ملك خرج في نزهة قصيرة فغلبه النوم في وَضَح النهار، فحلم بامرأة تقول له: «أنا سيدةُ جبل وو WU وأرغب في مشاركتك الوسادة والفراش». فتضاجعا، وحين انفصالهما قالت: «أعيش في السفح الجنوبي للجبل. أنا الغيوم عند الصباح، والمطر عند الليل». وهكذا فإن القصة قد حوَّلت الصورة القديمة عن تزاوج السماء والأرض، وكانت المرأة هي المبادرة إلى الدعوة للمطارحة الجنسية.

إضافة إلى مصطلح «الغيوم والمطر» استخدمت الأعمال الأدبية اللاحقة «جبل وو» أو «السفوح الجنوبية لجبل وو» كتعابير رمزية رائعة للجماع. وقد أوضحت البحوث المتعلقة بعلم الجنس أن «الغيوم» هي البويضات والإفرازات المهبلية، وأن «المطر» هو المني.- أما التعابير من مثل «الغيوم المضادة والمطر المعكوس، فكانت تستخدم مجازياً للأفعال اللواطية»[3].

(ين) و (يانغ)

ظهر مصطلحا الين واليانغ في الفلسفة الصينية منذ القرن الرابع قبل الميلاد، علماً أن علماء الآثار يُرجعون رمزية المصطلحين إلى أزمنة أكثر قِدماً. وليس معروفاً منشأُ رمزَي الين واليانغ، إلا أنهما فُسِّرا «بالسفح الظليل» و«السفح المشمس» من الجبل. ومن هنا تطوَّرت دلالات الطاقات الحيوية: الظلمة والنور، الضعف والقوة، الأنوثة والذكورة. وبالتالي فإن الأنثى كانت العنصر المظلم، القاتم، العميق، المتلقي (المنفِعل)، أما الذكر فكان العنصر النيِّر، السامي، السماوي، النافذ (الفاعل). ومع ذلك فالعلاقة بينهما تكاملية لاتناقضية، لأن كلَّ ين فيه بعضٌ من يانغ، وفي كل يانغ بعضٌ من ين.

تجري مقارنة الين واليانغ بالظلمة والنور في الديانة الزرادشتية، وبالمبدأ الثنائي للشر والخير الذي اشتُق منهما. لكن الين واليانغ ليسا في تعارض، بل في علاقة اعتمادية متبادلة، كما علاقة الرجل والمرأة. ولم يكن الهدف أن يغلب أحدهما الآخر، وإنما تحقيق توازن تام بين هذين المبدأين.

لقد أمضى الفلاسفة الصينيون اللاحقون المزيد من الوقت للتأمل في علَّة وجود الأشياء. فالاتحاد الأوليّ الذي أُطلق على حالة الذكر والأنثى غير المنقيسمين، حسب المفاهيم الهندية والفارسية والإغريقية، رُمز إليه عند الصينيين بدائرة. ومنذ القرن الحادي عشر للميلاد جسَّد روَّاد الكونفوشية الجديدة هذا المفهوم بدائرة مغلقة عرفت باسم (تاي تشي تو T'ai chi t'u)، «المطلق الأسمى». وانقسمت الدائرة إلى نصفين، أشبه بفلقتي كمثرى، يمثّلان الظلمة والنور، الين واليانغ. فالنصف المظلم، الين، يحتوي على نقطة بيضاء ترمز إلى جنين اليانغ في داخلها، والنصف النيّر، اليانغ، توجد فيه نقطة سوداء تشير إلى عنصر الين.

مع ذلك ثمة تفسير لاحق جاء على لسان الفلاسفة، ويقول إن هذا المخطَّط نفسه يرقى إلى أزمنة غابرة، حيث تم الكشف عن برونزيات قديمة رُسمت عليها دوائر كهذه، ولاتزال تُرى حتى يومنا الراهن منقوشةً على

زخارف البوابات والبيوت والأواني المنزلية وقطع الأثاث، وفي التعاويذ المرصودة لغايات جنسية، ولطرد الأرواح الشريرة. وقد عثر على الدائرة ذات فلقتي الكمثرى في الهند وأوروبا أيضاً، وتظهر في نقوش معروفة على نطاق واسع باسم الكشميري أو البيسلي(*).

ولقد تطورت في الصين رموز سحرية أكثر اختلافاً وتعقيداً، صِيغت في مجموعات من الخطوط الأفقية تم شرحها وتأويلها في كتب الكِهانة. ومن بين هذه الكتب (آي ـ تشنغ I ching)، أي «كتاب التحولات» الذي حلَّ في النهاية محلّ جميع الكتب الأخرى وأصبح له شأن عظيم في الحياة اليومية، حتى أنه اعتُبر أثراً كونفوشياً كلاسيكياً، مع العلم أن أتباع كونفوشيوس لم يتبنوه إلا بعد مرور زمن طويل على عصره (كونفوشيوس). وثمة رواية متناقَلة نَسبت إلى إمبراطورٍ أسطوري اختراع التثاليث Trigrams الثمانية الأساسية للخطوط الأفقية؛ والمتقطعة منها تمثل الين، والمتصلة تمثل اليانغ. وبعد مضاعفة التثاليث الثمانية تشكَّل أربعٌ وستون شكلاً سداسياً. ثم بتنظيمها في دائرة ترمز إلى السماء، غدت التثاليث مطابقة لاتجاهات البوصلة(**) وفصول السنة ومواقيت اليوم.

وصف كتاب التحولات الين واليانغ على أنهما المبدآن الأساسيان لقوى الكون، اللذان يحافظان على نظام ديمومته في سلسلة من التباديل (التغيرات في الموقع أو الترتيب)، وهو مفهوم تمَّ إدراجه في سياق منظومة فلسفية، وبالتالي فقد استُخدم كتاب التحولات من قبل الفلاسفة والعرَّافين على السوَّاء. وفي هذا الصدد نحن معنيون بالمقاطع التي تتحدث عن العلاقة بين الجنسين. فقد قيل مثلاً إن «التمازج بين السماء والأرض يمنح الأشياء جميعاً شكلَها، والاتحاد الجنسي بين الرجل والمرأة يبعث الحياة في الأشياء كلّها». كما أن «التداخل بين

(*) Paisly نسيج صوفي مزركش بالرسوم شبيه بالشال الكشميري ـ المورد.
(**) يقصد الاتجهات الأربعة. م.

ين واحد ويانغ واحد يُدعى تاو Tao»(*) وفسِّر هذا لاحقاً بأنه يعني امرأة واحدة ورجلاً واحداً.

اعتُبِرَ الشكل السداسي الثالث والستون بأنه يرمز إلى الاتحاد الجنسي، لأنه كان يشتمل على التثليث الذي يعني «الماء» و«الغيوم»، وفي القمة «المرأة»، وتحته يوجد التثليث الذي يعني «النار» و«النور» و«الرجل». وبالتالي فإن التناغم بين المرأة والرجل، وكذلك طبيعتهما التكاملية، قد عُبِّر عنهما وصوِّرا بواسطة التناوب المطلق بين خطَّيّ ين ويانغ، ويُنظر إلى هذا التناغم بوصفه أساساً للحياة الجنسية الميمونة. و«يتحقق الانتقال من حالة الفوضى إلى النظام، ويتّخذ كل شيء موقعه المناسب حتى في أدقّ التفاصيل. فالخطوط القوية في الأمكنة القوية، والخطوط الضعيفة في الأمكنة الضعيفة. وتلقى وجهة النظر هذه تأييداً واسعاً»(4).

لقد اشتغلت معظم الكتب المرجعية الصينية اللاحقة في هذا البند السداسي(**). وقد صوِّرت بعض اللوحات العلماء وهم يتأملون هذا التوازن الخالد لعناصر الذكورة والأنوثة هنا. وإنه لأمرٌ ذو مغزى هام أن يحتل عنصر المرأة الدور الأعلى، وبحسب الأبحاث الطبية التي تناولت رمزي الماء والنار فإن الرجل شُبِّه بالنار التي سرعان ما تتأجّج، فتُطفأ بماء المرأة الذي يسخن ويبرد ببطء، كما هو الحال في التجربة الجنسية للبشر.

تاو

ثمة نظريات نشأت عن كتاب التحولات وكان لها تأثيرها على الأفكار الصينية المتعلقة بالاتصال الجنسي. ولكن مع ظهور التاوية في النصف الثاني من حكم أسرة تشو Chou، برزت إلى المقدمة تيارات فكرية أكثر اتساعاً. حيث

(*) Tao وتعني الطريق، وهي القوة الكونية التي تتبدى على التوالي بصيغتي ين ويانغ. م.

(**) الثالث والستين. م.

بات مفهوم تاو (الطريق) أساساً لمعظم قضايا الفكر والأدب والدين والجنس في الصين. ولهذه الكلمة المعقَّدة طيف واسع من المعاني: الطريق، القوة، السلوك القويم، وكانت أبعد من أن يحيط بها معنى: «إن التاو القابلة للتعريف ليست التاو المطلقة، إنها التاو الموجودة قبل السماء والأرض، إنها أسُّ المذاهب طرَّاً، وهي سرّ الأسرار».

ورد في المؤلف الكلاسيكي (تاو تي تشنغ)(*) عن الرؤية الفلسفية للتاوية أنها تعتبر التاو أشبه بإناءٍ فارغ، بأنثى غامضة، بجدار مُصمت، بماء خفيض المجرى، إلا أنه مفيد لكل المخلوقات. كذلك هو الحكيم، كانت له الغَلَبة بواسطة «الوعظ الصامت، والفعالية بلا عمل، ونَبْذه للأخلاق والمعرفة المبتذلة». ويبدو، على الأرجح، أن الرجل الذي اتّبع غريزته وفعل كل ما يرغبه من شأنه أن يتمتع بالجنس دون حدود، إلّا إذا كان يبتغي الوصول إلى أعلى درجات النشوة. ولعلّ هذا المقطع الغامض كان تفسيراً لما ورد آنفاً:

«الطفل يستحوذ على القوة، عظامه رقيقة، إلا أن قبضته (مسكته) قوية. وهو لا يعرف شيئاً بعدُ عن الاتصال الجنسي بين الذكر والأنثى، وربما يحدث عنده انتصاب مع ذلك، ويتكشف عن ذروة الطاقة الحيوية، وهذا يعني أن التناغم يكون في حالة الكمال». وهكذا يمكن للحكيم أن يلجأ إلى كبح شهواته، كما الطفل، كي يساعد نفسه على تركيز طاقاته وبلوغه حالة السكون[5].

كانت التاوية الشائعة ديناً لسواد الشعب في الصين، وانعكست رمزيتها في الأسطورة، والفن، والطب، والسحر، والجنس. أما الرموز الشائعة للتاو فكانت الحجارة المحلزنة أو المجوَّفة، والتي كان جامعوها يعثرون عليها في الأنهار والبحيرات، وكان يُحتفَظ بها في الحدائق والبيوت. ويمكن للحَجَرة أن تمثِّل كلاً من مهبل الأنثى (الين) على شكل كلية، وعضو الرجل (اليانغ) على شكل

(*) Tao Te Ching ويعني «الطريق إلى الفضيلة أو القوّة». م.

جبل في حالتهما المتناغمة. وفي فن النحت يمكن أن تُشَكِّل الآلهة والحجاج، من زوار المعابد، في الحجارة ذاتها. كما أن الأفكار التاوية جعلت مواضيعها متماسَّة، أو رتَّبتها بحيث يؤثر أحدها بالآخر، ويصبح بالإمكان تحقيق التوازن بين الين واليانغ المستثارَين.

لقد عبّر التاويون عن رمزية الين واليانغ في عدد لا يُحصى من المقتنيات والنقوش واللوحات والأواني، وعلى المذابح، العمومية منها والمنزلية. وأغلب الظن أن اليانغ هو العنصر المسيطر في الحصان والتنين وطائر الفنغ(*) والديك والكبش والحيوانات ذات القرون والجبال والصيف واتجاهات الجنوب. أما الين فهو المسيطر في الفكر والغيوم المدوّمة والماء والوديان والشتاء واتجاه الشمال والأصص والدراق وأنثى التنين ذات الذيل المنشطر والسمك وعود الصليب (نوع من النبات القرنفلي) والأقحوان. وثمرة الدراق، بصدعها العميق، كانت رمزاً محبَّباً من رموز المهبل. وثمة توليفات متناغمة صوَّرت طائر الفنغ يرفرف في حديقة من أزهار عود الصليب، أو تنيناً بين الغيوم المدوّمة، أو امرأة مع كبش، أو طبقاً من الورود الحمراء الفاهية والزرقاء مختلطة معاً لتبرز التناغم بين الألوان المتنافرة. كان الفن الصيني مشبعاً بالرمزية الصوفية والجنسية، وأن تفلح في فهمه فذلك يعني أن تتقن لغة لامنطوقة[6].

درجت الأساطير التاوية الشعبية على استخدام اللغة الرمزية في سرد قصص الآلهة. كانت (هسي وانغ مو Hsi Wang Mu) إلهة محبوبة، وهي الأم الملكية للهواء الغربي، أو الأم الذهبية للسلحفاة، وكانت نظير الإله (مو كنغ) (Mu Kung) ملك الهواء الشرقي. وكانت هي العنصر السلبي أو الين الأنثوي لـ يانغ الإله، وباتحادهما خُلقت كل الكائنات في السماء والأرض. عاشت (هسي وانغ مو) على جبل من اليشم (أحجار كريمة)، في قصر يشتمل على روضة من أشجار الدرّاق السماوية، وعلى شجرة سحرية تعطي أُكُلها كل ستة

(*) Feng - bird - لم يُعثر على مرادف لاسم هذا الطائر. م.

آلاف سنة. بعد حين حلَّ عيد ميلاد الإلهة فدُعي كل الخالدين إلى مهرجان الدرَّاق، الذي أكلوا فيه الثمار فوُهبوا الخلود. ثمة قصة بوذية شهيرة تحكي عن «قرد» سرق الطعام وحبوب الخلود حين تطفَّل على هذا المهرجان. أما في الفن فقد صُوِّرت (هسي وانغ مو) بملابس مشرقة، وبرفقتها طائر العنقاء، وتحمل معها صحن فاكهة. وفي لوحات أخرى يبدو فيها الخالدون خارج سور قصرها منتظرين الدخول بلهفة، بينما كان آخرون قد أخذوا أماكنهم وسط جزيرة في بحيرة روضتها يستمتعون بالدرّاق الخالد.

من بين الآلهة الأخرى كان الإله الرائع شو هسنغ Shou Hsing أو شولاو Shou Lao، النموذج البدئي لتفوُّق الذكر. وبوصفه شيخ القطب الجنوبي، كان له كبير الأثر في إحلال السلام بين ظهراني الجنس البشري. وقد أضفى عليه فن التصوير والنحت خصائص مميزة؛ عالي الجبين، حاسر الرأس أجرده، كأنه جبل يُظهر سطوته العظيمة، وفي يده ثمرة دراق توحي بمديد العمر. كان إلهاً سعيداً حاملاً صولجاناً طويلاً تتصل به يقطينة ولفيفة رقٍ تُعتبر وثمرة الدراق رمزين لطول العمر.

وهنالك عدد لا يُحصى من الآلهة التاوية والكائنات البشرية المقدَّسة. وكل منها له شخصيته الفردية وأطواره المختلفة. قيل إن بعض المخلَّدين الأسطوريين يسبحون في الهواء ممتطين متن التنانين أو محمولين في عربات، وبعضهم الآخر كان يتّخذ من كهوف الجبال مسكناً له، حيث كانوا يبحثون عن طعام الخلود، ويقدّمون ما يجدونه لتلاميذهم الأثيرين. ولقد اختفت معظم تماثيلهم ومعابدهم، على الأقل في الصين ظاهرياً، مع ذلك لاتزال آثارهم حية في بعض الأماكن الواقعة تحت النفوذ الصيني، وكذلك في الأعمال الفنية المتوافرة في صالات عرض ومتاحف منتشرة بكافة أنحاء العالم.

إن السعي الحثيث لتحقيق الحياة المديدة أو الخلود كان الشغل الشاغل للتاوية. فقد مارسوا التمارين التنفسية على غرار اليوغيين الهنود، حيث كانوا

يتنفسون بهدوء، ويحبسون أنفاسهم قدر المستطاع بهدف العودة إلى طريق التنفس داخل الرحم. وكانوا يمارسون الاستحمام بأشعة الشمس، (الشيء الذي لم يعترف الغرب بأهميته إلا مؤخراً) حاملين في أيديهم إطاراً يحتوي على رمز الشمس. أما النساء فكن ملزمات بعرض أجسادهن للقمر، حاملاتٍ قصاصة من الورق الأصفر، مرسوم عليها القمر، وتحيط به هالة سوداء. إن أولئك الساعين للحصول على «الإكسير الخارجي» كانوا كيميائيين يبحثون عن العقاقير السحرية ويرتشفون قطر الندى من الأشجار، ويعودون إلى الطبيعة أو ينطلقون إلى جُزُر المخلَّدين. وخلال بحثهم هذا قد يلجأ التاوي إلى نبذ الجنس بصورة مطلقة، أو كبح هزّة الجماع حفاظاً على السائل النفيس. أما أولئك الذين يجدّون في إحراز «الإكسير الداخلي» فكانوا يلجؤون إلى ممارسة تمارين ضبط النفس، وطرائق أخرى ملائمة بغية تحقيق التناغم التام بين الجسد والروح.

تاو والجنس:

«من بين أنواع الخلائق العشرة آلاف التي فطرتها السماء، الإنسان أغلاها على الإطلاق. ومن بين كل الأشياء التي حققت ازدهاراً للإنسان، لا شيء يضاهي الممارسة الجنسية. فهي تصاغ بمقتضى السماء وتتخذ شكلها بواسطة الأرض، وهي تنظّم الين وتتحكم باليانغ. فأولئك الذين يدركون فحواها يمكنهم إشباع غريزة الجسد وإطالة أعمارهم؛ أمّا أولئك الذين استغلق عليهم مغزاها الحقيقي فلسوف يعرِّضون أنفسهم للأذى ويموتون قبل آجالهم». هذا ما جاء في فن الحب الذي ألَّفه العالم (تنغ - هسوان) ربما في القرن السابع للميلاد[7].

كان أتباع تاو، من أعلى مراتب المجتمع الصيني إلى أدناها، يجدُّون في تشذيب الطاقة الجنسية، لتوحيد الين واليانغ. فالمداعبة الجنسية من شأنها أن تستثير هذه الطاقات، وهزة الجماع تفجُّرها، فتخرج من الجسد وتتسرَّب إلى الشريك الآخر؛ من الذكر إلى الأنثى ومن الأنثى إلى الذكر. وقد عُدّت العملية التبادلية بين خلاصتي (نسغي) الين واليانغ الحاضنة المولِّدة للتناغم المطلق،

وبالتالي فإن الممارسة الجنسية، حسب اعتقادهم، تزداد نشاطاً وتسهم في إطالة الحياة، بدلاً من أن تخبو مع تقدّم العمر.

وجاء على لسان (تنغ ـ هسوان) أيضاً:

في الواقع إن حركة دوران السماء هي باتجاه اليسار، والأرض باتجاه اليمين، وبالتالي فإن الفصول الأربعة تأتي متعاقبة. الرجل يطلب والمرأة تستجيب، الفعلُ من الأعلى والإذعان في الأسفل؛ وهذا هو النظام الطبيعي للأشياء... ينبغي على الرجل والمرأة أن يعملا وفقاً لتموضعهما الكوني، يجب على الرجل أن يولج من الأعلى وأن تتلقّى المرأة من الأسفل. وإذا ما اتحدا جنسياً على هذا النحو، يمكن القول إن السماء والأرض في توازن حقيقي.

إن الممارسة الجنسية في الصين كانت تبتغي هدفين أساسيين. أولهما إنجاب الأطفال، لاسيّما الذكور موفوري الصحّة. فحين تكون خلاصة اليانغ لدى الرجل في ذروة قدرتها، لا بد من أن تستمر العائلة، ويُحفظ قَدْر الأسلاف، ويُصان نظام الكون. إلا أن مني الرجل محدود جداً، كما هو مفترض، في حين أن المرأة تحوز على مخزون لا ينضب من نسغ الين الأنثوي. وبالتالي كان الهدف الثاني تعزيز طاقة الذكر الحيوية عبر امتصاص نسغ الين الأنثوي جسدياً. مفترضين أن هذا النسغ متوافر في الإفرازات المهبلية التي يمتصها جسد الذكر. ثمة عنصر آخر أُضيف لخدمة هذا الهدف، وهو الجماع المحترس، أو الجماع بلا قذف؛ وهكذا يكون الين عنصراً متمماً لليانغ. وإذا ما مورس الاتصال الجنسي مع عدة شريكات، وبإطالة زمن الجماع إلى أقصى حدٍ ممكن ودون بلوغ الرعشة الجنسية، فإن اليانغ تزداد طاقته ويتقوّى. ومع أن التاوية أكدت على أهمية التعاون بين الين واليانغ، إلا أن ذلك لم يُفضِ بالضرورة إلى الحب، والتكافؤ بين الشريكين. وفي أوساط العائلات الميسورة على الأقل تواجدت محظيات كثر، ومادام الذكر المسيطر لا يستطيع أن يقذف في كل جماع، فإن تقييد عملية القذف ساعد في حل المشكلة، مع الاعتقاد بأن المني المحتَجز مفيد للصحة.

إن بعض طرائق الممارسة الجنسية لدى التاوية وُوجِهَت بمعارضة شديدة من قبل الكونفوشيين والبوذيين. فقد اعتبرت التاوية أن كبح الشهوات الجنسية مناقض لتناغم الطبيعة، وأن التبتُّل يؤدي إلى الإصابة بالعصاب، في حين أن البوذيين كانوا يدافعون عن التبتل الرهباني. فضلاً عن ذلك، لم تكتف التاوية بتعليم الجماع المحترِس، عبر الانضباط الذهني الصارم وحسب، بل اعتمدت طرائق بدنية. إذ كانت عملية إيقاف القذف تتم عبر الضغط على الحبل المنوي بالأصابع، وبالتالي تحويل مسار السائل إلى المثانة. لكن النظرية التاوية شأن التانترا واليوغا الهنديتين، تبنَّت ما مفاده أن المني (Ching) يمكن أن «يصعد» على امتداد العمود الفقري «ليغذّي الدماغ»، ونظام الجسد بكامله، وأن خلاصة اليانغ الذكري تكون قد تكثفت من خلال الاحتكاك بالين الأنثوي.

أكدت الأعمال الأدبية الصينية التي تناولت الجنس على أن المني هو أغلى ما يملكه الرجل، وينبغي أن تعوَّض كل عملية قذف من خلال اكتساب كمية مكافئة من نسغ الين الأنثوي. ففي حين أنه ينبغي على الرجل أن يوصِل المرأة إلى حالة إشباع كاملة في كل ممارسة، فإنه ملزم بتقييد فُرص القذف. وإذا ما توفرت لديهما الرغبة في الحمل فإن الوقت الأكثر ملاءمةً، حسب اعتقادهم، هو بعد مرور خمسة أيام على الطمث[8].

إن الممارسات التاوية التي تُوضع في قفص الاتهام من وجهة نظر الديانات الأخرى كانت تلك الطقوس العلنية في ممارسة الجنس، والتي شهدت نشاطاً في القرون الأولى لانتشار المسيحية، وكانت مشابهة للاتجاه اليساري في التانترا الهندية. فبعد انتهاء الرقصة الطقسية كان يمكن لاثنين من المشاركين الرئيسيين في الحفل أن يتضاجعا على مرأى من الحضور، أو أن يفعل أعضاء آخرون الشيء ذاته في إحدى الغرف المحاذية لجانبي فناء المعبد. وكانت الممارسة الجنسية تتخذ طابعاً مقدساً؛ ويفترض بالاتحاد الجنسي بين البشر أن يتناغم والاتحاد الكوني، مع الانتباه الشديد إلى الفصول، والمناخ، ومنازل القمر والكواكب والنجوم[9].

لقد صُنِّفت الكتيِّبات الصينية حول الجنس منذ عهود مغرقة في القدم، وغالباً ما دُوِّنت على شكل حوارات. إذ تمَّ إبراز الإمبراطور الأسطوري الأصفر (هوانغ - تي) بشكل واسع - ومنذ قرون بعيدة - وهو يطرح أسئلته على القيِّمات على أسرار الجنس. وقيل إن إحدى هؤلاء القيِّمات الرئيسيات كانت فتاة السهل واسمها (سو - نو SU-NU) وإنها كانت إلهة النهر التي استطاعت أن تتجسَّد في شكل صَدَفة، رمز الخصب في الصين. وثمة قصة تحدثت عن رجل فقير، لكنه فاضل، وجد صَدَفة كبيرة على ضفة النهر، فحملها إلى البيت. وبعدئذ كان كلما خرج من البيت وعاد، يجد البيت مُنظَّفاً والطعام مُعدَّاً. وراح يراقب خُلسةً، فشاهد فتاة جميلة تخرج من الصدفة، وأبلغته أنها سو - نو التي أرسلها الإمبراطور السماوي للاهتمام به. ثم اختفت، بيد أن الصدفة بقيت، وكانت تظل دائماً ملأى بالأرز[10].

ذُكر أيضاً أن فتاة السهل، إضافة إلى اثنتين أخريين، هما فتاة الظلمة والفتاة المختارة، قد شرحت فنون الاتصال الجنسي. ومع أن الفتاة المختارة هي شخصية غامضة إلى حد ما، يقال إنها إلهة. وروي أن «الإمبراطور الأصفر تعلَّم من فتاة الظلام فنون حجرة النوم، التي تشتمل على احتجاز المني، وامتصاص نسغ المرأة (عبر الجسد)، وجعل السائل المنوي يصعد من أجل تقوية الدماغ وبالتالي منح الحياة المديدة».

من الواضح أن عدداً من الكتيبات حول العلاقات الجنسية كانت موجودة في القرون السالفة، وكُتِبت على شكل حوارات بين الإمبراطور الأصفر وواحدة من هذه الفتيات. وقد زوِّدت هذه المراجع برسوم توضيحية لوضعيات مختلفة من الجماع، وأصبحت طرائقها معروفة لدى الأزواج على نطاق واسع، وكذلك الزوجات وفتيات الرقص، حتى أن هذه المراجع غدت جزءاً من جهاز العروس. وهي لم تكتف بتعليم كيفية الحفاظ على علاقات جنسية مُرضية، بل تعدَّتها إلى كيفية تعزيز الصحَّة وإطالة العمر.

في القرن الثاني للميلاد وصف الشاعر المعروف (تشانغ هينغ) عروساً تلفت انتباه زوجها. نظّفت الوسادة والفراش، وأشعلت القنديل، وملأت المجمرة بالبخور. ثم أوصدت الباب وخلعت ثيابها وفتحت درج الصور لتقتدي بما علّمته مرشدتها، فتاة السهل، للإمبراطور الأصفر، «وهكذا يمكننا ممارسة مختلف الوضعيات التي قلّما عرفها الزواج العادي»[11].

قال المعلم تنغ ـ هسوان، الذي استشهدنا به في بداية هذا الفصل، إن «طرائق الاتصال الجنسي، كما أرست تعاليمها فتاة الظلام، تمّ تناقلها منذ العصور القديمة؛ لكنها لا تقدّم سوى لمحةٍ عامة عن هذا الموضوع، ولا تحيط بأسراره الدقيقة». وبالتالي فقد استفاض هسوان بعرض تفاصيل حول العناق والقُبَل والمداعبة واللعق والعض والإيلاج، وتحدث أيضاً عن فترات الراحة والأوقات المناسبة والفصول.

قُدِّم وصفٌ لثلاثين وضعية رئيسية للممارسة الجنسية، وكل واحدة تحمل اسماً مجازياً: وحيد القرن، التنين المدوِّم، زوج السنونو، الفراشات الخفّاقة، ذكور البط المحلّقة عكسياً، الخيزران المجاور للمذبح، البذرة المتوفِّرة، النمر الأبيض الواثب، العنقاء في أخدود الزَّنجفر(*)، وهلمّ جرّا[12]. في هذا المؤلف كما في مؤلفات أخرى أُعطِيَت تسميات رمزية للأعضاء الجنسية. حيث كان العضو الذكوري يدعى، الحصان المنهك، القمة الحادة، الفطر المنتفخ، رأس السلحفاة أو قائمة التنين. ويطلق على العضو الأنثوي من مثل: الممرُّ المنوي، عودُ الصليب العاري، اللوتس الذهبية، الأصيص المتفتِّح، أوتار العود، الأخدود الذهبي، الوادي العميق، لسان الدجاجة، ويُعدُّ الزنجفر، وهو حجر أرجواني وردي من الكريستال، العنصر الطبيعي الرمزي الأقوى، ويمثّل اتحاد طاقات الين واليانغ معاً.

ظلّت كتيِّبات الجنس شائعة في الصين على مرّ القرون. وأحياناً كانت

(*) Cinnabar: كبريتيد الزئبقيك. المورد.

مواضيع عديدة حول فنون حجرة النوم تندرج تحت عناوين تاوية كلاسيكية. وهنالك لوائح لكتب طبية كانت تشتمل أيضاً على أبحاث في الجنس، من مثل: المرجع الكلاسيكي لطرائق فتاة السهل، كتيّب عن الجنس عند فتاة الظلام، موجز عن أسرار غرفة النوم، مبادئ تنشئة الحياة، مقالة شعرية حول الغبطة الأسمى. وفي عهد أسرة تانغ، من القرن السابع حتى التاسع(*)، اعتُمدت تعاليم الجنس بوصفها فرعاً ملحقاً بعلم الطب، وقد اشتملت مراجعُ عديدة على فصول بهذا الشأن.

ومن المؤلفات الطبية الأكثر شهرة بهذا الصدد كان كتاب «وصفات طبيّة نفيسة»، للطبيب (سن تسو ـ مو) الذي عاش في القرن السابع. ففي فصل بعنوان: «الحياة الجنسية الصحية»، ذكر (سن) أن الرجل، بعد بلوغه سن الأربعين، تتضاءل طاقته الجنسية، ويصبح في حاجة للإطلاع على كتيب في غرفة النوم. وينبغي الإلمام بفنون (طرائق) الممارسة الجنسية، لأن الرجل في ريعان شبابه لا يتعلم التاو، وإذا ما بلغ من العمر عتيّاً فقد يفوّت عليه المرض والعجز فرصة الاستفادة منه: ليت للشبّان خبرة الشيوخ، وللشيوخ قوة الفتيان Si jeune sse savait sivie vieillesse pouvait(**) ولا يجوز الإفراط في الممارسة الجنسية لمجرّد إشباع الرغبة، وإنما ينبغي أن تبقى تحت السيطرة من أجل تغذية الطاقة الحيوية (النسغ).

شدَّد (سن) على أهمية المداعبات التمهيدية للفعل الجنسي، وإثارة شهوات المرأة وارتشاف رضابها المغوي. وليس مهماً أن تكون المرأة جميلة مادامت فتيّة، لأن الهدف هو إمكانية مضاجعة عشر نساء في ليلة واحدة، دون حدوث أي قذف. وينبغي تغيير النساء، لأن الجماع المتكرر مع المرأة ذاتها من شأنه أن يضعِف نسغ ينّها ويجعله أقلّ فائدة لشريكها. وينبغي التحكم بعملية

(*) حسب قصة الحضارة يمتد عهدهما من 618 ـ 905 م.
(**) وردت في النص الأصلي بالفرنسية. م.

القذف من خلال احتباس النَّفَس والضغط على الحبل المنوي بُغية صعود المني إلى الدماغ، و«بالتالي إطالة العمر».

روى (سن) قصة، غالباً ما استشهد بها آخرون، وهي أن فلاحاً يناهز السبعين من العمر أبلغه أن طاقته الذكورية (اليانغ) وفيرة، وأنه يمارس الحب مع زوجته عدة مرات في اليوم. فأجابه (سن) أن ذلك غير مناسب إطلاقاً، وهو بمنزلة الشبوب الأخير للنار، وأنه كان يفترض بهذا الفلاح أن يكون قد أحجم عن الجماع منذ وقت طويل. وبعد ستة أسابيع مات الفلاح؛ وقد اعتبر ذلك تنبيهاً لضرورة التحكم بالعلاقات الجنسية.

وقد قال (سن): «لا الرجل بوسعه الاستغناء عن المرأة، ولا المرأة قادرة على الاستغناء عن الرجل». ولكن لا يجوز الانغماس في الشهوات على غير هدىً، لأن ذلك قد يسلب الرجل طاقته الحيوية. وينبغي على الرجال أن يراعوا قدراتهم الحيوية حين يلاحظون أنها في أوج قوتها. ومع تقدم السنين، يصبح كبحُ الشهوات من قبل الرجل أشبه بصبٍّ الزيت على قنديل يلفظ أنفاسه الأخيرة. ويمكن لرجل قوي نيّف على الستين أن يشعر دائماً براحة البال بعد انقطاعه عن الجماع لمدة شهر أو نحو ذلك، وفيما لو استطاع أن يكبح نفسه لفترة أطول، سيكون بوسعه حينئذ أن يطيل الزمن أكثر فأكثر. وكان الهدف الأبرز من وراء ذلك هو المحافظة على المني النفيس، وإطالة العمر، أما المشاعر تجاه المرأة أو النساء عموماً فيتراجع حضورها، رغم أن نسغ الين لديهن يمكن استثارته بالجماع، حتى بدون قذف[13].

المبادئ الأخلاقية للكونفوشية

كان التاويون والكونفوشيون والبوذيون أتباعاً لثلاث «طرق» في الصين. ولم تكن هذه «الأديان» مستقلة، فحتى حين كانت تتعارض فيما بينها، غالباً ما كان يكمل أحدها الآخر. وكان العالم الكونفوشي النبيل يوصف[*] بأنه موظّف

(*) وهو الوصف الذي ينسحب على طبقة العلماء الكونفوشيين. م.

حيُّ الضمير، ومواطن يتحلى بالمسؤولية، ورب أسرة صالح. أما التاويّ فكان غالباً على حالة واحدة سواء في حياته الخاصة والدينية، في تحقيق صبواته، وفي بحثه عن الحاجات الروحية.

تحدثت الأساطير التاوية عن دنو منزلة كونفوشيوس(*) قبل مجيء مؤسس الفلسفة التاوية الأسطوري لاوتسو (570 - 490 ق.م)، لكن تلك الأساطير كانت متحزبة بشكل واضح. أما الحكماء، أو الكتابات المنسوبة لهم فقد تحدَّثوا عن تاو بطرائق مختلفة. وقد تقبَّل الكثيرون من الصينيين أطروحات تاو بوصفها أعمالاً متمِّمة؛ ولكن بعض الكونفوشيين هاجموا التعاليم التاوية معتبرينها ضيِّقة الأفق ولا تقيم وزناً للرحمة الإنسانية والاستقامة. وكان التاويون قد قالوا: إن اللصوص لن يختفوا ما لم يمت الحكماء(**)، المُعتَرف بهم، واحداً تلو الآخر. إلا أن هذا لم يكن سوى هراء، لأنه لولا وجود الحكماء في الماضي، لفَسُدت الأخلاق. كان البوذيون والتاويون قد علَّموا البشر أن ينبذوا النظام، ويبحثوا عن الطهارة الفردية والنيرڤانا (السعادة القصوى). ولكن كيما يبني المرء عائلة ينبغي عليه أن يهذِّب نفسه أولاً.

قلَّما تحدث كونفوشيوس عن المرأة ناهيكم عن أنه لم يتطرق أبداً إلى العلاقات الجنسية - الجسدانية، وقد أكد في أحد المقاطع الشعرية أن «النساء وكذلك ذوي المنبت الوضيع من الناس يصعب التعامل معهم. فإن كنت حميمياً معهم، يفلتون من اليد، وإن أبقيت على مسافة منهم، يغتاظون»[14] وقد عزز أتباع كونفوشيوس هذا الموقف توكيداً منهم على وضاعة منزلة النساء؛ فالواجب الأبرز للمرأة يكمن في طاعتها لزوجها ولأبويه، وأن تهتم برعاية المنزل، وإنجاب الأطفال موفوري الصحة. فالهدف الرئيسي كان الإنجاب،

(*) كونفوشيوس (551 - 490 ق.م) الذي تروي الحكايات أنه وليد غير شرعي. م.
(**) الحكيم هو من تنضج قواه حوالي الخمسين من عمره، ويعيش في هدوء منطوياً على حكمته مئة عام. م.

والمتعة الجنسية تأتي تالياً. والمرأة المثالية كانت «تلك التي تلزم بيتها»، منصرفة أساساً إلى أداء واجباتها المنزلية. واعتبرت العفة مبدأ جوهرياً فيما يخص المرأة، لكنها لم تنسحب على الرجل.

إن أحد تعاليم الكونفوشية كان «عقيدة الوسط» التي تؤكد على تحقيق التوازن في المجتمع، والتناغم مع نظام الكون، بوصفهما الهدف الأخلاقي الأسمى. وهذا يُلزم جميع المهتمين بتطبيق هذه العقيدة عبر خمس أنواع من العلاقات: علاقات الحاكم بالرعيّة، والأب بابنه، والزوج بزوجته، والأخ الأكبر بأخيه الأصغر، والصديق بصديقه.

دافع الكونفوشيون عن ضرورة فصل الجنسين حفاظاً على الطهارة داخل الحياة العائلية. أما كتاب الشعائر، الذي يجمع بين دفتيه طقوس العهود الغابرة واللاحقة، فقد تطرَّف في الفصل بين الجنسين إلى أقصى الحدود: «تُقسم بيوت السكن إلى قسمين مميَّزين، داخلي وخارجي؛ فيسكن الرجل في الغرف الخارجية، والنساء في الحجرات الداخلية. وهذا القسم الأخير يُبنى في الجزء الخلفي من المنزل، وتبقى الأبواب موصدة، ومحروسة من قبل خصيان». حتى أنه لا يجوز للزوج والزوجة أن يستخدما المشجب ذاته، وينبغي ألّا يستحما معاً، أو يتقاسما فراش النوم نفسه، أو أن يستعير أحدهما ثياب الآخر. وإذا ما غاب الزوج، فعلى الزوجة أن تقفل على محتويات غرفة نومه. ولا يجوز لها أن تتسلّم باليد أي شيء من رجل آخر. «وحين تغادر المرأة البيت، فهي ملزمة بارتداء خمار على وجهها... ويقضي نظام السير في الشوارع أن يلزم الرجل جهة اليمين والمرأة جهة اليسار»[15].

خلال القرنين الأول والثاني للميلاد حظيت السيدة بان تشاو Pan Chao باحترام فائق نظراً لعفّتها وثقافتها الرفيعة، إذ دافعت عن التعليم الإلزامي الابتدائي للبنات والأولاد على السواء. إلا أنها ألّفت كتاب وصايا النساء، والذي اعتبر بأنه «أحد أكثر الكتب تشدّداً في الأدب الصيني»، حتى أن

الكونفوشيون عدُّوه نموذجاً مشرقاً للأنوثية الحقّة. كانت السيدة (بان تشاو) ترى أن الثقافة ينبغي أن تعلّم المرأة التبعية والامتثال المطلقين لزوجها.

إن نهج (تاو) الزوج والزوجة يمثّل توليفة متناغمة للين واليانغ، ويعزز انسجام المرء مع ملكاته النفسية والعقلية، ويعيد التوكيد على الأهمية الكبيرة للسماء والأرض، والنظام الرفيع للعلاقات الإنسانية... ولأن الين واليانغ مختلفان من حيث الجوهر، فإن الرجل والمرأة يختلفان في سلوكهما، القوة هي السمة المميّزة لليانغ، والخضوع يشكّل ضرورة للين، فالرجل مبجّل لقوته، والمرأة ممتدَحة لضعفها... أن تكون المرأة موقّرة ومطيعة، تلك هي القاعدة الذهبية للزوجة المثالية.

وعودة أخرى إلى كتاب الشعائر: «وفقاً للطقوس يحق للرجل أن يتخذ أكثر من زوجة واحدة، ولكن لا يجوز للمرأة أن تتبع سيدين... الاحتشام هو الركن الأساسي للفضيلة، والطاعة هي السلوك اللائق للزوجة»[16].

إن قواعد السلوك التي وضعتها السيدة (بان تشاو) كانت مثالية، ويبدو أنه لم يُعمل بها في الغالب على أية حال. فقد روى كتّاب آخرون عن خروج النساء في النهار والليل سعياً وراء الملذّات، وقيامهن بزيارات إلى المعابد البوذية لحضور الاحتفالات، وتنظيم النزهات. وفي البيوت قد يلجأ الزوار إلى مضايقة مضيفهم بالأسئلة الملحّة إلى أن يكشف عن عشيقاته، وبعدئذ يجلسون معاً، فيغنّون ويرقصون، ويتبادلون الأحاديث غير اللائقة.

حدّدت التعاليم الكونفوشية دور الرجل والمرأة في المجتمع والعائلة، أما فيما يتعلق بخصوصيات غرفة النوم فبوسعهما أن يتّبعا التعاليم التاوية، حيث لم يكن أمراً نادرَ الحدوث أن تكون المرأة هي المعلّمة لأسرار الممارسة الجنسية. وكان الاتصال الجسدي بين الزوج والزوجة يحدث في سرير الزوجية حصراً، والذي كان في الغالب عبارة عن حجرة صغيرة. وحتى بصدد هذا الحيّز الحصري أكدت السيدة (بان تشاو) على أن «المداعبة في غرفة النوم لن يكون

من شأنها سوى التسبب بالفسق، ولسوف يستجر الفسق المحادثة التافهة، والمحادثة التافهة تُحدِث الإنحلال الأخلاقي، وهذا الأخير سيولد احتقار الزوجة لزوجها. إن مصدر جميع هذه الآفات هو عدم قدرتهم على تعلم الاعتدال «في علاقاتهم الجنسية». ومن الواجب ذكره أن السيدة (بان) تزوجت في الرابعة عشرة وتوفي زوجها شاباً، غير أنها لم تتزوج ثانية بالرغم من أنها عاشت عمراً مديداً.

كان أتباع كونفوشيوس يُشبهون التاويين، وفي كثير من الأحيان كانوا هم الأشخاص ذاتهم، ويعتقدون أن الاتصال الجنسي مفيد ومهم للرجال والنساء، وضروري أيضاً لاستمرارية الجنس البشري. ولم يحبذ بعض المعلمين المداعبة الجنسية خوفاً من حدوث الفوضى في الحياة العائلية، وخصوصاً إعاقة الإنجاب بسبب المداعبات العشقية الزائدة، وكانوا يرون أن المرأة أقل شأناً من الرجل، تماماً كما الأرض أقل منزلة من السماء، لكنهم لم يستخفوا بالنساء أو الجنس كما فعل بعض المعلمين في الديانات التي تنكر العالم الدنيوي.

وحسب آراء أتباع كونفوشيوس، يتوقف اهتمام الزوج بزوجته حالما تغادر سريره. ونظراً لأنه من غير المفترض أن تشارك النساء باهتمامات أزواجهن الفكرية، أو أن يتدخلن بنشاطاتهم الخارجية، فقد أُوليَ القليل فيما يتعلق بتعليم الفتيات. معظم النساء كن جاهلات حتى ضمن عائلات الطبقة العليا وانحصر تعليمهن في الخياطة والحياكة فقط. كما اقتصر تعليم القراءة والكتابة على المومسات فقط كجزء من تدريبهن.

في الصين الكونفوشيوسية، اتسمت العلاقات بين الجنسين بالاحتشام الشديد في العلن، وكان على الرجل المستقيم أن لا يبدي أي ميل من الإلفة لأية امرأة أمام الآخرين حتى لو كانت زوجته، فهذا سيضر بالولاء للأسرة لأن الواجب الأساسي في الحياة كان مكرّساً باتجاه الوالدين.

وقد امتدت مسألة الحماة إلى أقارب الزوج الآخرين. ذكرت السيدة (بان): «كيف على الزوجة أن تكسب ود حمويها؟ ليس هناك وسيلة أفضل من

الطاعة التامة، فإذا قالت الحماة «لا» مع أنه يستوجب أن تقول «نعم» فيجب على الزوجة أن تمتثل لذلك. ولكي تحظى بود حمويها يجب عليها أولاً أن تضمن ود أخوة وأخوات زوجها.

اعتبرت جاذبية المرأة للرجال أمر غير طبيعي وترادف الإثم الجنسي، وعلى نحو متكافئ يجب أن لا تظهر جاذبية المرأة لزوجها أمام الملأ. وعلى الزوجة أن تتحاشى الكلام الودي جهاراً لأن المشاعر الرقيقة كانت محظورة عن الجماعة عامة. ومن جانب آخر، يستطيع الزوج، في أحوالٍ كثيرة، اتخاذ محظية حين تكون الزوجة عاقراً، ويمكن أن تقوم الزوجة بتشجيع زوجها لاتخاذ امرأة كهذه من أجل الحفاظ على سلسلة النسب، كما يمكن نيل هذه المحظية إذا لم يُعجب العريس بعروسه التي التقاها للمرة الأولى أثناء مراسم العرس.

كانت عادة اتخاذ المحظيات مستحسنة في الصين، رغم أنه لم تكن هناك امرأة ترغب أن تكون محظية. وكان يتم بيع الفتيات من أجل المال، وفي بعض الأحيان لأنهن فقدن بكارتهن. لكن حتى العائلات الفقيرة لم تكن ترغب بالتصريح بأن ابنتهم قد تصبح محظية وكان يشاع أثناءها أن المحظيات قادمات من مناطق بعيدة. وكانت المحظية تُعامل بشكل حسن إذا لم تكن الزوجة غيورة أو إذا كان الرجل مستقل الرأي، وعدا ذلك تصبح حياتها بائسة. وإذا لم ترزق بمولود ذكر فسيتم تجاهلها بينما يجلب الزوج نساء أخريات ليصون إرث العائلة. وكانت المحظيات يشهدن عمراً أطول من أزواجهن لأنهن صغيرات وبعدها تصبح المحظية موضع إهمال وذلٍ من قبل العائلة. ولم يكن لهن أقارب للعودة إليهم.

إن امتلاك المحظيات وتعدد الزوجات يزيد من نشاط الرجل الجنسي. وكان الزوج يذهب من واحدة لأخرى في الليلة ذاتها أو لليال متتالية. وحسب النظرية التاوية فإن «يانغ» الرجل سيضعف لفقدانه المني، أما إذا مارس الجماع المحترس فإنه سيرضي الحاجات الجنسية لزوجاته ومحظياته وبذلك ستتقد قوته من خلال انتقال نسغ «الين» إليه.

الزواج:

قول كونفوشيوس في كتاب الشعائر «The Book of Rites» لو أن الأرض والسماء لم يتزاوجا، لما ولدت عشرات آلاف الأشياء. ومن خلال طقس الزواج العظيم يستمر الإنسان عبر هذا الكم الكبير من الأجيال. لذلك تم تمجيد الزواج رغم النظرة الدونية للمرأة. وكل امرأة سواء كانت فقيرة أو قبيحة لها حق المطالبة بالحصول على زوج. وقد كان دور رب المنزل أن يبحث عن أزواج لجميع النساء الموجودات في خدمته. أما فيما يخص الفقراء والفلاحين فكانت الجماعة هي الملزمة بإيجاد زوج لكل فتاة.

في الصين القديمة كان زواج الأباعد سائداً في أوساط الطبقات الحاكمة، وكان الزواج من امرأة تحمل الكنية ذاتها محرَّماً بصورة قطعية. وكان للفلاحين محرماتهم أيضاً، ولو أن الكثير منها لم يتم تدوينه، ولكن الزواج من شخص يحمل اسم العائلة لايزال محرَّماً حتى وقتنا الحاضر، وكان يجري ترتيب الزيجات من قبل وسيط، ولا يلتقي الزوجان إلا بعد تبادل هدايا الزواج، مادام قرار الاختيار كان للوالدين. أما في العصور القديمة، فكان شباب وشابات الجماعات الريفية يلتقون في المهرجانات، يغنّون ويرقصون معاً، وغالباً بطرائق شهوانية، ومن ثم يمارسون الجنس، كل مع شريكه المختار. والجماعة هي المعنية في الغالب بترتيب حالات الجِماع هذه وفقاً للتقاليد. وقد صُدم الكونفوشيون من جرّاء زيجات تقليدية كهذه، وأمروا بلزوم مراقبة هذه الزيجات وتسجيلها من قبل «وسيط»، ولكن إلى أي حدٍ جرى تنفيذ ذلك، فهذا موضع جدل دائم.

ثمة إشارة، تتكرر في الأدب اللاحق، حول عادة كانت تدعى «إثارة الهرج والمرج في غرفة الزفاف» أو «مناكدة العروس». فبعد انتهاء مأدبة الزفاف كان الضيوف ينقلون العروسين إلى غرفة الزفاف ويضايقونهما ويهزأون منهما بلا قيد. كما يتعرَّض العروسان «السعيدان» لأسئلة فظَّة، وإساءات مُهينة تصل أحياناً إلى حد الضرب بالسوط من قبل الضيوف السكارى. وقد بقيت هذه

العادة مستمرة، بدرجة ما، حتى العصر الحديث، ربما حفاظاً على الهدف القديم المتمثّل بفض بكارة العروس وإتمام طقس الزواج.

إن اللقاء التمهيدي لزوجَيْ المستقبل كان يتحقق بعد موافقة العائلة، كما تقتضي التقاليد، مع ذلك فمنذ عهد أسرة مينغ Ming ما كان هذا اللقاء ليحدث إلا بعد أن يُزاح حجاب العروس في احتفال رسمي يُعقد في صالة الأسلاف. وغالباً ما تتخذ المومسات دور صانعات الزيجات، فيقدن العروس إلى حجرة الزفاف، ويتبادل الزوجان نخب العرس، فيما خصلات شعر كلّ منهما تُربط بالأخرى.

في الصين القديمة كانت الزوجة، مثلها مثل الزوج، يمكنها أن تطلب الطلاق، وبالتالي فهيَ لم تتنازل عن استقلاليتها. إلا أن الكونفوشيين في عهد أسرة سنغ حظّروا الزواج الثاني لأية أنثى، معتبرين أن «الموت جوعاً لهو أمرٌ تافه، أما فقدان العفّة من جرّاء الزواج الثاني فهو أمر شديد الخطورة». وكان كتاب الشعائر قد منع الأرامل من النواح ليلاً، حتى أنه حظّر على الناس إقامة علاقات صداقية مع أولاد الأرملة. ومراعاةً لآداب اللياقة الكونفوشية أُكرِهت النساء الشابات على البقاء أرامل، مجرّدات من حرّيتهن، يعشن حيوات مقيّدة في حجرات النساء التي اتخذت فيما بعد اسم السجون الموصدة.

ظلّت النساء الصينيات يرتدين أزياء تكشف عن نحورهن وصدورهن حتى عهد أسرة سنغ في القرن التاسع، وكانت الفتيات غالباً ما يرقصن وأثداؤهن مكشوفة. ولكن بدءاً من أسرة سنغ في القرن التاسع، غدت الياقة العالية مَعْلماً بارزاً في ثياب المرأة، وقد استمر ذلك إلى العصر الحديث، حيث جاء الأفرول الشيوعي(*) ليؤبّد الستار على كل شيء. أما عادة تقييد أقدام البنات فظهرت في القرن العاشر، وقد صمّمت هذه القيود كي تجعل النساء أكثر جاذبية، إلا أنها كانت تسبّب آلاماً مبرّحة، وتم إلغاؤها لاحقاً.

(*) يقصد بدلات العمل الموحّدة. م.

تأثيرات البوذية

استناداً إلى الروايات المتناقلة، دخلت البوذية إلى الصين في القرن الأول الميلادي تحت إهاب قرينتها المهايانا Mahayana(*). ورغم أن المهايانا استطاعت استيعاب الآلهة الصينية المحلية بسهولة، متّشحةً جلباب البوذات المنتظرين Bodhistavas أو «كائنات الاستنارة»، فقد استجرَّت بعضُ المعتقدات والممارسات البوذية انتقاداً لأنها كانت غريبة على الصينيين. وهذه الأصول الغريبة للديانة البوذية كانت موضع نفور نظراً لزعمها بأن مكانة الرهبان تسمو على مكانة الحكّام، وحتى على الإمبراطور نفسه. أما التبتُّل الرهباني فقد شكّل عقبة كأداء في وجه المهتدين المحليين إلى الدين الجديد، لأن عدم إنجاب ذرِّيَّة كان يعتبر أشد المسلكيات تمرّداً في الصين. وكان ردُّ المنافحين عن البوذية أن «الزوجات والبنين الملكية تعتبر ترفاً دنيوياً... ويستعيض عنها الراهب بالصلاح والحكمة».

اكتشف البوذيون أن الصينيين شديدو التعلّق بالرُّقى والتعاويذ السحرية التي كانت تُستخدم من قَبلُ في الديانة التاوية، كما قاموا بترجمة المؤلَّفات الهندية التي تشتمل على رقىً كهذه، إضافة إلى تعاليم بشأن الجنس. وفضلاً عن الدور الريادي الذي أنيط بالنساء في كتب الجنس الهندية، كنَّ في الغالب مرشدات في أسرار الجنس، وبالتالي عزّزت البوذية موقع النساء، وتضافرت بذلك جهودها مع جهود التاوية عموماً في مواجهة موقف الكونفوشية الذي يحط من قدر المرأة. وفي المراحل الأولى قُدِّمت النصوص البوذية عن ممارسة الحب بشكل موجز، احتراماً لمشاعر الكونفوشيين. ولكن ما إن بدأت البوذية بالازدهار حتى انتشرت النصوص التانترية الشهوانية على نطاق واسع؛ إلى أن أُعيد تشذيبها لاحقاً في ظل الإصلاحيين الكونفوشيين الجدد.

لقد اجتذبت البوذية النساءَ على وجه الخصوص، بفضل عقيدتها

(*) المهايانا (العربة الكبرى) وهي إحدى مدرستين كبيرتين في البوذية. م.

المتسمة بالرحمة الشاملة، والتي طرحت المساواة بين كل الكائنات، وقدَّمت حلولاً لحاجات النساء الروحية. فالنصوص المقدسة للمهايانا وهي سوترا اللوتس Lotus Sutra ، أبرزت أڤالوكيتشفارا بوديستاڤا (Bodhistava Avalokiteshvara)، «صاحب الرحمة أو الرعاية» الذي أصبح لاحقاً في الصين يحمل اسم إلهة الرحمة كوان ين Kwanyin، وهي السيدة التي تهب الأطفال (وأصبحت تعرف في اليابان باسم كوانون أو كانون). وغالباً ما كانت كوان ين تُصوَّر حاملة دراقة الجنس، مانحةً الذريَّة، وكانت تقدم العون في المحن، وكانت الطقوس الاحتفالية الزائفة التي تمارس في معابدها تضفي تلويناً جديداً على رتابة الحياة اليومية.

أما الطائفة البوذية التي كانت أكثر شيوعاً في الصين فهي مدرسة الأرض الطاهرة (Pure land)، وهي دين الإخلاص والرحمة الذي أقرَّه أميتبها (Amitabha)، بوذا ذو النور اللامتناهي المتربع في فردوسه الغربي، الذي يمكن أن يدخله كل من يلفظ اسمه بورعٍ حقيقي. والترجمة المقابلة لِ أميتبها في الصينية هي أوميتوفو(*)، التي غدت هتافاً مفضَّلاً عن الدهشة أو البهجة لدى الصينيات. وقد بقيت مدرسة الأرض الطاهرة أكثر صور البوذية شعبية في اليابان، كما استمرت لزمن طويل جداً في الصين.

لقد شاع كثيراً وجود الراهبات البوذيات في أوساط النساء الصينيات. ولأنهن كن يتمتعن بحرية الدخول إلى أجنحة النساء في البيوت فقد أصبحن بمنزلة مستشارات في معالجة المشكلات الشخصية. وكن يعقدن جلسات لإقامة الصلوات ابتغاء شفاء المرضى من الأطفال أو معالجة العقم، أو الأمراض النسائية بمختلف أنواعها. وكن يعلّمن البنات القراءة والكتابة وبعض المهن الأخرى. ولكن الكونفوشيون صُدموا برؤية النساء وهن يتخلين عن واجباتهن المقدسة المتمثّلة بإنجاب الأطفال وإشباع رغبات أزواجهن؛ وثمة روايات بذيئة

(*) omi - to - fo وتعني أيضاً النور اللامتناهي أو (بوذا صاحب الحياة اللامتناهية). م.

كُتبت عن الرهبان والراهبات. كما نُظمت قصائد هجاء بحق الرهبان المتهمين بتحويل مدرسة الأرض الطاهرة إلى مرتع للشهوات الجنسية، واعتُبِروا أشبه بعلقاتٍ ماصَّة للدم؛ إذ كانوا يستدرجون الفتاة العذراء، وما إن تسنح لهم الفرصة حتى يكشفوا عن الشكل الحقيقي لسن بوذا.

ما من ريب في أن بعض الفتيات الصينيات غدون راهبات انطلاقاً من دوافع مخلصة نابعة عن قناعات دينية أصيلة، في حين أن أخريات تُنذِرن من قبل ذويهن لتحصينهن من الآثام، وقد لجأت زوجات ومحظيات إلى الرهبنة هرباً من قسوة أزواجهن أو عائلاتهن. وذكر بعض النقاد أنهن كن يقترفن الرذائل في الأديرة والرهبانيات، أو يقدمن شراب المحبة love Philtre(*) للنساء، أو يعملن سمسارات في العلاقات الجنسية غير الشرعية. وحين كانت الرهبانيات تُدار من قبل نساء ذوات شخصيات قوية، يكون الانضباط صارماً على الأرجح، إلا أن التساهل قد يفسح في المجال أمام الشبهات. وثمة نص يتحدث عن إثارة الشهوات، مأخوذ من عهد أسرة تانغ، يتَّهم الراهبات بممارسة الجنس مع رهبان هنود وصينيين؛ فكنّ «حين يلتقين مع عشاقهن، ينسين شريعة بوذا، ويسبِّحن بسُبُحاتهن وهن شاردات الذهن تماماً»[17]. وأكدت نصوص أخرى أن أديرة الراهبات كانت بمنزلة ملاذ للنساء الخليعات اللواتي كن يتهربن من التسجيل رسمياً كبغايا، لكنهن كن يقمن الولائم ومبارزات الشراب هناك بينما كانت السلطات الدينية تجني مكاسب مجزية ناهيكم عن الطعام والشراب.

اشتملت الطرائق الفلسفية للمهايانا البوذية على تأملات في مبدأي الذكورة والأنوثة الكونيين، اللذين وجدا تطورهما في التانترا بصيغة الين واليانغ. ففي الڤاجرايانا(**)، «عربة الصاعقة»، التي اعتُبرت فيها الصاعقة رمزاً

(*) شراب (أو عقار أو تعويذة) ذو قدرة على إحداث الحب أو العشق ـ المورد
(**) ورد معناها الحرفي «عربة الماس» في هذا النص نفسه ـ فقرة التانترا البوذية. م.

قضيبياً، درجت على تعليم كيفية بلوغ الغبطة الأسمى عبر الاتحاد بين الذكر والأنثى، أي الزواج الرمزي الذي يتغلَّب على الثنائية الجنسية عبر صيغة الوحدة الخنثوية. وقد مارس التانتريون البوذيون هذه الطريقة إما إفرادياً، عبر التخيُّل، أو من خلال وصال جنسي حقيقي مع امرأة، إلا أن معظم النصوص أكدت على ضرورة أن يكون الشريك امرأة عذراء، لأن «المرتبة البوذية(*) تلتزم باليوني». إن الطريقة اليوغية في السيطرة على التنفس كان لها تأثيرها على المني الناشئ بحيث تمنعه من أن ينقذف، فيصعد بالتالي إلى الأعلى، أما المرأة فتستثار طاقتها الأنثوية وتمتزج مع طاقة الرجل، فينتج عن المني المحتجز نسغٌ جديد وفعَّال يصعد إلى «اللوتس في قمة الرأس» عبر المراكز العصبية.

لا شك في أن الممارسات الجنسية في التاوية قد تأثرت بالتانترية الهندية، إلا أنه من المحتمل أن تكون النصوص الهندية قد تأثرت هي الأخرى بالتعاليم الصينية. فالتانترية البوذية وصلت إلى الصين متأخرة نسبياً، حوالي القرن الثامن، ومادامت رمزية التصوف الجنسي المتمثِّلة في جعل «المني المحوَّل يعود» كانت قد ازدهرت في الصين لعدة قرون خلت، ربما دون أن تكون قد عُرفت في الهند منذ وقت طويل، فمن الممكن أنه كان هنالك طريق ذو اتجاهين من الممارسات. الدينية والجنسية. وقد رُوي في أحد النصوص التانترية الهندية، رودرا يامالا Rudra - Yamala، عن حكيم مارس التقشف، بأنواعه، لزمن طويل جداً دون أن يدرك الإلهة الأسمى، وبناء عليه فقد نُصح باعتناق «نظام رياضة النفس الصيني» الذي ابتهجت له الإلهة. فأرسلته إلى الصين، حيث شاهد هناك بوذا محاطاً بخبراء عراة، يشربون الخمرة ويأكلون اللحم وينغمسون في الممارسات الجنسية مع نساء فاتنات. ولدى رؤية هذا المشهد أصيب الحكيم بتشوش فظيع، وبقي كذلك إلى أن علّمه بوذا المغزى الحقيقي من الطقوس الجنسية.

(*) Buddha - hood: المرتبة البوذية، أي حالة الاستنارة التي يمكن أن يصل إليها البوذي، وهي مَثَلَه الأعلى.

مع حلول القرن الثاني عشر انطفأت الڤاجرايانا عملياً في الهند. ولكن أُعيد الاعتبار لتعاليمها في التيبت والصين. وهناك قُوبلت بمعارضة؛ فأحد العلماء الكونفوشيين في عهد أسرة سنغ، والذي صُدم بالڤاجرايانا، قدّم وصفاً لـ«قاعة الأم - بوذا» في بكين حيث نُحتت فيها الآلهة والإلهات التيبيتيون على شكل تماثيل في وضعية العناق الجنسي التام. وكان ينظر إلى هذه الممارسة على أنها دخيلة وبغيضة، ودون أي اعتبار لإمكانية أن تكون تصويراً لقواعد سلوك التاوية القديمة. في مراحل سابقة كانت نماذج «البوذات المبتهجين» كهذه تستخدم لتعليم الأمراء والأميرات شؤون الجنس. إلا أن الكونفوشية - الجديدة (Neo - Konfucianism) عملت على قمع هذه «العبادات اللاأخلاقية»، لكن الوصف التمثيلي لأسرار الصوفية الجنسية للتانترا الصينية حُوفظ عليه جزئياً في اليابان[18].

الانحرافات الجنسية:

نظراً لاعتقاد الصينيين بأن ماء الرجل هو أغلى ما لديه، وأن كل قذف من شأنه إضعاف طاقة الرجل الحيوية، ما لم تعوَّض عبر اكتساب كمية مكافئة من نسغ الين الأنثوي، فقد استلزم ذلك منطقياً شجب بعض تنويعات الاتصال الجنسي. لقد حُظِّر الاستمناء الذكوري لأنه ينطوي بداهة على هدرٍ للطاقة الحيوية بالمعنى المليء للكلمة. إلّا أنه أُجيز فقط عندما يكون الرجل منقطعاً لزمن طويل عن معاشرة أية امرأة، ويغدو «المني غير الحيوي» معيقاً ربما لوظائف الجسد. حتى حالات القذف اللاإرادية، أثناء النوم، تم بحثها باهتمام، وربما اعتبرت ناتجة عن إغواء شيطانٍ أنثوي شرير يسلب الرجل قدراته الحيوية. أما إذا كانت ناجمة عن رؤية امرأة في الحلم، فينبغي على الرجل أن يتحرَّز من لقائها في اليقظة مخافة أن تكون مصّاصة دماء أو روحاً ثعلبية. من جهة أخرى جرى التعامل مع العادة السرية الأنثوية بتسامح نظراً لأن مخزون ين المرأة لا ينضب. وتشير النصوص إلى استخدام أعضاء ذكورية رمزية من قبل النساء إشباعاً ذاتياً

للرغبة، وتمَّ عرض ذلك في صور، إلا أنه ثمة تحذيرات تنصح بعدم الإفراط في استخدام هذه الطريقة لأنها قد تمزّق «جدار الرحم».

لم تشر الكتيبات المرجعية المتعلّقة بالجنس إلى اللواطة، ذلك أنها كانت مهتمة بالروابط الزوجية أساساً. ويبدو من خلال بعض المصادر الأخرى أن اللواطة كانت نادرة الحدوث في العصور القديمة، وناشطة في العصور الوسطى، ولم تبلغ مستوى غير طبيعي في مراحل لاحقة. وكان هنالك نوع من التسامح بشأن ممارسة اللواطة بين البالغين، لأن التّماس الحميمي بين يانغين (عضوين ذكريين) لا يمكن أن يتسبَّب في فقدان الطاقة الحيوية. وقد اتخذ بعض الأباطرة لأنفسهم مأبونين(*)، ومحظيات بطبيعة الحال؛ وربما كان بعض الشعراء لواطيين في عهد أسرة (تانغ)، مع أن اللغة الحميمية التي درجوا على استخدامها في التغزّل بأصدقائهم لم تكن توحي بالضرورة باتصال جنسي. وكانت العلاقات الصداقية بين الذكور تُعدّ من فضائل الكونفوشية، وغالباً ما كان يُعَبَّر عنها بكلمات دافئة. وتروي إحدى القصص من القرن السابع أن موظفاً وزوجته راحا يتجسَّسان على رجال كانوا يستحمون معاً، زاعمَيْن ظاهرياً أنهما يراقبان ما إذا كان لدى الرجال أعضاء مزدوجة، لكنهما على الأرجح كانا يتأملان مدى الحميمية التي تنطوي عليها لقاءاتهم معاً. وذكر مراقبون أجانب في القرن التاسع عشر أن اللواطة كانت تُعدّ انحرافاً جنسياً في الصين، إلا أن الآداب الاجتماعية كانت تسمح للرجال بأن يمشوا متشابكي الأيدي، كما أن اللواطيون أدُّوا أدواراً نسائية على المسرح. وفي الموانئ حيث يمارس الأجانب أعمالهم التجارية، كان هنالك نقص في عدد النساء، ولكن لم يُتح لهم رؤية علاقات جنسية شاذة، لأنها كانت تُمارس بسرية مطلقة.

أما السحاق فكان شائعاً وجائزاً شريطة أن تحصر ممارسته في أجنحة النساء. وكان من شأن النساء أن يتطارحن إشباع الرغبة إما بطريقة طبيعية

(*) Catamtie: المأبون: غلام يتّخذ لأغراض جنسية شاذة ـ المورد.

مباشرة أو بوسيلة اصطناعية، كالأعضاء الذكرية الرمزية مثلاً، أو «أنابيب جرسية للإفراز»، أو «كرات مهيِّجة» تستخدم في العادة السرية الأنثوية. وحسبما يزعم الصينيون فإن هذه الأدوات الجنسية الاصطناعية كانت دخيلة على الصين: «أنابيب جرسية بورمية»، «وضعيات التتار»، «الجنود البرابرة»، تماماً كما تحدث الأوروبيون عن «الرسائل الفرنسية» و«الرسائل الانكليزية».

إن الممارسات الجنسية الشاذة التي قرأنا عنها في مراجع تعليم الطرائق الجنسية تم إعدادها وإنجازها بعناية بغية تنشيط النسغ الأنثوي (الين). إذ كان التقبيل مهماً، وكذلك مناورات الشفاه واللسان النشطة في المداعبات التمهيدية. وثمة اعتقاد لدى الأجانب بأن الصينيين لا يتبادلون القبل، لأن ذلك مقتصر على غرف النوم، وحين كان الصينيون يرون النساء الغربيات يمارسن التقبيل علناً، كانوا يعتبرونهن مومسات من الطراز الأدنى، لأن المومسات الشرعيات أنفسهن كن يمارسن التقبيل سراً.

لقد أوردت الكتيبات المرجعية الجنسية تفاصيل واسعة حول الوضعيات المتنوعة التي يمكن اعتمادها في الممارسة الجنسية. فالتبظير (لعق البظر) كان مستحسناً، خاصة في النصوص التاوية، مادام يوفّر يسر النسغ الأنثوي للرجل. أما الإيلاج في الشرج، ولعق العضو الذكري فلا يجوز استخدامهما إلا في المداعبات التمهيدية أو في حال تعذُّر اكتمال القذف الذكوري.

يُعتقد أن الرجال، المتزوجين منهم والعزَّاب، كانوا مخوَّلين بمعاشرة البغايا، ولكن بطرائق جماع مختلفة عمّا هو الحال مع الزوجة، لأن المعاشرة غير الزوجية ليست مخصَّصة للإنجاب، وبالتالي لم تجرِ مناقشتها في مراجع تعليم الجنس. ولم يكن التحريم المرتبط بالاسم مطبَّقاً في هذه الحالة لأن الرجل ما كان ليعرف كنية البغي. وقد اعتقد بعض الكتّاب أن مضاجعة المومس لا تبدّد مني الذكر، مادامت هذه المرأة، بحكم مهنتها، لديها مخزون وفير من النسغ الأنثوي وتعوّض للذكر أكثر ممَّا يفقد خلال ممارسته معها. وبعد اكتشاف مرض الزهري (السفلس) حذَّرت الأبحاث الطبية من معاشرة البغايا، كما أن كتب

الجنس والطب ركّزت بشدة على علم تحسين النسل بغية إنجاب الذرية الأفضل.

نادراً ما مُورس سفاح القربى، وهو يستوجب عقوبات منصوص عليها بالقانون الجزائي، وقد عُدَّ «جريمة لا إنسانية» يستحق مرتكبها الموت بأشد الطرق قسوة، مع ذلك مارس بعض موظفي الإمبراطورية، في عهود سابقة، علاقات سفاحية مع أخواتهم وقريبات أخريات. وكذلك كانت العلاقات الشاذة مع البهائم نادرة الحدوث، رغم أنه أشير إليها فيما يخص بعض الحكام الفاسقين. وبعيداً عن المراجع التعليمية للجنس، والتي لم يُنظر إليها على أنها إباحية، على الأقل من حيث النوايا، فإن المواد الأدبية التي اهتمت بموضوع الدعارة كانت نادرة، ولم تظهر إلا في بعض الأعمال الروائية التي طاب لها الإغراق في تفاصيل الأعضاء الجنسية الذكرية والأنثوية وإفرازاتها. ومع أن الصينيين القدامى كانوا مُقَتِّرين في النواهي، فقد سعت اللياقة الكونفوشية إلى ضبط الوظائف الفطرية[19].

ردَّات فعل:

حين كان (ر. هـ. ڤان غاليك) يقوم بإعداد دراسته الإبداعية، الحياة الجنسية في الصين القديمة اكتشف «بأنه لا يوجد عملياً أي أثر أدبي هام يمكن الإفادة منه سواء في المراجع الصينية المشهود لها أم في الكتب والأبحاث الغربية حول الصين. وقد تأكّد أن الصمت الذي انطوت عليه الكتب المرجعية الصينية ينسجم والاحتشام الزائد الذي استولى على الصينيين إبّان حكم أسرة تشنغ أو المانشو(*) (1644 - 1912)».

غدا المانشو سادة على الصين المقسّمة ونقلوا عاصمتهم الشمالية إلى بكّين بينما كانوا يتفاوضون مع المقاومة الأشد عناداً في الجنوب. وتم الاتفاق في النهاية على حظر التزاوج بين المانشويين والصينيين بموجب مرسوم ظل نافذاً

(*) وهم شعب منشوريا المنغولي الذي غزا الصين وأسس فيها سلالة حاكمة - المورد.

بالقوة حتى 1905 وقد اختار الرجال الصينيون زي المانشو، أما النساء فلم يغيرن أزياءهن، كما أن نساء المانشو مُنعن من ارتداء الزي الصيني ومن تقييد أقدامهن.

وفي ظل الاحتلال الأجنبي أصرَّ العلماء الكونفوشيون على فصل الجنسين، وبات كل ما يتصل بالعلاقات الجنسية وشؤون المرأة في عداد المحرّمات. وتمَّ إقناع المانشويين بفرض حظر على كتب تعليم الجنس؛ وخلال فترة وجيزة أصبحوا أكثر تشدداً من الصينيين أنفسهم، رغم أنه لم يكن عندهم في السابق سوى بعض المحظورات الجنسية. وفي ظل حكم المانشو صدرت أنواع لا تحصى من الكتب المعرفية تغطي كافة أوجه الحياة ما عدا الجنس. وأصبحت الممارسات الجنسية في غاية السريّة، وهذا ما جرّدها من مغزاها الروحي، فباتت الحياة الجنسية الصينية في نظر الغرباء شاذة ومنحرفة، وقد ضُلِّل الكتّاب الأوروبيون تماماً بسبب طوقَي التزمت والكتمان اللذَين أحاطا بالجنس، واستبدّا بالصينيين في القرون الحديثة، وقد ذكر كتّاب صينيون أن هذا التحفظ دام لأكثر من ألفي عام.

نجح (ڤان غاليك) وآخرون في اختراق هذا التحفظ، وفي دراسة أعمال كانت مخبّأة منذ عهد بعيد، وكشف (جوزيف نيدهام) النقاب عن مادة أدبيه تتحدث عن التعاليم والممارسات الجنسية التاوية القديمة، عبر سلسلته الضخمة التي تناولت العلم والحضارة في الصين. ورغم الحظر المفروض على الباحثين العلميين، وُجدت، لحسن الحظ نصوص صينية حول الجنس محفوظة في اليابان، تعود لأوائل القرن السابع بعد الميلاد، وقد توفرت بحوذة بعض هواة جمع الآثار القديمة من اليابانيين والصينيين مجموعات من اللوحات الشهوانية والنصوص المتعلقة بعلم الجنس تعود لأزمنة لاحقة. واكتشف (ڤان غاليك) أن الصينيين القدماء أولوا اهتماماً كبيراً للقضايا الجنسية، وتعليم أرباب البيوت كيف يصوغون علاقاتهم الجنسية مع المرأة، وقد رأى نيدهام أن التعاليم التاوية

كان لها تأثيرها الإيجابي على تطور العلاقات الجنسية، وساهمت في تعزيز مكانة النساء.

ثمة نتيجة نجمت عن إخضاع المرأة وعزلها إلى هذا الحد، وهي أن ممارسة الحب غالباً ما كانت تُعدّ متعة للذكر ليس إلّا. وربما كان يُنظر إلى المرأة بوصفها عدواً، والممارسة الجنسية معركة، والغرفة الداخلية أرضها. وأصبحت الممارسات الجنسية تُفسَّر، أكثر فأكثر، من وجهة نظر الذكر، واقتصر دور المرأة على تعزيز المكانة المتفوّقة للرجل، سراً وعلانية على السواء. وفي هذا القرن، وبفعل اندلاع ثورات متعددة، أُلغيت رسمياً القيود المفروضة على المرأة، جنباً إلى جنب مع إلغاء التسرّي والممارسات الأخرى التي من شأنها الحط من قدر النساء. إلا أن المبادئ الأخلاقية الحديثة الصارمة المرتبطة بالجنس، والتي تعطي الأولوية للدولة (للجماعة) على الفرد، تدين بعضَ الشيء للمبادئ الأخلاقية الكونفوشية والمانوشية. ويبدو أن انبعاث البهجة التاوية في الجنس لايزال ينطوي عليه المستقبل.

في الصين الشيوعية، رغم إجراءات القمع والتقييد التي فُرضت على ممارسة شعائر الديانة التاوية ومعابدها، فإن الكثير من آثارها الرمزية بقيت حية. ففي الاستعراضات العسكرية توحي الراياتُ والأعلامُ الخفَّاقة بقدرات الين واليانغ؛ والبالونات تحمل شعارات مكتوبة بأحرف بارزة أشبه بالكتابات السريَّة الغامضة؛ وصور القادة أقرب شبهاً بآلهة محاطة برموز تاوية تقليدية تيمُّناً «بالسعادة المزدوجة». إن الايديولوجيا الشيوعية أيضاً بما فيها ديالكتيك الطبيعة، وكذلك المنطق الجدلي الهيغلي بمراحله، الأطروحة، النقيضة، التركيب، يمكن أن تتكشَّف عن قابلية التكيف مع النظرية التاوية لتناغم الين واليانغ[20].

هوامش المؤلف للفصل الخامس

1 – R. H. van Gulik, Sexual Life in Ancient China, ,1961 pp. 5 ff.
2 – A. Waley, The Way and its Power, ,1934 p. 149.
3 – Van Gulik, op. cit., pp. 38 f.
4 – The I Ching or Book of Changes, tr. R. Wilhelm and C. F. Baynes, ,1951 i, p. 260.
5 – Tao Te Ching, 2 and 55; H. Welch, The Parting of the Way, ,1957 p. 71.
6 – P. Rawson and L. Legeza, Tao, ,1973 pp. 12 ff, and plates ,51 62.
7 – R. H. van Gulik, Sexual Life in Ancient China, pp. 125 ff.
8 – R. H. van Gulik, Sexual Life in Ancient China, pp. 46 ff.
9 – L. Needham, Science and Civilization in China, ,1956 pp. 74 ff.
10 – R. H. van Gulik, Sexual Life in Ancient China, pp. 74 ff.
11 – R. H. van Gulik, Sexual Life in Ancient China, p. 73.
12 – Ibid., pp. 125 ff., Much detail in Latin.
13 – R. H. van Gulik, Sexual Life in Ancient China, pp. 193 ff.
14
151617 – R. H. van Gulik, Sexual Life in Ancient China, pp. ,175 ,206 266.
18 – R. H. van Gulik, Sexual Life in Ancient China, pp. ,259 353 ff.
19 – On all this section see R. H. van Gulik, Sexual Life in Ancient China, pp. 47 ff., ,65 160 ff.
20 – See R. C. Zaehner in The Concise Encyclopaedia of Living Faiths, ,1959 pp. 410 ff.

الفصل السادس

عالَم اليابان العائم

أسطورة الشنتو

إن كتاب كوجيكي Kojiki، «سجلات الآثار القديمة»، وكتاب نيهونجي (Nihonge)، «الأحداث التاريخية لليابان»، وهما مصدر الأساطير الأقدم لديانة الشنتو يعرضان أسماء وحكايات للكثير من الكائنات السماوية التي تظهر فيها علاقات التقارب والتنافر بين الذكر والأنثى. ظهرت الآلهة من العماء البدئي، واختير اثنان منها بوصفهما سَلَفي كل المخلوقات، وهما إيزاناجي Izanagi وإيزانامي Izanami اللذَين فُسِّر اسماهما بـ «الذكر المغوي» و«الأنثى المغوية». وقفا على جسر السماء العائم - الذي رُسم ونسخ لاحقاً في الأعمال الفنية وعلى أعمدة المعابد - وأغمدا رمح السماء المرصَّع بالجواهر في أحشاء المحيط. وحين رفعاه تقطَّرت من رأس الرمح قطرات، لعلَّها رمزيةٌ قضيبية، استحالت إلى جزيرة، هبط عليها الإلهان ونصبا دعامة سماوية وقصراً.

سأل إيزاناجي رفيقته: «كيف تشكَّل جسدك؟» فأجابت:

«تشكَّل على نحو رائع، ولكن ثمة نقصٌ في مكانٍ ما منه».

فقال إيزاناجي: «وجسدي أيضاً تشكَّل على نحو رائع، ولكن ثمة زائدة في مكان ما منه. وإنني لراغب في أن أولج عضوي الزائد في عضوكِ الناقص

فنخلق الأرض والحياة. دعينا ندور حول هذه الدعامة السماوية ونمارس جماعاً زوجياً. أنت تأخذين اتجاه اليمين وأنا سآخذ اتجاه اليسار فألقاكِ».

وهذا ما فعلاه، وحين التقيا تحدثت إيزانامي أولاً قائلة: «ياللشاب الفاتن»، وقال إيزاناجي «ياللعذراء الفاتنة». ثم أردف محتّجاً: «من غير اللائق أن تتحدث المرأة أولاً». ومارسا الجنس، لكنهما أنجبا وليداً عَلَقة لم يُدرج في عداد أطفالهما الشرعيين، وأُرسل بعيداً في زورق من القصب.

اكتشف الإلهان أن طفلهما لم يكن سويًا، ونقلا الخبر إلى آلهة السماء التي أوضحت أن الأمر يعود إلى كون المرأة تحدّثت أولاً. وهكذا هبطا ثانية إلى الأرض وطافا حول الدعامة السماوية كما فعلا من قبل وحين التقيا بادر ايزاناجي أولاً: «ياللعذراء الفاتنة» وأجابت إيزانامي: «ياللشاب الفاتن». وثمة رواية أخرى تقول إن هذين الإلهين رغبا في الوصال الجنسي، بيد أنهما ما كانا يعرفان كيف يمارسانه حتى شاهد طائر الذُّعَرَة(*) يضرب رأسه بذيله على نحو متكرر، وعبر محاكاة فعله اكتشفا طريقة الجماع، وأنجبا ذرّيّة من الأولاد. وأصبح طائر الذعرة يعرف واقعياً باسم «الطائر العارف بالحب»، والمقدّس لدى هذين الإلهين، وصار هنالك «صخرة الذعرة» بمنزلة محجّ تؤمه النساء الحبالى.

رأى بعض المعلّقين على طقس «الدعامة السماوية» أنه يعود إلى ممارسة شعائرية قديمة تقتضي الدوران حول الدعامة السماوية قبيل مباشرة الجماع الجنسي، بحيث أن الممارسة البشرية كانت تجد مسوّغها في العبرة الإلهية. أقرّ بعضهم أن الدعامة ما هي إلا رمز قضيبي، لكن المفكر الديني الكبير موتوأوري Motoori افترض أن «موقع الرجل في الجماع الجنسي من الأعلى، كما السماء، أو السقف الذي يغطي المنزل بكامله، والمرأة من الأسفل، كما الأرض الداعمة، أو أرضية المنزل. والدعامة تنتصب بينهما، تربط القمة بالقاعدة وتعزّزهما، وما من شك بالتالي في أن الفكرة تهدف إلى ارتباط الزوجين وتعزيز

(*) Wagtail: طائر صغير ذو ذنب طويل جداً يرفعه ويخفضه كأنه مذعور. المورد.

رابطتهما». وقد اعتبر عالم آخر أن هذه الأسطورة كانت صورة انزياحية عن الخطيئة الكونية الأولى لأن إيزاناجي وإيزانامي كانا أخاً وأختاً، وكان جماعهما سفاحاً، ولذلك كان الدوران حول الدعامة السماوية بمنزلة طقس أُعِدَّ خصّيصاً لتجنُّب هذا المحرَّم. ولكن يبدو أن كلا التأويلين قسري، ولعلَّ القضيبية (مذهب عبادة القضيب) هي الأقرب للواقع[1].

ثمة أساطير كانت أكثر تعقيداً. فقد أنجب إيزاناجي وإيزانامي آلهة عديدة، وماتت إيزانامي بعد أن وضعت إله النار. فذهب إيزاناجي لزيارة زوجته في العالم السفلي (أرض الأموات يومي Yomi)؛ أنار مشعلاً من مشطه كي يستطيع رؤيتها في الظلام، وخرق بذلك تحريم النظر إلى جثتها المتعفّنة. ثم ولّى الأدبار وشياطين الجحيم تطارده، إلا أنه تخلّص منهم من خلال رجمهم بالخوخ. حتى أن إيزانامي نفسها لحقت بزوجها فانتزع جلموداً هائلاً وسدَّ به الممر. وتقابل الإلهان وحنثا بعهدهما تحت طائلة الموت والدنس الجنسي.

بعدئذ أنجب إيزاناجي آلهة كثيرة بعد تطهير جسده من الدنس، وكان من بينها ربة الشمس (آما ـ تيراسو Ama - terasu)، وإله العواصف (سوزا ـ نو ـ وو. Susa - no - wo). وكانت أساطير الصراعات بين هذين الكائنين أكثر شعبية من تلك التي واجهها إيزاناجي، ولربما كانت مستقلة عنها في الأصل، لكنها تكشف أيضاً عن التوترات الذكرية ـ الأنثوية.

وجّه (سوزا نو وو) إهانة لِـ (آما تيراسو) بتخريب حقول أرزّها، ونثر البراز في مستودع البواكير، ورمي فرس مسلوخة في قاعة حياكتها المقدَّسة. خافت آما تيراسو فأغلقت على نفسها محتجبة داخل الكهف السماوي، إذ ذاك أظلمت الأرض كلُّها وأطبق الليل، وتذمَّرت الآلهة، وتفاقمت كل أنواع المصاعب. وهذا الصراع بين النور والظلمة، أو بين الشمس والعاصفة يجري اعتماده عموماً في تفسير الكسوفات أو العواصف، أو الصيف والشتاء. وكانت تقام طقوس في كل شتاء في اليابان لبعث طاقة الشمس، مثلها في ذلك مثل طقوس الاحتفال بالنار الشتائية في أوروبا الشمالية.

بعدئذ اجتمع الثمانية ملايين إله لإقامة طقوس سحرية بغية إعادة الشمس إلى الدنيا. فجعلوا الطيور تصدح، واستخرجوا الحديد والصخر من الجبال كي يصنعوا مرآة، وصنعوا سلاسل من الخرز، ثم وضعوا المرآة والسلاسل في شجرة مزركشة بقماش أزرق وأبيض. وراح أحد الآلهة يرتّل ترنيمة طقسية مهيبة، بينما كانت إحدى الإلهات تتقافز فوق دلوٍ وترقص، إلى أن أصابها مسٌّ إلهي؛ عرّت نهديها، وخلّعت ثوبها كاشفة عن أعضائها التناسلية. ويُعتقد أن طقس الطاقة السحرية هذا مكرَّس لمنح الحيوية للآلهة.

جلجلت ضحكات الآلهة حيال هذه التظاهرة الفضائحية(*)، فأثار هذا الصوت المدوّي فضول آماتيراسو. شقّت باب الكهف قليلاً، ولمّا رأت صورتها الرائعة منعكسة في المرآة، دنت من الباب لتكون أقرب إلى المشهد. وعندئذ انبرى أحد الآلهة الشديدي القوة وأمسك بذراعها، وأخرج ربة الشمس من الكهف بينما أُلقي حبل خلفها، ورُتِّلت ترنيمة سحرية لتحول دونها والرجوع. إذ ذاك فاضت الأرض بالضياء، وأُخضع (سوزا نو وو) للقصاص من قبل الآلهة بأن قُصَّت لحيته وأظافره، وطُهِّر من الأرواح الشريرة، ثم طرد.

لاتزال هذه الأسطورة تحتفظ بأهميتها، لأن (آما تيراسو) هي الإلهة الأسمى في مجمَّع آلهة الشنتو، وكانت سلف جيمو Jimmu الإمبراطور الأسطوري الأول لليابان (660 ـ 585ق.م). وهيكل آماتيراسو في (إيزي Ise) هو الهيكل الرئيسي الأكثر أهمية بين هياكل (أضرحة) الشنتو؛ ويتربَّع على بقعة واسعة من الأرض تقع في الجزء المركزي الجنوبي من جزيرة هونشو الرئيسية. والمرآة المقدسة المحفوظة هناك تُعدُّ الرمز الإلهي الأبرز. كما أن ثمة هيكلاً لسوزانو ـ وو في إزومو Izumo على الشاطئ الشمالي، وهو قديم جداً ومبجّل جداً.

(*) exhibitionsim: الافتضاحية: الاظهارية: انحراف يتميز بنزوع إلى إظهار العورة. المورد.

العبادة القضيبية ورموز الاتحاد الإلهي

كان بديهياً أن يكشف النقاب عن رموز قضيبية على نطاق واسع في اليابان القديمة، كما هو الحال في الصين والهند وأفريقيا، وبلدان أخرى كثيرة، رغم أنه غالباً ما تظهر اليوم على نحو مُموَّه أو في أشكال تجريدية. ففي الأسطورة القديمة ربما كان الرمح السماوي المرصَّع هو نفسه الدعامة التي طاف حولها إيزاناجي وإيزانامي قبل مباشرة الجماع الجنسي، أو ربما كان الرمح والدعامة كلاهما رمزين قضيبيين. وحسب افتراض العالم الياباني هيراتا Hirata فإن شكل الرمح المرصَّع يشبه «العمود [القضيب] الذكري» (Wo bashira)، وهو الاسم الذي أُطلق على الدعامات أو نهايات الأعمدة في الجسور والسلالم. وهذا العمود الذي ينتهي بكتلة كبيرة تشبه خشفة القضيب، وقد اقتبس هيراتا اسماً صينياً مقابلاً للقضيب هو «الزنيد المرصّع» (نبات). وهذه الدعائم ذات النمط الواحد في إيحاءاتها القضيبية لازالت تُرى في كل مكان؛ على الجسور والأدراج والشرفات رغم أن ما ترمز إليه بات مجهولاً أو منسيًّاً. (وو - باشيرا) هو أيضاً «نهاية سن المشط» التي اقتلعها إيزاناجي من مشطه ليستخدمها قنديلاً ويسترشد إلى زوجته في أرض الموتى[2].

كثير من آلهة الشنتو لها وظائف الخصب، والإلهة التي قدّمت عرض التعرّي أمام كهف آما تيراسو فعلت الشيء نفسه تكريماً لإله مفارق الطرقات. وقد صُنعت منحوتات قضيبية من الحجر، وأحياناً من الطين منذ عصور ما قبل التاريخ وعثر عليها في اليابان، وكانت مثل هذه المنحوتات تُصاغ لاحقاً على شكل رجال طاعنين في السن يمثّلون حراس حواشي الطرقات، ورموز الخصب للحقول. وكانت آلهة الشنتو القضيبية تُمثّل بأشكال قضيبية أو بهيئات بشرية تنتصب في ضواحي القرى لدرء الأمراض. وفيما بعد ظهر ما يشبه علاقة القربى أو التناظر مع (جيزو Jizo) البوذي[*]، أي بوذا المنتظر Bodhisattva

(*) وهو بوذا المنتظر في اليابان، وبوذا المخلّص في الصين. م.

(بوذا الخلاص)، أو (كشيتي غاربها) الهندي. وكان (جيزو) حامي المسافرين والحوامل والأطفال، ويمكن رؤيته بهيئة راهب على أشكال حجرية لا تحصى مُوزَّعة على جوانب الطرقات. ودرج الناس على وضع صدَّارات حول أعناق هذه التماثيل، تاركين تقدِماتهم بجانبها، ومراكمين الحجارة من أجل حسن الطالع[3].

وطبقة الآلهة التي تُعرف باسم «أرباب الوقاية» كانت قضيبيةً هي الأخرى. ولم تكرَّس لها معابد في الغالب، لكن صوراً كثيرة رُسمت لها باللونين الأحمر القاني أو الذهبي، وثمة احتفالات تكريمية تُقام لها على مفارق الطرق. وفي غابر الأزمان كانت (مهرجانات الطرق) تعقد طوال فترة الجوائح، أو قبيل وصول المبعوثين الأجانب تفادياً لعدوى الإفساد وتجنّباً للشياطين. ويقال إنه في اليوم الأول لاكتمال القمر (البدر) يقوم الأولاد في القصر الإمبراطوري بوكز النساء الشابات بعصي ذات شكل قضيبي لضمان الخصوبة. وحتى يومنا الحاضر لاتزال توضع سَوارٍ خيزرانية، بنهايات مائلة، خارج البيوت والمحلات التجارية.

مثلما كان الدرّاق رمزاً أساسياً للأنثى، كذلك كان المشمش في الهند، والرمان في اليونان القديمة. وكانت عيدان شجر الدراق تستخدم لطرد الأرواح الشريرة في اليوم الأخير من السنة. واعتُبر الأَرُزّ رمزاً أنثوياً، كما كان يستخدم سابقاً في طقوس الطهارة، ولايزال يوضع حتى اليوم في الغرف التي يوجد فيها طفل وليد، وكانت البقوليات (فاصولياء، فول، لوبيا) تستخدم في شعائر الطهارة وطرد الأرواح الشريرة. أما المشط، الذي ورد في الأساطير، فكان أيضاً رمزاً للخصب، وله حرمته.

أكد كثير من الكتَّاب على حضور الرموز القضيبية في اليابان عبر القرون. ففي عام 1795 صدر كتاب يتحدث عن قضبان محفورة من الخشب طولها ثمانية أقدام ومحيطها أربعة أقدام تنتصب بمواجهة الطريق في إقليم دِها Deha. وكان يجري تجديدها في اليوم الخامس عشر من الشهر الأول كل عام. وثمة

شرائح ورقية من النوع المستخدَم في الكثير من المزارات الشنتوية الأخرى لجلب الحظ السعيد، كانت النساء يعقدْنها سراً حول تلك القضبان للظفر بعشاق وسيمين. وقد اكتشف العالم الكبير (و. جـ. أستون) 1871 صفاً من المجموعات القضيبية على جانب طريق (نيكو) ـ شمال شرق طوكيو ـ كما وَجَدَ كهفاً في المركز البوذي الرئيسي لمنطقة كاما كورا، يحتوي على عدد كبير من القضبان الحجرية المنحوتة. وقد شهد (أستون) أيضاً موكباً قرب طوكيو، حيث كان حشد من الشبّان يحملون على محفَّة قضيباً، ارتفاعه ثمانية أقدام، مدهوناً بالأحمر البرّاق ـ اللون الموحي بالطاقة الذكرية ـ وكانوا مرتدين أزياء احتفالية، ويصرخون ويمرحون ويتمايلون يميناً وشمالاً على قارعة الطريق. ولاتزال تحدث في البلاد طقوس مشابهة لتحفيز الخصوبة رغم الرفض الذي قد تلقاه أحياناً رمزيتهم القضيبية من قبل المدافعين الجدد عن الدين.

من وقت لآخر كانت تجري محاولات لقمع التجلّيات الأبرز للعبادة القضيبية. وثمة تمثال قضيبي هائل يرقى إلى 939 بعد الميلاد، ينتصب في مكان بارز في كيوتو، كان يُعبد من قبل المسافرين، وتمَّ نقله إلى مكان آخر أقلَّ أهمية. ومنذ ثورة 1868 والحكومة اليابانية تحاول كبح العبادة القضيبية سيئة السمعة. فقد تُموَّه التماثيل القضيبية بأقمشة حمراء، حتى أنها يمكن أن تلتبس بجيزو البوذي. وفي كاماكورا لاتزال بعض أقنية المعابد مكتظة بتماثيل حجرية قضيبية مغطّاة بقماش أحمر. ومع أنها قد تكون آلهة بوذية من حيث الظاهر، فهي تنطوي على تشابه وثيق بنماذج القضبان القديمة. وربما ليس لدى الزوار الجدد فكرة إضافية عن العبادة القضيبية إلا ما يوفّره لهم وجودها على الدعائم الجسرية النمطية ذات الحضور الطاغي، رغم أن دراسة علم النفس الفرويدي ربما تساعد البشر في إعادة فهم معانيها القديمة.

ثمة عبادة قضيبية متأصلة في التراث الياباني، وفي الكثير من قصص التزاوج بين كائنات بشرية وحيوانات. وهنالك زوجات من الثعالب واللقالق والضفادع والأسماع، وكذلك أزواج (عرسان) من العناكب والخيل والقردة. لكن الأزواج الذين كانوا أكثر شيوعاً هم ذكور الأفاعي بما تحمله من رموز

قضيبية واضحة. وتروي قصة كوجيكية أن إله جبل ميوا Miwa، المعروف بولوعه بزوجاته الجميلات، وقع بحب عذراء، فانقلب إلى سهم أحمر - وهذا رمز قضيبي رائع - وارتطم في عضوها التناسلي بينما كانت تتغوَّط. فأخذت السهم معها ووضعته بجانب فراشها، حيث انقلب إلى شاب جميل واتخذ الفتاة زوجة له[4].

ويوجد صنف آخر من الحكايات يُدعى (نموذج خيط - القنَّب). دَرَج عاشق غامض على زيارة فتاة في الليل وجعلها تحبل منه. وأراد أهلها معرفة هويته، فأبلغوها أن تخيط على ثوبه خيطاً من القنب، ثم تتبعه إلى حيث يقودها. وفعلت ذلك، فاكتشفت أنه يفضي إلى ثقب مفتاح الباب لمزار إله جبل ميوا، وهو الذي كان قد زارها بهيئة أفعى. وهذه القصة ومثيلاتها مازالت تُروى في كل مكان من اليابان والجزر المجاورة. ومن الواضح أن إله جبل ميوا، كان يعدّ بمنزلة أفعى. أو ينتحل شكل أفعى. وهذا الجبل هو اليوم مركز عبادة دينية مزدهرة، ويمور بالأفاعي التي تلتهم القرابين التي يتركها الزوار.

وفي تلوين آخر لهذه القصة أن الفتاة تبعت الخيط لمسافة أميال إلى أن اختفى داخل كهف عميق. توقفت الفتاة في حلق الكهف وصرخت مناشدةً بأنها ترغب في رؤية وجه عاشقها، لكن صوتاً سحيقاً أجابها أنها إن فعلتْ فلسوف تتشظى من الرعب. أياً يكن الأمر فقد واصلت إلحاحها إلى أن انسلَّت أفعى مهولةٌ خارجة من الكهف وفي حلقها إبرة مغروزة. عندئذ أغمي على الفتاة، وفي النهاية وضعت طفلاً ترعرع حتى أصبح فتىً ضخم البنية ومحارباً لا يشق له غبار.

ثمة افتراض يزعم أن هذه القصص ارتبطت بشعائر يجري على أساسها اختيار امرأة واستحواذها من قبل إله ملازم للماء أو الأفاعي. وغالباً ما تشتمل مزارات أخرى على ثلاثة آلهة: الأم، والطفل، وإله ثالث هو والد الطفل. وربما يُكوّن الاستحواذ الطقسي والجماع خلفيةً لما صار لاحقاً حكايات شعبية؛ فالنساء «يُمتلكن» بمعنيين: روحياً من قبل إله، وجسدياً من قبل كاهن[*].

وفي قصص أخرى عن الزواج الإلهي يُحكى عن إلهة طلعت من البحر كي تتزوج من رجل. وهنالك تنويعات جمّة لهذه الفكرة، ويمكن العثور على أمثلة في مجموعات الحكايا الشعبية كالتي كتبها (لافكاديو هيرن). والنموذج ـ الأصل لتزاوج كهذا ورد أيضاً في سجلات الآثار القديمة (كوجيكي). فابنة إله الماء تغادر مملكتها المائية لتلد في كوخ مخصّص للولادة، مسقوف بريش الغاق(*)، عند حافة الشاطئ. وأمرت زوجها بحزمٍ ألّا يراقب ولادتها، وإلّا ستعود إلى شكلها الأصلي. استغرب الأمر، وراح يراقبها خلسة؛ ويا لشدة ذهوله حين رآها تنقلب إلى تمساح عملاق أو هولة مائية، فولّى الأدبار. وحين أدركت الإلهة أنها قد شوهدت، انتابها خزي شديد، فتركت الطفل وراءها وأغلقت الحاجز بين اليابسة وأقاليم ما تحت الماء، ثم عادت إلى البحر. ويقول عالم ياباني معاصر إن هذا الزواج البشري ـ الإلهي مُعَدٌّ للتوكيد على أن العائلة الإمبراطورية ـ التي تحدّر أصلها الأبوي من إلهة الشمس ـ كانت مرتبطة أومياً بإلهة الماء. ولم تكن إلهة الماء بقادرة على كبح شوقها لوليدها، فأرسلت أختها كي ترضعه. وينسدل الستار على هذه القصة مع غناء الزوج المهجور:

مادامت الحياة تنبض فيَّ،

أبداً لن أنسى حبيبتي التي ضاجعت[6].

(إن) و (يو) In and Yo :

الشنتو shin-to (shin-tao) كانت النسخة أو الاسم الصيني لـ «طريق الآلهة» في اليابان، لتمييزه عن «طريق بوذا». وليس غريباً أن تكون فكرة التاو Tao قد دخلت للمرة الأولى حتماً جنباً إلى جنب مع أفكار صينية أخرى في موجة التأثيرات التي تلت دخول البوذية إلى اليابان. بدأ تدوين الكوجيكي والنيهونجي مع الاتحاد البدئي للكون الذي أعقبه انفصال السماء عن الأرض.

(*) : Cormorant الغاق؛ الغاقة: طائر مائي ضخم نهم، تحت منقاره جراب يضع فيه ما يصيده من الأسماك. المورد.

وبعدئذ ظهر الذكر والأنثى الـ «إن» والـ «يو». ولأن هذين المصطلحين مشابهان للـ «ين» والـ «يانغ» الصينيين فمن الطبيعي افتراض وجود تأثير صيني حقيقي، رغم ارتباطهما (إن و يو) الوثيق بالأساطير المحلية الصرفة لليابان، ومعالجتهما للقدرات الذكرية والأنثوية. وثمة علماء يابانيون معاصرون يرفضون الين واليانغ بوصفهما مصطلحين طفيليين على الأساطير المحليّة ودخيلين، ولكن الأساطير، حسبما تعرَّفنا عليها، ترقى إلى ثلاثة قرون بعد دخول التعاليم الصينية إلى اليابان وحدوث ذلك التمازج الكبير.

لقد غدت الحياة اليابانية بمستوييها الحكومي والشعبي متأثرة بالين واليانغ، وفي حوالي عام 675 بعد الميلاد تأسست دائرة(*) بهذا الصدد لتقديم المشورة للحكومة فيما يتعلّق بكل شؤون الين واليانغ وتقاليدهما، وبعدئذ، أي بين 701 ـ 702 ، صيغت مجموعة قوانين تايهو Taiho وقدَّمت تفاصيل بشأن وضع نظام لها، وحضَّت العرَّافين على «ضرورة أن يكونوا ضليعين في مجالات الين واليانغ، كالكهانة وعلم الفلك والطب وقراءة البخت». وفيما يخص الحياة العادية فإن تصميم المنزل، وحتى ترتيب الأثاث فيه تم تحديده من قبل الين واليانغ. فعلى سبيل المثال لا يجوز وضع خزانة النفائس الثمينة في الجهة الجنوبية من المنزل لأن هذه الجهة واقعة تحت نفوذ عنصر النار وبالتالي تكون عرضة للاحتراق. حتى أن ظواهر الكون نفسه جرى شرحها بمصطلحات خاصة بالين واليانغ، حيث كانت الأيام والسنوات السعيدة تحدَّد وفقاً لطرائق كهذه، وكذلك يمكن للزيجات أن ترتَّب حسب أمارات مرتبطة بها. ولم تتراجع قيمةُ ثنائيةِ الين واليانغ إلا في العصر الحديث بالترابط مع رفض العناصر الصينية من جهة، وتبنّي الطرائق الغربية من جهة أخرى رغم أن الكثير من بقاياها لاتزال قائمة على الأرجح في الأعراف الشعبية[7].

ثمة رمز شائع، وهو نسخة محرَّفة عن التاي تشي تو(**) الصيني، وهو

(*) أطلق على هذه الدائرة اسم «أونيوريو Onyoryo» في اليابان. م.

(**) t'ai chi t'u: المطلق الأسمى.

الدائرة المنقسمة إلى نصفين، على شكل فلقتي كمثرى، يرمزان إلى الذكر والأنثى، السماء والأرض، اليانغ والين. وفي اليابان غالباً ما يتألف هذا التومو Tomoe من ثلاثة أقسام، أحياناً يترافق مع الين واليانغ، وأحياناً يتمايز عنهما بوصفه ذا منشأ كوري لا صيني. ومن المحتمل أن تكون الأقسام الثلاثة تطويراً للقسمين الأصليين الأكثر أهمية. ومن الجدير بالملاحظة أنه حتى في المزار العظيم في (إيزي) يوجد الكثير من هذه الرموز، رغم ما قيل عن أنه أثر شنتوي لا تشوبه أية مؤثرات بوذية. وتظهر هذه الرموز في (إيزي) من خلال الزخارف والرقصات، التي يُعترف بأن بعضها يعود إلى أصل بوذي، إن لم نقل هندي أيضاً[8].

تأثرت اليابان، شأنها في ذلك شأن الصين، بالتغيُّرات التي طرأت على التعاليم والطقوس البوذية، ومن بين الطقوس التي كان لها تأثيرها على الجنس، ولو بشكل هامشي، طقس عبادة الشاي الذي أُدخل في القرن الثالث عشر ليصبح بمنزلة طريقة ذات فعالية لتدريب النساء الشابات على قواعد إصلاء الموقد(*)، وعلى نحو مشابه، العلاقة الغريبة بين البوذية المسالمة والممارسات الذكرية المولعة بالحرب، والتي تطورت عبر تبنّي بوذية زن Zen Buddhisn من قبل طبقة المحاربين الأرستقراطية اليابانية (الساموراي Samurai). وعلى الرغم من انتقادات بعض البوذيين لها، فإن تقاليد المبارزة بالسيف المعتمدة لدى بوذية زن كانت تُسوَّغ بوصفها «فن الدفاع عن الحياة» بدلاً من أنها وسيلة لقتل الآخرين، رغم أنها قد تسبَّبت في إيذاء الذات والآخرين على حد سواء.

على الرغم من أن غالبية الرهبان البوذيين في اليابان كانوا متنسكين بكل معنى الكلمة، فإن فِرقاً منهم كانت تكرز بتعاليم سرية مستمدة من الصين والهند. ففي القرن الحادي عشر أسس الكاهن (نين كان Nin-Kan) فرقة التاتشيكاوا Tachikawa وكان يبشِّر بتعاليم الفاجرايانا اليسارية(**)، ولكن

(*) مرة أخرى لعلاقة النار بالجنس رمزياً. م.

(**) Left - hand Vajrayana ورد ذكرها وشرحها سابقاً. م.

بنسختها اليابانية المعدَّلة، ويساعده في ذلك معلِّم للين واليانغ. وكانا يعلّمان الانغماس في الميمات الخمسة المحرَّمة (انظر الصفحة 54)، والممارسة الجنسية بوصفها وسيلة مباشرة لبلوغ حالة الكمال الروحي للبوذي عبر جسده النابض بالحياة. وقد أكَّد مذهبهم أن «طريق الرجل والمرأة، الين واليانغ، هو المبدأ السري للوصول إلى مرتبة البوذا في هذه الحياة. ولا سبيل آخر سواها لتحقيق الكمال الروحي للبوذية والظفر بطريق الخلاص».

لم يبق إلا القليل من هذه النصوص؛ وهي ترجمات لنصوص تانترية هندية صِيغت في الصين وأُدخلت إلى اليابان مع الحجاج البوذيين. وهي تصوّر الطقوس التانترية، وتورِد إيضاحات «للدائرة السحرية الجنسية» (Sexual mandala) أو «المندالا (الدائرة السحرية) المزدوجة للعَالَمَيْن». والتي تصوّر رجلاً وامرأة عاريين، خلا غطاء رأس لغرض طقسي، مضطجعين في وضعية عناق جنسي تحاكي زهرة لوتس ثمانية البتلات. وعلى الرغم من أن الرجل كان في الأعلى، إلا أنه في وضعية مقلوبة بحيث غدا رأسه بين قدمي المرأة، ورأس المرأة بين قدميه، بينما تشكّل أذرعهما وسيقانهما الطليقة بتلات زهرة اللوتس. وكان جسد الرجل أبيض أو أصفر، أما جسد المرأة فقرمزي اللون، بينما اتخذ عضواهما التناسليان المتداخلان الحرف السحري a، الذي تعتبره التانترية بداية ومنتهى كل الأشياء. واتخذت أجزاء أخرى من جسديهما رموزاً سحرية، وثمة صورة أخرى لـ «شرارة الحياة»، وهي عبارة عن دائرة محاطة باللهب، إضافة إلى شمس وقمر نمطيين، وكذلك حرفي a سِنسكريتيين باللون الأبيض والأحمر، ويبدو أنهما يمثلان المني والبويضة كدلالة على الاتحاد الروحي لمبدأي الذكر والأنثى الذي يقوم على أساس الاتحاد البيولوجي[9].

لقد رسمت هذه الفرقة التانترية أشكالاً معقدة أخرى مماثلة للين واليانغ متضمنة الدوائر السحرية [مندالا] لِـ «الصاعقة» [الڤاجرا]، و«الرحم» [غاربْها Garbha]، بصفتهما رمزين للذكر والأنثى. ويبدو أن هذه الفرقة قد لاقت صدىً شعبياً واسعاً لبعض الوقت لكنها استثارت معارضة ضارية من

قبل البوذيين الأكثر تشدداً والسلطات اليابانية العلمانية على السَّواء. وفي القرن الرابع عشر سوَّغ يوكاي Yukai، وهو كاتب بوذي بارز، ظهور طائفة بوذية مقصورة على فئة محدودة إلى حد ما، ولكنه هاجم تانترية مدرسة تاتشي كاوا. وقيل إن «نين ـ كان» أُدين بـ «جريمة ما»؛ وفي منفاه كوَّن مجموعة من المريدين سيئي السمعة، من أكَلَة اللحوم دامجاً بين أفكاره وأفكار أحد معلمي الين واليانغ من فرقة التاتشي كاوا، فاختلطت، بغير اتساق، التعاليم الداخلية (الباطنية) بالخارجية (الظاهرية). و«قدَّموا مزاعم متكررة فاضحة على أن بوذا قد بشَّر مسبقاً بعقيدتهم، وهذا بحد ذاته بدعة شيطانية تستحق عقوبة الجحيم الأبدي».

يبدو أن طائفة التاتشي كاوا قد مارست طقوساً جنسية جماعية، إلى حد أن السلطات اليابانية فرضت حظراً على هذه الحركة. وثمة دير بوذي ذو شأن قدَّم مذكرة بحق هذه الطائفة في القرن الرابع عشر أدت إلى نفي زعيمها وإحراق كتب تعاليمه. ولكن يبدو أنها استمرت سرّاً، ذلك أن راهباً بوذياً متشدداً قدَّم احتجاجاً على ممارسات التاتشي كاوا في القرن السابع عشر؛ ولاتزال هناك آثار من عقيدتهم. وقد ذكر كتَّاب يابانيون أن النصوص التاتشي كاوية قد ابتُدعت من قبل (نين كان) ومريديه، لكن تطابق هذه النصوص مع المصادر السنسكريتية الشهيرة يؤكد أنها ترجمات خالصة النسب. وهنالك عدد قليل من النصوص التاتشي كاوية المطبوعة، تتكشف مع ذلك عن ممارسات طقسية صينية قلَّما عرفت في أماكن أخرى، إلا أنه لاتزال هنالك في الأديرة اليابانية الكثير من النصوص غير المطبوعة، مختومةً وممهورةً بعبارة «يُمنع فتحها».

وثمة مراجع تاوية أرثوذكسية إضافية لتعليم الجنس تمَّ إدخالها إلى اليابان، وهي لم تعد متوفرة في الغالب إلا في النسخ اليابانية المعدّلة. وفي عام 984 أنجز طبيب ياباني، وهو تامبا ياسو يوري، خلاصة وافية من علم الطب (I-shin-po)، إضافة إلى مقتطفات من مئات الأعمال الصينية الأخرى. وظلَّ

هذا الكتاب في التداول، كمخطوطة لعدة قرون، إلى أن طُبع في عام 1854 في مجلّدات كبيرة. وقد اشتملت الفصول المتعلقة بالجنس على حوارات بين الإمبراطور الأصفر والفتيات الثلاث، فتاة السهل، فتاة الظلام، والفتاة المختارة. وتقول فتاة السهل: «إن كل ضعف لدى الرجل لا بدّ أن يُعزى إلى التدريب الناقص للفعل الجنسي، والمرأة في هذا المجال تتفوق على الرجل كما الماء على النار... وأولئك الذين يلمُّون بفن الين واليانغ يمكنهم الحصول على خلاصة المتع الخمس». بينما تقول الفتاة المختارة: «إن اتحاد الرجل والمرأة يشبه عناق السماء والأرض. وبفضل تزاوجهما السليم تستمر السماء والأرض إلى أبد الآبدين. على أية حال، ولأن الرجل أضاع هذا السر، فإن عمره يتناقص تدريجياً».

ثمة فصول أخرى لاحقة تتحدث عن العناية بالطاقة الجنسية للأنثى والذكر، وكذلك السمات المميزة لعضويهما التناسليين، والوضعيات الثلاثين وإنجاب الأطفال، وأنواع الأمراض، واستخدام العقاقير، وكذلك الفكرة الصينية حول الجماع المحترس. وتقول فتاة السهل: «إذا ما مارس الرجل الجنس مرةً دون قذف، فإن طاقته الحيوية ستكون قوية، وإذا ما فعلها مرتين فإن سمعه وبصره يزدادان حدَّة، وإذا ما فعلها ثلاثاً، يبرأ من كل أنواع العلل... أما إذا فعلها عشر مرات فإنه سيصبح في عداد الخالدين»[10].

النساء والرجال:

على الرغم من أن اليابان كانت ولاتزال، في العديد من النواحي، بلداً ذكورياً بامتياز، فإنها توفَّرت على كاتبات بارزات. ففي مستهل القرن العاشر للميلاد كتبت السيدة (موراساكي شيكيبو) قصة جنجي The Tale of Genji. وهي رواية رومانسية طويلة تشتمل على أربع وخمسين جزءاً، وتصوّر حياة البلاط في اليابان؛ وتعدّ واحدة من أقدم الروايات العظيمة في العالم. ففي حين كان الكتّاب الرجال من اليابانيين يجهدون للكتابة وفقاً للطرائق الصينية،

ويعيدون إنتاج الأفكار الصينية أيضاً، أفلحت نساءٌ من الأوساط الأرستقراطية في تدوين يابانيتهم المحلية بواسطة الكتابة الصوتية المُحدَثة. وكن يتمتعن بحرية نسبية، ويحظين باحترام الطبقة النبيلة، كما استطعن أن يصبحن أثيرات في البلاط أو أمهات لأمراء. وكانت موراساكي تكتب بلغة حيّة، متينة التراكيب وتنم عن ثقافة رفيعة.

وُلدت موراساكي حوالي 976 وتوفيت حوالي 1015 ميلادية، لكن القليل من تفاصيل حياتها معروف لدينا. كانت قد تزوجت من رجل يمت لها بقرابة بعيدة، وذلك في بداية عشرينياتها، وأنجبت منه ابنة ثم ترمَّلت بعد ذلك، والتحقت في أوائل القرن الحادي عشر بالبلاط للعمل في خدمة الإمبراطورة أكيكو. أما الرواية التي ألَّفتها فتحكي عن حياة الأمير جنجي وقصصه الغرامية، وتحتوي على عدد لا يُحصى من المشاهد والتفاصيل الساحرة، إضافة إلى مواعيده الغرامية وزياراته الليلية. في ذلك الحين كان الجنس مقبولاً، مع أنه مقيَّد بعض الشيء، وإن كان ثمة دور للدين فهو عَرَضي، أما الين واليانغ فلا وجود لهما.

في الفصل الثاني من الرواية، تحت عنوان «شجرة الوزّال»، يظهر لنا الأمير في إحدى الليالي الماطرة، وهو منهمك في نقاش مع أحد أصدقائه، يتناولان التصنيفات المتنوعة للنساء. فهنالك الفتاة الشابة والأنيقة، الرقيقة والطافحة بالأنوثة، اللطيفة والبريئة، الباردة والقاسية، الهادئة والواثقة من نفسها. كما ورد مثال عن رجل لطيف وعاطفي حقاً، إلا أنه اقترف «بعض الهفوات»، فهربت منه زوجته لتصبح راهبة بوذية. وبعد أن جُزَّ شعرها، لم تعد تتمالك نفسها عن البكاء، واعتراها الندم على الحياة التي خلَّفتها وراءها. «ومن غير الممكن أن يعتبرها بوذا شخصاً تطهَّر قلبه من الشهوات». على أية حال لم يكن زوجها قد تحرَّر بعدُ من ولعه بها، فجدَّ في طلبها ثم أعادها، لأن «الرابطة بين الزوجين وثيقة جداً». وفيما يخص امرأة كهذه كان من الحماقة أن تسمح «لإغوائه الطفيف» أن يهزمها، مثلما هي حماقة فيما يخص الزوج أن تؤرّقه حادثة

هروبها. لذلك ينبغي على المرأة أن تكون ليّنة العريكة وواثقة، أما الرجل فمن شأنه أن يمضي قدماً مقتدياً ببراعة التوجيه والإرشاد. كما أن السيدة الكاتبة عرضت وجهتي نظر الجنسين على نحو بالغ الأهمية.

وثمة عمل آخر ينتمي إلى الفترة الزمنية نفسها، وقد كُتب بيابانية صرفة، وهو كتاب الوسادة(*) ذو اللغة المفعمة بالحيوية، ويسمّى «كتاب المنوّعات» للسيدة (سي شوناغون). وهو يتعرَّض لحياة البلاط، مع لمحة بسيطة عن العالم الخارجي. كما أنه يحفل بمشاهد من المجتمع والطبيعة. ورغم نزوعه إلى احتقار الطبقات الدنيا، إلّا أنه يتناول الرجال بعين النقد؛ حيث يصورهم بأنهم ينطوون على نزوات غريبة؛ فهم يأكلون بطرق منفِّرة، ويعرضون عن النساء الفاتنات ليتعلَّقوا بالقبيحات، وهم إمّا متكلِّفون لقواعد السلوك أو مهملون لها. أما الواعظ الديني فتفترضه الكاتبة أنه ينبغي أن يكون وسيماً كي لا يُنفِّر الآخرين من مرآه. وترى أن الكهنة المعنيين بأداء الواجبات الليلية قد يجدون أنفسهم عرضة لحوادث معيبة، كأن يسمعوا عَرَضَاً نساءً شابات يهزأن بأناس آخرين. ومن الأمور المزعجة جداً أن تزور معبداً وتتفرّس في ملامح بوذا المقدسة، أو أن تشهد حشداً من البشر العاديين واقفين باستمرار وساجدين قدَّام التمثال.

ومن الأعمال التي حافظت على ديمومة أكبر، كان كتاب السيرة الذاتية: (اعترافات السيدة نيجو) الذي ظهر في القرن الثالث عشر. وتحكي فيه الكاتبة كيف غدت خليلة للإمبراطور المعتكف في كيوتو وهي في سن الرابعة عشر من عمرها، وكيف انتهى بها الحال إلى راهبة بوذية جوّالة بعد أن خاضت مغامرات عشقٍ كثيرة. فهي تستهل سيرتها بدخول الإمبراطور إلى مضجعها الصغير، وقد استبدت بها الدهشة. وفي هذه المرة لم يكرهها على شيء، بيد أنه عاد في الليلة التالية، و«تعامل معي بقسوة شديدة، فتمزَّقت ثيابي الرقيقة شرَّ ممزَّق». وكم بكت، إلَّا أنها بقيت مع ذلك في البلاط وتبادلت الأشعار مع الإمبراطور،

(*) يدعى في اليابانية «ماكورا زوشي» أي «صور على الوسادة». م.

وغدت سيدة البلاط، تتمتع بما يكفي من الحرية لاتخاذ عشاق لها. لكنها في نهاية المطاف، وبعد أن خبا حماس الإمبراطور واتقدت غيرة الإمبراطورة، أُكرهت على مغادرة القصر وكانت في السادسة والعشرين من عمرها. وفي السنوات العشر الأخيرة من عمرها القصير أصبحت السيدة نيجو راهبة، ودأبت على الحج إلى الهياكل البوذية والشنتوية. كما أنها التقت الإمبراطور ثانية بعد أن كرس نفسه للدين، حيث زارته وهو على فراش الموت، وراقبت جنازته من الخارج، وفي الذكرى السنوية الثالثة لوفاته أشرفت على أداء الطقوس الدينية.

إن هذه الكتابات ومثيلاتها قدَّمت صوراً حية عن حياة البلاط، والشؤون العاطفية، لكنها لم تتناول حياة الطبقات الأخرى إلا لماماً. فطبقة المحاربين من الساموراي دمجت ما بين التقاليد الإقطاعية اليابانية وعلم الأخلاقي الكونفوشي في خدمة الإمبراطور. وقد دافع ياماغا سوغو عن هذا المبدأ السامي الذي أصبح يُعرف لاحقاً باسم طريق (قانون) الفروسية (bushi-do)، وكان ذلك في القرن السابع عشر. ويتجسَّد المعنى العميق للواجب في وضع الطاعة بمقدمة السجايا الشخصية التي يكتسبها المرء، والاستعداد لملاقاة الموت حيثما ينبغي. وقد أكّد ياماغا في تعاليمه على الأخلاق والانضباط العسكري، لكنه شدّد أيضاً على تمثّل الفنون السلميّة لأنها ذات أهمية فيما يخص الساموراي، وتجسّد الخصائص الأساسية لانتقال الساموراي من مجرّد أرستوقراطية عسكرية إلى قيادة سياسية وثقافية[11].

على أية حال، ربما كانت نساء الساموراي يحظين بحرية أقل من نساء الطبقات النبيلة اللواتي يَفُقْنَهُنَّ مرتبةً، أو من نساء التجار والفلاحين اللواتي يُعتبرن أدنى منهن مرتبة. وكانت حياتهن متوقفة على خدمة أزواجهن، واقتفاء قيم الشرف لهؤلاء الأزواج. وحين كانت الفتيات يبلغن سن الأنوثة، كُنَّ يزوَّدن بخناجر جيب صغيرة للدفاع عن عفتهن في مواجهة المعتدين. وكن يتعلَّمن، مثل أزواجهن، كيف يقدمن على الانتحار، ومن أين يقطعن حناجرهن، وكيف يربطن سيقانهن بحيث تبقى الجثة مضمومة الأطراف

متشحة بالعفة بعد الانتحار. وثمة حكايات رويت عن نساء سمعن مصادفةً بمؤامرات حيكت لاغتيال أزواجهن فحللن مكانهم تحت جنح الظلام ليفتدينهم.

غالباً ما كان ينظر إلى النساء نظرة دونية، حتى أن كلمة «امرأة» كانت تُطلق على الرجل البليد والغبي، وكلمة «ثرثارة» المكررة ثلاثاً تدل على السمة الصينية التي كانت تَسِم المرأة. وبدءاً من سن المراهقة كان يبرز التمايز بين الصبيان والبنات، وحتى بعد الزواج كان موقع المرأة رسمياً أقلَّ شأناً داخل البيت. وربما تتحمَّل الكونفوشية الجديدة بعض المسؤولية عن سيطرة الرجل، رغم أن جلَّ هذه السيطرة، كما يبدو، ذو منشأٍ ياباني أصيل، ناجم عن القوة الجسدية التي يتمتع بها الذكر بصورة أكبر، وعن التقاليد الإقطاعية. وحتى وقتنا الراهن فإن النساء اليابانيات غالباً ما يشتكين من تغييب دورهن في تربية أولادهن وفي اختيار شركاء حياة لهنّ، ولا يغيّر في ذلك كثيراً وجود بعض النسوة المتّقدات الذهن اللاتي فرضن آراءهن.

لقد أثَّرت البوذية في اليابان على المرأة بأشكال مختلفة. فقد أقرَّ بعض مؤسسي الأديرة الكبيرة بأنه لا يجوز للنساء أن يترددن إلى الأديرة لأنهن يُعتبرن مصدراً للدنس، ربما بسبب الحيض. واستثنيت النساء من بعض المناصب الهامة ومن حضور بعض الطقوس الدينية. على أية حال كان لانتشار بوذية «الأرض الطاهرة» و«الطريق الوسط البوذي» دور في منح النساء حقوقاً مساوية لحقوق الرجل بشأن الخلاص، وفي تكوين نمط جديد من القادة لا يعيشون في الأديرة بل في المجتمع، وعلى قدم المساواة مع غالبية الناس العاديين.

ومنذ العصور القديمة كان هنالك أيضاً نساء على قدر كبيرة من الأهمية في اليابان، فـ «الكاهنات الشامانيات» اللاتي كن «ممسوسات»(*) بقوى روحية خارقة، كن يتمتعن بنفوذ هائل. فـ ميكو Miko، كاهنة معبد الشنتو، كانت

(*) Possessed: وهن الكاهنات الشامانيات اللواتي يُعتقد أن روحاً ما تتلبسهن. م.

وسيطاً روحياً مقدّساً كلّي القدرة، وتقوم على خدمة الطقوس الدينية في المزارات، كما أنها تمارس عملها بصفتها الناطق باسم الآلهة والأسلاف. ويمكن العثور على نموذجها البدئي في وصف الإلهة (آما تيراسو) الوارد في كتاب الكوجيكي «سجلات الآثار القديمة»:

على دالية شعرها المسترخي وذراعيها اليمنى واليسرى، كانت العناقيد تتشكّل، فتلفّها بسبّحات طويلة من الخرز... هازّة طرف قوسها، ضاربة بساقيها حتى الفخذين الأرض الصلبة، رافسة هنا وهناك، كأن الأرض تحت قدميها ثلج خفيف، وكانت تصرخ بغضب يثير الرعب[12].

كان من عادة ميكو أن تتواجد في البلاط الإمبراطوري كي تنقل للإمبراطور إرشادات، وكانت أيضاً تُرى في عدد لا يُحصى من المدن والقرى حيث تمارس عملها كوسيط بين الآلهة المحلية والقرويين المنضوين تحت رعاية هذه الآلهة. والكثير من هذه الكاهنات كن يَجُبْنَ المناطق كمغنّيات جوالات بهدف إبلاغ رسائل روحيه، وكن يُعتبرن وسيطات روحيات.

من المفترض أنه تمّ وضع حد لنشاطات الـ ميكو في عام 1873 ، في محاولة رسمية باتجاه «تنوير» البلد وتطهير الشنتو من الخرافة ومن النزوع البوذي. وأياً يكن الأمر فإن ما دعي لاحقاً «ديانات جديدة»، والتي ازدهرت منذئذ في اليابان، كانت هي الأخرى موحى بها خصوصاً من قبل نساء ممسوسات مماثلات، وكن يسرن على ضوء التقاليد القديمة ولو بدرجات متفاوتة. ومن بين الديانات الأوسع انتشاراً وازدهاراً كانت ديانة تنريكيو Tenrikyo(*) التي تأسست على يد امرأة ممسوسة وهي ناكايما ميكي.

ففي عام 1838 سقطت في حالة عنيفة من النشوة، بعد سلسلة من المعاناة الشديدة، ومنذ ذلك الوقت كانت تستبد بها نوبات أخرى من المس الاستحواذي، وتطورت لديها طاقات علاجية. وقد شرعت في عام 1869

(*) فرقة دينية في اليابان أسستها كاهنة، وتعني بعبادة الحكمة الإلهية. م.

بكتابة قصيدة طويلة نظمتها ذاتياً وكانت تحتوي 1711 مقطعاً شعرياً، وتدعى أوفوديساكي Ofudesaki والتي غدت النصوص المقدسة الأساسية لديانتها. وبالتالي لم يكن الجنس ليشكّل عائقاً في هذه الديانات، بل على العكس، غالباً ما كان مصدر عونٍ وإلهام كبيرين.

الزواج:

لقد أكدت الشنتو على الطقوس المتعلقة بتجدد الحياة، جنباً إلى جنب مع الصلوات المرافقة لولادة الأطفال، أو التي تمارس بين فترات زمنية منتظمة. وعلى مدى قرون ظلّ اليابانيون يأخذون أطفالهم إلى المزارات في عمر الثالثة والخامسة والسابعة، وذلك في اليوم الخامس عشر من الشهر الحادي عشر لتقديم الشكر للآلهة على عنايتها الصحية، وأداء الصلوات كي تستمر العناية الإلهية. وفي رأس السنة تعطِّل العائلات لعدة أيام من أجل زيارة الهياكل وبيوت الأسلاف، حيث يتم تناول الطعام والشراب، وشراء السهام من المزارات بوصفها رموزاً رجولية للمستقبل. من جهة أخرى فقد استولت البوذية اليابانية عملياً على كل الطقوس الجنائزية، كلاحقة سلبية تنضاف إلى الديانة الشنتوية المتعلقة بالحياة.

بناء على ذلك فمن المدهش ألّا تحتل طقوس الزواج مكاناً بارزاً في الهياكل الشنتوية التقليدية؛ وقد مضى (ج. أستون) أبعد من ذلك حين قال: «لم يكن لدى الشنتو طقوس احتفالية خاصة بالزواج مطلقاً. ولم يكن يشارك بها أي كاهن أو رجل دين شنتوي أبداً». مع ذلك فإن الأعراس تُعقد حالياً في الهياكل الشنتوية، وقد شهدت بنفسي احتفالاً رائعاً في هياكل (أتسونا) العظيمة في ناغويا، حيث يُحتفظ بالسيف الوطني المقدَّس. وكانت تلك مناسبة مكلفة جداً، حيث ترتدي العروس حلَّة بيضاء وحمراء بهيّة، بينما يرتدي العريس، كما في بعض البلدان الأخرى، ثياباً باهتة جداً من الرمادي والأسود. وكان عدد المدعوين كبيراً جداً، وكذلك عدد الهدايا المقدَّمة، وربما بسبب الكلفة الباهظة لحدثٍ كهذا يذهب بعض اليابانيين اليوم إلى الكنيسة المسيحية لعقد «زواج محافظ» رسمي لكنه أقل كلفة.

إن الزواج الياباني، كما في الكثير من الحضارات الأخرى، هو بشكل أساسي اتفاق بين عائلتين، ويجري ترتيبه تقليدياً من قبل وسطاء. وبالتالي كان حفل الزفاف عقداً اجتماعياً يشتمل على تقدم الهدايا والألبسة الخاصة، والمآدب والمشروبات. وبعد أن يتم إحضار العروس، بكل بهاء حللها، إلى بيت العريس في محفَّة أو حافلة، كانوا يجلسون أمام حديقة العائلة Tokonomo، التي تكون مزيّنة بأشجار الصنوبر جالبة الحظ والخيزران والنخيل وتتدلى منها صور ولفائف زينة. وفي هذا المكان أو خلف ستارة يقام طقس الزواج المتعلّق بشراب «ثلاثة ـ ثلاثة ـ تسع مرات» بإشراف الوسيط. وتقوم فتاتان بصب شراب الساكي Sake في ثلاثة أقداح مصفوفة الواحد فوق الآخر، ويشرب العروسان هذه الأقداح، كلٌ بدوره، كدلالة على أنهما سيتشاركان الحياة بأفراحها وأتراحها، وبعد الكأس الثالثة يعلن الوسيط أنهما تزوجا حسب الأصول. وفي نهاية المأدبة يمكن أن يقوم الشبَّان بإحضار أقرب صخرة جيزو Jizo(*) وهو الإله البوذي المساعد للأطفال، أو الرمز القضيبي القديم الذي تلصق عليه أشعار داعرة؛ وبعد عدة أيام يُعاد تمثال جيزو وقد ألبسته العروس صدرية جديدة.

في الأزمنة السالفة كان الزواج يعقد في كوخ خاص بالزفاف، وربما مخافة التلوث بالطاقة الجنسية. وقيل إن إله العواصف (سوزا ـ نو ـ وو) كان قد شيّد منزلاً عندما تزوج إحدى الإلهات، وسوَّره من عدة جوانب، ويعتقد أن هذين الإلهين يتوليان أحياناً شؤون الزيجات. وكان الحيض والولادة يعتبران في اليابان القديمة دنساً، وكان يُفرض على الحوائض والحوامل أن يعشن في كوخ خارج المبني الأساسي للسكن، وأن يتناولن طعامهن منفصلاتٍ عن الآخرين.

كانت التقاليد تقضي باختلاط الصبيان والبنات حتى سن الخامسة أو السادسة، وبعدئذ يتم سحب البنات للبقاء مع مثيلاتهن، وكن يُمنعن من اللعب

(*) ويقصد هنا تمثال مصنوع من الحجر. م.

مع الجنس الآخر ابتداء من سن العاشرة فما فوق. أما في الريف فكان الأمر أقل تقييداً لأن الشبان والشابات يعملون معاً، وفي العصر الحديث يختلطون على الأقل في الطريق إلى المدرسة وفي المناسبات الاجتماعية ويبدو أن بنات المدارس يتحدثن إلى الزوار بحرية أكبر، ويطرحن عليهم أسئلة، ويقفن معهم ويأخذن صوراً جماعية، بينما يصغي الفتيان بصمت حفاظاً على منزلتهم. ربما كانت العلاقات الغرامية السرية بين الشباب أسهل في الماضي قبل أن تجعل الكهرباء إخفاءها أمراً صعباً، لأن الأضواء تبقى غالباً مضاءةً طوال الليل. ورسائل الحب تُكتب ويتم التنصُّل منها، وربما لا تتجاوز العلاقات السرية غير الشرعية هذه المرحلة. وإذا ما حملت فتاة ما يبادر ذووها لتدبير زواج عاجل لها، أو من الممكن أن ترسل كي تصبح محظية أو فتاة غيشا بعد أن تضع مولودها. وقد تحدث زيجات تجريبية مع تبادل طفيف فقط للهدايا دون ألبسة خاصة أو زينة للشَّعر.

تتّضح ضغوط الحياة المعاصرة في الأعمال الروائية، كما في رواية (الأخوات ماكيوكا)، حيث لم يكن بوسع الأخت الثالثة أن تتزوج قبل الثانية. كما أن محاولات عديدة كانت قد بُذلت من قبل الوسطاء، وأُخضِع عرسان المستقبل للمراقبة، وتم التقصّي عن ماضيهم من قبل عملاء سريين، مع ذلك بقيت الأخت متحفظة وصعبة الإرضاء. وكبر عمرها إلى حد أنها اضطرت إلى قبول زوج أدنى مرتبة من ذاك الذي كان متوقَّعاً أن يصبح زوجها. وخلال الفترة نفسها، وفي سياق ضغوطات الحياة في مدينة أوساكا أقامت الفتاة الأصغر علاقة غير شرعية وحملت، وتم تجاوز الضغوطات القديمة والجديدة، الشرقية والغربية، بكل براعة.

ثمة عنصر ديني واهٍ أضيف إلى مراسم الزواج، حيث توضع على منصَّة أو طاولة صورة مزخرفة أو أشكال دمىً لعجوزيِ تاكاساغو، روحَيْ شجرتي التنوب القديمتين، وهما داربي Darbi وجوان Joan في الأسطورة اليابانية. ويتم إنشاد حكايتهما في حفلات الزفاف، والاحتفالات السنوية التي تقام

لأجلهما. وقد ارتبطت قصتهما بواحدة من أحب أعمال الدراما No(*) اليابانية، كما رسمت في لوحات زيتية من قبل الفنان العظيم هوكوزاي وفنانين لاحقين وهي حكاية الحب الخالد والسعادة المطمئنة لعجوزين هما (أوكينا) الرجل و (أوبا) المرأة. يحمل أوكينا مِدقَّة(**)، وأوبا تحمل مكنسة، يقفان أمام شجرتي صنوبر متعانقتين وفوقهما في السماء غرانيق، وعلى الأرض سلاحف. وكان ثمة اعتقاد في الصين واليابان أن شجرة الصنوبر مفعمة بقوة سحرية، ذلك لأنها تبقى خضراء دائماً، وكذلك الحال فيما يخص السلاحف والغرانيق التي لديها قدر كبير من هذه القوة السحرية أيضاً وهي تعيش طويلاً. وثمة شمس حمراء على عتبة المغيب تعلو اللوحة، موحية بأفول الحياة المشتركة الهانئة والوفية. ويا له من مثل أعلى بارع يقف على النقيض من وقائع الحياة لدى المحظيات وفتيات الغيشا.

العالم العائم وفتيات الغيشا:

استخدم تعبير «العالم العائم»، Ukiyo، في اليابان في أواخر القرن السابع عشر للدلالة على المجتمع السعيد ولكن غير المستقر. وقد أطلق هذا التعبير مبكراً على «العالَم البائس» في التوصيفات البوذية للاضطراب والنكبات. وقد انبثقت الكلمة الجديدة من التورية ما بين كلمتي «محزن» و«عائم» التي وصفت المجتمع غير المستقر الذي أعقب عالم القرون الوسطى. وكانت كلمة أوكيو تُستخدم للمباغي وأماكن المتعة المرخَّصة التي كانت معروفة في المجتمع الحضري. كما أُطلقت أيضاً على الكثير من النتاجات الثقافية، بما في ذلك أوكيو إي Ukiyo - e(***)، أي المطبوعات الخشبية التي كانت أشهر النتاجات الفنية في تلك الحقبة.

(*) No: دراما كلاسيكية يابانية راقصة ذات موضوع بطولي ـ المورد.
(**) rake: مدقة: أداة ذات أسنان لجمع العشب أو لتقليب التربة أو تسويتها ـ المورد.
(***) وقد أصبحت مدرسة في الفن الياباني وموضوعها «صور الحياة العابرة». م.

ثمة أمثلة بارزة عن الأوكيو أو الفن القصصي لعالم المومسات، ظهرت في مؤلفات (إيهارا سايكاكو) الذي رصد القضيتين الأكثر حضوراً في العالم العائم وهما الجنس والمال. فروايته الأولى «الرجل الذي أنفق عمره في ممارسة الحب» تحكي عن بطل كان يطوف البلاد، ممارساً العشق مع آلاف النساء ومئات الغلمان. وكانت تجري مقارنة هذا الكتاب مع «رواية جنجي»، لولا النساء عند جنجي يكتسبن شهرتهن من عوائلهن أو مآثرهن أو من حسن الذوق لديهن، بينما كان سايكاكو يدخل في التفاصيل الدقيقة لجمال أجسادهن.

وفي روايته الأكثر واقعية «خمس عاشقات لمحبوب واحد»، كان سايكاكو شاعرياً وشعبياً في آن معاً. وبدلاً من بلاط جنجي ثمة بيوت الشاي وغرف الاستحمام والمسارح والمباغي وبيوت العامَّة. وأصبحت حياة هؤلاء تعرف باسم «قانون [شرائع] أهل المدن» Chonin-do في مقابل «قانون المحاربين [الفروسية] Bushi-do». ومع أن الرواية لا تحمل طابع التكريس الديني، فإن استغراقها في الجنس كان شديداً وعلى صلة وثيقة بالمشاعر الدينية، وكانت تنطوي على علاقة بين «العالم المحزن» و«العالم العائم» المتصلة بطرائق الحياة والسلوك، وفي كون العالمين سريعي الزوال. وكان سايكاكو يشعر بعبثية الحياة وطبيعتها المثيرة للشفقة رغم كل نزعته الشهوانية.

في رواية «مرآة الحب الذكوري»(*)، عالج سايكوكو قضية اللواطة. فقد كان لتنامي الحياة الرهبانية البوذية دور في شيوع الجنسية المثلية بين المعلم والمريد سواء سراً أو علناً، وكذلك عند طبقة المحاربين حيث كان الشباب يمنحون أجسادهم للكبار مقابل حماية هؤلاء لهم. وقد اعتبر سايكاكو المعابد البوذية والهياكل الشنتوية بمنزلة ملاذ مفضل لممارسة الجنسية المثلية، وحتى المسارح أيضاً عملت أكثر من سواها على تشجيع هذه الممارسة وجعلتها تبدو مألوفة أكثر مما هو عليه الحال في المجتمع ككل. وحتى أيامنا هذه تحظّر مسارح الـ «نو»

(*) ويقصد هنا بالحب الذكوري الجنسية المثلية. م.

والـ «كابوكي» الممثّلات النساء وتستخدم الأوناغاتا «هيئة نسائية» يتخذها ممثل في دور ممثلة. حيث يرتدي بعض الشبان الرسميين ملابس النساء ويحاكون طرائقهن في السلوك، حتى أنهم يقومون بهذه الأفعال خارج المسرح.

يبدو دور الدين عَرَضياً في هذا العالم الحسي، حيث يقتصر دوره حتى الآن على تشكيل خلفية أو قاعدة لهذا العالم إلى حدٍ ما. وفيما يخص الإيمان البوذي بالكارما، أي سلسلة حياة المرء والعلاقات السببية الأخلاقية فيما بينها(*)، فإنه نفذ إلى الكثير من القصص. فالحياة مشروطة بما يفعله المرء في الحياة السابقة، والطبيعة الأخلاقية لحياته تلك تحدّد مصير الحياة اللاحقة. وربما يشكل هذا عبئاً لا يطاق، حتى أنه أسوأ من الخطيئة البدئية، ولو لم يكن ابتغاء ظهور المخلّصين، وبشكل خاص «اميدا بوذا» الذي كُرّست فضائله العظيمة لتخليص كل الكائنات، لكي يتقاسم هؤلاء مباهج أرضه الطاهرة Pure land. وقبل بلوغ هذه الحالة من الغبطة، يمكن للعشاق المدنفين أن يلوذوا بالأديرة البوذية ويلتمسوا عودة الاتحاد بمحبوباتهم في الفردوس.

اشتملت كتب الأوكيو على كتابات مبهجة، وأحياناً داعرة، مع ذلك، كان هنالك، على ما يبدو، ، أعمال مشابهة تعارض تلك التي تنطوي على نيّة صريحة «لتشجيع الفضيلة ومعاقبة الرذيلة». وقد دأبت التعاليم البوذية والكونفوشية على تعزيز فكرة الواجب والتحكم بالأهواء، مع ذلك فقد أوحت بالمسرّات التي أدانتها. وإن كتباً مثل «بيت الاستحمام الأوكيوي» أو «محل الحلاقة الأوكيوي»، حاولت بلا كلل أن تغرس مُثُلاً عليا أخلاقية، عبر تصوير أبطالها وهم يتعرضون للغوايات بأشكال شتى، مقتدين بالتعاليم البوذية القائلة إن الشر يقود إلى الشر، ووحده الخير يولّد الخير.

لقد سادت الرسوم الشبقية لزمن طويل في اليابان متأثرة بفن الرسم

(*) Karma: معناها الحرفي «الفعل» وتعني أن هذه الحياة حلقة في سلسلة حياة يحياها المرء، يحددها فعله في الحياة السابقة، ويتضمن المصطلح «الجزاء» و«التناسخ». م.

الصيني ولكن بملامح يابانية مميزة. وثمة لفيفة(*) شبقية قديمة تعود إلى القرن الثالث عشر، إلا أنه يقال إنها نسخة عن لفيفة صينية الأصل تعود إلى القرن العاشر. وهي «لفيفة التلقين»، التي تعرض ستة عشر لوحة للجماع الجنسي بأوضاع مختلفة أدّاها عاشق وسيدة. وقد تكون وضعيات الممارسة الجنسية متشابهة في الكتب الصينية والهندية، ولكن اللفائف اليابانية تظهر أعضاء جنسية مضخّمة وهي ميزة خاصة بالرسوم الشبقية اليابانية، السابقة منها واللاحقة.

إن الرواية الصينية «ملذات الرجل» التي ترقى إلى القرن السادس عشر لاتزال موجودة في نسخة يابانية معدّلة، مرفقة بصور شبقية صغيرة الحجم، وهي تشدد على الخصائص العلاجية للفعل الجنسي وعلى أهمية احتباس المني، دون أن تقدِّم ذلك على أنه تعليم تاوي واضح. ومن المثير للدهشة أن بعضاً من هذه الروايات الشبقية طُبعت في المعابد البوذية في أواخر القرن التاسع عشر وبنفس النموذج القديم القابل للتغيير، والذي كان مستخدماً في طباعة الكتب البوذية المقدسة.

في اليابان القديمة، كما في صين القرون الوسطى، غالباً ما كانت تُرسم النساء بأشكال قوية، وجوه ممتلئة، وأثداء عامرة، وخصور رشيقة، وأرداف ثقيلة، موحيات بأنهن حوامل. وبصورة مماثلة كان يرسم الرجال بهيئة تنم عن الرجولة أو الشجاعة، بلحى كثيفة وأجساد قوية. لكن المفاهيم الصينية عن الجمال الذكري والأنثوي تحولت في القرن السابع عشر إلى تطرّف معاكس. وقد حذا اليابانيون حذوهم، وصُوِّرت تلك المطبوعات الأخيرة الخشبية (أوكيو - إي) حيث ظهرت النساء بهيئات ضعيفة، وبوجوه بيضوية عُدّت قمةً في الجمال.

من بين الكثير من فناني (الأوكيو - إي)، بمن فيهم بعض رسامي الطبيعة

(*) Scroll: لفيفة من الرَّق أو ورق البردي تدوَّن عليها وثيقة... المورد.

الكبار، فإن أوتامارو صوَّر في أواخر القرن الثامن عشر، أكثر من أيٍّ كان، حياة النساء في مجتمع طوكيو التجاري، وخاصة نساء يوشيوارا، حي البغاء الرسمي، والمناطق المجاورة له. كما صوَّر محظيات شهيرات، وكذلك بنات العوائل التجارية الثرية، المفضَّلات لدى بيوت الشاي غير المُرخَّصة، إضافة إلى بغايا من المراتب الدنيا. وقد ركَّز أوتامارو على النساء، ليس لمجرد طرح صور فتيات جميلات للجمهور، وإنما لدراسة الخصائص الفردية للأشخاص في مختلف نشاطاتهم التي لا حصر لها. كما شمل عمله تغيُّر الفصول، والطقوس السنوية: نساء يلعبن الريشة، ونساء يتأملن أزهار الكرز، ونساء جالسات على ضفاف النهر، ونساء يرعين القمر، ونساء يلتقطن اليراعات، ونساء يشربن الساكي تحت الثلج، ونساء ذاهبات إلى المعابد، ونساء يؤدين الطقوس الدينية، ونساء يحتفلن بالمهرجانات السنوية التقليدية الخمسة، ونساء يتنزهن في أحضان الطبيعة الخلَّابة، ونساء ذاهبات إلى المسرح، ونساء يزرن أحياء الخلاعة. كما صوَّر النساء وهن في البيوت: يطبخن أو يطرّزن أو يقمن بأعمال التنظيف أو يعتنين بدودة الحرير. وكن يُرسمن بوضعيات مختلفة: ينتفن حواجبهن، يجملن وجوههن بالمساحيق، يسترحن تحت الكلل، مستيقظات عند الصباح، يغسلن أيديهن، يقمن بالأعمال اليدوية. وقد اشتهرت «لوحات الربيع» (شنغو) لأوتامارو، أما سلسلته المؤلفة من إثني عشر لوحة ملوَّنة، والتي عرفت باسم «ألبوم الوسادة الشِّعرية» فربما كانت الأكثر شهرة بين كل الأعمال الشبقية لمدرسة أوكيو إي.

وقد رسم أوتامارو مغنّيات ومومسات وسابحات عاريات. وكانت هذه الأعمال تصوّر فتيات بيوت الشاي وهن عاريات الصدور، أو يدخِّنّ بنهم، أو ينغمسن بالمتع الجنسية؛ وثمة لوحات لفتيات متعبات ذاهبات إلى السرير. وكانت هذه البهرجة الفنية الظاهرية غالباً ما تشوبها مسحات من الحزن أو المأساة الشخصية. وهؤلاء النسوة كن مقيَّدات بأشكال عديدة، إذ كن مقطوعات الصلة بعوائلهن، ولا يُعرفن إلا بأسماء خلَّبية، ويُكرهن على تسليم أجسادهن لسلسلة متتالية من الرجال. وكن يعشن في منزلة أدنى من الرجال،

ويعامَلن بازدراء بصفتهن مجرّدات من الروح أو الدين، وهن في نظر التشدد الديني آثمات دنِسات. وقد أبدى أوتامارا تعاطفاً كبيراً حيال النساء، ولم يتعامل معهن كنماذج مجردة (موديلات) بل أظهر بجلاء أن رجالاً آخرين فعلوا ذلك، ولم تكن فيما يخصهم أكثر من دمى.

كان هذا العالم العائم بمنزلة رد فعل على شكلانية الحياة المنزلية. فقد كانت النساء اليابانيات يُزوجن لدوافع عائلية، وكان قدرهن المحتوم أن يقمن على خدمة أزواجهن وينجبن الأطفال لهم. وقد غدون مقموعات ومذعنات عبر تربية مديدة. وكانت حياة الرجال مقيَّدة بالتقاليد، ولذلك كانوا يلجؤون إلى التمتع بمعاشرة النساء بكل ما فيها من كياسةٍ ودعابة مفتقدة لدى زوجاتهم وكانت أحياء الخلاعة توفّر مهرباً من الحياة الواقعية على حساب النساء عموماً سواء هؤلاء أم اللاتي في البيت. وحدهم رجال الطبقات العليا بوسعهم تحمل نفقات الخليلات والمحظيات، بينما يجد رجال الطبقة الوسطى متنفسهم عند فتيات الغيشا أو عند المومسات.

وفتاة الغيشا(*) كانت «فنانة بارعة»، راقصة، وبشكل أدق كانت راقصة ومغنّية محترفة. وغالباً ما درج استخدام الكلمة بشيء من التسامح بحيث تطلق إما على محظية من الطبقة العليا أو على عاهرة من المرتبة الدنيا. وكان ارتياد بيت الغيشا يوفّر التسلية لكنه لا يمنح بداهةً الحق في الجماع. ولهذا كان يترتب على الرجل أن يوقّع عقداً تغدو فتاة الغيشا بموجبه خليلته لبعض الوقت. مع ذلك كانت الرقصات والأغاني والإيماءات وسرعة البديهة موحية تقليدياً، وتعبّر عن أشياء لا ترغب الزوجة في قولها، وتوفّر ترويحاً يُخرج الرجل من «غمرة الواجب» إلى «فضاء المشاعر الإنسانية». وقد يعود بعض الرجال إلى بيوتهم، بعد قضاء أمسية في بيت الغيشا، آملين أن تكون زوجاتهم على أهبة الاستعداد،

(*) geisha: وتعني حرفياً في اليابانية، «شخص بارع في الفن»: جي = غي تعني بارع في الأداء الفني. وشا تعني شخص. م.

في حين أن رجالاً آخرين قد يعرجون على المومسات. وبطبيعة الحال يبقى هنالك رجال مخلصون لبيوتهم، ويأنفون من زيارة فتيات الغيشا.

ولفتيات الغيشا آلهتهن الخاصة، ومنها بشكل مميَّز إله الأرُز ـ إيناري Inari الذي يرمز إليه بالثعلب ويحتفظ به في بيوت الغيشا والمباغي على نحو مقدس. ويترددن على المعابد بأرديتهن (الكيمونو) البهيجة في أوَّل ومنتصف كل شهر لأداء طقوس العبادة. وبعد أن يفرغن من الصلاة، كن يجلسن على الرصيف، يثرثرن ويدخّن قبل أن يعدن إلى البيت. وقلّما تزوجت فتيات الغيشا؛ وفيما لو باع أهل فقراء بناتهم كي يصبحن فتيات غيشا في مدينة ما بعيدة، نادراً ما كنّ يعدن إلى بيوتهن.

أما في الريف الياباني فكان دور المرأة في الحياة يتسم بحرية أكبر مما هو الحال في المدينة أو في المجتمع الأرقى، وربما كان هنالك شراكة حميمة بين الزوج والزوجة. فالمرأة الريفية يمكنها أن تضحك وتمرح بحرية كأي فتاة غيشا، وأن تستخدم لغة بذيئة قد يقشعر لها بدن المرأة المهذّبة. ولعل النساء الريفيات يستطعن في حفلات الزفاف أن يطلقن نكات خارجة عن الحشمة تطال العروسين، ويشربن من الساكي ما يشأن. ففي حين أن الرجال قد يغنّون أو يقومون برقصات محتشمة، فإن النساء المتزوجات يمكن أن يرقصن بطريقة تحاكي الجماع على نحو مبالغ فيه وسط جوقة نسوية صاخبة تضج بالقهقهات[13].

فيما يتعلق بعشرات الملايين التي تسكن المدن ترى أن «الحركات الدينية الجديدة» تهتم بالمجتمع وتعمل على تحريره من المشاعر المكبوتة. وتتوفّر لدى غالبية هذه الحركات معابد ضخمة تمَّ تشييدها بالعمل الطوعي والأعطيات، بما في ذلك مراكز اجتماعية وثقافية. وتبدو هذه المباني الباذخة متناقضة مع البيوت البائسة لمتعبّديها، إلا أنها توفّر الرفاهية والأمان في الحياة الاجتماعية التي يصعب توفيرها في أي مكان آخر ولا يكتفي الناس بزيارة قاعات العبادة فحسب، بل يزورون أيضاً الحجرات المجاورة والشرفات المفروشة بالسجاد،

بحيث يمكن لكل شخص أن يخلع حذاءه كما يفعل في بيته، وبوسع النسوة أن يضعن أطفالهن على الأرض، ويتسنَّى للجميع أن يستريحوا ويلعبوا ويأكلوا ويتثاقفوا بوئام. وفي الغالب تنعقد كل يوم جلسات مفتوحة لتقديم المشورة، يتلقَّى فيها الرجال والنساء نصائح مرتبطة بمشاكلهم الشخصية. وتستخدم إحدى أشهر الفرق البوذية في اليابان رمز «دائرة التناغم»(*) للتعبير عن «عجلة القانون» وعن مجموعات الجلسات الاستشارية التابعة لها[14].

هوامش المؤلف للفصل السادس

1 – Kojiki, tr, D. L. Philippi, ,1968 p. 398; Nihongi, tr. W. G. Aston, 1972 edn. pp. 1 1 ff.
2 – See W. G. Aston, ,1905 pp. 186 ff; J. Herbert, Shinto, ,1967 p. 150.
3 – E. Kidder, Ancient Japan, ,1977 pp. ,40 I 11.
4 – Kojiki, tr, D. L. Philippi, ,2 ,53 and notes.
5 – C. Blacker, The Catalpa Bow, pp. 116 ff.
6 – Kojiki, ,I 45
7 – R. Tsunda and others, eds., Sources of Japanese Tradition, ,1958 pp. 59 ff.
8 – J. Herbert, Shinto, p. 150.
9 – R. H. van Gulik Sexual Life in Ancient China, pp. 358 f.
10 – R. H. van Gulik Sexual Life in Ancient China, pp. ,122 135 f.
11 – R. Tsunoda and others, eds., Sources of Japanese Tradition, pp. 394 ff.
12 – Kojiki, ,1 14; see C. Blaker, The Catalpa Bow, pp. 104 fi., 130 ff.
13 – J. F. Embree, A Japanese Village, ,1946 pp. 155 f.
14 – K. J. Date, Circle of Harmony, ,1975 pp. 37 ff.

(*) يُرجَّح أنها فرقة خاصة من الفِرَق البوذية. م.

الفصل السابع

أفريقيا التقليدية

مواقف

أكّد (إدوين سميث) في دراسة كلاسيكية شاملة على أن:

الكتابة عن الـ(با ـ إيلا Ba-ila) دون الإشارة مطلقاً إلى الجنس، لهو أشبه بالكتابة عن السماء بدون الإشارة إلى الشمس، لأن الجنس بالنسبة لهم هو العنصر الأكثر حضوراً في حياتهم. وهو المناخ الطبيعي الذي يترعرع فيه الأطفال. ففي السنوات الأولى من عمرهم يتلقون ثقافة وإعداداً واسعين عن الجنس، وفي سنوات نضجهم يكون الجنس شغلهم الشاغل، أما سن الشيخوخة فيقضونه بمحاولات عبثية ومحبطة للاستمرار بالعملية الجنسية... والاتصال الجنسي بالنسبة لهم يُوضع بمنزلة الطعام والشراب نفسها، فهم ينغمسون فيه بلا حدود وفي كل فرصة ممكنة[1].

كان ذلك قبل ستين عاماً، وقد تغيَّرت الآن أمور كثيرة. فقد ورد اسم روديسيا الشمالية في أحد فصول كتاب سميث تحت اسم زامبيا[*]. وإن الكثيرين من الـ(با ـ إيلا) الذين أصبحوا مسيحيين، كانوا قد تأثروا بالأخلاق البيوريتانية (التطهرية) وربما يرفضون أن تنطبق عليهم الصورة السابقة سواء في

(*) وهو الاسم الجديد الذي أُطلق على روديسيا الشمالية. م.

الماضي أم في الحاضر. ففي بداية عهده كان سميث نفسه مبشّراً، مع ذلك فقد تخلّى عن بعثته التبشيرية وانكبَّ على دراسة الأنثروبولوجيا(*). ورغم ذلك فقد كتب: «ثمة الكثير مما لا يبعث على الرضى في هذا الجزء من موضوعنا». كما دوَّن في اللاتينية بعضاً من الوصف التفصيلي للقضايا الجنسية، مثلما فعل ڤان غاليك في دراسته عن الحياة الجنسية في الصين القديمة.

تمتاز أفريقيا بأهمية خاصة نظراً لاشتمالها المرجَّح على أعداد كبيرة من الجماعات البشرية القبلية الفطرية، والتي لاتزال كلياً أو جزئياً خارج إطار الأديان التاريخية المصقولة، أكثر مما هو الحال في قارات أخرى. ففي أستراليا عدد قليل نسبياً من السكان البدائيين، من أبناء القارة الأصليين، وفي حين أن مجموعات أكبر من هذه الشعوب القبلية انتشرت في آسيا وأمريكا، ربما يكون هنالك ما يزيد على الخمسين مليون من هذه الشعوب في أفريقيا. ويربو عدد المسيحيين على مئة مليون، أما المسلمون فيفوقون هذا العدد، مع ذلك فإن المعتقدات والتقاليد القديمة لاتزال تترك بصماتها على الكثير من هؤلاء أيضاً. لكنّ العقبة الرئيسية أمام دراسة الأفكار والطقوس الأفريقية تكمن في غياب النصوص التي تطال الماضي، ولأن مبادئ الكتابة بالكاد استطاعت أن تنفذ إلى المناطق الجنوبية والاستوائية من القارة قبل العصر الحديث، فقد غابت المراجع الجنسية القديمة أو كتب التعاليم أو الأعمال الروائية الكلاسيكية التي كان من شأنها أن تلقي ضوءاً على الأفكار المتعلقة بالجنس من داخل القارة الأفريقية. ولا يوجد سوى مصدر معرفي وحيد هو الفن بما فيه الحفر على الخشب والنقش على الحجر، ومع أن التفسيرات غير متيسّرة دوماً، إلا أن مساهمة هذه الأعمال الفنية مفيدة لفهم المواقف من الجنس.

إن التنوع الهائل للشعوب الأفريقية يشكّل عقبة أخرى، فضلاً عن غياب نظام شامل، يجعل من العسير علينا أن نقدّم سوى أمثلة قليلة عن هذه الشعوب المنعزلة إلى حدٍّ كبير، وهذا ينسحب بدرجةٍ ما على الهند، وحتى على الصين،

(*) علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته. المورد.

رغم أن هذه الأخيرة كانت خاضعة لنظام إمبراطوري أكثر تماسكاً بكثير. ففي أفريقيا أجرى الأنثروبولوجيون دراسات كثيرة عن العادات الحديثة، التي ربما يرتبط بعضها بجذور قديمة. ولكن حتى الأنثربولوجيين أنفسهم لا يناقشون دائماً التفاصيل الجنسية أو علاقتها بالدين، وبعض من أكثر المتعاطفين بينهم ميّالون إلى التحفُّظ على هذا الموضوع. وكان كتاب سميث نقطة علّام بارزة، فقد حظي مؤلِّفه بامتياز كبير من جرّاء ترعرعه بين ظهراني الشعوب الناطقة بالـ(إيلا Ila) وإلمامه العميق بلغتهم كما بلغته الأم. ومخافة أن يُفهم من الاستشهاد الوارد آنفاً أن سميث قد أوحى بانفلات جنسي، لا بد من القول إنه اعترف بوجود قيود حيال الانغماس في الغرائز الجنسية لا تقل شأناً عن قيود الطعام والشراب. وأشار إلى لزوم احترام حقوق الملكية لدى الآخرين، وأنه ثمة محظورات تطال أزمنة وأمكنة الاتصال الجنسي.

الأساطير:

يُعدُّ (لزا Leza) الإله الأسمى لدى الشعوب الناطقة بلغة الـ إيلا، وثمة تنويعات كثيرة على هذا الاسم، منتشرة بشكل واسع في غرب أفريقيا وجنوبها. ورغم الاشتقاقات العديدة التي أوحى بها هذا الاسم، فقد فضّل سميث الصيغة الأُصل المشتقة من معنى فعل (يدلِّل)، كما تدلل الأم طفلها الأثير، أو يدلل الزعيم أبناء جماعته. كان (لزا) يتّخذ السماء موطنه، وهو خالق كل شيء، وباعث المطر، والمعين للأرض. ورغم أن (لزا) كان يعدُّ بوجه عام ذكراً، أباً، وبعيداً كل البعد عن البشر وطرائقهم، فقد تحدثت بعض الأساطير عن أسرته وزوجاته، وأبنائه. وفي واحدة من القصص على الأقل، ظهر (لزا) بوصفه «أمَّ البهائم كلها».

أسس (لزا) العادات البشرية، وأرسل الموت، وبالمقابل مدَّ الإنسان بالعلاج اللازم لتحسين النسل وإكثار الجنس البشري. وعلى افتراض أن الأفارقة شغوفون بالجنس، فمن الجدير بالملاحظة أن تظهر هنا وهناك بضع أساطير فقط عن مغامرات جنسية قام بها الإله الأسمى. ولم يُعرف في أفريقيا نظراء في العشق

للآلهة الهندية أمثال كريشنا وشيڤا الشهيرين بمآثرهما الغرامية العظيمة. وفي الحقيقة ثمة حديث عن طاقة جنسية، وعبادة قضيبية مرتبطة بآلهة أفريقية أقل شأناً، ولكن القليل جداً من ذلك ينسحب على الإله الأسمى.

في مناطق كثيرة من أفريقيا كانوا يعدّون الله ذكراً، أباً، وفي أجزاء أخرى يعدّونه أنثى. ففي دلتا النيجر Niger كانت الإلهة الرئيسية أمّاً متعددة الأثداء والأطفال، وفي أوساط الـ (إغبو Igbo) كانت إلهة الأرض (آلا أو إيل Ala or Ale) هي الكائن الأسمى. وفي داهومي المجاورة (التي أصبح اسمها الجديد بنين Benin) فإن آلهة الآلهة هما الثنائي ماوو ـ ليزا Mawu-Liza (لاعلاقة لهما بـ لزا)، وهما أبوا الآلهة الأخرى الثنائية(*). كما وردت إشارة عابرة في الأساطير إلى إله خنثوي أقدم، أنجب الثنائي الخالق للبشر ثم اختفى. وبالتالي من المفترض أن (ماوو ـ ليزا) هما منظّما الكون من المادة البدئية (الموجودة أصلاً)، ولم يخلقاه من العدم. كانت (ماوو) المبدأ الأنثوي، بخصوبتها، وأمومتها، ونبلها، هي كالقمر. وكان (ليزا) القوة، المولع بالحرب والقسوة، وهو كالشمس. وهما معاً يضمنان التعاقب المنتظم لليل والنهار، وعبر منح طبيعتيهما للرجال والنساء على التوالي، يجسّد هذا الثنائي الإلهي العناصر المتكاملة في الحياة.

كان هناك اعتقاد بأن الطبيعة الثنائية للآلهة الداهومية يعاد إنتاجها في الجنس البشري. وكانت الولادة التوأمية هي الولادة المثالية، وقد شاعت عبادة التوائم(**) على نطاق واسع. أما في أجزاء أخرى من أفريقيا فقد اعتبر التوائم مثار خطر وكان يتم التخلّص منهم. علاوة على ذلك فإن علم الكونيات في داهومي وبعض البلدان الأفريقية الأخرى كان يشبّه الكون بنصفي يقطينة، أحدهما فوق الآخر، ويلتقيان في الأفق. وكانت الأرض تعوم داخل اليقطينة،

(*) ترد أسماء الآلهة هنا مثنى مثنى، وليس بشكل إفرادي كما يحدث غالباً. م.

(**) يمكن اشتقاق مبدأ «التوأمية» من خلال هذا الفهم، وسحبه جزئياً على المعتقدات التي تستند إليه أو تعتنقه إلى هذا الحد أو ذاك. م.

وتلتف حولها قوة الحياة مجسَّدة بأفعى. ولهذه الأفعى مظهران، ذكري وأنثوي، ويُعتقد أنها توأمية، أو أنها تتمتع ربما بطبيعة ثنائية وليس لديها عنصران مستقلان. وما قوس قزح سوى تعبير عن هذه الأفعى، حيث الجزء الأحمر يمثّل الذكر، والأزرق يمثل الأنثى(2).

كذلك عُرفت التوأمية في أوساط الدوغون Dogon غرب السودان، أما الجنسانية(*) هنا فقد ندر مثيلها في علم الكونيات. فالإله الأسمى آمَّا Amma خلق الأرض من الصلصال فانبسطت كجسد أنثوي ووجهها إلى الأعلى. وكان فرجها كثيب نملٍ، وبظرها كثيب نملٍ أبيض. وكان (آمَّا) وحيداً، فاقترب من الأرض ليضاجعها، إلا أن ذلك كان إثماً. وبينما كان آمَّا يقترب من الأرض تدريجياً، نتأت هضبة النمل الأبيض، ولأنها تضارع قوة ذكره، كان الجماع مستحيلاً. ونظراً لسلطة (آمَّا) المطلقة، بتر بظر الأرض وتحقق الاتحاد الجنسي. وأصبح ختان النساء مبرراً تيمناً بهذا النموذج الإلهي. ولكن بدلاً من ولادة التوأمين المرتقبين، أنجبت هذه الخطيئةُ الإلهية الفادحة ابنَ آوى، الذي أصبح مصدر متاعب دائمة للإله. وبعد التخلّص من هذه العقبة حدث جماع آخر وأثمر حَمْلاً طبيعياً؛ حيث النطفة الإلهية، الماء، دخلت رحم الأرض وولِد توأمان. وكانا، كسائر المخلوقات الأخرى، كائنين توأمين وصورة طبق الأصل عن النماذج التوأمية في الخليقة، وكل منهما يتمتع بعنصرين روحيين لكلا الجنسين.

يقال إن الدوغون يعتقدون أن الإنسان، شأنه شأن الكائنات البدئية، لديه روحا الجنسين المتعارضين (روح الذكر وروح الأنثى)، إحداهما تسكن جسده، والأخرى في السماء أو الماء. وحين يُختن الولد يتحرر من عنصر الأنوثة الذي كان قد احتازه في طفولته. وعلى نحو مماثل حين تُختن الفتاة أو يُستأصل بظرها، تتحرَّر من العنصر الذكوري، ولن يعود بظرها يعيق الجماع. وخلال

(*) كون الفرد ذا جنسٍ معين في وجوده الكوني. م.

عملية الختان تُتلى صلوات من أجل استقرار الروح لدى الولد والبنت، ويُعتقد أن في ذلك تحرير للطاقات الروحية.

إن أسطورة الدوغون هذه كُتِبت بتفاصيل مسهبة، وقد تعرضت بعض عناصرها، المتميّزة برومانسية واضحة، إلى الانتقادات من قبل علماء أنثروبولوجيا آخرين، بوصفها شبه فريدة من نوعها في كل الأساطير الأفريقية لكنها تُظهر بالفعل العلاقة بين الأسطورة والطقوس، أو أنها تشتق الأسطورة من الطقوس. ولا يتيسر لنا تقديم أمثلة أخرى هنا عن هذه القارة الشاسعة لأسباب متعلقة بمساحة الكتاب وموضوعه[3].

العبادة القضيبية:

ثمة أسطورة يجري تداولها في أوساط الـ أشانتي Ashanti الغانيين[*] (من غانا)، تفسّر أصل الجنس والعائلة. قيل إنه منذ زمن بعيد هبط رجل وامرأة من السماء، وطلع أيضاً رجل وامرأة من الأرض ـ يظهر في تقاليد أخرى مثل هذا الأصل الثنائي للجنس البشري ـ وفي وقت لاحق أرسل الإله الأسمى ثعبانَ (الأَصَلة)[**] وبنى بيته في النهر. في البدء كان الرجال والنساء يتعايشون معاً دون اتصال جنسي، ولم تكن لديهم فكرة عن الحمل والولادة. وذات يوم سألهم الثعبان ما إذا كان لديهم أطفال، وبعد أن أجابوه بالنفي أبلغهم بأنه سيعلّمهم كيف يتم الحمل. جعلهم يصطفّون أزواجاً، وجهاً لوجه، ثم رش الماء على بطونهم بالترافق مع تلاوة طقسية، ثم طلب إليهم أن يعودوا إلى بيوتهم ويتضاجعوا. من هذا المثال الذي يرمز إلى القضيبية تعلّم هؤلاء الجماع وأنجبوا الأطفال الأوَل في الكون[4].

فالأَصَلة، الأفعى غير السامة، مقدّسة عند هذه الجماعات، ولا يجوز قتلها

(*) أحد الشعوب الرئيسية التي تسكن جمهورية غانا وهي اسم مدينة في الوقت نفسه. م.

(**) Python ثعبان كبير جداً ـ المورد.

مطلقاً؛ حتى إذا ما صادف الناس أصلة ميتة فإنهم يرشّونها بالصلصال الأبيض ويدفنونها. وتنتشر عبادة الأصلة على نطاق واسع في غرب أفريقيا، كما أن هنالك معبد الأفعى الشهير «ويداه Ouidah [Whydah]»(*)، الذي وصفه التاجر الألماني وليم بوسمان في عام 1705 حين قال إن المعبد ينتصب تحت شجرة باسقة، رائعة الجمال، وهو لايزال موجوداً حتى يومنا الحالي، وكان يحتوي على نوع من الثعابين بمنزلة الجد لكل الأفاعي، وهو «بثخانة رجل، وبطولٍ لا يقبل القياس». وقد أكد بوسمان «أن ابنة الملك تم أسرها إنقاذاً لأفعى، ثم ظهرت في النهاية مع كل الفتيات الأخريات، عارية إلا من وشاح حريري مسدل بين فخذيها، وزينة مترفة بالحلي».

وقبل ما يزيد على ثلاثين عاماً، حين زرت ذلك المعبد كان بناؤه المصنوع من جدران طينية صغيرة، يقع قبالة الكاتدرائية الكاثوليكية المسيحية. وكان الكاهن يخرج الأصلات طواعية ويريها للزوار، وكانت تطوف البلدة على نحو أليف، أما أكلها فكان محرّماً. وإذا ما صادف امرء أصَله فإنه ينحني لها ويقول: «أبَتِـي». وتدعى الأصلة ثعبان الغابة dangbe، أما أنصارها فيدعون «زوجات الثعبان» dangbe-si، لكنهم من الذكور والإناث؛ وليس ثمة ما يوحي بعبادة جنسية. كما أن الأتباع المكرّسين للآلهة الأخرى يُدعون أيضاً «زوجات الإله».

وثمة اعتقاد أن ثعباناً يظهر في أسطورة الداهوميين وقد يكون له مغزى ما يتعلق بالعبادة القضيبية. فالثعبان الهائل (دان Dan) يلتف حول الأرض كي يمنحها الحياة والاستقرار؛ ويقال إنه يحيطها بـ 3500 لفّة من الأعلى وبعددٍ مماثل من الأسفل. وفي رواية أخرى للأسطورة أن (دان) نصب أربعة أعمدة في أربع جهات الأرض، وهي التي تدعم السماء، ثم عقلها بحبال تحمل الألوان الأساسية الثلاثة: الأسود والأبيض والأحمر، وهي ألوان الملابس التي يرتديها الدان في أوقات مختلفة: في الليل والنهار ومطلع الفجر. وكان دان شريك الله في الخلق حيث كان يحمله بين أطراف الأرض، وحيثما يتوقفان كان ينتأ جبل

(*) ميناء في بنين (داهومي) - قاموس لاروس الصغير.

من غائط دان، وهو الاسم الذي يطلق على المعادن والأحجار الكريمة التي تُكتشف في الأرض.

رغم المكتشفات الأثرية ذات الأشكال الأسطوانية الخشبية أو الحجرية التي وجدت في الكثير من أجزاء أفريقيا، ليس من المؤكد أنها كانت رموزاً قضيبية على الدوام، لأن هنالك الكثير من التماثيل البشرية أيضاً، والهيئة البشرية يمكن أن تحمَّل أو لا تحمل رمزية قضيبية. وغالباً ما تُنحت الأعضاء التناسلية في التماثيل البشرية بحجمها الطبيعي أو بشكل مضخَّم تبعاً لمستوى القوة التي يرغب الفنان في أن يوحي بها. فالتماثيل الحجرية في غينيا وسيراليون التي يدعونها حجارة قضيبية، وهي عبارة عن أشكال أسطوانية تعلوها رؤوس بلا قسمات، ربما تكون مجرّد أشكال بشرية تظهر فيها تفاصيل كثيرة ويندر ظهور الأعضاء التناسلية. وفي نيجيريا هنالك عدد كبير من التماثيل الشهيرة لـ إيفي Ife و ازي Esie مصنوعة من الحجر والبرونز والطين المشوي، ومعظمها يمثل كائنات بشرية، لكن عدداً قليلاً فقط كان حجراً قضيبياً بوضوح، وخاصة في معرض إيفي. ومن المتفق عليه عموماً أن النُصب التذكارية الحجرية في أكوي Ekoi على نهر كروس Cross River هي قضيبية أساساً، وحشفاتها مكوَّنة على شكل رأس بشري، إضافة إلى سرَّة بارزة.

لقد تمَّ العثور على أعمدة حجرية ذات رؤوس مدوّرة في مناطق واسعة من أفريقيا تمتد من أثيوبيا إلى غرب السودان. ومن بين آثار زمبابوي القديمة، شرق أفريقيا، كشف النقاب عن لُقى حجرية صغيرة ذات شكل مخروطي وعُدَّت قضيبية أيضاً، رغم أن بعض العلماء يعدّونها أشكالاً نسائية نموذجية من طراز متميز. إلا أن أحد الرواة أقرَّ بأنها مشابهة لتلك الدمى الطينية التي كانت الأمهات يقدمنها لبناتهن، رغم أنها في المحصلة كانت تستخدم في طقوس دخول الفتاة مرحلة الأنوثة الكاملة[5].

كثيرة هي المنحوتات الطينية والخشبية والحجرية والعاجية التي صنعت في أفريقيا على شكل تماثيل بشرية، عارية في الغالب، وتبرز تفاصيل الأعضاء

التناسلية بحجمها الطبيعي، كما في أيقونات إيبجي ibeji التوأمية الشهيرة. وكانت هذه التماثيل التوأمية توضع خارج بوابات بيوت التوائم، وتقدَّم لها أعطيات دورية للمحافظة على صحتهم. وفي حال موت أحد التوأمين كان من عادة الأم أن تعلّق في محزم ثوبها الأيقونة التوأمية. وثمة نقوش صوَّرت الرجال والنساء في وضعية الجماع، كتلك الموجودة على الأبواب الخشبية لقصور إيفي. ويفسّر أحد الرواة المعتمدين لدى مارسيل غريول(*) الرموز المستخدمة في القرية الدوغونية (دوغون) بمصطلحات جسدية حية، فحجر معصرة الزيت هي الأعضاء التناسلية الأنثوية، أما مذبح القرية فيعدّ الرمز القضيبي[6].

إن رموز العبادة الأكثر وضوحاً، والمبالغ بها في العادة، يمكن العثور عليها في الكثير من المزارات المنتشرة على جوانب الطرقات في غرب أفريقيا. كما ويوجد على طول ساحل غانا، خارج المدن، تماثيل كثيرة لها مظهر قضيبي، وتماثيل طينية تنتأ منها أعضاء ذكورية خشبية متقنة الصنع، ومُضخَّمة جداً، إضافة إلى حزم خشبية على غرار النماذج القديمة، ويُزعم أنها مجرّد هراوات لقرع العدو.

وفي أجزاء عديدة من داهومي ونيجيريا ثمة تماثيل لا حصر لها تجسّد روحاً تدعى إشو Eshu أو لغبا Legba ويظهر فيها العنصر القضيبي على نحو بارز. وهذا هو الملاك الحارس الذي يشكل خطراً على الغرباء، ويستعطفه أرباب البيوت والقرويون. ونموذجه الأساسي عبارة عن عمود طيني مخروطي الشكل يحمل علامات دائرية أو محارات وَدَعية، وإذا ما شوهدت في الشارع تكون مغطاة ببعض القش أو بقطعة من الصفيح. أما اللغبا الذي يوضع في المنازل فدائماً يكون ذا هيئة بشرية وفي الغالب جالساً ويداه على ركبتيه، ويبرز منه قضيب خشبي ضخم. ورأيت مرة نموذجاً عنه على الطريق الرئيسية في بروتو نوفو وكان عبارة عن تمثال من الصلصال الأحمر بالحجم الطبيعي للإنسان

(*) مارسيل غريول (1898 - 1956) عالم فرنسي اثنولوجي بـ(علم السلالات البشرية) - لاروس الصغير.

الأوروبي، مرتدياً خوذة واقية من الشمس وساعة يد، ويبرز منه عضو ذكوري كبير.

لقد صُدمت البعثات التبشيرية الأولى برؤية تماثيل كهذه؛ وحين كتب (ستيفن فارو) عن تجاربه في تسعينات القرن التاسع عشر رفض أن يكون (إشو) إلهاً يرتبط اسمه بعبادة القضيب، وأعلن: «إنه في الواقع إله الشر الأعلى» و«أمير الظلمة». لكن أفكاراً شيطانية وثنوية(*) كهذه كانت غريبة على النيجيريين في ذلك الوقت، رغم ظهور ميل لاحق للتقليل من شأن العنصر القضيبي. أما (إ.ب. إيدوو) فقد اعتبر إشو على أنه مجرَّد «شرطي العلاقات الخاصة»، حامل المهام بين السماء والأرض، إن صَمْتَ اليوم ينطوي على مغزى مشابه لصدمة الأمس.

التلقين(**)

تتّضح العلاقات بين الدين والجنس من خلال طقوس التلقين، أي عندما يتم تدريب الشباب والشابات على تعلُّم الطقوس السرية لحياة البالغين والعلاقات فيما بينهم. حيث كان أولاد قبائل الـ (با ـ إيلا) يُرسلون إلى مواقع رعوية ليقضوا بعض الوقت في التدرب على اكتساب مواصفات الرجولة. ولم يكونوا مختونين، مثل بعض جيرانهم الآخرين، إلا أنهم كانوا ملزمين بالخضوع لامتحانات قاسية على يد رجال أكبر سناً فيضربونهم بالعصي ويرشقونهم بالحجارة. وكان الأولاد ينامون على الأرض ويستحمون بعدئذ بالماء البارد، ويتعايشون معاً لأيام عديدة وهم عراة ليل نهار. وكان يقدِّم لهم عقّار يساعد على حدوث عملية القذف الأولى للمني، عبر تدليك الصَّفن به، وتناوله كشراب. وكان شعر العانة يُقتلع اعتقاداً منهم أن ذلك يساعد في الحفاظ على

(*) dualistic: مشتقة من المذهب الذي يقول بأن الكون خاضع لمبدأين متعارضين أحدهما خير والآخر شر.. المورد.

(**) initiation: تلقين بسائط فنٍّ أو موضوعٍ ما لدى إدخال شخص في عضوية جمعية ما مع أداء شعائر خاصة. المورد.

القوة، وقد استمرت هذه العادة لدى الرجال والنساء صوناً للطهارة. وكانت تُقدم إرشادات من قبل شيوخ ضليعين بالقضايا الأخلاقية والجنسية، أو على يد ملقّن كانوا يدعونه «الزوج»، وهو الذي ينقل التقاليد بوصفها مُنْزَلة من الله.

في جنوب أفريقيا لاتزال شعوب زوسا Xhosa وباسوذو Basotho تمارس الختان الذكوري، في حين أن بعض الشعوب الأخرى لم تمارس هذا التقليد قط، أو أنها اقتنعت بالتخلي عنه متأثرة بالمبشّرين. وقد عُدَّ الختان عند الـ(زوسا والباسوذو) بمنزلة اندماج رسمي للشباب في الحياة القبلية، ومن دونه يحرمون من الزواج أو الميراث العائلي. وينظر إلى الرجل غير المختتن على أنه لايزال ولداً، حتى أنهم يعدّونه «كلباً» أو «دنساً». ولا تتزوج المرأة من رجل غير مختتن، لأن عائلتها ترفض أن تفاوض شخصاً كهذا بشأن المهر. حتى في العصر الحديث فإن الرجال الذين اغتربوا عن الوطن يختتنون بالإكراه لدى عودتهم ولو كانوا متقدمين في السن.

يمارس الختان في الكثير من مناطق أفريقيا، ولكن بشكل غير منتظم، مادامت بعض الشعوب لم تمارسه قط. ولأنه كان معهوداً في مصر القديمة، ولايزال إلزامياً فيما يخص المسلمين، والمسيحيين الأثيوبيين، فمن غير المفاجئ أن يكون هذا التقليد منتشراً على نطاق واسع في الأقاليم الاستوائية من أفريقيا. مهما يكن من أمر، على خلاف ختان الأطفال في اليهودية والإسلام، فإن الختان في أفريقيا يحدث في سن المراهقة ويعدّ جزءاً لا يتجزأ من طقوس التلقين. وطبقاً للتقاليد تجري عمليات الختان دون تخدير، وهو بمنزلة اختبار لرجولة الولد وقدرته على تحمّل الألم بين أقرانه. ويجري الختان في أوساط الزوسا حين يصبح ابن رئيس القبيلة مؤهلاً للمشاركة بالطقس مع فتيان آخرين، وهنالك مجموعات متمايزة تتناول الطعام والشراب معاً؛ مجموعات خضعت للاختتان مؤخراً وأخرى منذ بضع سنوات ومجموعات اختتنت منذ زمنٍ بعيد.

غالباً ما كانت تُجرى عمليات الختان في فصل الشتاء البارد، حيث يمكن للجرح أن يلتئم بشكل أفضل، ويلتزُّ الأولاد العراة بعضهم ببعض التماساً

للدفء، أما في الوقت الحاضر فقد يختتن الأولاد في فصل الصيف خلال عطلتهم المدرسية، فيعودون إليها بجدية البالغين. وفي جنوب أفريقيا على الأقل، لاقى الختان معارضة من قبل البعثات التبشيرية الدينية عموماً، حتى أنها عدّته «إثماً لا يُغتفر»، كما أنها كانت تطرد الأولاد المختتنين من الكنيسة. وكان سبب هذه المعارضة يكمن في الإشاعة التي تقول إن الأولاد يتلقون تعاليم حول الجنس، وكيفية إنجاز الفعل الجنسي؛ رغم أن المدافعين عن هذا العرف يزعمون أن الجنس والنساء كانا يندرجان في عداد المحرَّمات خلال فترة الاختتان.

بعد اجتياز مرحلة الختان كان شبان الزوسا يغادرون أكواخ العمليات الختانية، التي يتم حرقها بعدئذ. ثم يُدهن الشبّان بالشحم المزبَّد، ويصبحون مشاركين شرعيين في الطقوس الدينية وفي إدارة شؤون القبيلة. وقد وصف بعض المبشّرين هذه الطقوس بأنها «شريرة» أو «وحشية» أو «مخزية»، علماً أن بعض رجال الدين المسيحيين الجدد من الأفارقة الذين اختتنوا يؤكدون على الطبيعة الأخلاقية لهذه الطقوس ودورها الفعَّال في جعل الشّبان عناصر مسؤولة في المجتمع. وهنالك رجال دين آخرون عارضوا الختان بوصفه طقساً وثنياً لا أخلاقياً ونافلاً أصلاً. إلا أن هنالك انبعاث لعادات أفريقية قديمة، كما هو الحال في الإسلام وفي أديان أخرى، نشأت في مواجهة ما يدعى تأثيرات هدَّامة قادمة من الغرب. وفي أفريقيا ظهرت على الأرجح توليفات مركَّبة من المعتقدات المسيحية والأعراف الأفريقية، كما هو واضح في الكنائس المستقلة. وبصورة ملحوظة في الـ (جاما Jamaa) الواردة أدناه.

يستغرق تلقين الفتيات زمناً أطول مما لدى الذكور، وهو يلي الحيض الأول. وقد عُدّ الحيض دنساً محفوفاً بالخطر حتى ما بعد سن المراهقة، كما يُعتمد هذا الاعتقاد على نطاق واسع في أفريقيا وفي بعض البلدان الأخرى، حتى أن بعض الكنائس تحظِّر على النساء الحوائض خدمة الكنيسة أو المشاركة في طقس العشاء الرباني. وكانوا يطلقون اسم «المعزولة» أو «التي بلا يدين» على المرأة الحائضة. وغالباً ما تكون ملزمة بالمكوث في خيمة خاصة، وتُمنع من تناول الطعام مع أحد. أما الرجل غير المختتن من أبناء الزوسا فلا يسمح له النهوض

بأعباء رب الأسرة، ولكن يجوز له أن يرعى قطيع العائلة ويحلب البقرات. أما النساء خلال فترة الحيض فيعتبرن دنساتٍ وقد يتسببن بتأثيرات سلبية على الماشية. ويعلّق أحد رجالات الدين من أبناء الزوسا: «في هذا الفهم تتجلّى حدود الشوفينية الذكورية في مجتمع الزوسا».

كانت الفتيات يُنقلن إلى أكواخ التلقين حيث يجري إعدادهن جنسياً على يد امرأة مجرّبة أكبر سناً، ويخضعن لإجراءات علاجية من شأنها توسيع المهبل. وكن يبقين في المعتزل لأشهر عديدة وهنّ يتلقين الإرشادات، إلى أن يخرجن في النهاية ممتلئات مزيّنات، موحيات بأهمية الزواج منهن. أما الساحليون من الناس فغالباً ما يمارسون عادات الاستحمام بوصفها جزءاً من طقس الطهارة. وفي سرد وصفي لتعاليم التلقين التي تسود بين أوساط (الدمبو Ndembu) في زامبيا، ثمة تفاصيل تتعلق بالتقنيات الجنسية التي يتم نقلها إلى الفتيات من قبل نساء مجرّبات، وتشتمل على وضعيات مختلفة من مثل «رقصة السرير»، و«رقصة الجلوس»، وكانت هذه التعاليم تدعى «العقل» أو «حكمة النساء»[7].

إن وشم الجسد بندب هي عادة أفريقية واسعة الانتشار، وقد وجدت في أشكال وشمية كثيرة، وكانت تتعرّض أحياناً للتلوث فتتورم القروح إلى حدٍ كبيرٍ. وفي غرب أفريقيا يتزامن وشم الندب مع تقديم القرابين للروح الحارسة (إشو) أو (لغبا)، أو لإله الحديد الذي يستخدم نصله، وبعد الانتهاء من عملية الإرشاد تعقد حلقات الرقص والمهرجانات. وقد تحمل بعض الوشوم دلالة جنسية طفيفة وربما لا تحمل، وخاصة علامات الوجه التي تدل على الولاء القبلي، وعلامات تختص بطبيعة العبادات. وثمة نماذج من الندب وُشمت على الصدر والبطن والظهر، وبشكل خاص بين الأفخاذ بعيداً عن الأعضاء التناسلية. ويقال إن هذه الأخيرة تزيد من جاذبية المنطقة الشهوانية؛ فهي أنماط وشمية تضفي على المداعبة الجنسية متعة جمالية، ويعدّونها «نوعاً من الشيفرة الشبقية» يُراد منها «استمالة الرجل» عبر إزكاء متعته الجنسية.

أما ختن النساء، أو بالأصحّ بتر البظر، فيطبَّق في أجزاء عديدة من أفريقيا، لكنه لا يشملها بالكامل. ويقتضي قطع البظر، وأحياناً إزالة جزء من الشَّفرين، بهدف واضح ألا وهو تسهيل الإيلاج على الرجل وقطع الطريق على أي عائق أو منافسة جِماعية من قبل المرأة. وما قطع البظر الذي أشير إليه سابقاً في الأسطورة الدوغونية سوى إيحاءٍ بأن التنافس الجنسي بين الرجل والمرأة هو صورة طبق الأصل عن التنافس بين السماء والأرض.

ليس ثمة مسوِّغ فيزيولوجي عام يبرر قطع البظر، أو إجراء عمل جراحي كبير، كما يُزعم أحياناً بخصوص الختان الذكوري. ويبدو أن الغاية من وراء ذلك هو ضمان متعة الذكر وهيمنته دون أدنى اعتبار للمرأة، وقد سلَّم الرجال بفكرة أن زوجاتهم قاصرات أو معوقات جداً بدون البظر. أما أولئك الذين تصوَّروا أن الأفارقة يعيشون حياة البساطة بشكلها التقليدي، ويتمتعون بكل الممارسات الجنسية بشكلها الطبيعي، ربما ليس لديهم فكرة عن أن النساء، اللواتي يشكلن نصف السكان، محرومات من المتعة الجنسية عند الكثير من القبائل. وكانت النتيجة إخضاع النساء وجعلهن يتألمن دون مبرر بالتأكيد، وقد استنتج العالم الأنثربولوجي (ر.س. راتاري) أن هذا كان أحد الأمثلة القليلة التي جعلت الحكومة تسنّ قانوناً من أجل حماية النساء. إن تقليد الختان لم يكن شاملاً لكامل القارة الأفريقية، وعلى الأرجح أنه قد تراجع إلى حدٍ ما في الوقت الحاضر، ولو بشكل غير كاف، وكان ينطوي على مغزى ديني طفيف.

المهر وتعدُّد الزوجات:

بعد عملية طويلة من التلقين يمكن لإجراءات الزواج الشكلية أن تغدو مختصرة نسبياً، واجتماعية أكثر من كونها دينية، ويُعدّ الزواج الأفريقي، كما في قارات أخرى، عقداً بين عائلتين أكثر مما هو ثمرة عشق بين أفراد، على الرغم من تزايد الخيارات الشخصية في العصر الحديث.

كانت الخطبة تُرتَّب غالباً في سن الطفولة أو في غرَّة المراهقة. فعند شعب الـ(با ـ إيلا) يمكن للوالدين أن يطوفا القرى بحثاً عن فتيات مؤهلات للزواج،

مردِّدَيْن: «إننا نبحث عن قِدر»، وقد يَعرضا بالمقابل رموزاً ذكورية على شكل مجارف متنوعة. وهذه الأخيرة لا تدخل في عداد المهر، وإنما تُعدّ عرابين إلى أن يتم تبادل الهدايا رسمياً.

إن التعابير الخاصة المستخدمة في توصيف هدايا كهذه استغرقت جدلاً واسعاً. فالكلمة الانكليزية dowry(*) (المهر)، كانت تطلق على الحصة التي تقدمها المرأة لزوجها، في حين أنها كانت تستخدم في أفريقيا بصورة معكوسة، أي ما يدفعه الزوج أو عائلته من ثمن. وبالتالي فإن مصطلح «ثمن العروس» (bride price) هو الذي جرى استخدامه، إلا أنه قد يخلق انطباعاً مضلّلاً مفاده أن المرأة كانت تُشرى وتباع، غير أنه بالإمكان دحض هذا الالتباس مادام هنالك كلمات أخرى للتعبير عن صفقات كهذه، ولأن شراء شخص ما يوحي بنظام العبودية. فالزوجة ما كانت لتُشترى، ولم يكن للزوج حق امتلاكها كما هو الحال إزاء العبد. ولهذا تم ابتداع مصطلح «ثروة العروس»، رغم أنه جرى استخدام تعبير «المهر» بمعنى أن الزوج هو الذي يدفع.

إن مقدار ثروة العروس يختلف اختلافاً كبيراً بين مكان وآخر، وبين غني وفقير. ففي أوساط الجماعات الرعوية كانت الحيوانات هي العنصر الأكثر أهمية في تبادل الهدايا، وكانت الغاية الأساسية من الدفع هي ضمان استقرار الزواج، مادام خرق العقد قد يترتب عليه تعويض ثروة العروس.

في أوساط الـ(با ـ إيلا) يتم الزواج في نهاية مرحلة التلقين، حيث تُنقل الفتاة مباشرة إلى بيت العرس. ويُحتجز الرجل، على كره منه أحياناً، ثم ينقل إلى البيت. وحين يحلّ الظلام، ينام الزوجان معاً، ويتحقق الجماع. كان العريس يتناول خيوطاً من الخرز بطول زوجته، ثم يعلّقها على قائمة السرير، ويضع المجرفة في الموقد. وفي الصباح التالي تحضر العجوز التي كانت قد أعدَّت الحجرة وتأخذ هذه الأشياء مكافأةً لها أو بمنزلة دليل على تحقق الجماع. وبعدئذ

(*) dowry: وتعني معجمياً مهر أو بائنة. وسنلاحظ في هذا النص أن لا خلاف حول معنى المفردة وإنما حول طبيعة استخدامها. م.

تأتي العائلة وتضع الخبز بين الزوجين، فيتناولانه في وجبة مشتركة، حيث تقطّع المرأة كسرة من الخبز وتعطيها للرجل، ويبادلها الرجل كسرة أخرى ويمنحها اسماً جديداً. وخلال «مناولة الخبز» كانت العائلة تنضم إليهما، ومعها هدايا إضافية. وكانت هذه الممارسات، إضافة إلى إجراءات أخرى، تشكّل «طقس الانتقال» الحقيقي الذي بموجبه ينتقل الزوجان من حالة الطفولة إلى حالة البلوغ مع ما يرافقها من اتحاد جنسي واكتساب اسم جديد وتبادل الطعام.

بعد خمسين سنة لاحقة ظهرت بعض الخصائص المشابهة في طقوس الزواج لدى قبائل الديمبو. ففي نهاية التلقين كانت الفتاة تذهب إلى بيت الخطيب، ويكون هذا الأخير قد أُعطِيَ عقاقير مثيرة للشهوة الجنسية لتقوية الانتصاب لديه. وكان يتم إدخال العروس إلى الكوخ وظهرها إلى العتبة، وذلك تحاشياً للشرور والعقم. أما السهمان اللذان تبادلهما الأهل في حفلة الخطوبة، فيكونان مغروزين في الأرض عند طرف سرير الزفاف. وكان يفترض بالزوجين أن يكررا الجماع بقدر ما يستطيعان، بصورة فورية ودون مداعبات جنسية، وكان ذلك بمنزلة اختبار لفحولة الرجل، ومحكّاً لممارسة الجماع المحترس. وثمة هدايا تترك للمرشدة التي كانت تدخل قبيل الفجر مزوّدة بماء للاستحمام، كي تتأكد من أن الأمور قد سارت على مايرام. ويبدو أن مسؤولية إثبات الكفاءة الجنسية تُلقى على عاتق الرجل، رغم أن كلا الشريكين قد يكونان في حالة من الإنهاك. وبعد الاغتسال يَشرع الزوجان باستقبال الزوار، ويمكنهما في تلك الليلة أن ينغمسا في مداعبات أوّليّة ويحققا الاستثارة عبر الوشوم الجسدية مادامت القدرة الجنسية قد أثبتت جدارتها.

يمكن إيراد نماذج مشابهة من كل أجزاء القارة الأفريقية، إلا أن تغيرات كثيرة قد طرأت في العصر الحديث. فالزواج لايزال عقداً بين العائلات، لكن الطلاق يبدو متكرر الحدوث على نحو متزايد فقط في الزيجات الطامحة إلى الكمال جزئياً. والسبب الوحيد لهذا الطلاق هو المبالغ الكبيرة المطلوب توفيرها كمهر للعروس، والتي تسبب تأجيل حفلات الزفاف الرسمية لزمن طويل. وهذا

ينطبق على زيجات المسيحيين الأفارقة بشكل خاص، أو تلك الزيجات التي تتبع القانون الأوروبي: فقبل ثلاثين عاماً أجرى (ك. أ. بوسيا) مقارنة بين النفقات التي يتطلبها الزواج العرفي(*) وتلك التي يتطلبها الزواج القانوني في غانا. فالأول يتطلب هدايا من شراب الروم المسكر تقدَّم في مرحلة التعارف والاتفاق، ومبلغ رئيسي من المال، ومساهمات مخصصة لطقوس البلوغ، وهدايا مألوفة من الملابس للعروس، إضافة إلى هبات متواضعة لأبيها وأخوتها.

أما الزواج القانوني فيكلّف نفقات باهظة عند الخطبة: أزياء محلية وأوروبية، أدوات معدنية بما فيها آلة الخياطة، مَزْينة(**)، ثياب الإشبينة، رخصة الزواج، رسوم الكنيسة، أجور السيارات، كعك العرس، الخاتم، نفقات الاستقبال والتصوير. أما جهاز العروس فينبغي أن يشتمل على الثياب، القبعات، الأحذية، الجوارب، الألبسة الداخلية، القمصان، الصداري، المناهد(***)، المشدَّات، القفازات، حقائب اليد، الأوشحة، المباذل، لباس النوم، المناديل، وباقات الزهر. حتى أنه ينبغي أن يقدَّم للإشبينة طقمان من الملابس والقبعات والأحذية والجوارب والألبسة الداخلية والقفازات. وقد أشار بوسيا إلى أن هذه النفقات الباهظة، أو المُفقِرة أحياناً، من شأنها أن تطبع مفهوم الزواج بطابع القتامة. وقد استحال إلى أعلى من صفقة وأدنى من عقد بين العائلات. فالمتطلبات الأساسية للاتفاق الأوَّلي وتبادل الهدايا التذكارية التي كانت قد أُعدَّت بغاية استقرار الرابطة الزوجية عبر تقديم دعمٍ عام تم إفسادها بواسطة الصفقات التجارية الهائلة[8].

بعد ترددات أوليَّة، أبدت البعثات التبشيرية المسيحية في أفريقيا عدم ارتياحها العام للزواج المحلي أو العرفي، مُفضِّلةً عليه الزواج القائم على القانون الأوروبي أو ما يدعى بالزواج الشرعي، والذي غالباً ما مارست ضغوطات من

(*) ذو علاقة بالعرف لا بالقانون ـ المورد.

(**) toilette = toilet: طاولة توضع عليها أدوات الزينة ـ المنهل.

(***) حمالات الثديين. م.

أجله. فالزواج العرفي يشتمل على تقاليد «وثنية»، فضلاً عن الممارسات الجنسية الغريبة، والتي بدت غير مألوفة، كما أنه يُرتَّب من قبل العائلات بدلاً من الأفراد، وبصورة خاصة تعدد الزوجات. وكانت البعثات التبشيرية، تجنباً للمخاطر، تلجأ إلى الإلحاح، أو السعي إلى عقد الزيجات في الكنيسة تحت إشراف كاهن أو قس. ومن السخرية أن يقوم بهذا الإلحاح مبشِّرون بروتستانت من رعايا المجلس الكنسي الإصلاحي الثلاثين المضاد المنعقد في القرن السادس عشر، لأن المسيحيين كانوا قد وافقوا على صيغ الزواج «المحلية» أو المستندة إلى العرف الأوروبي قبل انعقاد ذلك المجلس، والتي لم تكن لتتطلب كاهناً ولا كنيسة.

إن الحضّ المسيحي على الزواج الكنسي في أفريقيا لم ينجح في الغالب بإدخال تحسينات ذات قيمة على حالة الزواج أو استقراره بوجه عام. فالأعضاء الذين كانوا يعقدون زواجهم عرفياً، كانوا يخضعون «للعقاب»، حيث يطبق بحقهم الحرم الكنسي(*) لفترة مؤقتة. ويقول أحد الخبراء البارزين في جنوب أفريقيا: «كانت النتيجة أن جميع المسيحيين المتزوجين تقريباً خضعوا مرة أو مرتين في حياتهم لعقوبة المنع من المشاركة في الطقوس الدينية، لأن نسبة المتزوجين في الكنيسة كانت قليلة جداً في المرحلة الأولى، حتى أن نسبة أولئك الذين ثبَّتوا زيجاتهم لاحقاً في الكنيسة كانت ضئيلة نسبياً»[9]. وقد ينسحب الأمر نفسه، ولو بدرجات متفاوتة، على مناطق أخرى، وقد ظهرت مؤخراً مساعٍ لجعل الكنائس تعترف بالزواج العرفي.

إن أحد الاعتراضات الرئيسية على الزواج يتأتى من كونه يفترض ضمناً تعدد الزوجات، أو على الأقل لا يحظره. فالمبشّرون الدينيون الأوائل اعترفوا أحياناً بالزواج الأول، ولكن ربما ترتّب على الزوج أن يطلّق كل زوجاته الأخريات. فضلاً عن ذلك كان تعميد المهتدين عموماً يُحرم منه الرجل، وحتى

(*) excommunication: أي حرمان شخص ما من حقوق عضوية كنيسة. المورد.

زوجاته وأولاده ما لم يطلّق زوجاته جميعاً ما عدا الزوجة الأولى. ولم يتوان الأفارقة عن الاستشهاد ببعض أبرز الشخصيات الدينية في الكتاب المقدّس ممن مارسوا عملياً تعدّد الزوجات، وبيَّن بعضهم أن هذا الأمر سبق أن نُوقش في عهد الإصلاح المسيحي، وقد أجازه لوثر(*) بوضوح. واكتشف المبشرون أن كنائسهم الوطنية ليس لديها نواظم رسمية بشأن هذه القضية لكنهم لم يتوانوا عن سنّها، وحرموا أشد المهتدين حماساً - ممن يؤيدون تعدد الزوجات - من المعمودية والقداس.

لقد مُورس تعدد الزوجات polygyny أو male polygamy في بلدان عديدة من العالم، إلا أن تعدد الأزواج polyandry أو Female polygamy نادر الحدوث إلى حد بعيد، ويبدو أنه لم يحدث في أفريقيا حتى في ظل المجتمعات الأمومية. وربما تكون الحجة الأقوى ضد تعدد الزوجات هي أنه يفترض ضمناً الحطّ من منزلة النساء، والتعامل معهن كأنهن جزء من الملكية، إن لم يكنَّ كعبيد، مادام رؤساء القبائل والأغنياء يتخذون عدداً أكبر من الزوجات كي يعززوا مكانتهم - وقد أسهم تعليم المرأة وتعزيز موقعها الاقتصادي في خفض وتيرة تعدد الزوجات، وكذلك في تخفيض عدد الولادات نظراً لكلفة التعليم المرتفعة.

الخصوبة:

إن الروح الحارسة المعتمدة تقليدياً في مدينة (إيبدان) في نيجيريا كانت إلهة الخِصب. وقد قيل إن لها ثديين هائلين، أشبه بقدري ماءٍ كبيرين، كانا من الضخامة بحيث يمكن لستة عشر طفلاً أن يرضعوا منهما في وقت واحد. كانت أم الخصوبة، وقد درجت النسوة على زيارة هيكلها في أي وقت من

(*) مارتن لوثر (1483 - 1546) راهب أغوسطيني لاهوتي بدأ في ألمانيا الإصلاح الديني (البروتسانتية)... نقل «التوراة» إلى الألمانية وكانت الترجمة حدثاً دينياً وأدبياً. المنجد في الأعلام.

السنة كي يصلين من أجل الأطفال، ويقدمن القرابين في عيدها السنوي. وقبل سبعين عاماً مضت ذكر المندوب السامي الأوروبي في المدينة أنه عندما سُئل رؤساء القبائل عن الشعارات التي يرغبون بنقشها على الأوسمة التي تمنح لهم، اختاروا بالإجماع إلهتهم هذه. فتم التقاط صورة لامرأة عارية الصدر، فاتنة الجمال، رافعة ذراعيها إلى السماء كأنها تتلقّى أطفالاً. تلك كانت لوحة الخِصب.

وكان ثمة مهرجان سنوي مكرَّس للإلهة، يُعقد في الوقت الذي تكون فيه الأرض ظمأى، ومحتاجة إلى المطر كي يروي عطشها. وهو يصادف عيد الإله «ساتورن»(*)، حين لا يكون هنالك أي نشاط تجاري، وقد يتعرض للسرقة أي شخص يدخل المدينة. وكان رئيس البلدة ينثر النقود وسط الحشود المتسكعة في الشوارع؛ وكان يُرى رجال ونساء، أولاد وبنات، وهم يطوفون حول المدينة عراة تماماً كأنهم يلتمسون الجماع. وقيل إن الزوجات كن يبلغن أزواجهن أنهن ماضيات لمغازلة الهائمين بهن واقتناصهم.

كان ذلك يحدث حين كانت (إيبدان) بلدة ريفية، غير أن المهرجان لايزال ينعقد في الشوارع الحديثة المعبَّدة، وفي ظلال المخازن الضخمة وناطحات السحاب. كما يعلن عن هذه المناسبة في الصحافة، ويحظَّر خلالها إشعال النار أو التسوُّق. أما الكاهن المسؤول عن طقوس العبادة، «متعبِّد الهضبة». فيذهب إلى الهيكل المحاط بغابة من أجل تقديم القربان. وفي طريق عودته يزور بعض المجمعات الرئيسية في المدينة. وهو يحافظ على شعره مضفوراً كشعر المرأة، ويرتدي عمامة نسوية، إلا أن ثيابه ذكرية. وتسجد النساء أمامه طمعاً ببركاته. كما تُرى مجموعات بشرية تطوف المدينة وتغني الأغاني الداعرة، وتلوّح بصور تمثل القضيب، وعصي مشقوقة تحمل خصلاً من شعر العانة، أو صوراً فوتوغرافية إباحية حديثة. وترى فتيات صغيرات يحملن رايات

(*) Saturn: إله الزراعة عند الرومان ـ ويتميز العيد بالاسترسال في القصف والعربدة. المورد.

خُطِّط عليها أسماء الأعضاء الذكرية والأنثوية على نحو صفين. وتُسمع صيحات وأغانٍ كثيرة تنطوي على إيحاءات جنسية، تطال على وجه الخصوص أناساً غير مقبولين شعبياً، أو رجال سياسة أو قبائل غريبة. ويعدّ لفظ الكلمات المحظورة بمنزلة صمام أمان للمشاعر المكبوتة إضافة إلى كونه محفِّزاً للنشاط الجنسي.

ويستمر المهرجان، لكنه لا ينجو من انتقادات بعض المثقفين والمتدينين. كما أن الصحافة كانت تُشهِّر بهذه «الجوقات الدنسة»، وتشجب «الأغاني التي تمس الجنس الأنثوي دون حياء»، وكانت تطالب الحكومة باتخاذ إجراء «يضع حداً لهذه السخافات». وقد حاول المسيحيون والمسلمون منع قيام هذا المهرجان أو تشذيبه، مع ذلك لم يفلحوا إلا قليلاً. إلا أن الاعتداءات التي تعرَّضت لها النساء، حيث جرِّد بعضهن من الملابس، استدعت إجراءً بوليسياً عاجلاً، اعتُقل خلاله بعض الجناة[10].

في أجزاء أخرى عديدة من أفريقيا تقام مهرجانات سنوية للخصوبة من طبيعة مماثلة. ففي (بروتونوڤو) ثمة طقس الطهارة الاحتفالي السنوي، حيث تُزار خلاله كل أنحاء المدينة. وتشاهَد جماعات نسائية يعرضن مفاتنهن للرجال العابرين، ويؤدين حركات تحاكي الجماع يرفقنها بعبارات مغرية. وعلى طول الساحل الغاني (غينيا) يحتشد في رأس السنة آلاف من البشر لتقديم القرابين وأداء الطقوس الرسمية، وهم يرقصون احتفاءً «بزواج» إلههم الرئيسي، الذي يُمجّد بهذه المناسبة بوصفه الكائن العاشق ومانح الخصب. وفي هذا العيد يُسمح بممارسة الجنس علناً؛ وفي الماضي كان الفعل الجنسي غالباً ما يتم جهاراً، أما الآن فلم يعد مسموحاً به، بَيْدَ أنه يحق للرجال معانقة أي امرأة وفقاً لهذا الطقس الاحتفالي، ولأنه قد يكون مجرَّد عناق سطحي محتشم فثمة إذن ضمني بذلك. ويقال إن حفلات الجنس الاستثنائية يجري ترتيبها بصورة مسبقة، وتتم على نحو سرّي، إلا أنه لا يجوز لأي شخص أن يعترض عليها إذا ما اكتُشفت أو إذا وُجّهت اتهامات بارتكاب الزنى[11].

قيل إن التعويض عن الزنى أو الإغواء في أوساط الأشانتي Ashanti المجاورين يمكن المطالبة به في أيّما وقت خارج موعد الاحتفال السنوي. علاوة على ذلك فإن معظم الأذونات الصريحة كانت شكلية أكثر من كونها فعلية. يمكن للرجل أن يقول لأي فتاة: «اطلقي نار بندقيتك علي»، فيُتوقع منها أن تخلع ثيابها استجابة لطلبه. ومادامت الفتيات لا يرتدين سوى بعض السلاسل الخرزية حول خصورهن وقطعة صغيرة من القماش الأحمر مقحمة من الأمام والخلف، فربما لن تكون أكثر مما يحدث في كرنفال أوروبي حين يطلب رجل من فتاة أن تخلع قناعها وتقبّله.

حسب تقاليد أفريقيا الاستوائية لم يكن العري، بأي شكل من الأشكال، مثار خزي، بل كانت قابلية الاقتناع به في مناخ كهذا واردة أكثر مما هو الحال إزاء الثياب السميكة التي اعتُمدت في وقت لاحق على الأغلب. وحتى سنوات قليلة سابقة كان الكثير من الفتيات والنساء يقضين معظم النهار عاريات حتى الخصر، ووحدها الثقافة، وكذلك الاعتبارية(*) الحديثة ألبستا معظمهن. وبين بعض القبائل، كالسومبا مثلاً في شمال داهومي كانت النساء يتحركن عاريات تماماً، أو يضعن بعض الأغصان المورقة على أعضائهن التناسلية، ويكتفي الرجال بغمد أعضائهم الذكرية في يقطينة طويلة ورقيقة توكيداً لذكورتهم وإيحاءً بانتصار دائم.

كانت الحاجة كبيرة جداً لتحفيز الخصوبة في أفريقيا الاستوائية، وذلك بسبب النسبة العالية لوفيّات الأطفال. ومن المتفق عليه عالمياً أن أعداداً كبيرة من الأطفال الصغار ماتوا في الأزمنة الماضية، رغم أنه لا يوجد واقعياً أرقام موثوقة يمكن اعتمادها لتحديد النِّسب، ولايزال معدَّل الوفيات عالياً في الأماكن البعيدة عن المدن، وفي الملاجئ الخيرية. وهنالك حاجة وتوق للأطفال، وهم يلقون عناية جيدة إذا ما بقوا على قيد الحياة؛ لأن الأطفال، والذكور منهم على

(*) حسن السمعة أو الاحترامية (المحترمية). المورد.

وجه الخصوص، من شأنهم أن يخلّدوا ذكر العائلة، ويضمنوا استمرارية النسل بوصفه امتداداً للأسلاف. وبناء على ذلك برزت متطلبات دينية واجتماعية على حد سواء خدمةً للخصوبة، وكان لا بدَّ من مقارعة المرض والعنَّة والعقم بكافة الأسلحة الناجعة.

المحرَّمات:

رغم زعم إدوين سميث أن الـ(با ـ إيلا) كانوا ينغمسون في العلاقات الجنسية ما شاءت لهم الظروف، فقد نوَّه بالكثير من المحرَّمات التي طالت أزمنة وأمكنة عُدَّ فيها الجماع محظَّراً أو محفوفاً بالخطر. وشملت هذه المحرمات ميادين واسعة من الحياة إلى حد أن الجنس ربما أحيط بهالة أشبه بتلك التي تحيط بألوهية الملك.

لقد فرضت تحريمات جنسية في أفريقيا طالت المهن على اختلافها وخلال فترات محددة لها أهميتها الخاصة. فالصيادون وصيادو السمك يحرَّم عليهم مضاجعة زوجاتهم أو أية نساء أخريات خلال رحلاتهم القصيرة الهامة، والعاملون في صهر المعادن تفرض عليهم حالة حظر صارمة حين يكونون في أتون الصهر داخل الأدغال أو عندما يقومون بزيارات إلى القرية خلال فترة العمل. وهنالك اعتقاد سائد في أجزاء عديدة من أفريقيا ومفاده أنه لو اقترفت زوجة صياد الزّنى في البيت، أثناء غياب زوجها، فقد يتعرَّض لعقوبة الطرد أو القتل. وعُدّت ممارسة الجماع على الأرض في الأدغال عملاً بغيضاً عند إلهة الأرض (أسيز يا Asase Yaa)، إلهة قبائل (أكان) في غانا؛ وقد يُقاطَع الزوجان، وتجدب الأرض على يد الإله الذي يُعتقد أنه مخصبها.

وثمة محرَّمات يعود للأطباء شأن تطبيقها عادة؛ ينبغي أن يمنع المرضى بوجه عام من مقاربة الجنس خشية إبطال مفعول الأدوية، فالممارسة الجنسية تتطلب طاقة كبيرة قد تفسد معها قدرات أخرى. والرجل الذي يكون تحت الإشراف الطبي ويستمر بملاحقة النساء يلقّبونه بـ «كلب القرية». وحتى المعالجة

غير الطبية، بواسطة التعاويذ، قد تنطوي على تحريم الجماع في فترات محددة، إذا افترضنا أنها ذات فعّالية.

كان هنالك تحريمات عامة للاتصال الجنسي خلال فترتي الحيض والحمل. ويحظَّر على الحوامل ممارسة الجنس إلّا مع أزواجهن، أما الرجال الذين يحاولون إغواءهن فقد يتعرضون لعقوبات التعويض الباهظة. وبالمقابل لا يجوز للزوج أن يضاجع النساء خلال هذه الفترة، إلا مع زوجاته الشرعيات. وقد يُسمح بالجماع خلال الشهور الأولى من الحمل، إلا أنه حظّر في الشهر أو الشهرين الأخيرين مخافة أن يتسبَّب الزوج «بثقب يافوخ الجنين».

أما بعد ولادة الطفل فهناك محرَّمات واسعة تحظّر الاتصال الجنسي بين الزوج والزوجة بسبب العواقب الدائمة التي تنتج عنه. وفي الغالب الأعم لا يجوز للأم ممارسة الجماع خلال فترة الإرضاع مخافة أن تحمل فتخور قواها. وقد أشارت (إلبا - إيلا) إلى امرأة خرقت هذا المحرّم، حيث «غالت وليدها[*]، فتحتَّم هزاله». وغالباً ما يستمر إرضاع الطفل من الثدي لمدة سنتين أو أكثر، وهي فترة طويلة جداً على الزوج والزوجة للإمساك عن الاتصال الجنسي. وبالتالي معظم حالات حدوث الزواج الثاني تتم في هذه الفترة من قبل الرجل. وبناء على ذلك يمكن للولادات عند المرأتين أن تتباعد زمنياً. وفي الوقت الحالي تراجع معدّل تعدد الزوجات من جرّاء الرعاية المتزايدة والتغذية الصناعية للأطفال الوليدين.

ثمة دائماً مستويات حظر للزواج، وكذلك لوائح تقليدية عن درجة القرابة بين من يقيمون العلاقات الجنسية. إن أكثر الاتصالات المثيرة للمقت هو السفاح، سواء مُورس مع أفراد العائلة أم أفراد القبيلة بشكل عام. فتحريم السفاح يبقى أبدياً، حتى خلال كرنفالات الإله (ساتورن) لا يجوز لذوي القربى أن يتشاركوا في الرقصات الخليعة. ومادام الكثير من الشعوب الأفريقية تمارس عادة

(*) أي أرضعته وهي حامل. م.

الزواج من الأباعد، أي الزواج من خارج القبيلة، فقد انتشر تحريم السفاح على نطاق واسع. وإذا ما عاش أفراد من قبائل مختلفة في قرية واحدة يمكنهم التزاوج، في حين أنه لا يجوز حدوث أي جماع، شرعياً كان أم غير شرعي، بين أبناء قبيلة واحدة حتى لو كانوا متباعدين في أمكنة عيشهم. ومع ذلك إذا حدثت علاقة من هذا القبيل نتيجة الجهل، يمكن أن تسوَّى فور اكتشافها، أو تُترك لتذوي بالتقادم الزمني. ولأن الأسلاف قد تكون أُلحِقت بهم إهانة، يرفضون قبول صلوات الشريك الآخر، وقد يحولون دون إنجاب الذرية أو يتسببون في إلحاق الأذى بهم.

وفي المجتمعات التي تحتاج إلى الأطفال وترغب بهم، تمَّ تحريم الإجهاض بشدة لأنه يلوث الأم جسدياً ويجلب الخطر على الجماعة، وبشكل خاص يسهم في تدمير حياة الشباب. أما ممارسة العادة السرية فيُتسامح معها نتيجة غياب رأي معارض لها. وتمارس اللواطة أيضاً، وثمة حالات عرضية لرجال يرتدون أزياء النساء ويقومون بدورهن، بيد أنهم يُعدّون إما باردين جنسياً أو ممسوسين دينياً.

يعدّ الموقف العام في أفريقيا حيال الجنس مرسِّخاً للحياة، كما أن أفكاره تتقاطع مع الكتاب المقدس والقرآن أكثر من تقاطعها مع الديانات الزاهدة في الدنيا. ولعلّ الحافز الرئيسي للزواج هو إكثار النسل نظراً للمخاطر المحدقة بصحة الأطفال وكبار السن. ويقال أحياناً عن الأفارقة أو الشعوب السوداء عموماً إنهم أكثر شهوانية من الأعراق الأخرى. حتى أن كاتباً أبيض من جنوب أفريقيا تشدَّق قائلاً: يا أفريقا، «إنما الجنس آلهتك». ولايصحّ هذا على كل الآلهة الأفارقة، لكنه، ويا للغرابة، يأتي من بلدٍ حيث «التلوُّن» الواسع للسكان هو ثمرة اعتساف الرجال البيض للنساء السود، وما التشدُّد الراهن(*) للقوانين التي تمنع التمازج العرقي إلا برهانٌ على قوة حضور الإغواء.

(*) ويقصد المرحلة التي كان يسود فيها التمييز العنصري. م.

التغيُّر والاضمحلال:

إذا كان لدى الأفارقة محرّماتهم الخاصة، فللأوروبيين محرَّمات أو نواظم أخرى. ففي حين كان العري عادة شائعة، كان الأوروبيون ينظرون إليها بوصفها انحلالاً أو تفسُّخاً أخلاقياً، وكانوا يسعون إلى تحاشي الوقوع في إغوائها، وقد حاول بعضهم إكساء العذراوات الاستوائيات أزياء زوجاتهم ولكن بمحاكاة بائسة.

كتبت ماري كينغسلي، المستكشفة المستقلة لغرب أفريقيا، في تسعينات القرن التاسع عشر مايلي:

لا بدّ لي من إعداد موضوع حول (الهبارد)، وإنني لأعد باستبعاد اللغة البذيئة مهما كلَّفني ذلك من جهد. والهباد هو زيّ نسائي لاقى التأييد من قبل جميع البعثات التبشيرية من سيراليون إلى الكونغو البلجيكي[*].... ويتألف مما يلي: جزء يطوق العنق والكتفين، مثبت على الظهر بثلاثة أزرار ـ اثنان منها مفقودان عادة ـ ومن هذا الجزء يخرج كمَّان قصيران، وطرفه السفلي، على مستوى الإبط، تثبَّت عليه حاشية، ويتداخل مع ثنيات كاملة تصل حتى كعبي المرأة... وهذه الأزياء تصمَّم عادة للأحزاب العمالية في أوروبا؛ ولا أستطيع أن أزعم معرفة الفكرة التي يمكن أن تشكّلها النساء الورعات في انكلترا وألمانيا وسكوتلاندا وفرنسا عن النموذج الأفريقي، إلا أن بعضاً من آرائهن تعدّه أقرب إلى زيّ قديم مركَّب[12].

وتعتقد ماري كينغسلي أن ملابس متكلّفة كهذه أسهمت في إحداث «البلادة المعروفة تماماً لدى الفتاة المدربة على العمل التبشيري» وكان تشارلز ديكنز أشدَّ انتقاداً لهذا النوع في عمليه الأدبيين «أوراق بيكويك» و«المنزل المنعزل».

(*) وهي جمهورية الكونغو الديمقراطية حالياً. م.

ومنذ تلك الأيام، أشياء كثيرة تغيَّرت في أفريقيا؛ حيث أُنشئت موانئ ضخمة وصناعات ومرافق ومحلات تجارية، وباتت الكثير من الأزياء الأفريقية مشابهة لمثيلاتها عند شعوب الغرب. وكثير من النساء الأفريقيات المسيحيات يرتدين الألبسة المحلية الملوَّنة البرَّاقة، ولكن يندر اللباس نصف العاري. وقد تعرَّضت العادات الأفريقية، مثلما جرى في الكثير من البلدان الصناعية والمستعمَرة، إلى هجمات وانحرافات، كما حدثت تغيُّرات كبيرة في الدين والأخلاق.

ما أسهل التحسُّر على الماضي، كما لو أن كل شيء كان قد بلغ الكمال وقتئذٍ؛ وقد يكون من اليسير أيضاً التغاضي عن المعاناة التي تكبَّدها الشعب، والنساء على وجه الخصوص، من جرَّاء بتر البظر، والتربية الأخلاقية للأطفال، وتعدّد الزوجات، والأعراف والتقاليد. وبالمقابل سيكون من الحماقة تجاهل الإنجازات التي حققتها الأديان الجديدة في حقلي التطور الاجتماعي والثقافي، وفي حرية الاختيار الفردي في الزواج، وفي الحب والشراكة الحقيقيين لدى بعض الأزواج.

مع ذلك فقد شهدت مناطق واسعة مناوشات بين القديم والجديد، أدت أساساً إلى الهدم بدلاً من البناء، ويصحّ ذلك بشكل خاص على الجنس والثقافة الجنسية. وكانت تجري محاولات قليلة، بل قليلة جداً، من أجل تغيير طرائق التلقين القديمة والتكيف معها، ولكن غالباً ما كان يتم التخلي عنها دون تقديم بدائل. وقد ذكر رجل دين من جنوب أفريقيا، وهو أفريقي الأصل:

لأن التعاليم الجنسية التي كانت تُعلَّم في مدارس التلقين، حين كان الأفارقة لايزالون وثنيين، إضافة لما كان يرافقها من سلوك جنسي، لأنها صارت الآن في عداد طرائق الماضي السيئة التي تركناها خلفنا، أصبح الأفارقة حالياً يلصقون كل الأحاديث الجنسية بالوثنية، ويعتقدون أنهم ماداموا الآن مسيحيين، فلا يجوز التلفُّظ بها، ناهيكم عن ربطها بالدين أو الكنيسة[14].

في وصفها الحي والتفصيلي لحيوات النساء الأفريقيات المسيحيات تُعَلِّق (ميا براندال سيرير): «مذ اهتدى الأفارقة إلى الديانة المسيحية، لم يعتبر ثمة علاقة بين الجنس والدين من وجهة نظر غالبية النساء، والأكثر من ذلك أن مجرَّد ذكرها يسبِّب لهن صدمة حقيقية». وفوق ذلك يتحسَّر المبشرون لأن المسيحية لاتزال سطحية، لكن الكاتبة ترد: «إن الحقيقة ـ المأساة تكمن في أن المبشرين أنفسهم سبَّبوا الطلاق» بين الجنس والدين. كان الجنس في ثقافة (بانتو) التقليدية أحد أهم تمظهرات «قوة الحياة»، وأحد رسائل ديمومة الجنس البشري، وينطوي على مغزى طقسي احتفالي. ولكن هل سعت المسيحية التبشيرية، بكل إخلاص، للوصول إلى الجوانب الحيوية في الحياة الأفريقية؟ «قد يكون السبب الذي جعل النساء والفتيات ينزعن الصفة الجنسية عن الدين المسيحي هو اللاجنسية الفعلية التي تنطوي عليها المفاهيم المسيحية المقدسة، مع ذلك كان من الممكن للمسيحية أن تؤثر في السلوك الجنسي فيما لو كانت أمينة لأصول دينها، أو متفهِّمة بصورة أفضل للآراء الإنجيلية التي تؤكد على تعزيز الحياة، أو لو أنها تعمَّقت في دراسة الديانة والأخلاق الأفريقية بصورة حميمة، بدلاً من قذفها دفعةً واحدة بتهمة الوثنية».

مع ذلك، ربما لم يفت الأوان بعد، لأنه ثمة انبعاث لعادات أفريقية أقدم، وكذلك ثمة تفسيرات لها من قبل الكنائس المستقلة. وإحدى أهم الكنائس والحركات تدعى جاما Jamaa «العائلة»، في منطقة الكونغو، والتي ساعدت على انتشار المسيحية بين عمال المناجم وأمدَّتها بدوافع وجذور محلية، وقد ظهرت بعد الاستقلال مستفيدة من ردة الفعل المناوئة للمسيحية الأوروبية. وقد تأسست (جاما) على يد كاهن بلجيكي يدعى بلاسيد تمبلز، بفضل تحرره من الأوهام التي رافقت الأساليب التبشيرية التقليدية، وتأويله للأفكار الأفريقية في كتابه «فلسفة البانتو». وقد قال إن الفكر الأفريقي يؤكد على القوة، والمسيحية تؤكد على المحبة، فلا بدَّ من توحيد الفكرين.

يقال إن (جاما) قد بدأت بالأزواج (الثنائيات) السبعة، البابا سابا (Babasaba) أي «الآباء السبعة» في السواحيلية Swahili(*). والهدف من التلقين (الدخول) في هذه الحركة هو الاتحاد بالله، بابا مقابل مريم وماما مقابل المسيح(**). بعدئذ تحقق الاتحاد الجسدي والروحي بين بابا وماما، في محاكاة للاتحاد المحقَّق أصلاً بين يسوع المسيح ومريم. ثم تلا ذلك اتحاد بابا وماما مع الكاهن، الذي عرض زواجهما على الله، ودمجهما معاً واعتبر الحب الزوجي النموذج السبقي للحب المسيحي، وكانت المناوشات بين عناصر الجنس النقيض.

قد لا يكون مدهشا أن الانحراف الهرطقي قد ظهر انطلاقاً من هنا، حيث ترى هذه البدعة أن هدف (جاما) من الاتحاد بالحب لايمكن بلوغه تماماً إلا عبر الجماع الجنسي بين المتزوجين، وبين غير المتزوجين، وحتى مع الكاهن. كثيرة هي التأويلات الإنجيلية التي باتت موجّهة جنسياً، بما في ذلك العلاقة بين المسيح ومريم، وبين يوحنا ومريم المجدلية. وقد فُسّرت قصة بشارة مريم العذراء على أنها اتحاد جسدي مع الله بوصفه زوجاً لمريم:

حين قالت الأم مريم، كيف يكون ذلك؟ كيف لي أن أتلقَّاك وليس لك جسد الرجال؟ فقال لها الرب، أنا خالق الجسد الذكري، فكيف لايكون لي ذلك؟ وهكذا بدأت قوة الله المانحة للحياة تتخلَّق فيها، قوته المخصبة كزوج. فحلَّت فيها الروح القدس، وأنجزا عملهما(***).

(*) لغة تجارية ورسمية في كثير من أفريقيا الشرقية وفي الكونغو ـ المورد.

(**) هكذا وردت الصيغة في النص الأصلي. م.

(***) من حيث الجوهر تتفق هذه الصيغة التفسيرية مع ما ورد في الإنجيل والقرآن بصرف النظر عن الصيغة التوليفية التي وردت في البدع الهرطقية التي أشير إليها سابقاً والمتعلقة بالجاما أو سواها. ففي القرآن الكريم ترد القصة في سورة «آل عمران»: «إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم.... قالت رب أنّى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء ←

عُدّت هذه الطائفة غير تقليدية (غير أرثوذكسية)، وأعضاؤها محرومون كنسياً في بعض الأماكن. أما تمبلز نفسه فقد مُنع من الوعظ في فترات عديدة، واستُدعي إلى روما، وكان المجلس الفاتيكاني الثاني منعقداً حينئذ، ونظراً لاحترامه لكل الديانات والثقافات الأخرى بشكل منفتح، فقد بُرِّأ تمبلز من تهمة الهرطقة قبيل موته. أما الجاما فتواصل نشاطها علانيةً داخل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وتكرز سرّاً بالحب بوصفه معتقدها الرئيسي. وثمة عدد آخر من الكنائس الأفريقية تُدار من قبل الأفارقة، وتسعى إلى التكيُّف مع توليفة تضم الديانات والمبادئ الأخلاقية القديمة والجديدة على السوَّاء.

هوامش المؤلف للفصل السابع

1 - E. W. Smith and A. M. Dale, The Ilba-speaking Peoples of Northern Rhodesia, 1920, ii, p. 35.
2 - P. Mercier, in African Worlds, ed., D. Forde, 1945, pp. 219 f.
3 - M. Griaule, Conversations with Ogotemmeli, 1965, pp. 17 ff.
4 - R. S. Rattray, Ashanti, 1923, p. 48.
5 - P. Allison, African Stone Sculpture, 1968, pp. 52.
6 - M. Griaule, Conversations with Ogotemmeli, p. 95.
7 - V. W. Turner, The Drums of Affliction, 1968, p. 248.
8 - K. A. Busia, Social Survey of Sekondi-Takoradi, 1950, pp. 143 ff.
9 - B. Kisembo and others, eds., African Christian Marriage, 1977, pp. 7 ff.
10 - G. Parrinder, Religion in an African City, 1953, pp. 12 ff.
11 - M. J. Field, Religion and Medicine of the Ga People, 1937, p. 54.
12 - M. H. Kingsley, Travels in West Africa, 1897, pp. 222f.
13 - M. Brandel-Syrier, Black Women in Search of God, 1962, pp. 143 ff., 217.

← إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون». الآية 45 ـ 47 . وفي إنجيل لوقا، الإصحاح الأول، الآية 30 ـ 31 ـ 34 ـ 45: «فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم... وها أنتِ ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع... فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا ولست أعرف رجلاً. فأجاب الملاك وقال لها: إن الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله».

الفصل الثامن

الأعراف الإسلامية(*)

لا يوجد أية ثنائية جنسية فيما يخص الألوهة في الأديان الساميَّة الثلاثة الكبرى، أو على وجه الحصر، الأديان التوحيدية: اليهودية والمسيحية والإسلام. وقد افترقت هذه الأديان كثيراً عن المفاهيم القديمة للأب السماء والأم الأرض، شيفا وشاكتي، أو يانغ وين، التي قدَّمت نماذج يُحتذى بها للنشاط الجنسي البشري.

مع ذلك كانت هذه الأديان دنيوية(**) من حيث الجوهر، وتؤمن بأن كلَّ شيء يتم بمشيئة الله، وأن السلوك الجنسي لا بدَّ أنه كان ولايزال شأناً دينياً. وكانت الوصيَّة التي لاقت قبولاً لدى الأديان الثلاثة: «كن مثمراً، وأكثر من نسلك، واملأ الأرض به».

النبي

إن الآراء التي غالباً ما تُعتمد في العالم غير الإسلامي تركز على زيجات

(*) لم يوثِّق الكاتب بما فيه الكفاية كثيراً من المعلومات والاستنتاجات التي أوردها، لذلك ارتأينا توخياً للدقة ضرورة توثيقها فعدنا إلى الأحاديث النبوية الشريفة والمعلومات التاريخية وثبَّتناها. الناشر.

(**) تؤكد على أهمية الحياة الدنيا. م.

محمد المتعددة مدعية بأن ذلك لا يتناسب مع مرتبته كنبي. إن الدين والممارسة عند النبي محمد أساسيان لفهم العلاقات بين الدين والجنس في الإسلام، إلا أن هذه الوقائع ينبغي توثيقها بالاستناد إلى القرآن والسيرة النبوية الموثوقة وكذلك الأحاديث النبوية. وإنه لأمر جوهري دراسة هذه القضية في سياقها الزمني.

يتكرَّر القول إن محمداً كان لديه أربع عشرة زوجة، أو تسع زوجات بالمعنى الدقيق للكلمة وخمس سرارٍ(*). وما من شك في أن أصدقاءه وخصومه يعترفون بأنه كان متعدد الزوجات، إلّا أن ذلك كان عُرفاً سائداً في ذينك الزمان والمكان، كما كان ولايزال شائعاً بين الوجهاء في كثير من بلدان الشرق، وكانت الزيجات تسهم في تعزيز التحالفات السياسية، وبالمقابل لم يحظّر على اليهود تعدد الزوجات بشكل واضح حتى العصور الوسطى، كما أن كثيراً من الحكام المسيحيين لم يلتزموا كفاية بالزواج الأحادي الصارم للمسيحية، وعلى سبيل المثال هنري الثامن.

لا بُدّ من النظر إلى تصرف النبي محمد في هذا الشأن وفقاً لمعايير عصره، فقد ذكر عالِم مسيحي مرموق بأن: «ليس من المبالغ به كثيراً القول إن كل زيجات محمد كان لها بُعْد سياسي»[1]. وفي كتاب «البطل النبي» الذي صدر في القرن التاسع عشر، استخلص مؤلفه (توماس كاريل) من الأحاديث الإسلامية المتناقلة أن محمداً كان متزهداً بطريقة ما، يعيش عيشة البساطة، وغالباً ما كان يعتكف في الصحراء من أجل التأمل والصلاة. «وكانت أسرته واحدة من الأسر الأكثر بساطة في العيش، وكان طعامه يقتصر عموماً على خبز الشعير والماء، وأحياناً لم تكن النار لِتُشعل في موقده طيلة ثلاثة أشهر. ويروون عنه بكل فخر أنه كان يختصف نعله ويرتق رداءه بيديه».

ومن جهة أخرى فإن بعض الأحاديث نَسبتْ إلى الرسول طاقات جنسية خارقة، فعن أنس بن مالك قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يدور على

(*) الأمَة أو الجارية أو المحظية، ومفردها السُرِّيّة. م

نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة. قيل لأنس: أوَكانَ يُطيقُه؟ قال: كنا نتحدث أنه أُعْطِيَ قوة ثلاثين»(*).

كما أن كثيراً من النسوة عرضن أنفسهن على النبي، وذلك يعني عرض للزواج دون مهر. وكانت خولة بنت حكيم من اللائي فعلن ذلك حيث وهبت نفسها للنبي، وقد روي عن عائشة أنها قالت عن ذلك: «أما تستحي المرأة أن تهب نفسها لرجل»(**). ومن الممكن أن نتخيل ما استنتجه نقّاد أوروبيون قروسطيون من روايات كهذه، كما يعلّق أحد الكتاب المعاصرين: «لأن الوقائع كانت تُختلق في الغالب الأعم، أو تُحرَّف أو يبالغ بها كأضعف الإيمان»[2].

تبيّن الوقائع أن النبي لم يتزوج حتى بلغ الخامسة والعشرين من العمر، حيث بنى بخديجة التي كان عمرها أربعين عاماً، وكان سبق لها أن تزوجت مرتين. وقد عاشا معاً بإخلاص، وبمحبة على الأرجح، لحوالي أربعة وعشرين عاماً، وقد أنجبت منه كلّ أولاده(***) ما عدا واحداً. ولم يتّخذ محمد زوجة ثانية إلا بعد وفاة خديجة، وكان عمره خمسين عاماً حين تزوج أرملة أحد القادة المسلمين، وكانت بحاجة إلى حصانة بعد مقتل زوجها في المعركة. وفي سنوات حياته الأخيرة، وبعد أن غدا شخصية بارزة وله أتباع كثيرون، اتخذ زوجات أُخَر، ومات في الثانية والستين من العمر.

كانت خديجة تعمل في التجارة، وتستخدم رجالاً ليقوموا على تجارتها لقاء حصة من الربح. وقد تأثّرت بحسن تدبير محمد واستقامته إلى حد أنها اقترحت عليه الزواج منها، فقبِلَ العرض. وقد أصبحت أولى «أمهات المؤمنين» وآزرت محمداً في رسالته النبوية. وحين تلقّى زوجها الوحي الأول من الملاك جبريل وصعقته الدهشة في كهف جبلي(****)، أرسلت خديجة مبعوثيها خلفه. عاد إليها وارتمى في حجرها والتزّ بها. وذكر أحد الرواة أن خديجة دثرته

(*) صحيح البخاري ـ كتاب الغسل، وفي مسند الإمام أحمد وغيرهما. الناشر.
(**) ورد في صحيح البخاري، ومسلم وغيرهما. الناشر.
(***) ولدت له القاسم وعبد الله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. المنجد في الأعلام.
(****) غار حراء. م.

بردائها الذي تلبسه، عندما أخبرها أن جبريل لايزال يتراءى له، الأمر الذي جعل جبريل يغادر، مؤكداً بتواضع أنه ملاك وليس شبحاً. لقد كانت خديجة أول معتنقي رسالة محمد. وكان لديها ابن عم يُدعى ورقة(*)، وهو شيخ يعتنق المسيحية وملمٌ بالكتاب المقدس. وحين أعلمته بأمر ما حدث مع محمد قال: «إن كان ذلك صحيحاً، سيكون محمد نبي هذه الأمة».

من بين زوجات محمد، عائشة هي الوحيدة التي لم تكن متزوجة من قبل؛ وهي زوجته الثالثة وابنة أحد الصحابة الرئيسيين وخليفته الأول أبو بكر الصدّيق. وكان لها من العمر تسع سنوات حين تزوجها، ولاتزال تلهو بلُعبها، وربما بقيت عند أمها لبعض الوقت. وفيما بعد، وأثناء إحدى الحملات تخلّفت عائشة لسبب ما، حيث عادت لاحقاً إلى البيت برفقة رجل شاب. وكان ذلك قد حدث قبل فرض الحجاب على نساء النبي، وقد لاكت الألسن هذه الحادثة، إلا أنه لم يثبت أي دليل واضح على اقتراف الزنى، وصار يُشار إلى الحادثة باسم «حادثة الإفك»(**). وسرعان ما ترعرعت عائشة وأصبحت شابة فاتنة وذكية، وربما صارت الزوجة الأثيرة. وبعد وفاة محمد انخرطت في نزاع مع ابن عمه وصهره، علي، تطوَّر إلى قتالٍ في موقعة الجمل قرب البصرة، وسُمّيت

(*) ورقة بن نوفل بن أسد (توفي نحو 611) من حكماء الجاهلية، ابن عم خديجة، كان مسيحياً، توفي قبل الدعوة. المنجد.

(**) حادثة الإفْك، أو كما يسميها المستشرقون «قضية العقد»، فأثناء غزوة بني المصطلق رافقت عائشة النبي، وفقدت عقداً من أصداف يمنية كانت متمسكة به جداً، وعندما علمت أن السفر سيتم خلال ساعات، عكفت للبحث عنه. وعندما وجدته كانت القافلة قد ذهبت، وكان الذين كُلّفوا بوضع هودجها على الجمل اعتقدوا أنها موجودة فيه. وما إن اكتُشف أمر غيابها حتى أمر النبي بالتوقف لانتظارها، وقد بدأ يقلق عندما ظهرت في الأفق، مصحوبة بصفوان بن المعطَّل، وهو صحابي شاب، وجدها في الطريق فقام بحراستها. الحريم السياسي - فاطمة المرنيسي.

وقد وردت الآيات التي نزلت بخصوص حادثة الإفك في القرآن الكريم في سورة النور الآيات (11 19). ويمكن مراجعة تفسير ابن كثير المجلد الثالث ص (268 - 273) أو السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثالث، ص (309 - 321)؛ «خبر الإفك في غزوة بني المصطلق». الناشر.

كذلك لأن عائشة كانت تمتطي جملاً في هذه الموقعة. وقد حُسِمَت المعركة لصالح علي وأُعِيدتْ عائشة بعد ذلك مكرّمة إلى المدينة.

بعدئذ تزوج محمد ابنة الصحابي والخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وتزوج عُمر أيضاً ابنة محمد الكبرى. كما أن الخليفة الثالث عثمان بن عفان تزوج اثنتين من بنات الرسول، والخليفة الرابع، علي تزوج من ابنة محمد فاطمة. وهكذا أسهمت هذه الزيجات في شد لُحْمة الجماعة الإسلامية، لكنها لم تفلح في توفير اتفاق حول انتقال الخلافة.

إن زواج النبي من زينب، زوجة ابنه بالتبنّي، زيد(*)، كان على كل حال موضع انتقاد، فقد كانت زينب (بنت جحش الأسدية) ابنة عمة النبي، وكانت قد زُوِّجت من زيد على كره منها. وذات يوم كان محمد في زيارة لبيت زيد، وبينما كان لايزال بالباب رأى زينب بلباس غير محتشم، فرفض الدخول منكفئاً على عقبيه وهو يردد: «سبحان الله، سبحان مُقلّب القلوب». ونقلت زينب لزوجها هذا الكلام الغامض، فذهب إلى محمد في الحال، واقترح عليه أنه سيطلّق زوجته، لكن محمداً طلب إليه إبقاءها. وقد طُلقَتْ زينب فيما بعد، وتزوجها الرسول بعد انقضاء العدّة(**). وتلقى النبي وحياً بهذا الصدد ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أَمسكْ عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه، فلمّا قضى زيدٌ منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً﴾ (الأحزاب 37). وقد نظر النقاد غير المسلمين إلى هذا الزواج نظرة سلبية، لكنّ معاصريه كانوا مهتمين فقط بكون هذا الزواج يندرج ضمن نطاق مستويات التحريم المتعلّقة بالزواج من زوجة الابن بالتبنّي. وقد بيّن القرآن أنه حدث تغيّر في هذه العادة التي كانت من بقايا الماضي.

(*) زيد بن حارثة (8 هجرية ـ 629م) صحابي، من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام. استوهبه النبي من زوجه خديجة وتبنّاه وأعتقه... المنجد في الأعلام.

(**) يمكن، بشأن زواج الرسول من زينب بنت جحش، مراجعة تفسير ابن كثير لسورة الأحزاب المجلد الثالث، ص (490 - 492). (الناشر).

وقبل موته بأربع سنوات تزوج محمد من ماريا القبطية، الجارية التي أهداها له حاكم مصر المسيحي. وقد أنجبت له ابنه ابراهيم، الذي كان مدعاة فرح كبير لذويه، لكنه سرعان ما توفّي. وكان ثمة قدر من الغيرة منها بين الزوجات الأخريات بوصفها غريبة، ولأنها كانت محنّكة بلا شك. إلا أن توترات كهذه كانت مألوفة في الأُسر المتعددة الزوجات. وعلى الرغم من تعدد زيجات الرسول إلا أن كل أبنائه ماتوا أطفالاً، وكانت فاطمة، زوجة علي، هي الوحيدة التي عاشت بعده قرابة العام.

عندما حلَّ أجله، كان قد غدا شخصية سياسية ودينية بارزة في أغلب مناطق الجزيرة العربية، وفي بعض مناطق الجوار. وكان قد أسس ديناً جديداً موازياً لليهودية والمسيحية، وأُنزل عليه كتاب مقدّس هو القرآن الذي تجري مقارنته مع توراة اليهودية وإنجيل المسيحية. لقد كان محمد، دون ريب، رجلاً ذا مشاعر دينية عميقة، وقويم المبدأ راسخه، ولديه خبرة جنسية. وقد أضحت حياته العائلية مثلاً أعلى تقتدي به الأجيال اللاحقة. وقد أكد المدافعون المعاصرون منه أنه كان فيما يخص المؤمنين العاديين نموذج الأب والزوج يبزُّ سواه من الزعماء الدينيين المتبتِّلين الزاهدين بالدنيا.

الزواج في القرآن

صنَّفت إحدى الآيات القرآنية زوجات النبي محمد:

﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمِّك وبنات عمَّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأةً مؤمنةً إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين..﴾ (الأحزاب 50).

تتألف المجموعة الأولى من الزوجات اللاتي دُفع لهن مهر بالمعنى الدقيق للكلمة. والمجموعة الثانية من سبايا الحرب أو النساء اللواتي أُهدين له. والمجموعة الثالثة تتشكّل ممن سُمح له بالزواج منهن، بنات العمومة والخؤولة، ربما اللاتي هاجرن مع محمد إلى المدينة، ويمكن الافتراض أن زينب تندرج

ضمن هذه المجموعة. والمجموعة الأخيرة هي من النساء المسلمات اللاتي منحن أنفسهن له بدون مهر. ومن المرجَّح أن العديد من النساء وعائلاتهن كانت تتوق لادعاء علاقة زواج مع النبي، وربما ارتبطت بعض النساء بعقود زواج مؤقتة معه، رغم أنه لم تقم أي واحدة منهن معه في بيته في المدينة كما زوجاته النظاميات.

وقد اشتمل القرآن على آيات عديدة عالجت العلاقات بين الجنسين. والآية الثالثة من سورة النساء، والتي يُستشهد بها أكثر من سواها في الغالب، تقيِّد، وربما تشجِّع، الرجال على الزواج من اثنتين أو أربع نساء. ويتردّد القول تقليدياً إن هذا الإقرار قد مُنح بعد مقتل عدد كبير من الرجال في (موقعة أحد) مخلّفين وراءهم أرامل ويتامى بائسين. وتبتدئ السورة بالتطرّق إلى خلق آدم وحوّاء: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً﴾. ثم برزت مشكلة اليتامى ورعاية أملاكهم التي قد يستولي عليها ويتحكَّم بها أوصياء تنقصهم النزاهة فيمنعون الفتيات اليتيمات من الزواج، فنزلت الآية: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدَّلوا الخبيث بالطيّب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيرا﴾. وأعقب ذلك نصيحة بصدد تعدُّد الزوجات: ﴿وإن خفتم ألّا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع... وآتوا النساء صَدُقاتهن نِحلة...﴾ أما إذا احتمل تعدد الزوجات هذا مشكلة ما: ﴿وإن خفتم ألَّا تعدلوا (مع عدة زوجات) فواحدة﴾ (النساء 1 ـ 3).

وربما لا تعني هذه الآية أن على الأوصياء تزويج القاصرات عندهم، بل على الأصح يجب تزويج كل البنات بمهرٍ وعلى نحو لائق، حالما يبلغن سن الرشد؛ وغالباً ما فُهمت على أنها تقييد لتعدد الزوجات غير المحدود الذي كان سائداً عند العرب، وحصره بأربع زوجات على الأكثر كما هو قائم حالياً، رغم غياب تحديد لعدد السراري. وتعدد الزوجات كان شائعاً في الهند والصين وأفريقيا كما رأينا، لكنه في الإسلام اتخذ هذا التحديد المبرَّر نصياً (في القرآن). على أية حال يزعم بعض المدافعين المعاصرين عن الإسلام أن تعدد الزوجات الذي أجيز فيما مضى من الزمن تحت ظروف خاصة لايزال حتى الآن يفتقر

للإنصاف أو «إقامة العدل» بين عدة نساء، وبالتالي ينبغي أن يكتفي الرجال بواحدة فقط. ولهذا يُستشْهد بالقرآن لصالح الزواج الأحادي.

كما هو الحال لدى شعوب كثيرة، كان الهدف من الزواج، حسب القرآن، إنجاب الذريَّة، وقد نُصح به كل امرئ يعيش شروطاً صحية مناسبة: ﴿وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله... وليستعفِفِ الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله....﴾ (النور 32 - 33).

إن زواج المسلم من امرأة يهودية أو مسيحية كان مباحاً بصورة شرعية، ولكن لا يحق للمرأة المسلمة أن تتزوج من رجل يعتنق ديناً غير دينها. أما الزواج من الوثنيين فكان محظَّراً بِشكل قطعي ما لم يهتدوا إلى الإسلام: ﴿ولا تَنكِحوا المشركات حتى يؤمنّ ولأَمَة مؤمنة خير من مشركةٍ ولو أعجبتكم﴾. وأُمرت النساء بالمقابل: ﴿ولاتُنكِحوا المشركين حتى يؤمنوا ولَعَبْدٌ مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾ (البقرة 221).

كما لاقى الجماع الجنسي تشجيعاً شريطة التحلِّي بالتقوى أولاً: ﴿... وقدِّموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه...﴾ (البقرة 223)، وقد فُسِّر هذا على أنه أمرٌ يقضي بالبَسْمَلة قبل مباشرة الجماع ـ كدلالة على التقوى ـ ويحمل إنذاراً بأننا سنلاقي الله يوم الحساب. ومن المتفق عليه، على أية حال، أن النساء اعتُبرن بمنزلة الأخاديد أو الأرض المحروثة. وربما تكون الاستعارة في كلمة الأخدود تطويراً لفكرة الجماع القديمة بمعنى نثر البذار. ﴿نساؤكم حَرث لكم فأتوا حرثكم أنَّى شئتم﴾ (البقرة 223) وعبارة «أنَّى شئتم»، استُنتِج منها أنها تعني إما المضاجعة في أي وقت جائزٍ شرعاً، أو إشارة إلى الوضعيات المختلفة للجماع. وذُكِرَ أن طرائق «الممارسة غير السويّة» تمَّ استبعادها في الآية التي قبلها: ﴿فأتوهنّ من حيث أمركم الله...﴾(البقرة 222).

إلا أن الجماع خلال فترة الحيض كان محرّماً قطعياً: ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يَطْهُرنَ.. إن الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين﴾ (البقرة 222).

كان هنالك مستويات صارمة في تحريم الزواج من أبناء رابطة الدم سواء لجهة الأم أم الأب. ففي زمن ما قبل الإسلام كان يمكن للرجال أن يتزوجوا من زوجات آبائهم، وأن يجمعوا بين أختين في الزواج، لكن المسلمين محرَّم عليهم ذلك:

﴿ولا تَنكِحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سَلَف... حُرِّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعمَّاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهنَّ فإن لم تكونوا دخلتم بهنَّ فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من صلبكم وأن تجمعوا بين الأختين إلّا ما قد سلف...﴾ (النساء 22 ـ 23).

أقرَّ محمد أن تُمنح الأوليّة في الزواج والعائلة للأبوّة والأصل الأبوي، والقيود العربية القديمة التي كانت مفروضة على الزواج بين الأقارب بالدم من جهة الأم امتدت لتطال الخط الأبوي. وكان بعض العرب قبل الإسلام يتّبعون نظام صلة الأرحام الذي كان يرتب الزواج والنسب عبر خط الأم. وكان هنالك أنماط من تعدد الأزواج، حيث كانت المرأة تتخذ عدة أزواج، ولا يُقام وزن للأبوّة الطبيعية. كما أن السماح للمسلم بأربع زوجات ربما يكون قد أُعِدَّ لتقييد المرأة بزوج واحد(*)، وضمان زواج فائض النساء أيضاً بعد موت الرجال في المعارك. وفي ظل هذا النظام الإسلامي تبقى أبوة الطفل الطبيعية معروفةً دوماً. كما أن الإسلام حوَّل تعدد الأزواج لدى النساء إلى الزواج الأحادي وبموافقة العائلات: ﴿... والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعضٍ فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف مُحصَناتٍ غير مسافحاتٍ ولا متخذات أخدانٍ...﴾ (النساء 25).

كما عرفت عادة عربية تدعى «زواج المتعة»، ويتم بعقدٍ لزمنٍ معلومٍ لقاء مبلغ يُدفع للمرأة. وقد أشار القرآن إلى ذلك: ﴿... وأُحلَّ لكم ما وراء ذلكم

(*) يقصد عدم الجمع بين زوجين. م.

أن تبتغوا بأموالكم محصِنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن فريضة...﴾ (النساء 24). إن هذه العلاقات الزوجية العابرة تمّ التسامح معها بوصفها جزءاً من العادات القديمة، مع ذلك فإن التفسير التقليدي للآية الواردة أعلاه يطبّقها على الزواج العادي. وقد جرى تحريم الزواج العابر (زواج المتعة) من قبل الخليفة عمر، وأجيزت هذه العادة لاحقاً في أوساط بعض الشيعة فقط، وهم فِرَق إسلامية صغيرة.

لقد نُظِّم موضوع الطلاق في الإسلام بعناية فائقة، وهو حِكْرٌ على الرجال؛ حيث ينبغي التريّث لثلاثة أو أربعة أشهر بين التصريح(*) بالطلاق وحل عقد الزواج فعلياً، ويترافق ذلك مع الانفصال: ﴿والمطلّقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروءٍ (الحيض أو الطهر) ولايحلُّ لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كنَّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر....﴾ (البقرة 228) فإن كن حوامل لا يجوز لهن أن يكتمن ذلك بل ينبغي أن يبقين عند أزواجهن.

وخلال فترة الأشهر الثلاثة ينبغي أن يبقى الباب مفتوحاً أمام إمكانية استئناف الجماع، اللهم إذا رغب الطرفان في ذلك: ﴿... وبعولتهن أحقُّ بردِّهنّ في ذلك إن أرادوا إصلاحاً...﴾؛ والنساء أيضاً: ﴿... لهنّ مثل الذي عليهن بالمعروف...﴾ (البقرة 228).

وقد وجب إقصاء المطلّقات بالحسنى، ولم يُسمح بحرمانهن من مهورهن. ولا يجوز أن تتزوج الزوجة من الزوج نفسه أكثر من ثلاث مرات، إلّا إذا تخلَّل ذلك زواجها ثم طلاقها من رجل آخر: ﴿... فإن طلَّقها فلا جُناح عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أن يقيما حدود الله...﴾ ومع أن الطلاق كان من حق الرجل عموماً، فثمة تأكيد على واجبات الأزواج تجاه زوجاتهم. ﴿... فامسكوهن بمعروف أو سرّحوهن بمعروف ولاتمسكوهن ضِراراً لتعتدوا...﴾. وتُختتم هذه التعاليم بقوله تعالى: ﴿... ذلك يوعَظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم

(*) والأصح التصريح المرفق بالقسم. م.

الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ (البقرة 230 ـ 232).

وثمة طرائق عديدة للعقاب على السلوك الفاحش: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعةً منكم فإن شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا﴾ (النساء 15) وتشير الآية اللاحقة ﴿واللذان يأتيانها...﴾ (النساء 16)، وأُريد بها حكم ارتكاب اللواط، رغم أنه قد يتساوى بلا ريب من حيث فحشه مع الزِّنى. وقد فُرِضَت في مواقع أخرى عقوبات أشد على مرتكبي الزنى، الرجل والمرأة على السَّواء: ﴿... فاجلدوا كلَّ واحدٍ منهما مئة جلدةٍ، ولاتأخذكم بهما رأفة...﴾ فالفاسقون للفاسقين، ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك...﴾ (النور 2 ، 3).

في المراحل الأولى من الإسلام، برز ميل عند غير المسلمين ـ ولو أنه تراجع حالياً ـ كان ينظر سلباً إلى صورة المجتمع الإسلامي الأولى، حسبما تظهر في القرآن. في الواقع كان هنالك مجتمع ينبثق من خلفية لا تعتبر السلوكين الديني والجنسي وثيقي الصلة دائماً، ليندرج في أخرى طُبِّقت فيها السنّة النبوية على كل نواحي الحياة. وفي سياق التطور اللاحق لمجتمع ديني واضح المعالم، كان لا بدَّ من إجراء تعديلات تستجيب لمتطلبات الأوضاع المستجدة، من مثل حالة الأرامل واليتامى ما بعد الحرب، وكان الهدف من وراء ذلك ضبط السلوك الإنساني وفق مشيئة الله.

الجنس في الأحاديث الشريفة:

في كامل بقاع العالم الإسلامي تحظى الأحاديث النبوية الشريفة باحترام لا يفوقه منزلة سوى القرآن الكريم. والأحاديث النبوية هي الحديث أو السنَّة[*]؛

(*) وردت كلمتا الحديث والسنة في النص بالعربية لفظاً واللاتينية كتابة. ويفترض التنويه بأن الحديث أو «علم الحديث» عند المسلمين: هو علم تعرف به أقوال النبي وأفعاله وأحواله، وأصله من التحديث أي الإخبار. أما السنَّة فهي الطريقة أو الشريعة (المنجد). أما بالمفهوم الإسلامي فيقصد ما استنَّه محمد على كافة الصعد؛ عبادة، طاعة، أخلاق، اقتصاد، وممارسات اجتماعية أخرى... م.

والحديث هو قصٌ أو رَويُ ما حدث، بينما يُقْصد بالسنة الطريقة أو العرف اللذين كانا يمارَسان. وكانت الأحاديث تتناول بشكل أساسي القضايا التي تمت بصلة إلى محمد وعاداته التي مارسها هو وأتباعه المقرَّبون. وإنه لمن الصعب الحسم بمدى موثوقية هذه الأخبار والتعاليم المنقولة، ولكن في حين أن المؤمنين كانوا يريدون الاقتداء بحياة النبي، فإن الانتشار الهائل للإسلام في القرون الأولى تطلَّب إجراء تعديلات تتفق والشروط الجديدة وتعزيزها بأحاديث مسوِّغة. وفي ظل المتغيرات الواسعة للعصر الحديث تعرَّضت الكثير من الأحاديث الشريفة لانتقادات حتى أن بعضها تمَّ التخلّي عنه، مع ذلك ظلّت تقدّم نماذج من السلوك يحتذى بها لقرون عديدة.

لم يُشَر إلى الختان في القرآن، إنما ذُكر لاحقاً أنه تأسس في نطاق الأعراف النبوية ثم أصبح سنَّة، وتقليداً يمارسه جميع المسلمين. وحسب بعض المراجع إنه كان ملزماً للذكور والإناث على السَّواء. وقد مُورس الختان في الجزيرة العربية قبل مجيء الإسلام، وكذلك عند اليهود المجاورين للمسلمين الأوائل؛ ويقال إن محمداً لاحظ أن ابراهيم اختتن حين كان في الثمانين من عمره، وثمة أسطورة لاحقة تؤكد أن محمداً نفسه وُلِدَ مختتناً. وقد يختتن الطفل المسلم بعد سبعة أيام من ولادته، أو بين عمر الثالثة والسابعة في الجزيرة العربية ومصر، ويصل في أماكن أخرى إلى سن الثالثة عشرة. ويترافق اختتان الأولاد بأبهة احتفالية، أما اختتان البنات فلا يلقى أية حفاوة. وقد اعتبر بتر البظر سنَّة(*)، مشروطاً بإزالة قمة البظر، لكن الممارسات اللاحقة تمادت لتصل إلى حد استئصال البظر وجزء من الشفرين، وإجراء عملية إغلاق المهبل التي تتضمن استئصال البظر ومن ثم خياطة المهبل. ويؤكد علماء غربيون معاصرون مختصون في علم الجنس أن كل هزَّات الجماع لدى النساء تحدث عبر الاستثارة البظرية، وبالتالي فإن بتر البظر يتسبب ليس فقط بالآلام وإنما بالحرمان

(*) لا يوجد ما يؤكد على أن ختن البنات (بتر البظر) من السنة النبوية، إذ لا يُمارس في بلدان عربية إسلامية كثيرة؛ والمرجح انه عادة أفريقية قديمة. (الناشر).

من بلوغ الرعشة الجنسية، ولذلك دأب بعض الأطباء المسلمين المعاصرين والنساء المثقفات في بلدان شرق المتوسط على المطالبة بإلغاء الختان الأنثوي بكافة أشكاله، إلا أنه غالباً ما تبرز ضغوطات اجتماعية متعاظمة على الأهل من أجل الاستمرار في إجراء العمليات لبناتهم[3].

عُدّت الطهارة أو الاغتسال بعد ممارسة الجماع أمراً مهماً في الإسلام، وقيل إن محمداً قد عبّر عن ذلك بقوله: «الطهور نصف الإيمان»(*). كما نُقلت أقوال كثيرة عن قواعد قضاء الحاجات الحيوية، والتي تتطلب الوضوء بعدها. ونقل عن الخليفة عمر قوله إنه ينبغي على الرجل أن يتوضأ بعد تقبيل أو لمس زوجته، لأن هذه الممارسات لها صلة بالممارسة الجنسية. لكن عائشة ذكرت «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبّل بعض نسائه ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ»(**)؛ إلا أن هذا كان موضع خلاف[4].

قيل إن الاغتسال ضروري إذا تمدَّد الرجل فوق زوجته حتى دون أن يأتيها، مع ذلك ورد في حديث شريف آخر أن الاغتسال واجب فقط عندما يحدث القذف. وقالت عائشة إن النبي كان يغتسل بعد القذف، وبعدئذٍ يتوضأ حسب الأصول الطقسية كما لو بقصد الصلاة، ونُقل عن عائشة قولها(***): «كنت أغتسل أنا والنبي صلى الله عليه وسلم من إناء واحد فأبادره وأقول: دع لي دع لي»[5].

كما نُقِلَ عن النبي أنه رأى رجلاً يغتسل عارياً في مكان عام، فصعد المنبر، وبعد أن سبَّح الله، قال: «إن الله عز وجل حيي ستير، فإذا أراد أحدكم أن يغتسل فليتوار بشيء»(****). وثمة حديث آخر يقول: «إياكم والتعري فإن معكم من لايفارقكم إلا عند الغائط وحين يفضي الرجل إلى أهله فاستحيوهم

(*) مسند الإمام أحمد بن حنبل. الناشر.
(**) رواه أحمد والترمذي وأبو داوود وابن ماجه. الناشر.
(***) ورد في صحيح مسلم والبخاري ومسند الإمام أحمد. الناشر.
(****) رواه الإمام أحمد وأبو داوود والنسائي. الناشر.

وأكرموهم»(*). فالعادات الإسلامية في الاغتسال وقضاء الحاجة سرّاً ودون تعرٍّ مستندة أساساً إلى هذا الحديث وأحاديث نبوية أخرى. وكان التبوّل ممنوعاً في المساجد والأماكن العامة، وإذا ما وطئ شخص نجاسة بحذائه كان يستخدم التراب في تنظيفه[6].

روي عن عائشة أن امرأة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن غسلها من المحيض؛ فأمرها كيف تغتسل. قال: خذي فرصة من مسك فتطهري بها. قالت كيف أتطهر؟ قال: تطهري بها. قالت: كيف؟! قال: «سبحان الله! تطهري» فاجتبذتها إلي (أي إلى عائشة) فقلت تتبعي بها أثر الدم(**).

ولكن السنة النبوية حول هذا الموضوع تبدو أنه أقل تشدّداً مما هو الحال في أعراف اليهود أو الوثنيين فقد عُرف عن اليهود أنهم لا يأكلون أو يسكنون مع المرأة الحائض، وقيل إن النبي علّق على ذلك قائلاً: «اصنعوا كل شيء إلا الجماع»(***). كما نُقِلَ عن عائشة قولها: «إذا كان ذلك (أي الحيض) من إحدانا ائتزرت بالإزار الواسع ثم التزمت رسول الله بيديها ونحرها»، وقالت «كنت أشرب وأنا حائض وأناوله النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على موضع فيَّ فيشرب»، «وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع رأسه في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن»(****). ويحصل أن كان يتناول مفرش الصلاة من يدها قائلاً أن حيضها ليس في يدها.

عُدَّ الجماع خلال فترة المحيض كفراً، إلا أن عقوبته اقتصرت على الكفّارة. أما تدفق الدم المتواصل فلا يُعدّ حيضاً، وبالتالي يمكن أن تستمر الصلاة في حالة كهذه، بينما ينبغي أن تُعلَّق الصلاة خلال فترة الحيض الطبيعي، لأن الصلاة الإسلامية لا تفترض ذكر الله وحسب، بل والاغتسال والركوع والسجود أيضاً[7].

(*) رواه الترمذي. الناشر.

(**) صحيح البخاري ومسلم والنسائي وأحمد وغيرهم. الناشر.

(***) ورد في سنن ابن ماجة. الناشر.

(****) رواه الإمام أحمد والنسائي وله صيغ عدة. الناشر.

أما بصدد الزواج فكان هنالك أحاديث نبوية عديدة، وقد نُقل عن النبي أنه أعلن صراحة: «إن الدنيا كلها متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»(*). كما أنه كان يمقت التبتّل، وورد في أحد أحاديثه الشريفة: «لم أؤمر بالرهبانية، إن من سنتي أن أصلي وأنام وأصوم وأطعم وأنكح وأطلق فمن رغب عن سنتي فليس مني»(**). وأشار القرآن الكريم إلى درجة من «الرأفة» و«الرحمة» في قلوب أتباع عيسى ابن مريم، إلا أنه تحدَّث عن ﴿رهبانية ابتدعوها﴾ (الحديد 27). ولذلك طالبت الأحاديث النبوية الشبابَ المسلم بضرورة الزواج تجنباً للفسوق وروي عن الرسول قوله: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»(***).

ونُقل عنه أيضاً قوله: «تزوَّجوا الودود الولود»(****). وعن جابر بن عبد الله قال: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتزوجت؟ قلت: نعم. قال: بكراً أم ثيباً؟ فقلت: ثيباً. قال: أفلا بكراً تلاعبها وتلاعبك»(*****). وذُكر أنه قال: «عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواهاً وأنتق أرحاماً وأرضى باليسير»(******)(5).

في العصر الجاهلي، وفي مرحلة الإسلام الأولى، كان بعض العرب يمارسون طريقة الجماع المعوق(*******) التي لم تكن محظّرة. وقد قيل إن الإغريق والفرس كانوا يمارسون ما يدعى الإنسحاب (الانكفاء) دون أذى، وقد لوحظ

(*) صحيح مسلم. الناشر.

(**) رواه الدارمي. الناشر.

(***) صحيح البخاري ومسلم. الناشر.

(****) رواه أبو داود والإمام أحمد في مسنده. الناشر.

(*****) سنن أبي داوود والبخاري ومسلم وغيرهم. الناشر.

(******) سنن ابن ماجة. الناشر.

(*******) وردت في اللاتينية Coitusinterruptus وهي أقرب شبهاً للجماع المحترس من زاوية الغاية، وتعني التوقف لمنع حدوث القذف، أو القذف خارج المهبل أو ما يُدعى «العزل». م.

أيضاً أن نساءهن كن يُرضعن أطفالهن وهن حوامل دون التسبب بأي ضرر. وروي أن رجلاً ذهب إلى النبي يخبره أنه وطئ جاريته العذراء ولا يريد لها أن تحمل منه، فسُمح له بممارسة الانكفاء، لأن ما قدَّره الله لها سوف يتحقق. وبعد أن سبى المسلمون بعض النساء العربيات رغبوا في ممارسة الجماع المعوق معهن، إلا أن أحدهم استشار النبي في الأمر فأجابه: «إذا أراد الله أن يخلقه لم تستطع أن ترده»(*). كان الإيمان بالقضاء والقدر هو أحد العناصر الدينية البارزة لدى النبي، وهذا المبدأ ينطبق على موضوع تحديد النسل الذي يُمارس في وقتنا الراهن، ويلقى معارضة من قِبل الكثير من المسلمين[9].

ثمة أحاديث نبوية كثيرة حظَّرت على الرجال إتيان النساء من الخلف، أي في أدبارهن، وقد تم اقتباس آية قرآنية بهذا المعنى: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم وقدّموا لأنفسكم واتقوا الله...﴾ (البقرة 223) ثم جاءت الأحاديث النبوية لتضيف: «ملعون من أتى امرأة في دبرها»، و «لا ينظر الله عز وجل إلى رجل جامع امرأته في دبرها»(**). وثمة نص يقول: إن من يأتي امرأته من الخلف، عبر المهبل، سيولد له طفل أحول[10](***).

طُولِبَ الرجال بالتعامل مع النساء باحترام، ذلك أنهن خلقن من ضلع آدم، وإذا ما حاولت أن تقوّم ضلعاً ملتوياً فستكسره. ولا يجوز ضرب المرأة كما لو أنها جارية، ثم إخضاعها للجماع؛ ولكن حين يستدعي رجل زوجته من أجل إشباع شهوته الجنسية، يتوجب عليها أن تستجيب حتى ولو كانت منشغلة بالتنور. ومن جهة أخرى لا يجوز للمرأة أن تتحدَّث لأحدٍ عن شؤونها الزوجية. وحين سئل النبي عن الحقوق التي للمرأة على زوجها أجاب: «أن

(*) مسند الإمام أحمد بن حنبل والبخاري ومسلم وغيرهم. الناشر.

(**) روى أحمد وغيره الحديثين، وروى الثاني ابن ماجة وأبو داوود وغيرهما. الناشر.

(***) ربما ثمة خطأ ما في إسناد النص المعني فقد ذُكِرَ أن هذا القول جاء على لسان أحد اليهود مخاطباً المسلمين. عن تفسير الطبري ـ الجزء الرابع، في حين أنه يُسند هنا إلى مشكاة المصابيح. م.

تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت أو اكتسبت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح (أي أن تقول قبحك الله) ولا تهجر إلا في البيت»(*).

أما عقوبات الزنى فكانت صارمة؛ ومن المعروف أن القرآن قد قضى بجلد كل من الآثمين مئة جلدة. لكن قسوة الشريعة اليهودية كما يبدو، تسببت في بعض المشكلات. وقد قيل إن بعض اليهود جاؤوا إلى النبي وأخبروه بأن رجلاً وامرأة من جماعتهم اقترفا الزنى، فسألهم عن الرأي التوراتي في ذلك. فقال فريق منهم إنه ينبغي أن يضربا على نحو متكرر وموجع، فيما أعلن فريق آخر أنه ينبغي أن يتمددا على الأرض ويعاقبا بالموت رجماً. وحينئذ طالب محمد بإحضار التوراة، وحين قرئت الآية المتعلقة بالرجم، أمر بأن تنفّذ العقوبة. على أية حال، ورد في نص آخر أن محمداً ميّز بين نوعين من الزّنى، أحدهما يقترفه غير المتزوجين، ويعاقبون بالجلد مئة جلدة والنفي لمدة عام، والآخر بين المتزوجين الذي يعاقب عليه بالجلد حتى الموت[11].

ثمة أحاديث كثيرة رويت عن رجال اعترفوا له بارتكابهم الزنى، وروي أن أحدهم جاء إلى النبي وهو في المسجد واعترف له بأنه اقترف الزنى؛ فأشاح محمد بوجهه عنه، لكن الرجل داور فالتقاه ثانية وكرَّر اعترافه. فانصرف عنه النبي مرة أخرى وثالثة، إلى أن اعترف الرجل للمرة الرابعة، فبادره النبي: «أَوَأنت مجنون؟» ولمَّا نفى الرجل أن يكون كذلك، سأله النبي ما إذا كان متزوجاً؛ وعندما أقرَّ بأنه متزوج، أمر النبي برجمه حتى الموت، وحين آلمه الرجم، ولَّى الأدبار، لكنّ منفّذي الحكم أمسكوا به وقتلوه. عندئذ امتدحه النبي وصلّى عليه[12].

عَمِلَ محمد، فيما يخص القوانين المتعلقة بهذا الشأن، على تلطيفها بالرحمة. فقد روت عائشة عن النبي قوله: «ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له سبيل فخلّو سبيله، فإن الإمام يخطئ في العفو خير من أن

(*) رواه أبو داود والإمام أحمد في مسنده. الناشر.

يخطئ في العقوبة»(*). إن موقفاً كهذا استبق الاعتراضات الحديثة على عقوبة الإعدام انطلاقاً من المكانية الطبيعية لوقوع الأخطاء وتعذُّر إلغائها.

إن بعض الدول الإسلامية التي تسعى في العصر الحديث إلى اتّباع الأصولية المتشددة، تستأنف تطبيق الأحاديث النبوية الشريفة، من مثل عقوبة الرجم للزنى. مع أن قوانين كهذه، حسبما تزعم الصحافة الغربية أحياناً، ليست واردة في القرآن، وإنما في الأحاديث النبوية المتعددة والمتنوعة، والمختَلف في صحتها. أما مدى أهمية هذه الأحاديث، وما إذا كان ينبغي العمل بها اليوم، فتلك قضايا تثير جدلاً واسعاً في البلدان الإسلامية. وثمة أصوات تطالب بضرورة «العودة إلى القرآن»، بدلاً من الأحاديث الشريفة، وعلى حدِّ زعْمِ أحد الأساتذة المصريين فإن القيمة التي تكتنفها الأحاديث الشريفة لهي أشبه بحفنة من الذهب في وسط كومة من القش. مع ذلك فإن الأحاديث الشريفة وما رافقها من تفسيرات قانونية على يد فقهاء المسلمين هي التي كانت سائدة في معظم نواحي الحياة الإسلامية في الماضي، وكان لها تأثيرها الكبير على القضايا المتعلقة بالجنس.

الجنس في الأدب:

بمعزلٍ عن الأحاديث الشريفة وتفسيراتها التي قدَّمها فقهاء الشرع، فقد ظهرت أعمال أدبية إسلامية ضخمة تناولت كل جوانب الحياة. واتسعت صناعة الأدب عندما امتد الإسلام ليشمل كامل منطقة الشرق الأوسط، ويمكن لَحْظُ هذا الامتداد في تاريخ العرب والفرس وفي الأنواع الأدبية الأخرى التي تعدُّ آلاف الأعمال التي تخلو من أية إشارة واضحة إلى الجنس، رغم وروده في مؤلفات كثيرة أخرى.

بعد انقضاء عهد الخلافة الراشدية انتقل مركز الإمبراطورية الإسلامية من المدينة المنوَّرة إلى مدينة دمشق، حيث ظلّت عاصمة الخلافة الأموية لمدة قرن

(**) رواه الترمذي منفرداً به. الناشر.

تقريباً (660 - 750)، ثم انتقل بعدئذ إلى بلاد الرافدين في ظل الخلافة العباسية التي حكمت لما يزيد عن خمسمئة عام(*). وأُنشئت مدينة بغداد الجديدة وازدهرت من لا شيء إلى مركز عالمي للثروة والثقافة لا يضاهيها سوى عاصمة الإمبراطورية الرومانية الأرثوذكسية (الشرقية)، مدينة القسطنطينية، التي كانت تربطها بها علاقات دائمة. وقد شهدت بغداد أوج تألقها في عهد الخليفة العباسي الشهير هارون الرشيد (170 - 193 هـ/ 786 - 809م). فالقصر الإسلامي الرائع والأجنحة الملحقة به، المخصّصة للحريم والخصيان والموظفين، كان يحتلّ ثلث مساحة المدينة، إضافة إلى عشرات الآلاف من الستائر والسجّاد ووسائل الترف التي لم تكن معروفة عملياً في أوروبا الغربية في ذلك التاريخ. وفي حين كان الخليفة هارون الرشيد يدرس الفلسفة الفارسية والهندية، كان معاصره شارلمان، إمبراطور الغرب (742 - 814) يحاول تعلُّم كتابة اسمه. كثيرات هن النساء اللواتي كن يعشن حياة ملؤها السحر والفتنة، على الأقل من عليّة القوم، حتى أن زوجة الخليفة وابنة عمه، زبيدة، ما كانت لتقبل أن توضع على مائدتها سوى الأواني المصنوعة من الفضة أو الذهب أو المرصّعة بالجواهر. وهي أول من ابتدع فكرة تزيين الأحذية بالأحجار الكريمة. أمّا منافستها عُليّا فكانت تغطّي ندبة على جبينها بعصابة مطرّزة بالحلي، أصبحت أيضاً نموذجاً لزيّ لاحقٍ.

شكّل بلاط هارون الرشيد خزّاناً من الحكايات الظريفة النادرة، وقصص الغرام التي نهلت منها حكايات ألف ليلة وليلة الشهيرة(**)، رغم أنها لم تكتمل على مدى قرون. وهي تستند إلى مصادر كثيرة، كان أحدها كتاب فارسي قديم يحكي عن ملك كان من عادته أن يتزوج امرأة لليلة واحدة ويقتلها في

(*) امتدت الخلافة العباسية من 750 - 1258م. م.

(**) مجموعة حكايات خيالية وُضِعت بين القرن الثالث والرابع عشر وعددها 264 حكاية ترويها السلطانة شهرزاد لأختها دنيازاد في حضرة الملك شهريار خلال ألف ليلة وليلة سمر. وفيها التنويه بوقائع تاريخية وعوائد وأخلاق تلك الأزمنة. المنجد في الأعلام.

الصباح التالي. وقد أضيفت إلى هذا الكتاب قصص كثيرة، بعضها ذو منشأ بغدادي يتطرق إلى إبراز هارون الرشيد، وبعضها ذو منشأ قاهري (القاهرة)، إضافة إلى الكثير من القصص الهندية واليونانية والمشرقية الأخرى من كل صنف ولون.

ويفتتح الكتاب بدعاء إلى الله؛ بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله، والسلام على سيّد المرسلين، محمد، والصلاة والسلام على أصحابه أجمعين(*). ثم تُروى بعدئذ المغامرات الجنسية بتلقائية، وعلى مسمع الطبقات العليا والدنيا من البشر. وتحكي القصة الأولى بالفعل عن زوجة الملك التي وُجِدتْ مستلقية على سريرها، يعانقها عبد أسود؛ وفي مملكة مجاورة تظهر الملكة عارية بين عبيدها وجواريها العراة، يعانقها زنجي ضخم البنية وقد أدار ظهرها إليه وراح يمتّع نفسه بها. وتنتهي هذه العربدات بقطع رؤوس الجميع، ويأمر الملك وزيره بأن يجلب له كل ليلة فتاة عذراء، فكان يغتصبها ثم يقتلها عند الفجر. وقد استمر ذلك لثلاث سنوات حتى فرَّ الناس مع بناتهم، لكن شهرزاد، ابنة الوزير، وبحكم حصافة عقلها، أبدت استعدادها قائلة لأبيها: «بحق الله يا أبتِ، زوّجني لهذا الملك؛ فإما أن أبقى على قيد الحياة، وإن متّ فسأكون فدية لبنات المسلمين». وراحت تقصّ الحكايات للملك بحيث كانت تقطع سردها للحكاية عند نقطة تغوي الملك باستبقائها على قيد الحياة كي تكملها في الليلة التالية. والفكرة الأساسية هي مكر النساء: «إننا معشر النساء، إذا رامت إحدانا أمراً ما، فلا يمكن لشيء أن يحول دونها وتحقيقه».

على الرغم مما تشتمل عليه حكايات ألف ليلة وليلة من مغامرات جنسية، وتصوّر النساء غالباً وهن يتمتعن بالجنس كما الرجال، فإنها ليست بأية حال مرجعاً جنسياً، وإنما هي انعكاس للحياة والخيال الجامح المتحرر من كل قيد.

(*) بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، صلاة وسلاماً دائمين متلازمين إلى يوم الدين، وبعد... ألف ليلة وليلة ـ المجلد الأول ـ دار العودة ـ بيروت.

فقد كان هنالك مراجع مختصة بمواضيع الجنس، وفي مصر على وجه الخصوص، حتى أن العلّامة والمؤرخ (جلال الدين السيوطي) نُسب إليه، ربما خطأً، تأليف كتاب «تفسير علم الجماع» الذي يُسْتَهلُّ بدعاء: «الحمد لله الذي زيَّن صدور العذارى بالنهود.....». وثمة عناوين أخرى لأعمال شهوانية من مثل: كتاب الزفاف والعرائس، كتاب العذارى، أسرار المتع الزوجية، خلاصة اللذّة، أوّليات طرائق الجماع. وقد بيّنت هذه الكتب كيف يمكن للرجال والنساء أن يحققوا المتع عبر الجنس، وقدمت توجيهات بصدد تنويع طرائق الممارسة الجنسية للمتزوجين، كما هو الحال في الكتاب الهندي أنانجارانجا «منزلة إله الحب»، رغم أنها غالباً ما ترصد مغامرات أوسع لشركاء متنوعين (ليسوا أزواجاً بالضرورة). وقد تمت ترجمة أعمال هندية مثل (الكاما سوترا) وأُرفقت بإيضاحات كي تُستخدم من قبل المسلمين.

إن المؤلفات الإسلامية حول الجنس، مثلها مثل الكتب التي تتناول معظم المواضيع الأخرى، تُفتتح بتوجيه الحمد والشكر إلى الله الذي أنعم على البشر بمتعٍ كهذه. ولكن القضية مثار النقاش هي إلى أي حد تتجاوز هذه المؤلفات حدود المتعة الجسدية والروحية للاتصال الجنسي لتصل إلى الاتحاد الصوفي الذي صورته الكتب الهندية والصينية. ويعلن أحد العلماء في الشريعة الإسلامية بصورة قاطعة أنه «على الرغم من كون الزواج واجباً دينياً، إلا أنه، بكل تأكيد، ليس سرّاً مقدَّساً. وليس ثمة أسرار مقدَّسة في الإسلام»[13]. وهذا بحد ذاته قد يكون موضع جدل بالمعنى الواسع للأسرار المقدسة؛ ولكن من الممكن أيضاً أن يتّخذ منحى آخر متطرفاً ليشتمل على علم الجنس الإسلامي جنباً إلى جنب مع الهندي والصيني فيما يتعلق بالتصنيفات المقدسة أو الصوفية، مع ذلك يقول كاتب غربي آخر:

إن المراجع التعليمية لعلم الإثارة الجنسية في المشرق تقدّم الحب، بمعنى ما، على أنه سرٌّ مقدَّس، وتنظر إلى العملية الجنسية على أنها ليست وسيلة للإنجاب وحسب، وإنما متعة مفيدة للصحة (بل شافية). وهي تعتبر الجماع، في أرقى

وأنقى مستوياته، فِعْلَ عبادة بالمعنى العملي، وأحياناً بالمعنى الحرفي، للكلمة. وقد عبَّر أحد الشعراء العرب بشكل مثالي عن هذا الإجلال الأصيل الذي يتضمن موقفهم: «العيون بوابات الروح، عبرها يدخل الحب ثم ينتشر في أنحاء النفس كلها». وهكذا، فيما يخص المشرقي، ترمز رعشة الجماع إلى نشوة الروح الممسوسة، أو المتحدة بالله[14].

ولكن ينبغي ألا نعمِّم تعبير «المشرقي»، فهنالك خلافات واسعة بين مذهب وحدة الوجود(*) الذي يعتنقه الهنود، والمذهب التوحيدي(**) الصارم للإسلام الحنيف. كما أن فكرة التوحّد مع الله بغيضة على الكثيرين من المسلمين الذين يَنشدون فقط الخضوع إلى المشيئة المطلقة لله. ومن غرائب تاريخ الصوفية أن الصوفيين الإسلاميين أفلحوا إلى حد ما في تجسير الهوة الفاصلة بين الله والإنسان. ولسوف يجري التنويه لاحقاً ببعض المؤلَّفات الصوفية، ولكن ينبغي فهم المراجع الإسلامية حول الجنس على أنها مناقضة للخلفية التوحيدية أكثر مما هي معارضة لمذهب وحدة الوجود.

في القرن السادس عشر كتب (شيخ النفزاوي) من تونس «الروض العاطر لبهجة الخاطر»، ويشتمل على قصة غرامية خيالية وإرشادات جنسية. ويُفتتح بالدعاء المعهود: «الحمد لله الذي جعل اللّذة القصوى للرجل في الأعضاء الطبيعية للمرأة، وقدَّر أن تمنح الأعضاء الطبيعية للرجل المتعة القصوى للمرأة». لكن الكتاب، في سياقه اللاحق، ينفي أن تكون المرأة قادرة على الشعور باللّذة إلّا إذا طاف بها الذكر، ويؤكّد أن الرجل لايعرف الراحة والهدوء ما لم يتّحد بالمرأة. وقد وُصف الجماع على أنه أشبه بصراع ممثّلين. إن الشفاه منحة من الله، وكذلك النهود والعيون والسرَّة، وبصورة خاصة «مساحة المعركة» التي ورد وصفها بتفاصيل مسهبة: «فلنحمد الله ولنمجّده، فهو الذي خلق المرأة

(*) Pantheism - وحدة الوجود: المذهب القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد وبأن الكون المادي والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية.

(**) Monotheism: التوحيد: الإيمان بإله واحد. المورد.

ووهبها الجمال وجعل جسدها مثيراً للشهوات... وأنا، العبد الفقير لله، أرفع له الشكر على أن لا أحدَ يمكنه تفادي الوقوع في عشق امرأة جميلة».

ويواصل كتاب «الروض العاطر» عرض مواضيعه، وقِصصه المشابهة لحكايات ألف ليلة وليلة. وبعد بحث موجز للخصائص البدنية التي تتطلّع النساء إلى توفُّرها لدى الرجال، تُروى حكاية مفعمة بالتصوير الحي للمضاجعات التي تتم بين مهرّج البلاط وزوجة الوزير حمدونة التي تطارحه المتعة بالكفاءة ذاتها. ثم يلي ذلك وصف لامرأة فاتنة، وقصة زنجي يسعى لإغواء زوجة الوزير وينتهي به الحال إلى بتر أوصاله وإعدامه. وثمة أجزاء إضافية تناقش أنواع الرجال والنساء على اختلافها، وتورد دعاء يلتمس لامرأة حامل أن تتمخَّض عن وليد ذكر. ثم تعدِّد إحدى عشرة وضعية للجماع، وخمساً وعشرين أخرى قيل إنها كانت معتمدة من قِبل الهنود الذين «تقدَّموا علينا كثيراً في معرفة فن الجماع وخباياه»، كما تبيّن ضرورة ممارسة الكثير من الحركات النشطة خلال الجماع. كما يتضمن الكتاب أجزاء أخرى تتناول بعمق القضايا المؤذية للجماع، وتعدِّد خمسة وثلاثين اسماً لعضو الرجل، وثمانية وثلاثين لعضو المرأة، وأسماء الأعضاء الذكرية للحيوانات. وثمة حكايات تقدِّم أمثلة عن حِيَل المرأة وأفعالها الخيانية، وأسباب العقم والإجهاض والعنَّة، والحجوم الصغيرة للأعضاء الذكرية، والروائح الكريهة، ومعلومات عن جنس الجنين، واستخدام البيض بوصفه مفيداً للجماع. وتحتوي النسخ العربية على فصل يتعلق باللواطة، إلا أنه محذوف من معظم الترجمات الأوروبية. ويُختتم الكتاب ككل، بما يشبه إلى حدٍ ما خاتمة كتاب «حكايات كانتربري» لِـ (تشوسر)(*)، بدعاء إلى إله يتوسل فيه المغفرة: «اللهم رب أستغفرك الذنبَ يوم الدين على كتابي هذا». وهذا يؤكد أن الكتاب كان عملاً شهوانياً أو من بنات الخيال وليس نوعاً من التأمّل الصوفي.

(*) جيفري تشوسر (1340 - 1400) شاعر انكليزي، يعتبر أبرز الشعراء الانكليز قبل شكسبير. المورد.

الرمزية الصوفية:

لقد قدَّم القرآن صوراً ذهنية عن الجنة أو جنة عدن عبر تخيلات مادية أقرب شبهاً إلى تصورات الحياة الآخرة (البعث والحساب) لدى الزرادشتيين واليهود والمسيحيين. إلّا أن القرآن مضى أبعد من ذلك في بعض المواضع مجازاة للمؤمنين وازدراء بالكَفَرَةِ(*). فالمنعمون في الجنة يتكئون على أرائك مرصَّعة بالجواهر، ويطوف حولهم فتيان مخلّدون، حاملين كؤوساً وأباريق وقدحاً طافحاً بالخمر (المحرَّم على المسلمين في الأرض)، يترعون منه فلا يصيبهم صداع ولا سُكْر.

وتُعدّ الحوريات (الحور) أكثر حضوراً، ومعنى الحور أي «البيضاوات» أو «حور العين»، وهُنَّ عذراوات بحدقات شديدة السواد يحيط بها بياض صارخ لإبراز حدة التباين. وقد ورد ذكر الحوريات في القرآن أربع مرَّات(**)، وثمة سورة أو سورتان تصوّرهن رفيقات دائماً للظافرين بالجنة. وهن ﴿كأمثال اللؤلؤ المكنون. جزاءً بما كانوا يعملون﴾. جُعلن ﴿... أبكاراً. عُرُباً أتراباً﴾، كاللؤلؤ المخبوء أو كالياقوت والمرجان، كاعبات حسان، لم يطأهن أنس ولا جان، ملازمات لأجنحتهن، غاضّات الطرف، خَفِرات(***).

هذه الآيات موجودة كلها في السور القرآنية التي نزلت في الفترة الأولى للإسلام، في مكة كما يؤرِّخ لها عادةً. وأوحى بعض العلماء غير المسلمين أن فكرة عذراوات الجنة قد جاءت من الزرادشتية أو من التجسيدات المسيحية لأشكال الملائكة، التي غالباً ما تبدو أنثوية. لكن الحوريات في الإسلام يشكّلن

(*) المقطع مقتبس إيحاءً دون إشارة اقتباس، ولذلك أبقيناه كما هو دون إسناد. م.

(**) في سور: الصافات، الدخان، الرحمن، والواقعة. م.

(***) اقتبس المقطع الوارد أعلاه بتصرف من سورتي الواقعة والرحمن ـ ﴿وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. جزاءً بما كانوا يعملون... فجعلناهن أبكاراً. عرباً أتراباً﴾. سورة الواقعة ـ الآية 22 ـ 23 ـ 24 ـ 36 ـ 37. ﴿كأنهن الياقوت والمرجان... فيهن خيرات حِسان.. لم يطمثهن أنس قبلهم ولا جان... حور مقصورات في الخيام.. قاصرات الطرف...﴾. سورة الرحمن ـ آية 58 ـ 70 ـ 74 ـ 72 ـ 56 ...م.

في الحياة الآخرة امتداداً للمتع الحسيّة في الحياة الدنيا، وخدمة العذارى للرجال. وقد أسهب الأدب الإسلامي اللاحق في تقديم التفاصيل عن الحوريات؛ إذ أنهن من الشفافية إلى حد أن نقي عظامهن يُرى من خلال سبعين طوقاً من الحرير.... إلّا أن مفسّرين إسلاميين فقهاء يقولون إنه على الرغم من أن لنساء الجنة أسماء مماثلة لمكافئاتهن الأرضية عموماً، مع ذلك كان هذا فقط «من قبيل الدلالة المجازية والمقارنة، دون تطابق فعلي».

في بعض السور القرآنية المدنية (نزلت في المدينة) اللاحقة، ومع تطور النظام اللاهوتي، ثمة ذِكْر لِـ «الزوجات الطاهرات» في الجنة، وليس واضحاً فيما إذا كنَّ هن الحوريات أنفسهن أو زوجات المسلمين، المؤمنات في الحياة الدنيا. على أية حال، يخطئ من يظن أن النساء لا يدخلن الجنة حسب المعتقد الإسلامي، فإن هناك إشارات صريحة في القرآن على أن المؤمنين، رجالاً ونساءً وأطفالاً يدخلون الجنة عائلاتٍ: ﴿جنات عدنٍ يدخلونها ومن صَلَح من آبائهم وأزواجهم...﴾(الرعد 23) وأيضاً: ﴿ربنا وأدخلهم جنّات عدنٍ التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم...﴾ (غافر 8) ويدخل الرجال وزوجاتهم الجنة بكامل زينتهم، ويتكئون على الأرائك تحت الظلال، ويأكلون من الثمر ما يشتهون. ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات... والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعدَّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾(الأحزاب 35)

إن الصوفية التي يمكن تعريفها على أنها توحُّد مع الله أو مع الحق المطلق، تطوَّرت فعلاً في الإسلام على الرغم من التغاير الصارخ بين الله والإنسان في اللاهوت الأصولي. وكما يعبِّر أحد الكتّاب أنه مادام الله وحده القادر على إلغاء المسافة اللانهائية بينه وبين الإنسان، يمكن له أن يفعل ذلك وفقاً لمشيئته الكلية. وثمة من يرى تأثيراً هندياً في وحدة الوجود الفعلية أو التماهي مع الذات الإلهية التي عبَّر عنها بعض المتصوِّفة المسلمين.

إن حب الله للإنسان، وحب الإنسان لله، الذي ظهر إلى حد ما في القرآن، سرعان ما أصبح الموضوع الأساسي عند المتصوفين الإسلاميين. كانت رابعة العدوية من أقدم المتصوفين(*) وقد ظلّت بتولاً ولُقِّبت «مريم العذراء الثانية»، وكانت تخاطب الله كما لو أنه رفيق لها وحبيب قلبها. مع ذلك، ففي حين يمكن تأويل مشاعر كهذه بوصفها تصعيداً للدوافع الجنسية، إلا أن قدراً ضئيلاً فقط من الرمزية الجنسية يظهر في مذهبها.

يمكن قول الشيء نفسه تقريباً عن متصوفين إسلاميين آخرين استخدموا لغة الحب، إلا أنهم لم يكتبوا بالأسلوب الشهواني حتى في أشعارهم العشقية الأكثر تصريحاً بالجنس. فقد كتب (سعدي الشيرازي)(**) في القرن الثالث عشر قصائد صوفية في ديوان (البستان وبستان الأزهار)، والتي يعتقد أنها استخدمت الرمزية كما في (الروض العاطر)، إلا أن أشعاره كانت عظات للورع الشخصي والاجتماعي، إضافة لبعض القصائد التي تصور الافتتان بحب الله، وحكايات توضيحية مُبسَّطة. راقصة أحرقت تنورَتها نارُ الشمعة، فأبلغها أحد عشّاقها ألّا تأبه، لأن نار عشق الله قد أودت بحياته.

ربما كان حافظ الشيرازي(***) الفارسي أشهر مؤلّف قصائد عشق ذات مغزى روحي في القرن الرابع عشر. تغنّى بمعشوقته، بسيدته، وبنار الحب الحقيقية، وخمرتها الصهباء المشتعلة؛ ولكن بغض النظر عما إذا كان حباً بشرياً

(*) رابعة العدوية (؟ - 801 ميلادية): امرأة من البصرة كانت تعزف بالمعازف. تنسّكت فأدخلت على التصوف فكرة الحب الإلهي بدلاً من الخوف والرهبة. المنجد في الأعلام - مجلة التراث العربي.

(**) سعدي الشيرازي (نحو 1193 - 1291) شاعر وناثر إيراني كبير. ولد في شيراز. تعلّم في نظامية بغداد. كان من مريدي عبد القادر الجيلاني. له «بوستان» و«غلستان» و«الديوان» وقد نقلت إلى لغات عديدة. المنجد في الأعلام.

(***) حافظ الشيرازي (شمس الدين محمد) (نحو 1320 - 1389)، ولد في شيراز. شاعر غنائي فارسي، عفيف في وصف مشاهد الحب. جمعت أشعاره في «ديوان حافظ». المنجد في الأعلام.

أو إلهياً فليس ثمة وجود لتلك اللغة الجنسية التي ترد في الكتب الشبقية الحقيقية.

فيما يخص الغرب فإن عمر الخيَّام(*)، الرياضي والشاعر الفارسي الذي عاش في القرن الثاني عشر، يبدو لهم شاعر الحب والخمرة فقط، رغم أنه كان يعدُّ في بلده متصوّفاً من الدرجة الثانية. محدِّقاً إلى كوزه، تذكَّر عشقه، إلا أنه تذكّر أيضاً مظهر الحياة الزائل، وتداعيه كليّاً إلى هباء:

كان هذا الكوز مثلي عاشقاً والِهاً في صدغ ظبي أغيد
وأرى عروَتَه كانت يداً طوَّقت جيدَ حبيب أغْيد

ويقول في الرباعية الأكثر شهرة:

إن نلتُ من حنطة رغيفاً وكوزَ خمرٍ وفخذَ شاةِ
وكان إلفي معي بِقَفْزٍ فُقْتُ بذا عيشةَ الولاةِ[15](**)

تحسبها نزهة شهوانية، إلّا أن الخبز والخمر كانا رمزين دينيين، أما كتاب الشعر فيمكن أن يكون أغاني كالتي يؤلّفها المتصوفون الذين غالباً ما يختارون الصحراء معتزلاً لهم. أما الضمير «أنت» فلعلَّه معشوق بشري، أو الإله نفسه، أو، كما يرد في رباعية لاحقة، أنه عندما يسقط الحجاب، يمّحي التمايز بين الذات والموضوع «ولا يبقى ثمة أنت وأنا». وهذا ينطوي على دلالة جنسية في لَبوسٍ من الغموض والرمزية فقط؛ وإذا كان لهذا علاقة، أية علاقة، بالعناق الجنسي لشيڤا وشاكتي أو لليانغ والين فإنها علاقة بعيدة.

(*) عمر الخيام (1048 (1051) - 1132) عالم وشاعر فارسي رقيق. ساهم في إصلاح الحساب السنوي الفارسي 1074 . له «مشكلات الحساب» و«الجبر والمقابلة» وله في الشعر «الرباعيات» - المنجد في الأعلام.

(**) أخذت الترجمة حرفياً عن «رباعيات عمر الخيام» تعريب أحمد الصافي النجفي. لكن الرباعية الثانية وردت في النص الأصلي (الانكليزي) بشكل مغاير، فارتأينا ترجمتها نظماً:

وأنا في فيءِ غصنٍ مع رغيفي وكتابُ الشعر والكوزُ ارتوائي
وبقربي أنتَ في القفر تغنّي فيصيرُ القفرُ فردوسَ السماءِ

وضـعُ الـمــرأة

آ ـ ما قبل الإسلام وبداياته:

إن النساء في بداية الإسلام وربما في الجاهلية إلى حدّ ما كُنَّ يتمتعن بحرية واستقلالية أكبر بكثير مما صرن عليه في المجتمعات اللاحقة. فقد وجد في الجاهلية نظام العائلة الأمومي الذي يُعتمد فيه النسب عبر خط الأم، وتُحكَم المرأة بأسرتها الخاصة لا بزوجها. وكان بوسع المرأة أن تختار زوجها، وأن تعود إلى عائلتها إذا أُسيئت معاملتها. وأحياناً كانت المرأة تعرض نفسها للزواج، وهذا ما فعلته بالضبط زوجة محمد الأولى، خديجة، مع النبي الذي كان فقيراً ويتيماً رغم انتمائه لعائلة من وجهاء القوم.

لقد تغنّى الشعر البدوي بنبالة وإخلاص النساء، واستلهم الفروسية، حيث كان يهب الفرسان للذود عن شرفهم. وكم رُويت حكايات عن شجاعة النساء، وذَوْدَهنَّ أحياناً عن قومهن في وجه الأعداء، مغامراتٍ بحياتهن. وقد وُصِفَتْ مفاتنهن الجسدية على أكمل وجه، مع القليل من الاهتمام بمناقبهن الأخلاقية.

على كل حال كان ثمة عادة سائدة بين بعض القبائل في الجاهلية، وهي وأد البنات الوليدات، الأمر الذي أدانه القرآن: ﴿وإذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشِّر به أيمسكه على هونٍ أم يدسُّه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾ (النحل 58 ، 59). وكذلك: ﴿وإذا الموؤودة سئلت. بأي ذنب قتلت﴾ (التكوير 8 ، 9). وأياً تكن الذرائع الاقتصادية لهذه الممارسة، فقد أبطلها الإسلام.

لقد تمتعت النساء في فجر الإسلام باستقلالية أعلى مما صار إليه الحال لاحقاً. وقد رفضت عائشة أن تحتجب(*) عن أيّ كان، قائلة: «مادام الله القدير منحني هذا الجمال فإني لراغبة أن يراه الرجال، ويقرُّوا بنعمة الله عليهم، ولن

(*) أي رفضت التستر وعدم الخروج حين يكون هناك رجال، وآثرت الظهور.

أحجبه لأنه لا إثم علي في أن يتحدَّث عنه أي كان». وقد مُنحت النساء في فجر الإسلام الحريّة بالتعبُّد، وكان من عادة زوجة عمر بن الخطاب أن تشهد صلاة الصبح والعشاء جماعة في المسجد، فقيل لها: لم تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: إنما يمنعه أن ينهاني قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»(*)[16].

كان للمرأة البدوية الحق في رفض الزواج من رجل متزوج، أو أن تتركه إذا تزوج من أخرى، وقد استمر هذا العرف حتى في بدايات الإسلام. ولكن مع انتصارات الإسلام وزواج الفاتحين من سباياهم من النساء، فإن المسلمين، كما قيل، فضَّلوا الزواج من إمائهم لأنهن أقل استقلالاً بكثير من المرأة العربية الحرَّة. كما أن تعدد الزوجات وزيجات المتعة وعزل الحريم وارتداءهن الحجاب، كل ذلك أدَّى إلى تقييد الحريات السابقة التي كانت تتمتع بها المرأة.

كان تقييد حرّيات المرأة اجتماعياً بقدر ما كان دينياً، وقد ساد بصورة خاصة في إمبراطوريات الشرق الأوسط الكبرى، لينبعث اليوم بشكل أقوى في الممالك العربية. وقد أشار الرحّالة العرب في القرون الوسطى إلى حالة الاستقلال والسفور عند النساء البربريات. ولازالت النساء المسلمات في بعض البلدان الأفريقية سافرات، أو محجّبات بقدرٍ ما. كما كان للنساء حضور ثقافي فاعل، خاصة في أسبانيا، حتى أن كثيراً من الشخصيات النسائية المعتبرة كنَّ من حَفَظَةِ الحديث النبوي. وكان ثمة نساء متصوفات أيضاً اشتهرت في عدة بلدان[17].

ب ـ الحجاب:

مع تزايد أهل بيت النبي، تقوَّى موقعه، وحُذِّر الزوار من دخول بيوته من دون استئذان، أو إطالة المكوث بعد انتهاء الطعام. وكذلك ينبغي عليهم ألَّا

(*) رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم. الناشر.

يطلبوا من نساء النبي شيئاً من خلف ستار، وأُبلغت نساء النبي أنهن «لسن كسائر النساء»، وينبغي عليهن المكوث في بيوتهن وألّا يتبرجن كما كانت تفعل نساء الجاهلية سابقاً، أو يخضعن في أحاديثهن، ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض...﴾ (الأحزاب 32).

وقد أُمرت، فيما بعد، نساء محمد وبناته ونساء المؤمنين أن ﴿يُدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذين...﴾(الأحزاب 59) وجاء أيضاً:

﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلّا ما ظهر منها وليَضربن بخُمُرهن على جيوبهن ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن.... أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء..﴾ (النور 31).

إن تعاليم كهذه كانت معنية أساساً بتغطية الجسد بشكل طبيعي أمام العلن، أكثر مما كانت معنية بالملابس المريحة والبسيطة في البيت؛ ولم تنص أيٌّ من هذه الآيات بشكل صريح على تغطية الوجه. وظهرت فيما بعد حكايات عديدة اختلقت أسباباً لهذه الأحكام من قبيل أن ضيوف الرسول كانوا يلمسون أيادي زوجاته، أو أنهن حين كنّ يخرجن ليلاً لقضاء حاجاتهن، بحكم عدم وجود مرافق صحية منزلية، كنَّ أحياناً يتعرَّضن للتحرش من قبل المنافقين إما بشكل قصدي أو لخلطٍ بينهن وبين الإماء. ومن المحتمل أن بعض الرجال حاولوا تحقيق مصالح لهم عند النبي عبر التأثير على واحدة من زوجاته كي تلتمس لهم طلبهم. ولكن مذ بدأ يُنظر بعين الشك إلى اللقاءات السريّة بين الرجال والنساء الذين لا تربطهم صلة قربى، أصبح من الضروري فرض حماية من نوعٍ ما، وبشكل خاص بعد أن لاكت الألسن عائشة وذاك الشاب بما يُعرف بـ «حادثة الأفك»(*).

(*) راجع الهامش الثاني في الصفحة 202.

ويبدو أن فرض الحجاب قسراً ما كان له أن يصبح راسخاً حتى انتقل مركز الإمبراطورية الإسلامية إلى بغداد. وحتى عندما أصبحت النساء ملزمات بارتداء الحجاب علانية، فإن الأحداث التاريخية المدوَّنة لم تكلّف نفسها عناء تقديم تفاصيل تتعلّق بعامة الناس، ففي الريف مثلاً ظلَّت النساء يكدحن جنباً إلى جنب مع الرجال. وفي الكثير من مناطق الشرق الأوسط آل لباس المرأة التقليدي خارج المنزل إلى ملاءة فضفاضة مرخية من الرأس حتى القدمين، مع غطاء للوجه (البُرْقُع)، وقطعة قماش طويلة من الموسلين الأبيض تغطّي كامل الوجه ما عدا العينين وتصل تقريباً حتى القدمين. إلّا أنه وجدت تنوعات عديدة، حيث يقول (إي. و. لين) في مؤلَّفه «المصريون في العصر الحديث» إن النساء المصريات حتى عام 1836 كن يعتقدن أن تغطية الجزء الأعلى والخلفي من الرأس أكثر أهمية من تغطية الوجه، علماً أن «الكثير من نساء الطبقات الدنيا، بما في ذلك في الحواضر، لا يغطين وجوههن مطلقاً».

جـ ـ أجنحة الحريم (الحريم):

من غير المستغرب أن يؤدي تحجيب النساء وتعدد الزوجات إلى عزل الزوجات والمحظيات في بيوت خاصة بعيداً عن عيون الغرباء. ومادام التساوي العددي بين الجنسين متكافئاً تقريباً إلّا في زمن الحرب، فإذا ما تزوج رجل من امرأتين وتعذّر على آخر أكثر شباباً وفقراً أن يحظى بزوجة، فإن ذلك سيسبب الحسد والمكائد.

إن كلمة «حريم» المستخدمة في الشرق الأوسط، والتي تعني «ما حُرِّم» على الرجال الآخرين، مشتقة من كلمة «حرام» العربية، ومرادفة لكلمة عبرية تعني «مقدَّس». وفي إيران وشبه الجزيرة الهندية يطلق على المقصورات النسائية كهذه اسم زانانا Zanana المأخوذة من كلمة «حريم»، وكذلك كلمة بورداه Purdah المأخوذة من «ستارة» التي تحجب قاطني المنزل عن الأغراب. إن التعزيز القرآني لعزل النساء استُمد من الآيات التي استشهدنا بها سابقاً، رغم أنها ربما لا تتطلّب أكثر من تغطية أجساد المؤمنات وعزل نساء النبي خلف ستار

خلال الزيارات ولكن كان من السهل أن تتّسع تقييدات كهذه، بشكل خاص في الأسر الغنية والكبيرة، مادام الفقراء ليس لديهم، على الأرجح، سوى القليل من السرّية.

إن وصف الحياة داخل أجنحة الحريم كان مقيَّداً بالضرورة. وكان الزوج بشكل عام هو الوحيد من بين البالغين الذي يسمح له برؤية زوجاته ومحظياته سافرات، رغم أنه سُمح فيما بعد لأي امرأة، حتى من غير المسلمات، أن تدخل إلى أجنحة النساء. والزوجات أنفسهن لم يكنَّ سجينات، لأن باستطاعتهن الخروج والقيام بزيارات، وهن محجَّبات تماماً، وغالباً في محفَّات مستورة. فالسيدة (مير علي)، هي انكليزية تزوجت مسلماً وعاشت في جناح الحريم في «لوكنو» لمدة اثني عشر عاماً. وقد قدَّمت وصفاً حيّاً للحياة هناك في القرن التاسع عشر. ففي البدء انتابها الشعور بالرثاء على حياة النساء الرتيبة، ولكن بوصفهن لم يذقن من قبل طعم الحريَّة، كن سعيدات بِقَدَرِهنَّ المحتوم حسب رأي السيدة (مير). كانت النساء مولعات بالعشرة، ولم يكُنَّ معزولات عن بنات جنسهن، إذ كن يزرن الأخريات ويستقبلنهن في بيوتهن. وكنّ يتناولن مختلف الأطعمة إلا خلال الصوم في رمضان، وكنَّ يُدخّنَّ النراجيل ويقدّمنها للزوّار.

في بيوت الأغنياء، كانت أجنحة الحريم تعجّ بالإماء، إلا أن العبيد من الذكور كان محظَّراً عليهم دخول أجنحة الحريم التابعة لأعيان المسلمين. على كل حال كان يسمح للخصيان، وللفتيان الصغار برؤية وجه أية امرأة. وكان الخصيان غالباً، لكن ليس دائماً، عبيداً سوداً يُخْصَون كي يقوموا بخدمات أجنحة الحريم. وقد وصفت حكايات ألف ليلة وليلة وقصص رومانسية أخرى علاقاتهم الجنسية غير الشرعية مع نساء من علية القوم، رغم أن هذه العلاقات غير مثمرة. وقد عبَّر بعض الكتَّاب غير المسلمين عن صدمتهم لدى رؤية أسواق معَدَّة لبيع العبيد من الرجال والنساء المخصصين لبيوت الحريم، وأسفوا أن بعض الضحايا كانوا يسوَّقون على يد تجار مسيحيين.

نشطت العلاقات الجنسية المثلية بين الخصيان والعبيد، ولكن نظراً لغياب إحصائيات موثوق بها فمن غير الممكن تقدير نسبة تواترها. فبالإضافة إلى العدد الهائل من البغايا، قيل إنه كان يوجد الكثير من الرجال المتخنثين، وغالباً ما كان الأجانب يتّهمون المسلمين بممارسة اللواط دون تقييد، علماً أن ممارسة العلاقات الجنسية المثلية كانت محرَّمة في القرآن والأحاديث.

شهد العصر الحديث تغيرات كثيرة، بعضها ناتج عن التأثر بالثقافة الغربية، وبعضها الآخر نكوص إلى العادات القديمة. فالكثير من النساء المسلمات يرتدين بشكل طبيعي الزي الغربي أثناء العمل، وربما تصل نسبة النساء غير المحجَّبات إلى تسعين بالمائة في بلدان كمصر مثلاً. أما في السودان والعربية السعودية المجاورتين فجميع النساء محجَّبات عملياً، اللهم إلا بعض السيدات المثقفات، والبغايا. فيما تمَّ إلغاء الحجاب في البلدان العلمانية، كتركيا مثلاً، أما في الباكستان فترتدي النساء الشابات حجباً من النَيْلُون تُعَزِّز من جمال مفاتنهن بدلاً من إخفائها. وفي غمرة الصراعات الجارية في إيران الحديثة أمر المتشددون الدينيون النساء المثقفات بتغطية أذرعهن ووجوههن، ولكن ذُكر أنه بوسعهن اختيار ملابسهن «شريطة التقيُّد ببعض الإرشادات».

إن الحجاب وعزل الحريم وبتر البظر تلقى جميعها المعارضة من قبل المصلحين والمنادين بالمساواة بين الجنسين، إلا أنها تلقى الدعم أيضاً على أيدي المتمسّكين بالتقاليد، كجزء لا يتجزأ من تحصين الإسلام ضد الطرائق الغربية. والميل المرجَّح لهذه التوترات بين المواقف المتعارضة أنها قد تستمر لزمن طويل.

هوامش المؤلف للفصل الثامن

1 - W. M. Watt, Muhammad at Medina, 1965, pp. 330 ff and 939 ff.
2 - N. Daniel, Islam and the west, 1960, p. 102.
3 - See S. Hite, The Hite Report, 1977, pp. 179, 271 f.; Masters and V. Jobnson, Human Sexual Response, 1966, p. 59 f.
4 - Mishkat al-Masabih, tr. J. Robenson, 1960, 2, 3; 3.6.
5 - Ibid., 3.6.
6 - Misbkat 13.2. 7 - Ibid., 3.13.
8 - Mishkat 13.1 f. 9 - Ibid., 13.6.
10 - Ibid.
11 - Misbkat 13.1.
12 - Ibid.
13 - See Vesey-Fitzgerald, Muhammadan Law, 1931, p. 37.
14 - A. H. Walton, in Introduction to The Perfumed Garden, trs., R. Burtom, 1963 edn., p. 40.
15 - Rubaiyat, verse 35 in my own version, and verse 11 in Fitzgerald's.
16 - See M. Smith, Rabi'a the Mystic, 1928, pp. 120, 124.
17 - See 'Women in the Hadith Litrature' in Muslem Studies by I. Goldzih", tr. S. M. Stern, 1971, Vol. 2, pp. 366 ff.

الفصل التاسع

التأكيدات العبرية

الخلق

كانت مواقف قدماء العبرانيين من الحياة بوجه عام ومن الجنس طبيعية (على الفطرة)، وكانت دينيةً من ناحية قبولها لهما بوصفهما من عند الله. واليهودية، بإفساحها المكان اللائق للطبيعة البشرية، كانت «طبيعية» و«تقليدية»، لكنها اعتبرت الله دائماً فوق البشر بطريقة غير تقليدية. فبدلاً من أن تنظر إلى الإنسان بوصفه مقياساً لكل الأشياء، صورته هو نفسه قائماً في حضرة الإله.

في الفصل الأول من سفر التكوين، الذي صاغه كَهَنَةٌ حاذقون، يشير الوصف الشعري لعملية الخلق إلى مراحل صدور الأوامر الإلهية وانبثاق الظواهر الجديدة، مكرراً لدى كل عملية خلق اللازمة القائلة: «ورَأى الله ذلك أنه حسن». ولإتمام عملية الخلق أوجد الإنسان على صورته، «كشبهنا»، وهذا ما ينطبق على الجنسين، «على صورةِ الله خلقَهُ، ذكراً وأنثى خَلقهُم»، ونادراً ما نلحظ ما يوحي بالثنائية الجنسية في عقل الله، علماً أن فكرة كهذه كانت شائعة في العالم القديم، لكن الكتبة الكهنوتيين كانوا إصلاحيين حاولوا تفادي الشرك الذي كان سائداً قبلهم، وبالتالي كان الذكر والأنثى كلاهما «حسن» في نظر الله الذي خلقهما وسواهما على صورته.

كانت الغاية الجنسية المحددة للذكر والأنثى هي الإنجاب، أي المحافظة على استمرارية عملية الخلق المقدسة. وقد أُمِرَ البشرُ الأوائلُ أن «أثمروا وتكاثروا»،

وعليه استُفيد من الاتصال الجنسي كوسيلة للحفاظ على النوع. وكانت الدنيا مكاناً طيباً لينتفع البشر به ويطوروه، وقد أُمروا بأن «يملأوا الأرض ويخضعوها ويتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض». وهنا لم يكن ثمة مجال للإعراض عن الدنيا، فاليهودية بوجه عام تعارض الزهد والبتولية على حد سواء.

في الإصحاحات اللاحقة في سفر التكوين، الذي ربما كان من التعاليم السابقة للكتاب اليهويين(*)، الذين استمد اسمهم من الاسم الإلهي يهوه، جاء الوصف الثاني لعملية الخلق مباشراً وممتعاً في آن واحد. فبدلاً من تسلسل مراحل الخلق حسب أوامر إلهية بسيطة لكنها نافذة، يُتوِّجها خلق الرجال والنساء على صورة الإله، نجد هنا أن السماء تظهر فجأة في يوم واحد ويُصاغ الإنسان على شكل دمية من طين، ينفخ الله في أنفها «نسمة الحياة»، وتُخلق المرأة من ضلع آدم «كمُعين» ورفيق. وآدم، «من الأديم» سماها حواء «من الحياة»، وكانت «عظماً من عظامي ولحماً من لحمي» وكانا عاريين ولايخجلان.

لقصة «السقوط» بسبب المعصية، وإكساء آدم وحواء وطردهما من جنة عدن تأويلات كثيرة، لكن المفسرين التقليديين لم ينظروا إليها بوصفها برهاناً على الإغواءات أو الفحش الجنسي، بل إن السرد ينص صراحة على أن الاتحاد الجنسي بين آدم وحواء حصل لاحقاً، بعد مغادرتهما جنة عدن وحين كان «العالم كله أمامهما». كان السقوط إذن، بسبب معصية الأمر الإلهي بأن لا يأكلا من «شجرة معرفة الخير والشر»، «والخطيئة الأصلية» هي التمرد على الله، هي «معصية الإنسان الأولى وثمرة تلك الشجرة المحرمة».

والقصة معقدة لأن هناك أسطورة بابلية تشبه قصة جنة عدن، وقد رُويت لتعليل وجود الموت. وظاهرياً، وإن كان غير واضح، فإن راوي سفر التكوين

(*) وفق اسم ياهويت وهو أقدم أربعة من مصادر الآثار الدينية التي تتألف منها الأسفار الخمسة من العهد القديم وهي التوراة. م.

يعتقد أن الموت ناتج عن أكل الثمرة. ومازال الجدال قائماً حول ما إذا كان المقصود بالموت الموت الفوري لآدم وحواء «في اليوم الذي تأكلان منها»، أم الموت النهائي لكل الجنس البشري. واعتقَد ميلتون(*) أن المذاق المهلك للشجرة قد «جلب الموت لكل العالم، وهو كارثتنا نحن». والعقوبة المفروضة بسبب أكل الثمرة المحرمة لم يكن الموت الفوري، بل كان الحزن والألم في الحمل والمخاض للنساء، ولعنة «الأرض»، وكدح آدم وعرق جبينه. وطُرِدَ الإثنان من جنة عدن لئلّا «يأكلا أيضاً من شجرة الحياة»، وهي على ما يبدو، شجرة مقدسة أخرى، كانت ستجعلهما «يعيشان إلى الأبد».

كانت الأفعى الناطقة عنصراً لافتاً للنظر في القصة، ولم تُحدد بوصفها شيطاناً أو إبليساً، ولعل قولها للمرأة «لن تموتي» عائد إلى اعتبار الأفاعي خالدة لا تموت لأنها تغير جلدها وتواصل الحياة. وهي أيضاً رمز جنسي قضيبي شائع، وقد ساد الاعتقاد في بعض البلدان أنها عَلّمت البشر طريقة الاتصال الجنسي. أما في سفر التكوين فهي تقول بعد أن يأكلا الثمرة: «ستُفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين بالخير والشر». والثمرة التي أكلها آدم وحواء لم تُحدّد بشكل مؤكد باعتبارها تفاحة بل قد تكون تينة أو خوخة ذات رمزية جنسية، أدرك آدم وحواء بعد أكلها مباشرة أنهما عاريان فأعَدّا لنفسيهما مآزر من أوراق التين لستر عورتيهما. و«عرف» آدم زوجته بعد الطرد فبنى بها وحملت فأنجبت ولداً.

القصة الثانية في سفر التكوين مركبة، مثلها مثل معظم الأساطير، لكنها أقل تشويشاً من مثيلتها البابلية. ولعلها انطوت على عناصر جنسية إلا أنها لم تكن شريرة أو ضد إرادة الله. والأفكار الشائعة القائلة إن قصة جنة عدن علمت الخطيئة الأصلية التي أصابت عدواها الجنس البشري برمته، أو حتى الفساد الكلي بسبب الإثم الموروث، لا أساس لها في العهد القديم وليس ثمة ما يشير إلى أن السقوط كان سقوطاً جنسياً.

(*) هو شاعر إنكليزي نظم ملحمة «الفردوس المفقود». م.

والنقطة الأخرى التي لا بد من الإشارة إليها هي وحدة الطبيعة الإنسانية في التعاليم التوراتية. فالجسد والروح وثيقا الصلة أحدهما بالآخر، لدرجة أن هذه التعاليم لم تقل إن الإنسان زُوّدَ بالروح بل قالت: «أصبح نفساً حية»، والكلمة العبرية «نفش»(*) والتي تعني «الروح» أقرب ما تكون إلى الأفكار الحديثة عن «الشخصية» وقد استخدمت للدلالة على الفرد بكليته. وحتى بعد الموت، الذي عُدّ بائساً ومبهماً، يأتي الاعتقاد بـ «بعث الجسد» بالأمل الحقيقي. تختلف هذه الوحدة النفسية اختلافاً شديداً عن الثنائية الهلنستية التي تقيم تعارضاً بين الجسدي والروحي والتي ظهرت أيام القديس بولس وأثّرت بالتعاليم المسيحية اللاحقة عن الجنس.

الختان وعبادة القضيب:

يمكن اقتفاء آثار عناصر قضيبية أخرى في التوراة، مع أنه كتاب حذف منه الكثير. فالصخور والحجارة المنتصبة، التي اعتُبرت مقدسة، ربما كانت رموزاً قضيبية. وقد قيل إن عصا موسى تحولت إلى ثعبان وأنه، عندما عضت الأفاعي الناس، صنع ثعباناً من نحاس بحيث أن أي إنسان «ينظر إلى الثعبان النحاسي يشفى، وظل الناس يحرقون البخور لهذه الأفعى حتى عهد الملك حزقيا».

ولربما كان العجل الذهبي، أو الثور ـ العجل، رمزاً جنسياً، طالما أن الثيران غالباً ما نُسبت إليها قوة جنسية فائقة. وحين صنع هارون العجل الذهبي «جلس الناس ليأكلوا ويشربوا ثم هبّوا يلعبون». وسمع موسى وهو عائد من الجبل «صوت الذين يغنون» فأدرك أن «القوم ضلّوا» وأن هارون «قد تركهم يضلّون». وليس من العسير أن نتخيل الطقوس المعربدة (خروج 32) التي تمّت لاحقاً عندما أقام يربعام مملكته المستقلة في شمال إسرائيل، ونصبت العجول الذهبية في الأماكن المقدسة في دان وبيت إيل، وكرر يربعام كلمات هارون: «هذا إلهك (أو آلهتك) يا إسرائيل التي أخرجتك من أرض مصر». وبما أن يهوه قد

(*) هكذا ورد لفظها في النص الأصلي. م.

أخرجهم كان لابد أن يُرمز له بثور، الأمر الذي عده الكتبة في أورشليم جريمة اقترفها يربعام «الذي جعل إسرائيل تأثم».

العنصر القضيبي الأوضح في التوراة هو ممارسة الختان، ذلك الطقس الغامض الأصل والهدف، الذي شاع لدى معظم الشعوب الساميّة إضافة إلى المصريين وكثير من القبائل الأفريقية، ويمارسه المسلمون والمسيحيون الأحباش، لكنه غريب على معظم الشعوب الأوروبية والهندية والصينية ومن جاورهم. وفي التوراة ثلاث روايات عن إدخال عادة الختان. فالكاتب الكهنوتي أرجعها إلى إبراهيم، الذي اعتبر الختان علامة عهد مع الله وختن نفسه، وابنه اسماعيل وآل بيته جميعاً. أما كاتب سفر التثنية فيصور يوشع وهو يختن الإسرائيليين «بسكاكين من صوان حين دخلوا أرض كنعان».

لكن الوصف الأكثر حيوية، وربما الأقدم، هو الذي قدّمه الكتبة اليهويون في قصة موسى (خروج 4). قيل إن موسى كان عائداً إلى مصر ومعه زوجته صفورة وأبنائهما على حمار، وبيده عصا الله الذي التقاه في مكان نزل فيه مؤقتاً، و«هَمَّ بقتله»، ربما لأنه هو أو ابنه لم يكن مختوناً كما يقضي العرف في مصر. حينئذ تناولت صفورة حجراً من صوان وقطعت غرلة ابنها وألقت بها ومسّت قدميه قائلة: «يقيناً أنت لي عريس دم»، فتركه الله.

قد تكون كلمة «قدمين»(*) تعبيراً مهذباً للدلالة على الأعضاء التناسلية(*)،

(*) يتقاطع هذا الرأي مع الرأي الذي طرحه الكاتب الأميركي (Jonathan Kirsch) في كتابه: (The Harlot by the Side of the Doad - Forbidden tales of the Bible) الصادر عن دار (Reader) الانكليزية عام 1997 والكاتب متخصص بدراسات الكتاب المقدس. يقول: إن بعض الفقرات في التوراة أكثر فجوراً مما نتوقع لأن التعابير الاصطلاحية في النص تُرجمت حرفياً بغية إخفاء معانيها. وأفضل مثال عن ذلك نجده في الحكايا المعروفة عن راعوت، حين أرسلتها حماتها الأرملة إلى بيت صاحب أراض ثري اسمه بوعز: «فاغتسلي وتطيبي والبسي ثيابك». وقالت الحماة الماكرة: «فإذا رقدَ فعايني الموضع الذي يرقد فيه وادخلي واكشفي جهة رجليه واضطجعي فإنه يخبرك بما ينبغي أن تصنعي» (راعوت 4:3). والمشهد مربك قليلاً....... ←

لكن الجدل قائم حول ما إذا كان الختان بديلاً عن الأضحية الإنسانية. فالكلمة تعني شيئاً ما «قُطع بشكل دائري» ونُذِرَ إفْنَاؤه لوجه الله. أي أن الختان مكرس كأضحية ترمز إلى عهد الإنسان مع الله وتقدماته له. وهو، بالتضحية به، مُكرَّسٌ للإله. ومن لم يُختن يُعتبر في نظر العبرانيين حانثاً بالعهد و«يطرد من قومه». ومن هنا جاء احتقارهم للشعوب الأخرى التي لم تكن تمارس الختان.

ويبين استخدام السكاكين الصوانية، في قصتي موسى ويوشع، أن ممارسة الختان قديمة جداً، ودارجة قبل أن تُعرف السكاكين المعدنية، أما الغاية الأساسية منه فمن الصعب تحديدها. وقد طُرِحت عدة نظريات ربما كانت أكثرها ترجيحاً هي القائلة بأنه تهيئة للاتصال الجنسي عن طريق إزالة أي تضيق قد تسببه الغلفة. فالكثير من القبائل ماتزال حتى يومنا هذا تمارس هذا الطقس ليس على الأطفال بل على اليافعين، باعتباره جزءاً من طقوس احتفالية بمناسبة انتقالهم إلى الرجولة، وقد قيل إن ابراهيم ويوشع كلاهما قد ختنا الشبان استهلالاً لهذا الطقس الاحتفالي. لكن الأمور آلت إلى تنفيذ الختان اليهودي ـ مثله مثل التعميد المسيحي ـ في اليوم الثامن بعد الولادة، وأتبعوه بإطلاق اسم على الطفل الوليد.

← وحتى نكتشف ما الذي فشل المترجمون في إخبارنا إياه: فإن كلمة «قدمين» أو «ساقين» هي استعارة ترد أحياناً في التوراة كبديل عن العضو الجنسي لدى الذكر. ولكن ما الذي قالته نعيمي لراعوت كي تفعل مع بوعز؟ إننا ندرك الآن أن ما تطلب من راعوت أن تخرج العضو التناسلي وهو نائم ـ وترى ما الذي يفعله الرجل عندما يستيقظ: «فإنه سيخبرك بما ينبغي أن تصنعي».
وما جرى فعلاً........ فقد استيقظ بوعز ووجد أعضاءه التناسلية مكشوفة وراعوت الشابة الجميلة بجانبه. سألها «من أنتِ؟» فأجابته «أنا راعوت أَمَتَك فابسط ذيل ثوبك على أَمَتَك لأنك وَلِيّ» (راعوت 3: 9). ولكن مرة ثانية، أهمل المترجم القول لنا أن «نشر ثوب شخص معين» ما هو إلا مجاز توراتي عن الاتصال الجنسي: «لأن الرجل إذا نشر [ثوبه] فوق امرأة» ـ حسب أديب توراتي اسمه مارفين. هـ. بوب ـ «فلا يعني ذلك مجرد منع القشعريرة من أن تسري في جسدها بسبب البرد». أُخِذَ هذا المقتطف من ترجمة لنذير جزماتي.

قد توحي قصة صفورة بأن الأم هي التي كانت تقوم بعملية الختان ويرى بعض المؤلفين، الذين ليست لديهم الأدلة الكافية، أنه كان تضحية لإحدى ربات الخصب. لكن العبرانيين لم يمارسوا عادة قطع البظر أو ختن الإناث التي ربما كانت مناسبة أكثر لإلهة من هذا النوع. وتفيد قصة إبراهيم أن زمام الأمور أصبح بيد الأب، ثم ظهر جراحون مختصون بهذه العملية. كان الختان يُجرى في البيت، ثم انتقل في أوائل العصور الوسطى إلى الكنيس، حيث كان يجري بحضور جماعة المُصلّين، مصحوباً بالترانيم الملائمة لجعله مناسبة احتفالية.

كان الختان السمة المميزة لليهودي على مر العصور، خلا بعض الاستثناءات، ففي العصر الهلنستي سخر الرومان والإغريق من اليهود بسبب الختان، وحاول كل من أنطيوخوس ايفانيس وهادريان أن يلغياه. وقد خضع اليهود الذين رغبوا بالمشاركة في الألعاب والنشاطات العامة الأخرى التي تقتضي التعري، لعمليات تطويل الغلفة من جديد، لكن الأصوليين عارضوا هذه الممارسات بشدة. وفي القرن التاسع عشر أخضعت الحركات الإصلاحية اليهودية عملية الختان للنقد، خاصة النواظم التي يتطلب فرضها على المهتدين الجدد الذين تحولوا إلى الدين اليهودي. وبما أن ذلك حتم إجراء العمليات على البالغين بالضرورة، فقد أحس هؤلاء بقسوة بالغة، مما دفع الحركة الإصلاحية الأمريكية إلى إسقاط مطلب الختان عن المهتدين الجدد، تبعتها في ذلك الكنس الإصلاحية الأخرى في بقية الأماكن.

كان الختان رمز العهد مع الله، «فتُختنون في لحم غرلتكم. فيكون علامة عهد بيني وبينكم» (تكوين 17 ، 11). وبالختان يُدخل الأولاد جميعاً والعبيد الذكور في المنزل في العهد. لكن الإصلاحيين والأنبياء حذروا من شكلانية الختان الخارجي، ولووا عنق اللغة بشكل غريب نوعاً ما، ليشحنوه بالرمزية الداخلية. وبناء على ذلك حث سفر التثنية اليهود قائلاً «اختنوا غلفة قلوبكم»، واتهمهم إرميا بأنهم غُلْفُ القلوب، غُلْف الآذان.

كان الختان مشكلة واجهت المسيحيين الأوائل، الذين انقسموا ما بين

متهودين قالوا: «إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلُصوا»، وأمثال بولس الذي يقرر، رغم أنه ختن (تيموثى)، أن «علينا أن لا نثقل على الراجعين إلى الله من بين الأمم» (أعمال الرسل 15) وبذلك أصبح بولس قيماً على «انجيل الغلف» مثلما كان بطرس قيماً على «إنجيل المختونين»، وحين أصبحت الكنيسة المسيحية كلها تقريباً من الأمم، تم التخلّي عن الختان، إلا لدى بعض الطوائف مثل الإيبونيين ذوي الصبغة اليهودية. لكن الآيات المتعلقة بالختان الروحي، التي صاغها الأنبياء، ظلت قائمة في الكتابات المسيحية، رغم أنها قد تبدو غريبة الوقع على مسامع جمهرة المسيحيين المعاصرين لو أنصتوا إلى: «نحن المختونون الذين يتعمدون بالروح القدس» أو «به ختنتم ختاناً لم تصنعه الأيدي».

الذكر والأنثى:

في الكتاب المقدس تأكيد قوي على البطريركية منذ إبراهيم وإسحق ويعقوب، وزيجاتهم المتعددة، وقد ساعد ذلك على بسط الهيمنة الذكورية. فالنساء، في نظر الشرع، كن في مرتبة دنيا، والزوجة «مملوكة» لزوجها. ومع تطور الشريعة، أسندت إلى الجنسين مسؤوليات دينية، لكن المرأة استُثنيت من بعض الفروض، مثل تعليق التمائم والحجب. وكان الرجل بصورة أساسية هو المسؤول عن تنفيذ التعاليم الأخلاقية التوراتية، في حين تُركت الواجبات المنزلية للمرأة. وقد فرض التلمود على الرجال أن يحمدوا الله لأنهم لم يُخلقوا إناثاً، وهذا الحمد مايزال يتلى من كتاب الصلاة اليومية الرسمي: «لك الحمد يا إلهي، يا مالك الملك، الذي لم يجعلني امرأة». والنساء بدورهن يحمدن الله، «يا من خلقتني حسب مشيئتك».

وغالباً ما تكلم التلمود بطريقة تحط من قدر المرأة، لكنه لم يتطاول على مكانتها في البيت حيث تؤدي وظيفة دينية أساسية ففي كل سبت تقوم ربة البيت، وقد تحلّق حولها أطفالها وزوجها، بإشعال الشموع شاكرة الله «الذي طهرنا بوصاياه، وأمرنا أن نشعل نور السبت». بعد ذلك يأخذ الأب كأساً من

الخمر، يقرأ عليه قدّوس السبت، يرشف منه رشفة، ثم يمرره على الأولاد والزوجة وقد درجت العادة أيضاً أن يتلو الأب الآيات التي تمتدح المرأة الفاضلة في سفر الأمثال.

في سفر الأمثال (الإصحاح 31)، تُوصف المرأة الفاضلة «الأثمن من اللآلئ» وصفاً دقيقاً وبعبارات متوهجة. فهي تنهض قبل الفجر لتطعم أهل بيتها، وبيديها تصنع الصوف والكتان، وعلى المغزل تغزلهما. تبتاع حقلاً تغرسه بأشجار الكروم، تطعم الفقير والمحتاج، تكسو أهل بيتها، بملابس قرمزية اللون، وتصنع أثواباً وأحزمة من كتان تبيعها للتجار. يسميها أولادها المباركة، ويثني عليها زوجها. لكن ما الذي يفعله هو طوال هذا الوقت؟ إنه يجلس عند بوابة القرية مع شيوخ البلد، ربما ليفصل في القضايا الشرعية أو ينم على الناس.

في سفر الجامعة الأبوكريفي (غير المعتَرَف به) عبارات مماثلة لكنها أكثر غموضاً، «سعيد زوج الزوجة الطيبة» الشجاعة، الخجولة الصامتة، و«جمال الزوجة الطيبة» كالشمس المشرقة على أعالي الجبال. بالمقابل، ثمة عبارات مثل: احكم علي «بأي شر إلا شر المرأة» التي تُغير ملامحها ويكفهر وجهها مثل وجه الدب، فتجعل المرء يفضل لقاء الأسد أو التنين على لقائها. الزوجة المهذارة درب رملي يتخبط عليه الشيوخ، والشريرة نير يترنح فوق أعناق الثيران، والسّكّيرة تثير أشد الغيظ، والعهرُ أن ترفع المرأة ناظريها. «مِن امرأة كانت بداية الخطيئة، وها نحن جميعاً بسببها نموت».

كراهية الزواج هذه يتردد صداها في التلمود الذي ينتقد ثرثرة النساء وغيرتهن. لكن في حين تقول بعض الآيات إن النساء ناقصات عقل لايكترثن إلا بجمالهن، تعترف آية أخرى بأن «الله وهب النساءٰ ذكاء أكثر مما وهب الرجال». واليهودية، كما هو حال المرأة في الثقافات الأخرى، غالباً ما قيل إنها أكثر من الرجال ولعاً بممارسة السحر والتنجيم. وساحرة إندور (التي لم يطلق عليها اسم «ساحرة» إلا في عناوين النسخة الرسمية) كانت تلعب دور الوسيط الروحي، وقد قيل إنها تسيطر على «روح من الجن». وكون النساء يلعبن دور

الوسيطات في الكثير من البلدان يساعد في توضيح أن جنسهن كان ميالاً إلى التنجيم والسحر وأن الرجال كانوا أوصياء على الطقوس الدينية الأكثر تشدداً وعموميةً.

وأثَّر التشدد الأبوي (البطريركي) للعهد القديم على مفاهيم الرب، الذي عُدَّ حاكماً أبوياً (بطريركياً) على شعبه، وملكاً صلباً. وقيل إن الله كلي القدرة، كلي المعرفة، كلي الرؤية، غيور، يهب الموت إلى أعدائه. ومن الغريب أن هذه المشاعر الإنسانية الفيّاضة كلها لا تتضمن نشاطاً جنسياً، كما نجد في شيڤا الهندي. غير أن التعاليم المتشددة والعناصر القومية المُعبّر عنها في العهد القديم غالباً ما أغاظت الناس في العصور الأكثر إنسانية إلى الحد الذي أدى إلى إهمال الجوانب المهذبة في الصورة. وقدمت الدراسات النقدية المعاصرة للكتاب المقدس الكثير إلى مفهوم التطور من البدائية إلى عصر الإصلاح والأنبياء. ويمكن رؤية المعتقدات القديمة بصورة أفضل في خِضَمّ تعقيدات زمنها.

وأُنزلت، فيما يخص المسائل الجنسية، عقوبات بحق أولئك الذين انحرفوا عن سبيل علاقة المرأة ـ الرجل «العادية» التي يجب أن تتوّج بالزواج. وصدرت الأوامر ضد الممارسات التي عُدّت ضد الطبيعة حسبما صمّمها الله، لكي تدان بصورة صارمة ويُعاقب أصحابها. فالنساء المُنحلّات(*) كن خطيرات. وكانت «المرأة الجاهلة صخّابة». كانت تدعو عابري السبيل لدخول بيتها وتقول إن

(*) مع ذلك تؤكد التوراة على التعامل مع العاهرات والانتفاع من خدماتهن. ففي سفر يشوع، يرسل يشوع ابن نون جاسوسين إلى أرض كنعان للتجسس على أهلها وقد نزلا عند عاهرة تُدعى راحاب عرَّفها النص الأصلي صراحة بأنها «بغي»، ليس لمرة واحدة، بل مرات كثيرة: «فأرسل يشوع بن نون من شطيم رجلين جاسوسين سراً قائلاً اذهبا انظرا الأرض وأريحا. فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب واضطجعا هناك.....» (يشوع 1).... وقال يشوع بن نون للشعب أمام أبواب المدينة أثناء فتحها: «راحاب الزانية فقط تحيا هي وكل من معها في البيت لأنها خبأت المرسلين اللذين أرسلناهما..... فدخل الغلامان الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها....... وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها»، (يشوع 6). الناشر.

«المياه المسروقة حلوة». ولم يعرف الرجل غير المبالي (الغِر) «أن الموت هناك» (الأمثال 9).

ونصت قوانين الأحبار المقدسة أن الموت هو عقوبة الشذوذ الجنسي عند الذكور «وإذا اضطجع رجل ذكر مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعلا كلاهما رجساً. إنهما يُقتلان. دمهما عليهما» (20 ـ 13) ولم يَرِد ذكر السحاق هنا، مع أن بولس أشار إليه فيما بعد في العالم الهلنستي: «لأن إناثهم استبدلن الاستعمال الطبيعي بالذي على خلاف الطبيعة» (الرسالة إلى أهل رومية 1 ـ 27) ونزل بهن «غضب الله». غير أننا لا نجد أساساً للإشارة إلى أن سدوم وعمورة قد هُدِمتا بسبب الممارسات الجنسية الشاذة. ويصف الكتاب المقدّس كما تصف الأبوكريفا(*) أن إثمهما يتمثل بـ «الكبرياء والشبع» وإهمال «الفقير والمسكين» (حزقيال 16 ـ 49)، ويبدو أن الإشارة إلى سدوم «بأنها شاذة جنسياً قد ظهرت ما بين المتشددين الذين كرهوا الطريقة الإغريقية في الحياة ونسبوا مثل هذه الممارسات إليها. وتشير التدقيقات في العهد الجديد (اللاحق) إلى أن سَدُوم وعَمُّورة قد منحتا أنفسهما «للزنى» ومضيتا وراء «جسد آخر» وأثّر ذلك فيما بعد على التفكير المسيحي (رسالة القديس يهوذا 7).

وأُدين التخنث في سفر التثنية (22 ، 5) كما أُدينت المرأة التي ترتدي ألبسة الرجال، أو الرجل الذي يرتدي «ثوب المرأة» الذي قيل إنه كره للرب. وأُدين الاتصال الجنسي بالحيوانات بصورة حازمة في سفر الأحبار، فإذا ما ضاجعت امرأة حيواناً «فإنها ستقتل بالتأكيد» و«البهيمة أيضاً فاقتلوها» (15 ـ 16 و 20).

ويقدم سفر الأحبار (18 و 20) لائحتين طويلتين عن قوانين تحريم زواج الأقارب. وربما تعود هذه القوانين إلى الأزمنة السابقة على الموسوية وشكلت أساساً للزواج المحرم في الموسوية والمسيحية. واستخدمت هذه العبارة الغريبة

(*) الأسفار الأربعة عشر التي لايعترف البروتستانتيون بها. م.

«أن لا يكشف عري»، أي من الأقرباء المقربين، إشارة إلى حدوث اتصال جنسي مباشر. ومع أن الاتصال الجنسي مع زوجة الأخ كان محرماً، يأمر نص لاحق أخاً أن يأخذ زوجة أخيه المُتوفَّى، إن لم يكن لديها ابن وأن «يبذر البذور لأخيه». واستمرت هذه الممارسات حتى فترة العهد الجديد (سفر التثنية 25 ، 5) وتنص بنود هذا الزواج على أن يُسمَّى الطفل الأول وفق اسم الأخ الميت. وتُظهر قصة «أونان Onan» ـ انظر لاحقاً ـ أن بعض الرجال يكرهون هذه الفكرة. ويقول سفر التثنية إذا كان الرجل لا يريد أن يأخذ أرملة أخيه، فإن عليه أن يُبلغ ذلك إلى الأقارب الأكبر سناً، وحينها ستنزع المرأة حذاءه وتبصق في وجهه، وتلعنه بوصفه رجلاً لا يريد أن يبني بيت أخيه. ويُعلِّق التلمود قائلاً بأن كبار السن سينصحون الرجل بعدم الزواج إذا كان هو صغير السن وكانت هي مُسنّة، أو إن كانت هي صغيرة وهو مُسن، لأن مثل هذا الزواج يجلب الصراع إلى البيت. وعلى الرجل أن يتزوج امرأة في مثل عمره.

ويقترح سفر الأحبار عقوبات قاسية على الزنى، «فيُحكَم بالموت المؤكد للزاني والزانية». وتفرض عقوبة مماثلة جراء الاتصال الجنسي مع زوجة الأب(*) أو الكنة (زوجة الابن). وإذا ما تزوج رجل من امرأة ومن أمها، وجبَ حرقهم في البيت: الرجل والمرأتين. وكان يُفترض أن النوم مع زوجة العم أو الخال

(*) يبدو أن النظم والقوانين النظرية التي يركِّز عليها الكاتب هنا متناقضة تناقضاً تاماً مع الممارسات الفعلية لأشخاص التوراة الأكثر أهمية؛ حيث كانت الممارسات الجنسية المحرمة كالزنى والاغتصاب تتم على أعلى المستويات دون أن تتبعها أية عقوبات مادية. فالإصحاح الخامس والثلاثين من سفر التكوين يؤكد أن رأوبين زنى بزوجة أبيه يعقوب [الذي أصبح اسمه ـ لاحقاً ـ في التوراة اسرائيل] «ثم رحل إسرائيل ونصب خيمته وراء مجدل عدر. وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً في تلك الأرض أن رأوبين ذهب واضطجع مع بلهة سُرِّية أبيه. وسمع إسرائيل». ويبدو أن ذلك كان أمراً عادياً لأن رد الفعل كان معنوياً فقط حيث قال الأب للابن في (سفر التكوين 49): «فاتراً كالماء لا تتفضل لأنك صعدت على مضجع أبيك فدنّسته». ←

يقتضي إنجاب الأطفال، كما مع زوجة الأخ. ويقتضي الاتصال الجنسي في فترة الحيض الطرد من الجماعة، لأنه «جعل منبعها عارياً، ولأنها لم تحجب منبع الدم عندها».

وثُمّنت العذرية تثميناً رفيعاً وقدم سفر التثنية تفاصيل كثيرة في محاولة منه لحمايتها. فإذا ما تزوج رجل امرأة، وقام الاتحاد بينهما، إلا أنه كرهها لسبب من الأسباب، فإن بإمكانه أن يدعي أنها لم تكن عذراء. وفي هذه الحالة يقدم والداها «الأدلة الدامغة» وهي قطعة القماش التي تم الزواج عليها والتي لاتزال تحتفظ بآثار الدم، فـ «ينشران الرداء أمام كبار السن في المدينة». وإذا قُبل هذا برهاناً على فض غشاء البكارة، كان على الرجل أن يدفع غرامة لأنه شوَّه سمعة العذراء ويجب أن يرتبط بها طوال أيام حياته. ولكن إذا لم يجد الجمع بذلك دليلاً مقنعاً، تُرجم الفتاة بالحجارة حتى الموت «لأنها صنعت قباحة في إسرائيل بفجورها» (سفر تثنية الاشتراع 22 ، 21).

← كما أن أمنون بن داود دبّر مكيدة لأخته من أبيه (ثامار) كي يختلي بها ويغتصبها، ولم ينَلْ أية عقوبة من والده حين علم بالأمر سوى أنه اغتاظ منه: «... فقال لها تعالي اضطجعي معي يا أختي. فقالت له لا يا أخي لا تذلني.... لا تعمل هذه القباحة..... فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها..... ولما سمع الملك داود بكل هذه الأمور اغتاظ جداً» (صموئيل الثاني 13).
وفيما كان أحد الأشخاص اللاويين عائداً إلى بيته برفقة زوجته التي خانته وسامحها، حلَّ في الطريق ضيفاً على أحد الغرباء المقيمين في جبعة التي يقطنها بنو بنيامين. فتجمع عدد من الناس وأخذوا زوجته وضاجعوها الليل بطوله وأعادوها عند الفجر فماتت (قضاة ١٩). وإثر ذلك قام صراع دام كاد بنتيجه بنو بنيامين أن يفنوا بسبب فناء جميع إناثهم. فارتأت بقية أسباط إسرائيل عدم جواز فنائهم. وأغاروا على الكنعانيين في شيلوه فقتلوا جميع ذكورهم ونسائهم وسبو العذارى ليكنَّ حريماً للسبط البنياميني (قضاة ١٩:٢١).
ومن حكايا داود أنه حنّ إلى زوجته ميكال التي كان قد هجرها منذ زمنٍ بعيد وزوجها والدها من فلطي بن لايش. وأرسل داود رجاله فأعادوها إليه رغماً عن زوجها الذي كان يسير معها ويبكي وراءها...... (صموئيل الثاني ٣). والوقائع في التوراة عن مثل هذه العلاقات كثيرة جداً. الناشر.

وإذا نامت خطيبة عذراء مع رجل آخر في المدينة وجب رجمهما حتى يموتا. «أما الفتاة فلأنها لم تصرخ وهي في المدينة وأما الرجل فلأنه أذلَّ زوجة قريبه». ولكن إذا اغتصبها الرجل في الصحراء، فيجب أن يموت وحده، لأنها صرخت، ولم تجد من يخلّصها. وإذا صادف رجل فتاة بكراً لم تُخطَب فأمسكها فضاجعها... فليعطِ ذلك الرجل لأبي الفتاة خمسين من الفضة وتكون له زوجة في مقابل إذلاله لها وليس له أن يطلقها طيلة حياته (سفر تثنية الاشتراع 22).

ويتطلب الدم والمني أداء مناسك الطهارة، ويتطلب الحيض أو أي تدفق لدم الأنثى مناسك مماثلة، مع غسل الملابس وغسل كل من لمس المرأة. وتُعدّ المرأة بعد ولادة الطفل ولمدة سبعة أيام نجسة حتى يتم التطهير (أي ختان الطفل الذكر) وتصبح الفترة أسبوعين إذا كانت المولودة أنثى. وتبقى المرأة ثلاثة وثلاثين يوماً (غير طاهرة تماماً) لا يحق لها أثناءها أن تلمس أي شيء مقدس، ولا تستطيع في تلك الفترة أن تذهب إلى الكنيس. وأخيراً فإن عليها أن تقدم حَمَلاً أو حمامة إلى الكاهن تكفيراً عن الإثم الذي ارتكبته (سفر الأحبار 12). وكان للدم تأثير قوي جداً، ووجدت محرمات (تابوات) قديمة ضد طاقاته التلويثية. وبمعنى آخر، كان الدم يُعدّ مثل حياة أو روح الكائن الحي. وانطلاقاً من هذا الأساس جاءت كل تعليمات (الكوشر)(*) ضد أكل دم الحيوان.

ويجلب المني أيضاً النجاسة إن كان أثناء الجماع، أو أثناء القذف الاضطراري، أو أثناء القذف المستمر (المَرَضي). ويبقى الرجل نجساً حتى المساء وتحتاج ملابسه كلها لأن تغسل بالماء، والمرأة التي اضطجع معها لا بدّ أن تستحم بالماء وتبقى نجسة حتى المساء. وإذا كان الرجل مقطوع العضو التناسلي حُرِّم عليه دخول «مجلس الرب». ويُمنَع الوليد النغل (أي ولد السفاح أو الزنى) من الدخول إلى هذا المجلس، ويمنع أطفاله من الدخول «حتى الجيل العاشر»

(*) الكوشر: وجبة طعام حسب التعاليم الدينية اليهودية. م.

(سفر التثنية 23). وهذه التعاليم قاسية ومن الصعب تنفيذها، إلا أنها تشير إلى الاهتمام الذي أولاه الكهنة لطقوس الطهارة وتنظيم مجتمع الرب.

وتُظهر قصة أونان (سفر التكوين 38) أن الرب قتله لأنه قام بفعلٍ مُنكر. ويتمثل هذا الفعل بأن الرب أَمَره أن يمارس الجنس مع زوجة أخيه الميت، غير أنه سفح بذرته على الأرض في لحظة الجماع لئلا يُعطي البذر لأخيه. ويقدم قاموس أوكسفورد الإنكليزي تعريفاً للعونانية فيقول إنها «جماع غير تام» أو «عادة سرية» أو «إلحاق الأذى بالنفس». ولكن العونانية ـ حسب رأينا ـ لاتعني بالتأكيد التأويلين الأخيرين. ونقل القاموس الكبير رأياً «طبياً» عام 1874 يقول فيه: إن العونانية تترافق في غالب الأحوال بالخبل، وهي تسببه أحياناً. وأحدث هذا الرأي قلقاً لم يكن الأولاد الذين يمارسون العادة السرية في العهد الڤكتوري بحاجة إليه.

والمرأة في قصة أونان، وتدعى **تامار**، كانت مصممة على الحمل، لذا نزعت عن نفسها ملابس الأرملة، وتزيّت بزي مومس، وأغوت حماها يهوذا واحتفظت بخاتمه وعصابته وعكازه على سبيل الرهن. وعندما أُدينت أمام عمها يهوذا بممارسة البغاء وقُرر أن تُحرق أظهرت الرهونات وحُرّرت. وحملت **تامار** بتوءمين من الأسرة، ونُقل عن **تامار** في إنجيل متّى أنها كانت من جدات المسيح(*).

الحب والزواج:

اللافت للنظر أن الكتاب المقدّس الذي وضع، رغم تأكيده على الشؤون الدنيوية، نواظم ذكورية وصارمة للعلاقات بين الجنسين، يحتوي بين دفتيه كتاباً غنائياً وغرامياً هو «نشيد الإنشاد»، الذي يبدو أكثر انسجاماً مع البيئة

(*) إذا كانت غاية تامار من لعب دور عاهرة هي أن تحمل وتنجب، فإن يهوذا ضاجعها معتقداً أنها عاهرة ومع ذلك لم ينل أي عقاب. وهذا يتناقض مع ما ذُكِر في الصفحة 242 عن ضرورة انزال عقوبات بحق أولئك الذين انحرفوا عن سبيل علاقة المرأة ـ الرجل «العادية» التي يجب أن تتوّج بالزواج. الناشر.

الهندوسية، كالقصائد الغرامية لـ (كريشنا) أو لـ (رادا)، كما قُورن مع (غيتا غوفيندا). لكن الكتاب المقدّس نفسه هو عبارة عن مجموعة مختارات شعرية ونثرية، ذات تواريخ عديدة سطرتها أيادٍ كثيرة، ويتضمن موضوعاتٍ في غاية التنوع. إن «نشيد الإنشاد» ليس نشيداً دينياً مطلقاً؛ فلم يرد فيه ذِكر اسم **يهوه** قط، ومع ذلك فقد قدّم المتعة لليهود والمسيحيين.

كانت مكانة «نشيد الإنشاد» في شرعة الكتاب المقدس اليهودي موضع نزاع «حتى أتى رجال اللقاء الكبير وفسّروه تفسيراً روحانياً». وقال الحاخام **أكيبا**: إن «العالم كله لم يكن جديراً باليوم الذي أُعطيَ إلى إسرائيل. الـ **كتاب** كلّه مقدس، ولكن نشيد الإنشاد هو قدس الأقداس». ودار النقاش حول الكتاب فيما إذا كان قصيدة حب، أو أنه حكاية مجازية عن العلاقة بين الله وإسرائيل، تقدم علاقة الإنسانيّ ـ المقدس بلغة رمزية. وقد سادت وجهة النظر الأخيرة وقيل إن السِّفر قد كُتب من قبل سليمان بإلهام من الروح الإلهية.

هذا التأويل المجازي مضت به الكنيسة المسيحية شوطاً أبعد بكثير. ففي القرن الثاني عشر، فسَّرَ **برنارد من كليرفو** السِّفْر أثناء إلقاء مواعظه حول نشيد الإنشاد باعتباره تعاليم عن الاتّحاد الصوفي بين الله والإنسان. واقتبست هذا التفسير إصدارات النسخة الإنكليزية الرسيمة للكتاب المقدس حيث شرحت في حواشي الإصحاح والصفحة المعنونة «وصف المسيح من خلال نِعمه الإلهية» الصورة الحسية للعاشق ذي «الشفاه الليلكية... وبطنه كالعاج البراق». أما «نِعَم الكنيسة» فكانت شرحاً لصورة المعشوقة ذات «شفاه مثل خيط قرمزي» و«ثديين مثل خشفتين»(*).

(*) نقتطف، فيما يخص «نشيد الإنشاد»، بعضاً مما قاله (Jonathan Kirsch) في كتابة الوارد ذكره في هامش سابق: يعتبر نشيد الانشاد من جانب العلماء في هذه الأيام بأنه «النشيد الذي يتعامل بوضوح وبيساطة مع حب جنسي بين رجل وامرأة». والحقيقة، إن من المستحيل قراءة الموضوع وفهم غير ذلك بدقة بسبب من شهوانية صريحة. ومع ذلك لم يُعد نشيد الانشاد عملياً عن التوراة، واختار ←

لقد عُدّ الزواج عند العبرانيين واجباً دينياً. وقال أحد الحاخامات: إن الرجل الذي لم يتزوج لم يصبح رجلاً بعد. وقال حاخام آخر: إن «كل إنسان بحاجة إلى امرأة وإن كل امرأة بحاجة إلى رجل، وكل منهما بحاجة إلى الحضور الإلهي». ويقال أيضاً: «إن بيت الرجل زوجته» و«أنا لم أناد زوجتي باسمها، بل كنت أناديها دائماً يا [بيتي]».

والدين اليهودي كالدين الإسلامي استنكر الإعراض عن الزواج. وكان على القساوسة والحاخامات أن يتزوجوا. وكان كبير القساوسة مجبراً على الزواج. ووُجِد عدد قليل من المتقشفين كاستثناء وأُبلغ إرميا بأن «لا تتخذ لنفسك امرأة ولا يكن لك بنون ولا بنات في هذا الموضع» (إرميا 16 ـ 2). وليس واضحاً إن كانت هذه الحالة مفروضة بصورة دائمة، وخصوصاً أن هذه الكلمة نزلت على إرميا وهو في أُورشليم (القدس)، ولكن إرميا ذهب فيما بعد إلى مصر. وهكذا فقد كان الأمر محدوداً في إطار معين ولأسباب خاصة، وقد تزوج باقي الأنبياء. ومن حيث الظاهر فإن الأسينيين اعتقدوا في مرحلة لاحقة أن للامتناع عن الجنس بصورة دائمة أو مؤقتة قيمة دينية معينة. غير أن ذلك كان متعارضاً مع التقاليد اليهودية الأصولية، وإن كانت قد أثّرت على المسيحية في أيامها الأولى.

وكانت صيغة الاحتفال بالزواج تدعى «كيدوشين» وتعني «تطهير»، وهي تتعلق بالكلمة العامة لـ «المقدس». وكان الزواج علاقة تقديس وتطهير، وهو يعني ـ حسب التلمود ـ «إن الزوج يحجب زوجته عن العالم كله، ويخصصها للكنيس». وأنكروا أن الزواج العبراني كان أحد المناسك أو أحد الأسرار المقدسة، ولم يكن يترافق بالمناسك الكهنوتية، كما جرت العادة في الزواج

← رجال الدين اليهودي عبر القرون أن يتجاهلوا مضمونه الشهواني الواضح. وبدلاً من ذلك، أصروا بعناد على أن نشيد الانشاد هو مجرد استعارة متقنة عن «علاقة الحب ما بين الله وإسرائيل». أخِذَ هذا المقتطف من ترجمة لنذير جزماتي.

المسيحي في المراحل اللاحقة. ويبدو أنه كان أقرب إلى المفهوم التنسكي البسيط لزوج وزوجة في علاقة مقدسة تأتي من الروح التي جلباها. ويرعى أحدهما الآخر وفق العهود التي قطعاها على نفسيهما أمام الله. وافترض التلمود أن الله رتب الزيجات منذ أيام الخليقة حتى وقتنا الراهن. وبسبب الاعتقاد أن الزيجات قد تمت في السماء فقد وُجِد أساس للاعتقاد بأن وجهة النظر الرومانسية (الخيالية) هي وجهة نظر دينية. وقام الله في حفل عرس آدم وحواء بدور إشبين آدم وجدل شعر حواء ليزينها من أجل زوجها.

ونُصح الرجال بالزواج عندما يبلغون الثامنة عشرة من عمرهم، حيث يقضي العرف أن يبني الرجل بيتاً، ويغرس كرماً، ويتخذ لنفسه زوجة. وقيل إن الواحد القدوس ينتظر الرجل حتى يبلغ العشرين ويلعنه إذا لم يتزوج، وعلى الفتاة أن تتزوج قبل أن تبلغ هذا السن. فقد «تجاوزت أن تكون صغيرة منذ أن بلغت الثانية عشرة من عمرها. وأكد سفر تثنية الاشتراع على أهمية السعادة في الزواج والإنجاب فـ «إذا اتخذ رجل امرأة جديدة فلا يخرج في الجند ولا يُحَمَّل عبئاً ما. حُرّاً يكون في بيته سنة واحدة يَسُرُّ امرأته التي اتخذها» (24 ، 5).

ومع أن من واجب الأب أن يجد زوجاً لابنته، فقد وجدت خطوط عامة ترشد الناس في اختيار الزوج المناسب. والرجل الذي أعطى ابنته إلى رجل كهل يخالف ما ورد من آيات في سفر الأحبار مثل قوله «ولا تدنس ابنتك بتعريضها للزنى» (سفر الأحبار 19 ، 29)، وكذلك يجب ألا يتزوج الشاب الصغير امرأة عجوزاً. ويجب ألا يتزوج الرجل الطويل أو القصير، أو الأشقر، أو الأسمر امرأة مماثلة له لئلا يتم إنتاج صفاتهم بصورة مكثفة ومفرطة في أطفالهم.

ومن المعروف أن عادة تعدد الزوجات كانت تُمارس من عهد الكتاب المقدس. وبقي الأمر كذلك، إلى حد ما، لفترة طويلة بعد هذا التاريخ. وقيل إن سليمان الحكيم مَلَكَ سبعمئة زوجة وثلاثمئة محظية، إلا أن «زوجاته أدرن قلبه» عن الله لأنهن جلبن معهن عبادة آلهة أخرى. وكان لدى داود الذي نزلت عليه روح الله، الكثير من الزوجات والمحظيات، ومع ذلك فقد اشتهى بات بتشابع

وأرسلَ زوجَها إلى حتفه ليتمكن من الاحتفاظ بها(*). وكان بإمكان الكهنة، إضافة إلى الحكام، أن يكون لديهم أكثر من زوجة في أيام الكتاب المقدس. وفي الوقت الذي كان فيه تعدد الزوجات شائعاً في الكثير من البلدان الشرقية، كان ولايزال من المشكوك فيه أن يكون الناس العاديون قد مارسوا هذه العادة على نطاق واسع.

والنموذج الذي قُدِّم في قصة الخلق الثانية في سفر التكوين ينطبق على الزواج الأُحادي فقط «يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بزوجته، ويصبحان جسداً واحداً». وبشكل مماثل تبدو صورة المرأة المثالية في (الأمثال) التي تعني الزواج الأحادي ضمناً، كما فعلت القصص الأخرى، وصورة الأم في البيت اليهودي تعزّز هذه الحالة.

ألقت قصة صموئيل الضوء على سببٍ لتعدد الزوجات ومشاكله. فقد كان لدى أبيه ألقانه زوجتان. ولم يكن لدى حنة أطفال. ولا يستبعد أن يكون ذلك هو السبب في اتخاذه زوجة أخرى. وكانت الزوجة الثانية تدعى «ضرّة» (فتنة) وكانت تناكد حنة في كل سنة مسببة لها الغيظ وقلة الطعام. وأخيراً، وبعد أن واصلت حنة الصلاة لسنين كثيرة «تذكرها الرب» فحملت وولدت ولداً سمّته صموئيل «المصغي إلى الله» ووهبته للخدمة الإلهية.

(*) في هذا الشأن، يخبرنا الإصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني أن داود رأى إمرأة تستحم فاشتهاها وسأل عنها، فقيل له إنها بتشابع بنت أليعام زوجة أوريا الحثي، فأرسل في طلبها، وجِيئَ بها إليه فزنى بها. وحين حبلت منه أرسلت تخبره بذلك، فطلب أن يؤتى بزوجها الذي كان في الحرب وطلب منه الذهاب إلى بيته لينام مع زوجته ويستريح؛ طبعاً كي يبدو أنها حبلت من زوجها. لكن الرجل رفض الذهاب إلى بيته والحرب دائرة، وفضل البقاء مستعداً للقتال، فأرسله داود إلى الحرب ثانية وأرسل معه رسالة إلى رئيسه يطلب منه فيها أن يضعه في مقدمة المعركة وأن ينسحبوا من ورائه كي يموت. وذلك ما حصل فعلاً. وهنا نرى الزنى والقتل العمد عن طريق الخيانة: «... اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيُضرب ويموت....... ومات أوريا الحثي». وبعد موت أوريا ضمَّ داود بتشابع إلى حريمه. الناشر.

وسمح التلمود أيضاً بتعدد الزوجات في الوقت الذي عبر عن آراء أخرى، فتقول إحدى الفتاوى: إن «بإمكان الرجل أن يتزوج نساء بقدر ما يرغب». وتقول فتوى أخرى: شريطة «ألّا يتجاوز الأربع». ويوضِّح حاخام آخر بالقول: إن على الرجل أن يطلق زوجته إذا رغبت بذلك وقت اتخاذه زوجة أخرى. ولكن تعدد الزوجات صار في نهاية الأمر مخالفاً للقانون وللشريعة بدءاً من القرن الحادي عشر، ويفرض الحرمان الكنسي على الذين يتزوجون بأكثر من امرأة ويُستثنى من هذا الأمر عدد صغير من المجموعات اليهودية في بعض البلدان.

وكان الطلاق سهلاً فيما يخص الرجل، ذلك أن النظام الأبوي (البطريركي) في التوراة وفي التلمود منح الزوج سلطة مطلقة. وفي الوقت الذي يُعلن فيه هذا النظام «إن بالإمكان طلاق المرأة إن كان بموافقتها أم من دون موافقتها، فإن الرجل لا يطلَّق إلّا بموافقته»، إلى أن قام المصلح الحاخام **غيرشوم** الذي عاش في القرن الحادي عشر بمنع تعدد الزوجات، وأصدر فتوى تقول: إن الطلاق لا يُعدّ نافذاً ما لم توافق الزوجة عليه.

وسهولة الطلاق، أي إعطاء المرأة ورقة طلاقها بسبب فعل غير لائق، سَنّها سفر تثنية الاشتراع (24) وأوّلها الحاخامون. والشيء أو الفعل غير اللائق هو، حرفياً، «تعرية شيء من الأشياء». فهمت منه مدرسة **شاماي**: «إن الزوجة يجب ألّا تُطلَّق إلا إذا كانت غير مخلصةٍ. ولكن مدرسة **هيلل** قالت: تطلق لأي سبب غير لائق، بما في ذلك الطبخ السيّئ. وكاد هذا الرأي المتهاون أن يسود. وفُسّر قول النبي **ملاخي** (2 ، 15) «أليس واحد صنعها وهي بقية روحه. وماذا يطلب هذا الواحد. زَرْعاً لله. فاحفظوا روحكم؛ ولا تغدر بامرأة صباك. إني أكره الطلاق». على أنه يعني «إذا كرهت زوجتك فطلقها».

واستلزمَ الاحتراس من الطلاق المتسرع تعويض الزوجة لقاء العشرة الزوجية (كيثوباه). الذي يمكن أن يشكل عبئاً ثقيلاً يمنع الرجل الذي عنده زوجةٌ متعبة من طلاقها، إذ أن عليه أن يدفع لها مبلغاً كبيراً إذا افترقا. أما إذا

كان سلوك الزوجة فاضحاً، فإن بإمكان الزوج أن يُطلّقها دون أن تحصل على (الكيثوباه). أما السلوك السيّئ فإن بالإمكان أن يتخذ أشكالاً متنوعة: كأن تصرخ صراخاً عالياً يمكن أن يسمعه الناس، أو أن تشتم أطفال الزوج أثناء وجوده، أو أن تتحدث مع مختلف أنواع الرجال، أو حتى أن تخرج دون أن تغطي رأسها. ولم يكن الجنون يشكل سبباً للطلاق، خشية أن تصبح المرأة المنبوذة ضحية شخص شرير. ولكن يمكن لبعض الأمراض الخطرة كالجذام أن تسوّغ الطلاق.

وقد قيل أن سهولة إنهاء الزواج، خاصة من قبل الرجل، ساعد على صيانة سوية معظم الزيجات التي لم ينفرط عقدها. وأكثر من ذلك، فإن أهمية الأطفال، وخصوصاً الأبناء منهم، جعلت الناس يواصلون حياتهم الزوجية وكانت الأسرة الكبيرة تحظى باستحسان الرب، وكانت تجلب معها التزامات مُفصّلة بشأن تنشئة الأطفال بأكبر قدر ممكن من العناية.

الرمزية:

إن لدى النظام الأبوي (البطريركي) إلهاً أبوياً (بطريركياً) وكان من أهم إنجازات العبرانيين تطوير التوحيد مع ما يستلزم ذلك ويرافقه من أخلاق. وكان هذا النظام أكثر حسماً من التوحيد الهندي، وقد ألهم المسيحية والإسلام. ويبدو من غير الممكن وجود رمزية جنسية في تصورات ألوهية متعالية كهذه لكن إشارات وجدت في الفترتين، المبكرة والمتأخرة، تشير إلى التناقضات والاختلافات في إطار الوحدة.

وخاض الدين الجديد، في البدء، كفاحاً لاهوادة فيه ضد تعدد الآلهة، ضد عبادة الأنثى والخصب. وقد أدارت زوجات سليمان قلبه، بصورة خاصة، نحو عشتروت أو عشتار إلهة صور. وعلى ما يبدو فقد بقي معبد لهذه الإلهة في أورشليم (القدس) إلى أن دُنّس بعد ثلاثة قرون من قِبَل Josiah وتزوج آخاب، ملك إسرائيل، إيزابيل من صور، التي جلبت معها عبادات غريبة، لا يُستبعد أن تكون قد ضمت ألوهيات أنثوية. وسقطت إسرائيل في القرن الثامن

ق.م، ونجحت الإصلاحيات التوحيدية التي قام بها الأنبياء والكهنة في مملكة يهوذا الصغيرة حول أورشَليم (القدس) التي سقطت بدورها في القرن السادس ق.م.

وصُدِمَ إرميا حين تم نقله قسراً إلى مصر إذ وجد المرأة اليهودية هناك تعبد عشتار، ملكة السماء، وتُقدّم لها الكعك والشراب. وتم تسويغ ذلك من قبل أزواجهن اليهود الذين قالوا: «تبخر لملكة السماء وتسكب لها سكائب كما فعلنا نحن وآباؤنا وملوكنا ورؤساؤنا في أرض يهوذا وفي شوارع أورشليم فشبعنا خبزاً وكنا بخير ولم نر شراً» (إرميا 44 ، 17) وتنبأ إرميا لهم بالخراب.

وتضمنت العلاقات ما بين الله والإنسان ثنائية أمكن التعبير عنها بالرمزية الجنسية، التي لم تنطبق لغة المؤنث فيها على الله إلا لماماً وبصورة مجازية: «أتنسى المرأة مُرضعها فلا ترحم ابن بطنها ولكن ولو أن هؤلاء نسين لا أنساكِ أنا» (نبوءة يُوشَع 49 ، 15) ومرة ثانية: «كمن تعزيه أمه كذلك أعزيكم أنا وفي أورشليم تعزون» (نبوءة يُوشَع 66 ، 13) وإذا كان الله يُصوّر بصورة عادية ذكراً وأباً أو زوجاً، فقد تم تثبيت الشكل الأنثوي كشريك إنساني له.

واستُخدمت اللغة الجنسية في نبوءة هوشع Hosea في القرن الثامن. وضرب هوشع في زواجه مثلاً، فقد أبلغه الرب أن يتزوج مومساً «لأن الأرض قد زنت زنىً تاركة الرب» (نبوءة هوشع 1 ، 2) (أي أن الأرض تلعب دور المحظية بسبب خيانة العهد مع الرب). وحملت المرأة واسمها جومر وولدت ثلاثة أطفال أُعطوا أسماء تشير إلى العقاب والرفض «ليسوا أبنائي». وواصلت جومر سبيلها وقالت إني «أنطلق في آثار مُحبيَّ الذين يعطونني خبزي ومائي وصوفي وكتاني وزيتي وأشْرِبتي» (2 ، 4) وهذا مثل إسرائيل التي جرت وراء آلهة الخصب المحلية (بعليم) تستعطفهم ليتملكوا إنتاج القطيع والأرض. وهي لم تدرك أن كل ذلك قد جلبه إله قومي واحد. «إنها لم تعلم أني أعطيتها البُرّ والسُّلاف والزيت وأكثرت لها من الفضّة والذهب فجعلوها لبعل» (2 ، 8).

وأخيراً دُعيت المرأة الجاحدة إلى العودة إلى زوجها الغفور، وهو الله: وهي

ستناديه بـ «زوجي» (إشي) وليس «ربي» (بعليم). وسترتبط إلى الأبد برباط الإخلاص. وسيأمر الرب السموات والأرض، وسينتشر السلم ويعم الرخاء.... وسيقول الله «أنتم شعبي»، وستجيب إسرائيل «أنت إلهي». وملأت هذه الموضوعات كتاب هوشع داعية الشعب إلى الابتعاد عن الزنى، غافرة لهم ذنوبهم، وأحبتهم، وأخذتهم مقيدين بأصفاد الحب.

وقدم إرميا نموذجاً آخر عن الزواج الإلهي بين الله والشعب. وأدان إرميا إسرائيل ويهوذا للعبهما دور المحظية مع العشاق. ومع ذلك دعا الله الشعب إلى العودة «فأنا زوجكم» وهو سيغفر للزوجة الخائنة إذا ثابت إلى رشدها. وتكلم إرميا عن العهد فقال الله: «إني بعلٌ لكم» (إرميا 3 ، 14) واستخدم أشعيا صيغاً مثل «كفرح العريس بالعروس يُسَرّ بك إلهك» (أشعيا 62 ، 5).

ويقدم سفر الأمثال سلسلة من الوصايا الأخلاقية عن قيمة الحكمة، ويصل إلى الذروة وهو يقدم صورة جميلة للحكمة متمثلة برفيق أنثوي رافق الله قبل عملية الخلق «الرب حازني في أول طريقه قبل ما عمله منذ البدء... كنت بجواره مثل عامل لدى سيده كنت سروره اليومي» (سفر الأمثال 22 و 23) ويشكل ذلك تقدماً كبيراً على صورة الحكمة المقدمة في سفر أيوب «بوصفها خير من اللآلئ ولايعرفها إلا الله» (سفر أيوب 28 ، 18) وهذا ما يوحي بتأثير الفلسفة الإغريقية. لكن الحكمة في سفر الأمثال لم تكن سرمدية، وأوجدها الله بوصفها وسيلة للخلق. وتطورت وجهة النظر هذه في سفر الجامعة حيث قالت الحكمة: «لقد خرجتُ من الفم الأكثر علوّاً، وغطيت الأرض كالسديم». والحكمة ترسخت في أورشليم وتجلت في الشريعة. ويقال في سفر الحكمة: إنها انبثقت من قدرة الله «فيضُ مجدِ العزيز المقتدر ألقٌ دافق من النور الأزلي، انعكاس كمال قدرة الله المبدعة» وهي «أبهى من الشمس»، «لها القدرة على فعل أي شيء» و«تجعل الناس خلّاناً لله».

ومن ثم فقد أصبح تأويل هذه الأفكار مختلفاً، فقد علّم الحاخامون الناس أن الشريعة خُلِقَتْ قبل العالم، وأن الحكمة حملت من اللوغوس (العقل)،

الكلمة أو القدرة القدسية بوصفها متأصلة في كل الأشياء وأيضاً آتية من الله في فعل الخلق. ومما لا شك فيه أن الافتراض بنوع من أنواع المشاركة مع الله أو في سلطته التي يمكن تمثيلها قد ساهم في تشكيل العقائد المسيحية بصدد طبيعة المسيح والثالوث الأقدس: الأب والابن والروح القدس.

وفيما يخص اليهودية، فربما تكفي ملاحظة الطبيعة الأنثوية للحكمة، كما وصفها هؤلاء الكتاب. وقيل في الأمثال: إن الحكمة بنت بيتها، وأقامت أعمدتها السبعة، وأرسلت وصيفاتها العذارى يدعون الرجال لأن يأكلوا من خبزها ويشربوا من خمرها. وتتناقض هذه الصورة مع تلك المرأة البلهاء التي جلست على عتبة باب منزلها ودعت عابري السبيل لأن يأكلوا الخبز السري ويشربوا الماء المسروق. وقيل في سفر الجامعة: إن الحكمة كانت تطلق رائحة العطور والورد، ومرة ثانية قدّمت الطعام والشراب. في حين يقول سليمان الذي تنسب إليه الحكمة: «أنا أحب الحكمة وأسعى إليها منذ أيام شبابي، وأتشوق لكي أحصل عليها كعروس لي، بعد أن وقعت في غرامها».

ونُسبت مثل هذه الكلمات عن الحكمة في رسالة في التلمود إلى توراة الشريعة. وكانت التوراة هي التي «حازها الرب في بداية طريقه» ودونها لا تبقى السماء ولا الأرض. وتقدمت التوراة في الوجود على عملية الخلق بآلاف السنين، وهي عزيزة على الله أكثر من أي شيء آخر صنعه. وكانت التوراة كاملة لا يمكن أن يطرأ عليها تحسين. ورغم الكثير من التشابه فقد تم التكلم عنها بطريقة حيادية.

ومع ذلك فإن التوراة ـ الحكمة كانت مؤنثة في بعض الأعمال الصوفية. وقد قارن **الزوهاريون** بينها وبين عذراء جليلة القدر، محجوبة في غرفة معزولة في قصر من القصور، مع عاشق سِرّي لا يعرفه غيرها. وكان هذا العاشق قد حام حول القصر محاولاً أن يحصل على نظرة منها، ففتحت باباً صغيراً للحظة وكشفت عن وجهها لحبيبها، ثم انسحبت بسرعة. وعرف العاشق أن هذا التجلي الخاطف قد تم بفعل الحب، ولذلك وهب قلبه وروحه لدراسة التوراة.

في البدء تكلمتْ معه من خلف الحجاب ليتلاءم ذلك مع طبيعة إدراكه، ثم نطقت بالألغاز والتشابيه من وراء حجاب شفاف مصنوع من أنعم شبكة. وأخيراً كشفت العذراء عن وجهها وتحدثت معه عن كل أسرارها.

لم يؤول اليهود **الكاباليون** القروسطيون، وخصوصاً في إسبانيا، نشيد الإنشاد، على أنه الحب واتحاد الرب والروح، حسب الطريقة الصوفية المسيحية. وكان المكان الوحيد الذي استَخدَم فيه **الزوهاريون** اللغة الجنسية بصدد العلاقات بين الإنساني والمقدس، هو أثناء الإشارة إلى **الشيخيناه**. والشيخيناه (بمعنى الكمون) مصطلح تلمودي للتعبير عن الحلول وعن كلية وجود الله. وكان يُعتقد أن موسى توقف عن ممارسة الجنس مع زوجته بعد أن وقف أمام الرب وجهاً لوجه فوق جبل سيناء. وقال **زوهار** إن موسى اتصل جنسياً **بالشيخيناه**، كزواج صوفي.

واستُخدمت اللغة الجنسية من قبل الصوفيين **الكاباليين** في وصفهم علاقة الله نفسه بالشيخيناه. وكان الله في هذه الميثولوجيا الصوفية (**عين سوف** En Sof)، أي الـ «لامنتهي»، المطلق، غير المحدود. وتنطلق من هذا المطلق عشر **سيفيروتات**، أي كينونات مجردة تضيء الكون. والكينونة العاشرة الأخيرة من هذه الكينونات، والتي تمثل انسجام كل **السيفيروتات** وحضور الله في الكون، هي كمون الشيخيناه. وبسبب إثم الإنسان اغترب الشيخيناه ولم يعد يوجد إلّا لدى أفراد أو جماعات معزولة. ولذلك، تقع في مركز اهتمام الكباليين، إعادة اتحاد الشيخيناه مع الـ (**عين سوف** En sof). ولا يتلكأ الكاباليون في استخدام الخيال الجنسي في هذا الموضوع. وكان لغز الجنس يعبر عن حب الله لشيخيناه، والاتحاد المقدس بين الملك والملكة، أو بين العريس السماوي والعروس السماوية.

وطرأ الكثير من التغيرات في الخيال الجنسي وفي التأمل في الإنجاب البدائي، وفي البذرة التي بُذِرَتْ في «الأم السماوية»، وفي الفعل الإلهي، الذي أتت السيفيروت من رحمه. وظهرت الرمزية القضيبية في تأملات عن الكينونة

الرابعة للسيفيروت، في «يوسود» المنبع الذي نبع فيه السيفيروت الأعلى وصب في الشيخيناه مثل سريان الحياة التناسلية في الكون. وأخذت إشارة (علامة) الختان لتبيِّن أن الإنجاب الغامض يحتل مكانه الصحيح[1].

ليس مستغرباً استخدام المصطلحات الجنسية في دين له موقف إيجابي تجاه الحياة المادية. ولكن تطبيق ذلك على الله نفسه مثّل نقلة جديدة. ويقودنا هذا الأمر إلى التأكيد، مرة ثانية، على أن الزواج كان أكثر المسائل الغامضة قدسية، على اعتبار أن الزواج الحقيقي كان تحقيقاً رمزياً لاتحاد الله مع شيخيناه. واتخذت العبارة الواردة في سفر التكوين عن أن «آدم عرف زوجته حواء» كإشارة بأن «المعرفة» تعني تحقيق الاتحاد، مثل زواج الملك والشيخيناه.

وكانت علاقات الله بالإنسان أو مع الإنسان في **المذهب الهاسيدي** اليهودي الألماني في القرون الوسطى علاقات حب عاطفي ـ حسبما كانوا يقولون. فـ «الروح مفعمة بحب الله، ومكبلة بحبال الحب... وتشتعل بلهيب الحب القلبي، ويملأ القلب الجذل والسرور». وفوق ذلك، كانت هذه العلاقة توصف بعبارات عاطفية جنسية (شهوانية) وكان الحب الأرضي يعبر عن العواطف السماوية، أي «الاستدلال من طبيعة العواطف الحسية على العواطف الروحية. وإذا كانت قوة الحب الحسي كبيرة جداً، فكم تكون عظيمة عاطفة حب الإنسان لله»[2].

وكانت التعابير الفنية الجنسية (الشهوانية) تستخدم في بعض الكتابات **الهاسيدية** بصدد الحركات العنيفة أثناء الصلاة والتي كانت توصف وكأنها «جماع» مع الشيخيناه. واستخدم قول أيوب «من جسدي أنا أشاهد الرب» في التعبير عن تماثل الطفل كنتيجة للجماع الجسدي بوساطة «العضو الحيوي» مع الجماع الروحي وهو دراسة التوراة والصلاة «التي تؤدى بواسطة عضو حيوي أيضاً وبغبطة وسرور». وهناك وصف مباشر أكثر يقول: «وكما يبدأ الإنسان بالنوسان أثناء الجماع» كذلك يجب أن ينوس الإنسان في البدء أثناء الصلاة، وبعدئذ يصبح ثابتاً ومرتبطاً بقوة بوساطة الشيخيناه. ويحوز الإنسان عن طريق

النوسان درجة عالية من اليقظة، لأن الشيخيناه تقف فوقه وهو يحقق درجة عالية من الحماسة[3].

وصدمت هذه اللغة الأصولية (الأرثوذكسية) و«المتنورين» المعارضين لتعصب المذهب الهاسيدي، وحدثت ردات فعل بين الهاسيديين أنفسهم وتمت المطالبة بخدمة الله بالروح وحدها، من دون أداء أي حركة جسدية، مع أن النوسان أثناء الصلاة مازال يمارس حتى يومنا هذا عند بعض الفرق الهاسيدية. ومُنِعت النساء من الاطلاع على تعاليم الصلاة الهاسيدية الجنسية باعتبارها اتصالاً جنسياً للمتعبد الذكر مع الشيخيناه المؤنثة. وفي حين كن يقدمن صلواتهن، لم يُناقَش وضعهن في الأدبيات الهاسيدية الكلاسيكية المفصلة.

وبصورة عامة، فقد كانوا يتكلمون عن السبت برمز جنسي. وكان السبت يقترن بالجمال الإلهي، ثم أصبح العريس الذي تلتمسه العشيقة. فبعد غروب الشمس مساء يوم الجمعة، تتقدم المعشوقة إسرائيل، للقاء العريس، السبت، وهي تغني أغاني الاستقبال والثناء. واعتاد كاتبٌ صوفي اسمه **سليمان الكابيتز** أن يخرج إلى الحقول مع أصدقائه عند غروب الشمس مساء يوم الجمعة ليحيي السبت العريس. وتحتل ترتيلته اليوم مكاناً مُشرِّفاً في الشعائر الكنسية:

تقدم يا صديقي، للقاء العريس

تعال يا صديقي، فالسبت يحييك[4].

هوامش المؤلف للفصل التاسع

1 – G.G. Scholem, Major Trends in Jewish Mysticism, 1955, PP. 225 ff.
2 – G.G. Scholem, Major Trends in Jewish Mysticism, PP. 95 ff.
3 – L. Jacobs, Hasidic Prayeer, 1972, pp. 60 f.
4 – I. Epstein, Judaism, 1959, P. 248.

الفصل العاشر

الاختلاف المسيحي

لكل دين من الأديان بعض من الخصائص المميزة، والمسيحية ليست الدين العام الوحيد الذي بدا من يوم انبثاقه أنه يصر على أحادية الزواج. فالمسيحية كانت ديناً إصلاحياً، نشأ من المذهب الطبيعي العبري، ولكن البوذية أيضاً كانت إصلاحاً في الهندوسية إلا أنها لم تدعُ بإصرار مماثل إلى الزواج الأحادي. وينبغي أن يُقدِّم الزواج الأحادي، نظرياً، إمكانات أفضل لتأمين وضمان حقوق متساوية لكل من الزوج والزوجة، وأن يُظهر أرقى احترام للحب الزوجي. ولكن لسوء الحظ، فإن مثل هذه المُثُل لم تبقَ لقرون كثيرة الأوفر كرامة. ولم يحدث قبل العصر الحديث أن أصبح معناها مُدرَكاً بصورة عميقة.

الجذور الاجتماعية غير اليهودية:

المسيحية دين مركب، وهو يتألف، بصورة رئيسة من الفكر العبري والفكر اليوناني، وشيء من التأثيرات الأخرى. ولهذا الدين جذور عميقة في المذهب الطبيعي العبري الذي عُدَّ الجنس فيه مخلوقاً من قِبَل الرب، مع تأكيده على الإنجاب (التناسل)، وعلى الهيمنة الذكورية. ووُجِدت اتجاهات متقشفة (تزهدية) بين الأسينيين، لكن حملات العداء للجنس جاءت إلى الكنائس المسيحية الفتية من خارج اليهودية. وقد انتقلت المسيحية بسرعة إلى العالمين اليوناني والروماني، وأصبحت ديناً عالمياً، بعد أن كانت مجرد طائفة صغيرة.

وتكبّد الدين الجديد، أثناء ذلك، من الخسارات بقدر ما حقق من المكاسب. وأثّرت الأشكال المتنوعة للزهد، منذ فترة مبكرة، بالدين الجديد، مثل الزهد: اليهودي واليوناني، وربما البوذي، والغنوصي والمانوي والياني.

كان اليونانيون يؤمنون بآلهة كثيرة، وكان المعبد (pantheon) عندهم يشبه الهيكل الآري الهندي الذي تربطهم به صلة بعيدة. لكن الڤيديين كانوا أكثر تديناً من هوميروس وقد استثمروا الجنس لدى الآلهة الهندية في خلق ميثولوجيا دينية(*) أكثر إحكاماً من الميثولوجيا اليونانية. وقد أُطلق على **برنابا** و**بولس** اسمي **زيوس** و **هرمس** في **ليسترا**، **وفي أفسوس** ثار متعبدو آرتميس ضد **بولس**؛ **الذي وقف في أثينا** على **الأريوباغوس** (المحكمة العليا في أثينا القديمة)، وعلى الأغلب رفع نظره إلى المعبد (pantheon) عندما كان يبشّر.

كان **زيوس باتر**، مثل **دياوس بيتار** الهندي **وجوبيتر** الروماني، إله السماء والمطر، حامي حمى الأسرة والقوانين العرفية. غير أن الميثولوجيا تنسب إلى زيوس علاقات غرامية غير شرعية لا تعد ولا تحصى. واكتسب إغواؤه لـ **أوروبا** و **داناي** و **إيو** شعبية في الفن، وخصوصاً إغواؤه لـ **ليدا** التي بقي اغتصابه لها، في شكل شخص فائق الجمال، يسحر الفنانين الأوروبيين برمزيته القضيبية. وربما بقيت لوحة موزاييك تُرَى حتى القرن الرابع في ڤيلّا رومانية في **لينغستون** من منطقة **كنت**، تصوّرُ، في غرفة المائدة، **زيوس** كثور يحمل **أوروبا**، في حين كانت غرفة واطئة في الجوار عبارة عن كنيسة مسيحية صغيرة. وربما أدى إلى سقوط **زيوس** ذلك النجاح الباهر الذي حققه الفن والأدب الإغريقيان اللذان شخّصا بصورة فاضحة مغامراته. وكما لاحظ **جيلبرت موراي**، «كانت عبادة الرموز القضيبية للخصب، التي كانت شائعة في كل أنحاء شرق البحر المتوسط وفيما وراء هذه البلدان، جليّة في حد ذاتها، ولم تكن، بالضرورة، مخزية.

(*) أي مجموعة الأساطير المتصلة بالآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال الخرافيين عند شعب من الشعوب. م.

ولكن عندما تأخذ هذه الرموز صفة بشرية بشكل أو بآخر، تكون النتيجة إلهاً بصفات بشرية ذا طاقة تناسلية هائلة، وصاحب علاقات غرامية غير شرعية لا تُعدّ. ودين مُتكيّف بهذا الشكل لا بدّ أن يتلقى ضربة مميتة... والأولمبيّون سيّئو الحظ، الذي كان نظامهم يهدف فعلاً إلى بلوغ أخلاق أكثر طهارة، وإلى شجب تعدد الزوجات والأزواج، تُركوا مع الكثير من الأزواج والزوجات الذين تفوقوا على سليمان [الحكيم]»[1] وواصلت الفرق الهندية التي تعبد شيئاً القضيبي ازدهارها.

ووجّه الفلاسفة نقدهم إلى أساطير **هوميروس** و **هيزيود** وغيرها من أساطير الشعراء اليونانيين، وهاجم أفلاطون في جمهوريته تمثيل دور الآلهة والأبطال. إلا أن لومه كان يوَجّه بالدرجة الأولى إلى قصص المعارك ومكائد الآلهة، وحنثهم بأيمانهم ووعودهم، أكثر مما يوجه إلى سلوكهم الجنسي.

وتكلم أفلاطون في «الندوة» عن الحب الأرضي والسماوي، فعَدّ الأول من عمل «أفروديت الأرضية»، حيث كان الرجال «مسحورين جداً بالنساء وبالغلمان». ورأى أفلاطون أن الحب السماوي كان ينبع «من إلهة ليس لصفاتها المميزة أي شيء له علاقة بالأنوثة»، وأن كل هذه الصفات ذكورية، وهي بريئة من أية إشارة إلى الفسق.

وغالباً ما كانت تُعطى قيمة مثالية للممارسات الجنسية الشاذة من قِبَل الذكور في اليونان، وكانت ـ إلى حد ما ـ تُقونن. وقد تسربت، لاحقاً، إلى المجتمع الروماني. ووُجِد كثير من المحظيات والمشبوهات والمومسات من الدرجة المنحطة. وكانت مسرات الجسد مقبولة، مع أن الفلاسفة مثل أرسطو، أشاروا إلى أهمية الاعتدال «السوفروزون»، الحد الأوسط بين الإفراط في الشهوانية والإعراض عن الجنس. وتعدّ هذه التعاليم أهم من التعاليم الوسطية البوذية.

ويُعَدّ أفلاطون مسؤولاً عن فكرة ثنائية الجسد والروح، وعن فكرة التعارض بينهما. وهذه الفكرة ليست فكرة عبرية البتّة وقد أصبح لها تأثير

مخرب لرأي المسيحية بالزواج. كتب أفلاطون عمن يطلقون على الجسد اسم قبر الروح، وبدا كما لو أنه لم يكن واثقاً تماماً من الموضوع، وقال في مكان آخر بأن الجسد عائق أمام الروح، وأن مسرّاته وضيعة ومصدر للشرور. «إن الجسد يملؤنا بالحب والرغبات والمخاوف وكل أنواع الخيالات وبكمية كبيرة من التفاهة»، بحيث أن الإنسان الذي يبحث عن الحقيقة، يفعل ذلك «بالانقطاع، قدر الإمكان، عن عينيه وعن أذنيه، وعملياً، عن باقي جسده العائق الذي يمنع بوجوده الروح من بلوغ الحقيقة والفكر الجلي»[2].

في ردة فعلهم ضد الانحلال الجنسي في العصور الكلاسيكية دعا الفلاسفة اليونانيون المتأخرون إلى الزهد الذي يعني إماتة الجسد، أي كبح الشهوات عن طريق التعذيب الذاتي. ودفعهم تشاؤمهم أو «فشل أعصابهم» إلى هجر العالم المادي. ساعدهم على ذلك انحطاط قدر المرأة والزواج في نظر معاصريهم. ومع أن **ديوجينيس** مؤسس المذهب الكلبي في القرن الرابع قبل الميلاد قد ادّعى بأن ما هو طبيعي لا يمكنه أن يكون بذيئاً أو غير شريف بل ينبغي القيام به علناً؛ فقد عاش هو نفسه في فقرٍ مدقعٍ وتجنّب أتباعه ملذات هذا العالم، ومن ضمنها الزواج والأسرة. وسعى الرواقيون إلى العيش بالتوافق مع العقل أو الطبيعة، ضاربين عرض الحائط بما عدا ذلك؛ مما أدى إلى رفض الروابط العائلية. وحتى أن **الأبيقوريين** الذين سعوا لبلوغ «السعادة في هذه الحياة» لم يقوموا بذلك بصورة مباشرة لأن هدفهم كان يتمثل في الهروب من العالم. وعاش أبيقور في معتزله (البستان) حيث وجد فيه الرجال والنساء، الشرفاء والمحظيات الإغريقيات، ملجأً، وعاشوا حياة بسيطة ولم يتناولوا اللحم أو الخمر. وقد اتهمهم أعداؤهم بالفسق، إلا أن أبيقور قال: إن «الرجل الحكيم لايقع في الحب» وإن «الاتحاد الجسدي بين الجنسين لم يكن نافعاً في يومٍ من الأيام، وهو مؤثر إن لم نقل مؤذ». ومالَ **الفيثاغورثيون الجدد** نحو ثنائية تتضمن تعاليم لكبح النفس عن الشهوة الجنسية، وعَدّوا الاتصال الجنسي بمنزلة دَنَس.

وكان لدى روما القديمة تصورٌ أرقى عن الزواج مما كان شائعاً لدى

الإغريق، وكان الهدف الرئيس للزواج هو الإنجاب وإنتاج نسل يخدم الآلهة والدولة معاً. وكانت أم الأسرة، في عهد الجمهورية القديم، تحظى بالاحترام وبشيء من الحرية. إلا أنها كانت خاضعة لأبيها قبل الزواج ولزوجها بعده. وعندما طالبت النساء بحقهن في الاستقلال في فترة غياب لمدة ثلاث ليال، ازدادت حالات الطلاق، وانفرط عقد الأسر. ثم تقوّضت طهرية روما القديمة بسبب إدخال الممارسات الإغريقية وفساد الشبيبة. ومع أن مُثل الزواج والحياة العائلية قد واصلت هيمنتها في كثير من المقاطعات الرومانية، فقد أصبحت المدن والمرافئ في الإمبراطورية الرومانية مرتعاً خصباً لكل أنواع الرذيلة. وكانت حياة معظم الأباطرة الرومان أنفسهم ملطخة بسبب الفجور والقسوة الزائدة، مما أفسح في المجال أمام الفلسفات التزهدية وأمام الأديان الشرقية لكي تدخل إلى عقول الناس المُتّزنين وتكون بمنزلة هواء طلق في عالم فاسد. ووافق **إدوارد جيبون،** الذي لم يكن صديقاً للمسيحية في أيامها الأولى، على أن أحد الأسباب الرئيسة لانتصار المسيحية يتمثل بـ «الأخلاق النقية الطاهرة والصارمة للمسيحيين».

إن نزعة الزهد التي تتنكر للدنيا وتنتقص من قدر الزواج أثّرت في المسيحية بفضل الفلسفات التي كانت سائدة في العالم **الهلنستي**، ولا يُستبعد أن تكون قد أحدثت تأثيرات أخرى. وليس معروفاً المقدار الذي أثّرت به التقشفية **البوذية** و **اليانية** في العالم الغربي. لكن **كلمنت الاسكندراني** كتب في نهاية القرن الثاني عن «أولئك الهنود الذين يطيعون تعاليم **بوتّا** Boutta». وأشار أيضاً إلى تبتل «الفلاسفة العراة»، وأعضاء الطائفة التنسكية في الهند، وربما القساوسة اليانيين الذين «لا يعرفون الزواج ولا إنجاب الأطفال». وفي القرن الرابع دعم **جيروم** ادعائه بأن العذرية أرفع شأناً من الزواج، بالذريعة الملتبسة القائلة بأن العذرية قُدّرت تقديراً عالياً بين الوثنين، لدرجة أن بعضهم آمن بولادة العذارى. وقال بأن الاعتقاد كان سائداً «بين المتصوفة الهنود أن بوذا، مؤسس عقيدتهم، وُلِدَ من عذراء وظهر من جانبها». علماً أن أم بوذا كانت متزوجة، ولا يؤمن اليانيون بمثل هذه العقيدة.

ووُجِدت أشكال كثيرة من الغنوصية (العرفانية) التي أثّرت في الكنيسة القديمة، محدثة اتجاهات من أديان وفلسفات وثنية نظرت إلى المادة وكأن الشر متأصل فيها. ونقرأ في العهد الجديد عن «عقائد مدمرة» تمنع الزواج وتدعو إلى «الامتناع عن تناول بعض الأطعمة» (1 ، تيموثاوس 4 و 3) لكن **الغنوصيون** سرعان ما أصبحوا أقوياء في الكنائس القديمة، يُعلّمون الـ«معرفة» الخاصة (المعرفة الروحية، الغنوص) التي لا تتجلى إلّا للروحاني بينما للآخرين الجوانب الجسدية أو المادية. وفي القرن الثاني، رفض **مارسيون** الذي كان لمجيئه من الشرق معنىً خاصاً، حيث كانت العقائد الثنائية مزدهرةً، رَفَضَ العهد القديم ذو الإله المشرع لمصلحة **إله الحب** الذي دعا إليه يسوع وشرحه **بولس** على أساس التعارض بين الجسد والروح. إلا أنّ هذا الحب كان روحياً فقط. وتم شجب الزواج والإنجاب وكأنهما من عمل الشيطان.

ووصلت الثنائية القصوى للمانوية إلى الغرب في نهاية القرن الثالث، وأثرت تأثيراً كبيراً على **أوغسطين من هيبو**. وكان مؤسس المانوية «ماني» عاش في بلاد فارس في القرن الثالث الميلادي. وحسب **أوغسطين**، فإن «ماني» علّم الناس وجود عنصرين أولين في الكون، هما الله والمادة. ويأتي الخير كله من الله، بينما يأتي الشر من المادة التي أطلق عليها أيضاً اسم الشيطان. ولم تكن المادة إلهاً. ويختلف هذا الاعتقاد عن الأفكار الزرادشتية التي ترى أن إله النور وإله الظلمة توأمين روحيان، وأن المادة قد خلقها إله الخير. وعلى النقيض من الزرادشتية آمن **المانويون** بأن المادة كانت شهوة جنسية، و«حركة فوضوية في كل شيء وُجِدَ». وكانت المادة أو الشهوة الجنسية مؤنثة، وهي «أم لكل الشياطين»، وكانت الروح أسيرة فيها. وكان هدف الدين تحرير الروح، وكان التقشف القاسي يمارس من أجل بلوغ هذه الغاية. وانتشر الدين المانوي بسرعة، وعُرف في روما في القرن الرابع، وكان ذا نفوذ كبير في شمال أفريقيا. ولم يُعرف مقدار تأثير أفكاره على الطوائف اللاحقة، مثل الكاثارية، و«التطهيرية» في القرن الثاني عشر. إلا أن تهمة المانوية وُجِّهت للكثيرين ممن أكدوا على التناقض بين الروح والجسد واعتقدوا أن الجنس غير نظيف.

تعاليم يسوع وممارساته:

كان يسوع يهودياً وكانت كلماته عن الجنس والزواج مأخوذة من الجذور التاريخية العبرية. وقد بدأت الأفكار الهلنستية والثنائية بالظهور مع بولس. وكان يسوع يعيش في الجليل الذي ربما كان أقل صرامة في ممارسة الطقوس من اليهودية. وكُتِبت الأناجيل التي تروي حياته وتعاليمه باليونانية.

أكد يسوع على حالة الزواج الأحادي باعتبارها مفروضة من قِبل الرب، أكثر من كونها تعليماً جديداً، و«من بدء الخليقة ذكر وأنثى خلقهما الله». وجاء في سفر التكوين أنه «من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً، إذاً ليسا بعد اثنين، بل جسد واحد». (مرقص 10 ، 6 - 9).

وقد صيغ هذا التعبير في سياق الحديث عن الطلاق، ويواصل يسوع كلامه قائلاً: «فالذي جمعه الله لا يفرقه الإنسان». وكان مثل هذا النقد للطلاق ضد العادة اليهودية والقانون الموسوي الذي قيل إنه سمح بالطلاق «من أجل قساوة قلوبكم». وقال يسوع من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزني عليها»، وكذلك «إن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر، تزني» وجاءت هذه العبارات في إنجيل مرقص ولوقا، ومرتين في إنجيل متى.

ويبدو أن ذلك درس أخلاقي رفيع المستوى، إلا أنه صعب، وصِيْغَ كثيرٌ من هذه العبارات في مواقف الكنيسة الصارمة تجاه الطلاق في المراحل اللاحقة. ويبدو أن المسيح كان يتطلع إلى الهدف من عملية الخلق، آخذاً بعين الاعتبار المثال الإلهي في خلقه الرجل والمرأة وفي وحدانية كل منهما وفي وحدتهما. وفي مثل هذا السياق فيما يخص الرجل المتزوج أو المرأة المتزوجة، فإن اتخاذ أي منهما شريكاً آخر لا بد أن يكون ضد الوحدة في خلقهما. وأوضح بولس، فيما بعد، وحتى فيما يخصه، فإن «من التصق بزانية هو جسدٌ واحدٌ لأنه يقول يكون الاثنان جسداً واحداً». ومع ذلك فقد كان بإمكان المؤمن المسيحي أن ينفصل عن شريك غير مؤمن (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس 6).

إن المثال الذي ضربه يسوع عن الوحدة الزوجية وعدم الافتراق كان متوازياً مع مُثُله الأخرى، فهو لم ينتقد فقط فعل الرغبة الجنسية، بل انتقد أيضاً هذا الفعل في الخيال: «إن كل من يَنظر إلى امرأةٍ ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه» (متى 5 ، 28) ولكن الاهتمام نفسه مع التصميم، إضافة إلى الفعل، أتت كلها برفقة صيغ عن حلف الأيمان وقول الحقيقة، والقتل والغضب، ومقابلة الأذى بمثله، ولفت الخد الآخر، وحب الأصدقاء والأعداء.

وسمح إنجيل متى باستثناء واحد بالطلاق، «ماعدا سبب الزنى»، مع أن معظم الأدباء يقدرون أن هذه الإضافة جاءت فيما بعد، لأنها لم تظهر في باقي الأناجيل. وقدّم متى أيضاً الحواريين وكأنهم يهتفون إذا كان الطلاق زنى، فإن من الأفضل أن لا يتم الزواج. وعلى ذلك أجاب يسوع بأن البعض وُلدوا مخصيين، والبعض فُعل بهم ذلك، والبعض أصبحوا مخصيين لمملكة السماء وبعض أنواع التبتل سوف تبرأ من الإثم.

إن الصرامة في منع الكنيسة للطلاق في المراحل اللاحقة، وتطبيق المثال الذي قدمه المسيح بصورة محددة، لم يشمل باقي مُثُله. فالكنيسة غالباً ما أقرت انتزاع الحياة في أيام الحرب أو أقرت عقوبة الإعدام، وأصرت على حلف الأيمان في المحاكم المدنية والدينية. وفي الوقت الذي أهملت التطبيق الحرفي لتعاليم يسوع المثالية، طالبت الكنيسة بالطاعة الحرفية للمثال ضد الطلاق. واعتبر الطلاق كأنه إثم لا ينسى، مع أن هذه الخطيئة الغامضة أشار إليها المسيح كإثم ضد الروح القدس.

إن معظم تعاليم المسيح عن الأخلاق، بما فيها التعاليم بصدد النظر إلى المرأة برغبة جنسية، يمكن أن تتوازى مع تعاليمه بشأن الحاخامين الذين عدّوا الزواج المثالي هو الزواج الأحادي المؤقت. ويبدو أن تحديد المسيح كان بمنزلة تنشيط لمقاربته، مُزيحاً المماحكات حول الشريعة، وإنشاء علاقة مفتوحة على الأسلوب الشعبي. ويجب رؤية مواقفه الأخلاقية في أفعاله كما في تعاليمه المسجلة. وكان يدعى باسم «الرجل اللزج والمدمن على الخمر» وكانت سمعته

سيئة لأنه كان «صديق جباة الضرائب عند الرومان والمذنبين». وكان جباة الضرائب للدخل الحكومي، مكروهين بسبب جشعهم، وأخلاقهم المتدنية، التي منحتهم في العصور الحديثة لقب «بائعي أوطانهم». ويضم «الآثمون» كلاً من أولئك الذين يتجاهلون القواعد الصارمة للشريعة، والناس الذين يعيشون بلا أخلاق. ويعكس كل ذلك الحاجة الماسة إلى الله، وقال يسوع إنه قد أتى «ليس لدعوة المحقين إلى التوبة، بل الآثمين».

وعندما كان المسيح يأكل في بيت فرّيسي، بكت امرأة على قدميه، ونشفتهما بشعرها، ومسحتهما بالزيت الثمين. وكانت تعرف بأنها «خاطئة»، مع أنه ليس من الواضح إن كانت آثامها جنسية، فإن الفرّيسي أظهر أن المسيح كان ينبغي أن يعرف شيئاً عن عدم نظافتها. إلا أن المسيح تكلم عن حبها (وكان ينبغي أن يُشار فيما لو كانت مومساً) وأنه كان لديها الكثير لكي يُغفر لها. «غُفِرَتْ خطاياها الكثيرةُ لأنَها أحبّت كثيراً» (لوقا 7 ، 47).

وفي حادثة أخرى، أُخِذت امرأة لأنها ارتكبت «الزنى» وجُلبت إلى المسيح، واستفسر الناس فيما إذا كانت ستُرجم بالحجارة، وفقاً لما تنص عليه شريعة موسى. وقد يذكرنا ذلك بالحديث الشريف الذي سجل استفساراً مماثلاً لمحمد (انظر الصفحة 215 من هذا الكتاب). وقد نصت الشريعة (شريعة موسى): إن «كلاً منهما سيموت» ولم يُذكر أن الذّكر المعتدي قد ظهر في الرواية، في حين أن المرأة قد أُخذت «بالجرم المشهود». ومثل هذا الرياء، وتطبيق المبدأ ضد «النظر» إلى امرأة بشهوة جنسية جعلا أمر المسيح واخزاً بقوله «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر». وعندما ذهبوا جميعاً، قال المسيح للمرأة: «ولا أنا أدينك، اذهبي ولا تخطئي أيضاً» (يوحنا 8 ، 11).

لقد أثّر المسيح على معاصريه بممارساته وبمشاركته للمنبوذين، وحنوّه على المحتقرين وأصحاب الأخلاق المريضة، ولمعالجته المصابين. وفيما يخص حياته الخاصة فإن ما هو معروف قليل جداً. فهل كان المسيح متزوجاً؟ إذ من غير العادي لليهودي أن يمتنع عن الزواج. ومع ذلك فإن فكرة زواجه مثيرة لاشمئزاز

بعض المسيحيين ممن يؤمنون بألوهية المسيح، ويتضمن ذلك تقليدياً تجسيده التام، في «الجسد» الذي هو من نصيب كل البشرية. غير أن النصوص تبقى صامتة، ولا نجد حقائق أكثر إن كان عن زواجه أم عن اهتمامه بالجنس. وجذب المسيح التلاميذ من الذكور والإناث، ويبدو في عيد العنصرة أن الروح القدس نزلت على التلاميذ الاثني عشر وعلى زميلاتهم من الإناث «النساء» ومريم أم يسوع.. (أعمال الرسل 1 ، 14) وكان ترسيماً روحياً.

ونجد بعض التعاليم الزهدية في الأناجيل، وتوازي هذه التعاليم أفكاراً مماثلة في الأحزاب اليهودية أيام المسيح. وكان الزمن زمن اضطرابات عامة اجتماعية وسياسية، وكان كثير من الناس يتوقع حدوث صراعات كبيرة أو انتهاء الزمان. وتراجع البعض عن العالم استعداداً لذلك. والذين عُرفوا بهذا الموقف أكثر من غيرهم هم الأسينيون **Essenes**. وقد أمكن التعرف على بعض عقائدهم عند اكتشاف أوراق البردي قرب البحر الميت عام 1947 وليس معروفاً إن كان يوحنا المعمدان أو المسيح قد تعرف على هذه المجتمعات؛ إلّا أن من المحتمل أن يكون قد تعرف عليها أثناء قضائه أربعين يوماً في الصحراء. وتُقدم لفائف أوراق البردي المُشار إليها بعض الصور عن الإطار الديني والثقافي في الأيام الأولى للمسيحية. وقد عاش بعض الأسينيين في الأماكن الصحراوية مثل قمران؛ وعاش غيرهم في المدن. يقول المؤرخ **يوسيفوس**: إن البعض منهم لم يشجعوا الزواج، ولم يفعل ذلك غيرهم. ويبيّن واقع أن الهياكل العظمية للنساء لم تدفن، أن تلك المجتمعات كانت أقل تطرفاً من غيرها. وتحرم لفافة البردي التي تتحدث عن المعبد العلاقات الجنسية في أي مكان في مدينة أورشليم (القدس)، ويعارض الطلاق أيضاً. وتشير وثيقة (زادوكيت الصّدّوقيين) إلى أن أعضاء في مجتمع قمران تزوجوا وأنجبوا أطفالاً، وطلبوا من أولادهم أن يتبعوا تعاليم الشريعة (الناموس) وقواعده فيما يخص علاقة الزوج بالزوجة وعلاقة الأب بالطفل.

لقد كان **الأسينيون** مراقبين صارمين للقانون (الشريعة). وفي الوقت الذي تقترح فيه بعض آيات الإنجيل سلوكاً مماثلاً فقد كانت هناك آيات أخرى أقل

صرامة، كما في التعامل مع يوم السبت. إلا أن المسيح يُقدَّمْ في الأناجيل وكأنه يطلب الولاء لنفسه، حتى قبل الولاء للروابط العائلية. وطبقاً لمتّى فإن المرء يجب ألّا «يحب» الأم أو الأب «أكثر مني» (متى 10 ، 37) وفي إنجيل لوقا: فإن التلميذ يجب أن «يكره» أباه وأمه، وزوجته، وطفله (لوقا 14 ، 26) فالأولوية هي الإخلاص للمسيح. يأتي بعده الإخلاص للحياة العائلية، الأمر الذي يتضح من خلال حقيقة أن بطرس وباقي الرسل من بعده أخذوا زوجاتهم معهم في رحلات التبشير (كورنثيوس 9 ، 5) ولوَّن قربُ الأمل بالوصول إلى مملكة الرب كل الفكر المسيحي القديم. ولكن أصبح ضرورياً مع مرور الوقت إجراء تعديلات على المعتقد.

بولس والآخرون:

كان **بولس** يهودياً فخوراً بكونه «عبرانياً من العبرانيين، خُتن في اليوم الثامن»، كما تنص شريعة الفرّيسي (فيليبي 3 ، 5) وكان أيضاً مواطناً رومانياً، كتب كل رسائله باللغة اليونانية، وقد جاء من طرسوس في آسيا الصغرى، وقدم بعض الأفكار الجديدة للجذور التاريخية العبرية. وأدين **بولس** إدانة فضفاضة بسبب تلفيقه تعاليم صارمة إزاء الجنس والزواج، مع أنه كان وفقاً لأساليب أخرى، أحد المعلمين المسيحيين الأوائل الأكثر أصالة وتنوّراً، وكان هو الذي قال: «إن كل الأشياء طاهرة في نظر الطاهر».

تكلم النبي **هوشع**، الذي مر ذكره، عن يهوه كزوج غفور لإسرائيل. وأخذ **بولس** هذه الفكرة نحو أبعادٍ أبعدَ بغية عرض التضحية الدينية كمثال عن الزواج الإنساني، فقال: «أيها الرجال أحبوا نساءكم، كما أحب المسيح الكنيسة، وأسلم نفسه لأجلها» (أفسس، 5 ، 25). واتخذ **بولس** من الرمزية الوثنية القديمة بصدد الزواج المقدس، واتحاد الإله مع الشعب، التي شذبها الأنبياء، اتخذ منها رمزاً للافتداء الإلهي ونموذجاً للاتحاد الأرضي.

وطور **بولس** تعاليم يسوع المأخوذة من سفر التكوين عن اتحاد الرجل والمرأة: «على الرجال أن يحبوا زوجاتهم وكأنهن جسدهم الخاص.. ولهذا

السبب فإن الرجل يترك أباه وأمه، ويرتبط بزوجته، ويشكل الاثنان جسداً واحداً. وهذا سر عظيم». ومع ذلك ظلّ التقليد العبري القاضي بأولوية الرجل وخضوع المرأة قائماً. وطُلب من المسيحيين: أن «أخضعوا أنفسكم أحدكم للآخر». ولكن على الزوجات أن «اخضعن لرجالكن كما للرب، لأن الرجل هو رأس المرأة، كما أن المسيح أيضاً رأس الكنيسة». ومرة ثانية «كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم. من يحب امرأته يحب نفسه (أفسس 5 ، 28) وعلى الزوجة أن ترى أنها تحترم زوجها». ويرى بولس في مكان آخر أنه يجب الارتقاء في الدين الجديد إلى ما فوق الفوارق في الجنس، حيث «ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبدٌ ولا حرٌّ، وليس ذكر وأنثى، لأنكم جميعاً واحدٌ في يسوع المسيح» (افسس 5 ـ 21 ـ غلاطية 3 ، 28).

كان بولس معلم مناسبات أكثر منه معلماً نمطياً. وتطورت عقائده خلال فترة ثلاثين سنة، وفقاً لمتطلبات الحضور المتنوع. وكانت معالجته للممارسة الجنسية في الرسالة الأولى إلى الكورنثيين واقعية ومركزية فيما يخص فكره. والاتصال الجنسي لم يكن فعلاً طارئاً، أو مجرد تمرين للأعضاء التناسلية، بل هو تعبير عن كامل الشخصية الإنسانية. فالاتصال الجنسي (الطبيعي) يوحّد، إن كان بالزواج أو بالزنى، بنتائج متطابقة. «ألا تعرفون أن أجسادكم هي أعضاء للمسيح؟ وهل آخذ، إذاً، أعضاء المسيح وأجعلها أعضاء لموس؟» ويصبح الاثنان جسداً واحداً في أي جماع، حيث «أن من يرتكب الزنى يأثم بحق جسده هو» والذي هو هيكل الروح القدس.

ويتضمن الفصل التالي بعض التعاليم الرئيسة لبولس عن الجنس، وهي مُعقّدة وغالباً ما أُسيء فهمها. وينبغي أن يأخذ المرء بعين الاعتبار أمرين اثنين، يتمثل الأمر الأول في أن بولس كان يجيب على أسئلة أرسلتها إليه الكنيسة الكورنثية، وفي مدينة كانت مشهورة بالفجور والفسق. ويتمثل الأمر الثاني بأن بولس كان يتوقع مجيء نهاية العصر ولذلك كانت نصيحته محدّدة بتلك الفترة.

وهو يُفضّل من أجل الحاضر التبتل: «وأنا أتمنى أن يكون كل واحد مثلي»

بسبب «المحنة الراهنة» مادام «أن الزمن قصير». ومع ذلك كان الزواج ضرورياً لمعظم الناس. ولتجنب «الزنى فليأخذ كل رجل زوجة له، ولتأخذ كل امرأة زوجاً لها». وكان يُفضل لغير المتزوج أن يبقى عازباً، ولكن مادامت الشهوات قوية، فليتزوجوا إذا لم يستطيعوا أن يضبطوا أنفسهم لأن «من الأفضل أن يتزوج من أن يتحرق».

ولقد أُعطِيت هذه النصائح على أساس أنها آراء بولس، وليست ترتيبات دائمة، لأنها كانت «نصائح» ولم تكن «أوامر». ومع ذلك، فقد كان هناك أمر الله ضد الانفصال: «وللمتزوج أنا آمر، ليس أنا بل الرب: لاتدع الزوجة تفترق عن زوجها.. ولا تدع الزوج يطلق زوجته». وكانت مشكلة الشريك المسيحي بِقَرينٍ غير مؤمن حادة في الكنيسة الناشئة حديثاً، حيث نصح بولس في البداية المسيحيين أن يبقوا أمناء لشركائهم، إلا أنه سمح لغير المؤمنين بالافتراق إذا كان ذلك ضرورياً.

واعترف بولس بأنه لم يتلق أمراً إلهياً عن العذارى، وهو يقدّم رأيه الشخصي. ويعتقد أن المرأة غير المتزوجة ستعتني أكثر بالأشياء التي تخص الرب، في حين أن المرأة المتزوجة «تعتني بالأشياء، التي تخص العالم، وكيف يمكنها أن تسعد زوجها»، كما أن الرجل يسعى لإسعاد زوجته. ولم يكن ذلك لإعلاء العذرية بصورة دائمة على الزواج، بل كان يمكن للعذراء أو للقاصر أن تتزوج: «فليتزوجوا، فليس هناك خطأ».

ويبدو أنه كان لدى بولس نفسه ميل تجاه الزهد، مع أنه قال: إنه كان يملك الحق بأخذ زوجة معه في رحلاته، كما فعل بطرس وأخوة يسوع وباقي الرسل. وفَضَّلَ حالة العزوبة، في ظل ظروف ذلك الزمن، ولاحظ أن الله دعا بعض الناس للتبتل ودعا غيرهم لكي يتزوجوا.

وأعطى موافقة هامة على العلاقات الجنسية داخل إطار الزواج. ويجب على الزوجين ألا يمتنع أحدهما عن الجماع مع الآخر، مادام كلّ منهما يعطي الآخر سلطة على جسده «يجب أن يعطي الزوج الزوجة حقها، وعلى الزوجة

أيضاً أن تعطي الزوج حقه. ولا تستطيع الزوجة أن تدعي أن جسدها ملكها وحدها، فهو لزوجها. وكذلك الزوج لا يستطيع الادعاء أن جسده ملكه هو، فهو لزوجته. فلا يمتنع أحدكم عن الآخر» ومثل هذه التعاليم هي تعاليم عبرية تماماً، وهي ضد التصلب الذي نشأ، فيما بعد، في الكنيسة.

وأدان بولس الشذوذ الجنسي عند الذكور والإناث قائلاً: «لأن إناثهم استبدلن الاستعمال الطبيعي بالاستعمال الذي على خلاف الطبيعة، وكذلك الذكور أيضاً، تاركين استعمال الأنثى الطبيعي، اشتعلوا بشهوتهم بعضهم لبعض فاعلين الفحشاء ذكوراً بذكور ونائلين في أنفسهم جزاء ضلالهم المحق» (روميا 1 ، 26). ومرة ثانية كان القانون (الشريعة) ضد «أولئك الذين يدنسون الجنس البشري» (1 تيموثاوس 1 ، 10) وكان ذلك من التقاليد العبرية.

وكان من الصعب استثناء بولس من تعليم التعارض بين الجسد والروح بأسلوب فلسفي إغريقي أكثر منه عبرياً. «فالجسد يشتهي ضد الروح، والروح ضد الجسد، وهذان يقاوم أحدهما الآخر». (غلاطية 5 ، 17) ومرة ثانية فإن أولئك الذين يطلبون الجسد يهتمون بالأشياء التي تخص الجسد، ولكن «الذين هم حسب الجسد فبما للجسد يهتمون ولكن الذين حَسَب الروح فبما للروح». لأن «اهتمام الروح هو حياة وسلام» (رومية 8 ، 5) ويجادلون بأن «الجسد» بالمعنى العبري هو الشخصية كلها في سعيها للعيش مستقلة عن الله. وصنّف بولس «أعمال الجسد»، ومن ضمنها الشهوات الجنسية مثل الزنى، والنجاسة، والفسق. ولكن أُشِير أيضاً إلى المشاجرات، والحسد، والغضب، والطموحات الأنانية، والمكائد الحزبية. وأكثر من ذلك، فإن قوى الظلام كانت روحية، وفقاً لبولس، وربما كانت ثنائيته أكثر شبهاً بالتعارض الزرادشتي للخير في مواجهة الشر، من صراع الروح ضد المادة اليوناني والمانوي اللاحق. ومع ذلك فإن تقديم مثل هذه الثنائية انطبق فيما بعد على تعارض الجسم والنفس، الجسد والروح، واستخدمت، فيما بعد، لتسويغ التزهد والانتقاص من قيمة الجنس.

أما ما تبقى من العهد الجديد فإنه متنوع أيضاً ومعقد. وقد ذهب سفر

الرؤيا آخر أسفار العهد الجديد إلى حد التطرف عند الكلام عن المختارين «الذين لم يكونوا ملوثين بالفساد» (سفر الرؤيا 14 ، 4)، على عكس الكاتب المجهول للرسالة الإنجيلية إلى العبريين ناصحاً: «ليكن الزواج مكرماً عند كل واحد والمضجع غير نجس» (إلى العبرانيين 13 ، 4).

وتم تعليم خضوع النساء لأزواجهن في أماكن كثيرة: إنهن الأوعية الأضعف، ويجب أن يتعلمن بصورة صامتة، وأن لا يُعلِّمن في الكنيسة، وأن يكن معتدلات في زينتهن، ويجب تذكيرهن أن حواء كانت أول من خُدعت ووقعت في الخطيئة، «ولكنها (أي النساء) ستُخلّص بولادة الأولاد» (تيموثاوس 2 ، 9). ومن ناحية أخرى، كانت النساء تدعى الوريث المشارك في نعم الحياة ويوزعن المحبة وحسن الوفادة، وأسندت إلى **بريسيلا** وظيفة إعطاء الدروس في الدين وقد ذُكِرَت في مرتبة أعلى من زوجها **أكِيلا**. وكانت النساء بين أوائل المهتدين، كما في معظم الأديان. ومن المحتمل أن تكون النساء قد شكلن معظم المؤمنين، وذُكِرت أسماء نساء كثيرات في أعمال الرسل والرسائل.

الزواج الأحادي والحب:

من المعتقد دائماً تقريباً أن الكتاب المقدس المسيحي يعلم وحدانية الزواج، ولو لم تكن المسألة موصوفة بصورة بيّنة وجليّة لأمكن استنتاجها تماماً. وقد قال **بولس** فيما قاله إلى تيموثاوس إن على المطران أو المشرف أن يكون «زوجاً لزوجة واحدة» وأيضاً الشماسون «أزواجاً لزوجة واحدة». وكتب إلى **تيطس** ألّا يلوم شيوخ الكنيسة أو الكهنة «فزوْجُ الزوجة الواحدة له أطفال يؤمنون». واستنتج بعض المعلقين بأن على مثل هؤلاء القادة الكنسيين ألّا يعقدوا زواجاً ثانياً بعد موت الزوجة الأولى. وطبقت مثل هذه القاعدة أحياناً في الكنيسة في مرحلة لاحقة. غير أن النصوص لا تصف هذه المسألة بوضوح كافٍ. ولم تتخذ ترتيبات مماثلة لجعل الأمور واضحة في الإنجيل من أجل المسيحيين العاديين. ومع أن وحدانية الزواج أمر مسلم به، يدّعي بعض المسيحيين الأفارقة المستقلين أن

بالإمكان أن يكون أعضاء الكنيسة متعددي الزوجات، باعتبار أن العهد الجديد لا يمنعهم بصورة جلية. غير أن تنامي الاتجاه التقشفي في الكنيسة القديمة لا بد له إلّا أن يكون ضد مثل هذا التأويل.

ويبدو أن اتحاد الرجل والمرأة في «جسد واحد»، الذي أمر به يسوع، يتطلب اتحاداً وحيداً أثناء حياة الإنسان، وهو يشير إلى أن الرب أراده أن يكون كذلك عندما أتمّ عملية الخلق. وقد أكّدَ **بولس** هذه العقيدة. ومن المحتمل أن يكون الزواج الأحادي هو المُمَارس بصورة عامة من قِبَل اليهود في القرن الأول، رغم وجود الكثيرين من الأبطال متعددي الزوجات في العهد القديم.

ويتكلم العهد الجديد كثيراً عن «حب» الله للإنسان، وحب الإنسان لله، والزوج للزوجة. وهناك الكثير من الكلمات اليونانية التي يمكن ترجمتها إلى حب، مثل eros للعواطف المتقدة، أو Philia للصداقة والنزوع لتأدية الواجب. إلا أن العهد الجديد لايذكركلمة eros بل يستخدم كلمة agape كترجمة لمفردة حب التي يبدو أنها من إبداعه تقريباً. وميّز اللاهوتيون، فيما بعد، ما بين agape و eros، كما ما بين المقدس والمدنس، أو ما بين الحب الملائكي والحب الشهواني الدنيوي. وادعى بعض الكتاب المعاصرين أن الإنسان لا يستطيع أن يمتلك حباً agape لله، باعتبار أن ذلك يضيف شيئاً ما إلى الله. ويبدو الأمر وكأنه مسألة شرعية، ومن ثمّ، فإن حب العهد الجديد يمثل نشاطاً إنسانياً ومقدساً.

ومع أنه، حسبما يبدو، من الصعب أن تكون كلمة agape قد استُخدمت في مرحلة سابقة **للعهد الجديد**، فإن من المثير أن تكون ظهرت في الترجمة السبعينية(*) للعهد القديم إلى اللغة اليونانية، وهي تمثل الكلمة العبرية الأعم للحب بهدف شخصي. وحتى الحب الشهواني في نشيد الإنشاد الذي

(*) ترجمة التوراة السبعونية: ترجمة يونانية للعهد القديم قام بها 72 عالماً يهودياً في 72 يوماً. المورد

قد يظن البعض أنه يُمَثَّل بكلمة eros تُرجم بكلمة agape ومشتقاتها. وأصبح بالإمكان، بعدئذٍ، استخدام agape للحب الجنسي إضافة إلى الحب الإلهي. على أنها استخدمت بمعانٍ كثيرة تعبيراً عن علاقات التجاذب.

واستخدمت agape للتعبير عن حب «يسوع» لـ «مارتا» وأختها و«لازاروس»؛ و«أحب» الحاكم الشاب الغني. وفي العشاء الأخير اتكأ «التلميذ الذي أحبه يسوع» على صدره. وكانت هذه الصداقات صداقات حميمية. إلا أنه لا يوجد ما يؤكد صحة هذه الصداقات وأنها تضمنت أي حب جنسي، باستثناء استنتاج حديث العهد. ومن جهة أخرى، «يحب الله العالم» بالمعنى نفسه والحق أن الله هو «الحب». وقال للإنسان في الشريعة أن «تحب» الله وأن تحب جارك. وعلَّم يسوع أتباعه أن «يحبوا» أعداءهم. ويشدد الرسل في الرسائل على «الحب الأخوي». وكانت agape الكلمة المركزية في ترنيمة **بولس** العظيمة عن «الحب» عند الكرونثيّين عام 1321 وسبق أن استخدمت كلمة «النعمة» أو «العناية الإلهية» كترجمة لها إلى اللغة الانكليزية. غير أن من الواضح أن المعنى أوسع كثيراً مما تنطوي عليه هذه الكلمة.

كان الحب مفهوماً مركزياً في العهد الجديد، غير أن اللاهوتيين في مرحلة لاحقة لم يواصلوا الكشف عن مضامينه أثناء بحثهم في العلاقات الجنسية. وبسبب ذلك اعتبر بأنه جسدي بصورة مجردة وأنه أدنى من حياة الروح. وكان الامتناع عن الزواج أفضل تمثيل له. وظهر في العصور الوسطى مفهوم «الحب الرومانسي ـ الخيالي» الذي جعل وجهات النظر في الغرب أكثر اتساعاً، ولكنه انحصر لفترة طويلة في الأدب بالدرجة الأولى. ونظم (الشعراء) التروبادوريون(*) في فرنسا قصائد غنائية عن الحب المجيد لنساء مثاليات. وحيّا دانتي، في موضع آخر، حبه المبكر للشابة **بياتريس**، التي ظهرت في سوناتا قديمة عارية إلا من رداء قرمزي. وبعد موتها أصبح الحب شوقاً شبه ديني لهيئة

(*) طبقة من الشعراء الغنائيين والشعراء الموسيقيين اشتهروا في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا من القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر ـ المورد.

بياتريس الأثيرة في الكوميديا الإلهية. وغاب الجنس الطبيعي تقريباً بسبب هذا التدفق الأثيري. وتكشف اللمحات التي ظهرت في العصور الوسطى وفي عهد الإصلاح، وهي عبارة عن نماذج عامة تعبر عن الحياة الزوجية، تكشف عن علاقات «رومانتيكية ـ خيالية وعاطفية» قليلة بين الزوج والزوجة، هذا إن وُجدت أصلاً، ومن المحتمل أن كثيراً من الأزواج كانوا أو أصبحوا مرتبطين بعضهم ببعض برباط الحب. والتأكيد السائد على الحب في الزواج، الذي كان بالإمكان الاستدلال عليه من العهد الجديد قد أهمله اللاهوتيون منذ فترة طويلة. ويعود ظهوره في العصر الحديث إلى الأدب القصصي الرومانسي، وإلى عمل العلمانيين، وإلى التغيرات الاجتماعية، وخصوصاً في مجال تحرير المرأة.

وإذا كانت كلمة agape هي الأنموذج الذي ينبغي أن يتحكم بمجمل أنواع السلوك حسب التعاليم الإنجيلية، فإن اتحاد الزوج والزوجة هو أرقى تعبير إنساني. ينتج عن ذلك أن الحب، بالمعنى الإنجيلي الكامل، هو الذي يقرر العلاقات الزوجية، وليست العلاقات الشرعية التي حكمت الأخلاق الجنسية لفترة طويلة من الزمن. والاعتقاد بأن الزيجات تعقد في السماء يتساوق مع التعاليم القائلة بأن الله قد أسسها على اعتبار أن دافعها هو الحب.

ويتطلب الحب علاقة **أنا ـ أنت** ما بين الأشخاص، بينما علاقاتنا بالأشياء هي علاقة **أنا** مع **هو** أو **هي** لغير العاقل. «إن العلاقة الأولية **أنا ـ أنت** لا يمكن أن نتكلمها إلا مع الكائن الكلي... ومادام الحب «أعمى» أي أنه لا يرى كائناً كلياً، فليس صحيحاً أنه تحت حكم الكلمة الأولى للعلاقة» هذا ما قاله **مارتين بوبر**. وتجد كلية العلاقة هذه معناها في المواجهة اللصيقة، «لأن الكائن الحقيقي كله يقوم بفعل اللقاء»[3].

إن agape في أسمى معانيها هي حب الله للإنسان فـ «نحن نحب الله لأنه أحبنا أولاً». وتفرض العلاقة تمايزاً إضافة إلى الاتحاد. و«الأب والابن المتشابهان في الوجود ـ ويمكن أن نقول أيضاً: الله والإنسان متشابهان في الوجود ـ هما اثنان حقيقيان لا يقبل أحدهما الذوبان في الآخر، حاملان

للعلاقة الأولى التي تحدد التفويض والأمر من الله إلى الإنسان، وتحدد من الإنسان النظر والسمع، وتحدد بينهما كلاهما المعرفة والحب»[4].

وليس مفاجئاً إذا عمد الصوفيون إلى استخدام الرمز الأقرب للعلاقة، رمز الزواج، في اتحادهم مع الرب. وهو اتحاد يتضمن أيضاً الاختلاف كي يفسح في المجال أمام الحوار. وتجد في نهاية الكتاب المقدس رؤية القران الإلهي ما بين الحَمَل والكنيسة، وغالباً ما كان يطلق عليه اسم «قرين الكنيسة» مع أنهم اعتبروا الروح المنفردة كأنثى تزوجت من الرب الذكر، مثلما تصبح الراهبات عروسات المسيح عندما يُقْسِمن.

كانت الصور الجنسية الطبيعية تستخدم للتعبير عن العلاقات الصوفية. وتكلم الرجال والنساء عن النشوة. ولهذه الكلمة في اللغة الانكليزية جذر واحد مع كلمة اغتصب. ويكمن الفارق في الموافقة النابعة من الرغبة في الاستسلام لله. وكانت رؤية **تيريزا** من **أفيلا** للملاك من أشهر الأمثلة على الرمزية الجنسية في الصوفية:

> **رأيت في يده حربة ذهبية عظيمة، وظهر ما يمكن أن يكون نقطة نار في أعلى الحربة. فأدخل هذه النار في قلبي مرات كثيرة بحيث أنها اخترقت أحشائي. وعندما سحبها، شعرت أنه أخذ أحشائي معها، وتركني مستغرقة كلياً في حب الرب العظيم[5].**

ومن الصعب علينا، منذ أيام **فرويد**، أن نتحاشى الرمز القضيبي للحربة الكبيرة، مع أن **تيريزا** سترتعب أمام مثل هذا التأويل الجنسي لرؤياها. وكانت **تيريزا** متقدة حماسةً، إلا أنها كانت ممتنعة عن الزواج، وكانت تسعى أكثر فأكثر للتخلي عن العالم. وكانت أشواقها تُصعَّد إلى حب إلهي.

وقد يشكل لنا استخدام هذا المجاز الجنسي صدمة أقل من تلك الموجهة إلى الناس في عهد فيكتوريا، وقد علق على ذلك **ر. سي زيهنر** قائلاً:

> **لا يوجد أي مبرَرٍ للتعامي عن حقيقة أن نشوة الصوفي المؤمن قريبة جداً من نشوة الجنس، فالروح تلعب دور الأنثى ويظهر الله مذكراً.. وقد يبدو التوازي اللصيق ما بين الفعل الجنسي والاتحاد الصوفي مع الله كفراً الآن، إلا أن الكفر أو التجديف على**

الله ليس في المقارنة، بل في الحط من قيمة الفعل الوحيد الذي يكون فيه الإنسان جديراً بالتشبّه بالله، إن كان في قوة اتحاده مع شريكه، أو في حقيقة كونه يشترك بالخلق مع الله من خلال هذا الاتحاد[6].

التقشف في الكنيسة القديمة وفي العصور الوسطى:

تراجع التأثير اليهودي حين انتقلت الكنيسة إلى العالم الخارجي غير اليهودي، وسادت الهيلنستية وأفكار أخرى. وظهر أول تعارض بين «الجسم» و«النفس» بولسياً[*] وكأن الجنس ضد المقدس، حتى من دون **مارسيون** Marcion. واعتُبر تفضيل **بولس** للعذرية على الزواج، وإن كان لبعض الوقت، أنه دائم. وشجع الاضطهاد الذي عانى منه المسيحيون لقرون كثيرة، على احتقار السعي إلى الراحة المادية. وعندما تحقق النجاح العالمي أدى الفساد إلى وجود حركات تقشفية احتقرت النشاط الجنسي.

ولم تُناقش قضايا الجنس والزواج بصورة واسعة في الكنيسة القديمة، لكنها كانت ذات موقف فيه إعراض عن الدنيا وشاطرت الكثيرين من مناوئيها مشاعر الغنوصية والعداء للجنس. صحيح أنهم لم يدينوا الزواج لأن المسيح باركه وسنّه الرب، إلا أن الزواج عُدَّ أدنى درجة من العذرية، وكان التبتل مثال من يود أن يكون كاملاً، ومُنع زواج رجال الدين مرة ثانية بعد موت الزوجة. ومع أن **ترتوليان** كان متصلباً فقد عبّر عن الموقف الأرثوذكسي العام حين هاجم **مارسيون** قائلاً: نحن لا نطرح الزواج جانباً، إلا أننا ببساطة نحجم عنه.. وندافع عن الزواج بحمية حين تُشَن عليه هجمات عدائية، وكأنه شيء قذر، وعندما ينتقصون من قيمة الخالق»[7]. ووافق كتّاب آخرون على عدم جواز احتقار الزواج، في حين يمنح التبتل الإنسان وقتاً أكبر مخصصاً لله.

وشجب المعلمون المسيحيون الأوائل ممارسات المشركين مثل التخلي عن الأطفال غير المرغوب بهم في العراء، وأبدوا اهتماماً بالأيتام. إلا أنهم نظروا إلى

(*) نسبة إلى بولس. م.

الأبوة وكأنها تجلب المشاكل. ونصحوا بنظام تعليميٍّ قاسٍ للآباء. ونصح البعض، مثل المعتدل كلمنت الإسكندراني بالزّواج لمعظم الناس، في الوقت الذي سمح به للعذرية أن تكون المثل الأعلى والأسمى. وكتب متعاطفاً عن السعادة في البيت المسيحي. ولم يتفق مع بولس على أن الإنسان لا يستطيع إرضاء زوجته وربه معاً. وأخذ تلميذه، أوريجوف كلمات الإنجيل بصورة حرفية بشأن أولئك الذين جعلوا أنفسهم مخصيين، وخصى نفسه، وندم على ذلك فيما بعد.

وتم التعرف على بعض المفكرين الليبراليين الذين عُرفوا الآن من خلال أعمال خصومهم والذين عبّروا عن آراء مختلفة. وقدّموا مريم أم يسوع، كمثال على قيمة الزواج في مواجهة الرأي القائل بأنها بقيت عذراء. وكان الرأي القائل بأن العذرية أفضل من الزواج موضع نقاش وجدل. فردّوا: إن رجل الدين المتزوج أفضل من حيث أن الحياة الوحدانية تضعف الإحساس بالمسؤولية. وهاجم جيروم ثلاثة من هؤلاء الكُتّاب هجوماً شديداً، وهو واحد من أكثر اللاهوتيين المتعلمين بذاءة ممن دعوا إلى أقسى درجات التقشف.

وما لبث الإكليروس الذين يفترض أن يكونوا مختصين بالطهارة والقدسية أن وقعوا تحت ضغط البقاء بلا زواج وخصوصاً في الكنيسة الغربية، بالرغم من المثال الذي ضربه بطرس المتزوج، ومن تعليمات بولس للشمّاسين المتزوجين وللمطارنة. وكان المسيحيون الشرقيون الأورثوذكس أكثر اعتدالاً في سماحهم للقساوسة بأن يتزوجوا، إلا أنهم لا يستطيعون أن يتخذوا لأنفسهم زوجة بعد التكريس. وإذا ما أصبح قسيس ما مطراناً فإن زوجته ملزمة بالتحول إلى الرهبنة. وبقي السماح للقساوسة بالزواج قائماً في الكنائس الأرثوذكسية، علماً أن المطارنة يجب أن يمتنعوا عن الزواج. وبسبب ذلك تتم ترقيتهم من مراتب الرهبان.

وجرت محاولات في القرن الرابع في الكنيسة الغربية لفرض صيام جنسي على المطارنة والقساوسة، وعلى آخرين يخدمون المذبح. علماً أن

الحرمان الكنسي قد اقتُرِحَ، قبل ذلك بسنوات، أن يُنْزَل بكل من يعترض على قداس يقيمه قسيس متزوج. لكن جرت محاولات من خلال مشاورات معينة كي يلتزم الإكليروس المتزوجون بالاحتفاظ بزوجاتهم، «وكأنهم لايحتفظون بهن»، وكشف ذلك أن التعليمات قوبلت بالرفض. وبُذلت الجهود ضد زواج أو تسري الإكليروس حتى القرن العاشر، واستمرت في هذا السبيل في بعض الأماكن بعد هذا التاريخ، وأُعيد إقرار الزواج للإكليروس كقاعدة عامة أثناء الإصلاح. والآن تعبر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، كدين وحيد في العالم، عن تصميمها على التبتل وإلزام كل رجال الدين به.

وشكل «الزواج الروحي» حلّاً وسطاً غريباً فيما يخص المتقشّفين. فقد كان يشترك رجل وامرأة في البيت نفسه، وغالباً ما كانا يشتركان في الفراش نفسه أيضاً، ويتظاهران أنهما يكبحان الشهوة الجنسية عندهما مثل أخ وأخت. وكان بولس قد تكلم بشيء من الغموض عن سلوك الرجل تجاه «عذريته»، إلا أنه نصح بالزواج إذا وجد التبتل غير لائق (1 ، كورنثوس 7 ، 36). ويبدو أن ممارسة التعايش قد انحدرت من الوثنية. وكان النساك في عصر آباء الكنيسة غالباً ما ترافقهم ناسكة. وكانت لرجال الدين الممتنعين عن الزواج «عرائس الروح» اللواتي كان من الممكن أن يصبحن مسؤولات عن المنازل، أو حتى يصبحن ربات بيوت. وسأل جيروم: «من أين جاءت هذه الزوجات غير المتزوجات، هذا النمط الجديد من التسري، ومع ذلك، سأتقدم أكثر لأقول، هؤلاء المومسات لرجل واحد؟ إنهم يطلقون علينا اسم شكاكين إذا ما فكرنا بأن شيئاً من الأشياء غير صحيح». ومَنع المطارنة، كما مَنعت المجالس الكنسية «ما كان يُسمّى التعايش مع الأخوات»، إلا أنه بقي قائماً لقرون عديدة. وعندما فُرض التبتل بالقوة مالت المشاركة الروحية لأن يحل محلها التسري الإكليركي.

واتخذ التقشف العام في تعاليم الكنيسة أقصى أبعاده في نشاط الرهبنة كردة فعل ضد فساد العالم، إن كان في الاعتزال التنسكي، أم في الإقامة الجماعية للرهبان في الدير. وكان أنطون المصري من أوائل النساك الذين

عمدوا إلى عزل أنفسهم في أواخر القرن الثالث عزلاً تاماً في الصحراء. ولكن، بالرغم من تعذيبه لنفسه، فإن التنسك لم يستطع أن يترك الشهوات خلفه. وأصبحت إغراءات **أنطون** مشهورة. وقيل ـ حسب الرمزية الفرويدية الجديدة ـ إنه تقاتل مع الشياطين في لبوسٍ وحوشٍ بريةٍ. ووصف **جيروم** خبراته الخاصة في الصحراء بصيغٍ حيويةٍ هاجم بها الجنس قائلاً: «لمت نفسي على هذا المنزل ـ السجن، حيث كان رفاقي الوحيدين العقاربُ والوحوشُ المفترسةُ، ورغم خوفي من الجحيم، ألفيت نفسي محاطاً بفرق من الفتيات الراقصات، وواصلت نيران الشهوة الجنسية احتراقها أمامي عندما كان جسدي في الواقع ميتاً».

وجلب كل من التنسك والتبتل الإكليركي المشاكل منهما بالذات. وكان مفهوماً أن على المتنسكين والرهبان ألّا يتزوجوا. وكان من الصعب أن يكون المرء على غير هذا الشكل إذا أراد أن يعيش في ذلك المجتمع. وحدثت مثل هذه الممارسات في البوذية وفي الأنماط الأخرى من التنسك. ومع ذلك فقد جلب تشجيع المراهقين على الانضمام إلى النّساك الكثير من التوترات للشباب ذكوراً وإناثاً. ولم يكن بالأمر السهل حسم الأمور كما في البوذية. وكان **بوكاشيو** والإصلاحيين قد بالغوا في إدانة الفسوق التنسكي والإكليركي واتهامهم بالشذوذ الجنسي. لكن كان في هذه الإدانة ما يكفي من الحقيقة التي سمحت بتثبيتها.

وفوق ذلك سمح العمل الرعوي للقساوسة بتلمس الصراعات الجنسية عند أبناء أبرشياتهم. وتفاقمت هذه الحالات من خلال جلسات الاعتراف. فقد كان لزاماً على الرجال والنساء، والصبيان والبنات، أن يعترفوا بتفكيرهم بالجنس وبالإغراءات أمام رجال غير متزوجين. وتم تشغيل آلة الاستفسارات التفصيلية والشبقية بفضل العبقرية الرومانية في التنظيم. وكان بالإمكان الاستفسار من الرجال والنساء عن عدد المرات التي كان يجري فيها الاتصال الجنسي بينهما، وفيما إذا كانت العملية الجنسية تتم بطريقة أخرى غير الطريقة الطبيعية. وكانت تفرض الكفارات على النكات غير المحتشمة، وعلى قراءة الكتب الفاحشة، وعلى لمس أجزاء من جسم المرأة، بما في ذلك الاعتراف بتبديل في السلوك

الجنسي (اللواط)، والقيام بعملية جنسية مع حيوان. وليس التائب وحده بل والقساوسة أيضاً كانوا يُفتنون بالاستفسار الدائم عن السلوك الجنسي المحرم. وكان يقع تحت هذا العنوان الافتراض بأن الجنس ينتمي إلى الطبيعة الدنيا، إن لم يكن شراً مستطيراً.

وتكلم اللاهوتيون المرة تلو الأخرى عن مخاطر ودونية طبيعة الجنس. وكان **أوغسطين** مطران **هيبو** في شمال أفريقيا في أوائل القرن الخامس أحد المعلمين الأكثر تأثيراً والأكثر شؤماً على الموضوع. وقد أثر تاريخه الشخصي على تعاليمه. فقد كانت لديه سيدة لفترة خمس عشرة سنة، وأصبح **مانوياً** يؤمن بِشَرِّ الجسد. وقال لدى عودته إلى المسيحية: «أعطني العفة، ولكن ليس الآن». وأبعدَ السيدة؛ إلا أنه أخذ غيرها وهجر الثانية مفضِّلاً التبتل واعتناق الدين «الجديد» بحيث «لا أحتاج إلى زوجة أو إلى أي أمل آخر في هذا العالم». وتكونت عند أوغسطين بفضل هذه الخبرات آراء ثنائية عن العلاقات الجنسية. وكانت تزعجه الـ «حركات البهيمية» و«التحرق» إلى الاتصال الجنسي الذي يحتل ـ منذ أيام الطفولة ـ مكاناً ما بين التغوط العضوي والتبوّل، حسب ما تكلم أوغسطين بطريقة فظة.

وآمن أوغسطين بقوة الخطيئة الأصلية وبالقضاء والقدر. وجاءت الخطيئة من سقوط آدم. ونتيجة لذلك فقد عانى الإنسان من الداء الأخلاقي الموروث، وكان خاضعاً أيضاً للمسؤولية القانونية (الشرعية) الموروثة عن خطيئة آدم. وكان العرق البشري كله عبارة عن كتلة واحدة من الخطيئة التي قدر الله لبعض الأرواح أن تستقبل رحمته غير المستحقة، إلا أن آخرين يذهبون إلى جهنم، ومن ضمن هؤلاء الأطفال غير المعمدين. وكانت الخطيئة الأصلية تتعادل عملياً مع العواطف الجنسية، بحيث عُدّ أي فعل من أفعال الاتصال الجنسي شرّاً من حيث الجوهر. ولذلك يحمل كل طفل «خطيئة» أبوية. ولم يستطع الزواج أن يبعد شر الرغبة الجنسية ـ حسبما فكّر أوغسطين ـ إلا أنه استطاع أن يحوله إلى ما فيه فائدة الإنجاب، بحيث أصبح هدف إنتاج الأطفال المسوّغ الوحيد للفعل الجنسي. وقد لوثت هذه الفكرة التعاليم المسيحية لعدد كبير من القرون. وكان

لأفكار أوغسطين بأن نشوة الاتصال الجنسي خطيئة، وأن الشهوة الجنسية للجسد مناقضة للروح؛ «كان لهذه الأفكار أكبر تأثير مشؤوم على الأخلاق المسيحية التقليدية»[8].

الزواج العلماني والمشاكل:

ماذا كان يفعل الرجال والنساء المسيحيون العاديون في أوروبا حين كان الذكور منهم معلمين متبتلين يتكلمون عن الاتصال الجنسي وكأنه نجاسة وإعاقة عن بلوغ أعلى درجة من درجات خدمة الرب؟ لقد كانوا يغازلون ويحبون، يتزوجون ويتخلون عن الزواج، كما فعل الناس دائماً منذ بداية العالم. وربما كان معظم الرجال العلمانيين يعرفون القليل عن الحجج التي عرَّف فيها رجال الكهنوت الفعل الجنسي بأنه شر مستطير، هذا، إذا لم يكن أخلاقياً. غير أنهم يجب أن يكونوا على علم برأي الكنيسة الرسمي الذي يرى أن الاتصال الجنسي لايليق برجل الدين، أو أنه ثانوي فيما يخص إرادة الله الحقة. ويربطون بصورة فرضية، الأزواج المتزاوجة بالوحوش أكثر من ربطهم بالقديسين.

وكان الزواج في مركز اهتمام الناس العلمانيين. ومع أن رجال الدين الذكور قد يهدفون إلى التبتل، إلا أنهم لا يستطيعون مقاومة الرغبة في تحديد سلوك أتباعهم. وطبقاً للقانون الروماني فإن موافقة الطرفين كانت كافية للزواج الشرعي. وبينما كانت لدى شعوب أوروبية أخرى عادات مختلفة فقد تولت الكنيسة عملياً إصدار التشريعات. وظن قليل من المعلمين أن القسيس والكنيسة كانا ضروريين للطقوس المسيحية الصحيحة. غير أنه قُرِّر، فيما بعد، أنها ثانوية، وليست جوهرية للزواج الصحيح. وكان وكلاء الاتحاد في الطقوس المسيحية العروسان أنفسُهما، وكانا يوقعان على العقد بالموافقة. وبالرغم من أن المجلس الكنسي المنعقد في ترينت في القرن السادس عشر قد جعل القسيس والكنيسة أساسيين، فقد تبعت ذلك بعض الاعتراضات غير المقصودة، وبقيت موافقة الزوج والزوجة أساسية في الزواج المدني والمسيحي.

وبرز مع أواخر القرن الثاني عشر تحديد للرموز الخاصة التي كانت تسمى

«الأسرار المقدسة». وبعد فترة من عدم الاستقرار ثبت رقمها عند سبعة في الكنيسة الغربية. والسر المقدس «كان علامة خارجية بيّنة تدل على نعمة روحانية داخلية». وكان من المحتمل وجود قليل من الشك بأن الزواج مطابق لهذا التعريف. وأجريت مناقشة بشأن اللحظة المقدسة التي تُوهب هذه البَرَكةُ أثناءها. ورفض معظم المعلمين، في عهد الإصلاح، الزواج بوصفه سراً مقدساً، لأن المسيح لم ينص عليه صراحة، مثلما كان السرّان المقدسان الربانيان: التعميد والعشاء الرباني. ومع ذلك فقد ساد الاعتقاد بأنه سر مقدس، وساعد ذلك على استقرار الزواج.

ولم يعتمد الرأي العام المسيحي فيما يخص الزواج على الموافقة وحدها. وقد جاء العنصر العبري في العقيدة لإنقاذ الوضع مرة ثانية. وقال يسوع وهو يأخذ عن سفر التكوين: إن الزوج والزوجة يصبحان «جسداً واحداً». وقال بولس: يجب أن يتنازل الشريكان أحدهما للآخر عن حقه. وبالرغم من بعض المقاومة، وبصورة خاصة من جانب أوغسطين، فإن الآباء المسيحيين الأولين وافقوا على أن الاتصال الجنسي كان أساسياً في الزواج وليس مجرد حاجة ثانوية. إن الاتحاد المكتمل هو وحده الذي استطاع أن يكون المثيل البشري لاتحاد المسيح مع الكنيسة. وتعززت هذه الفكرة على اعتبار أن الهدف الأول للزواج هو إنجاب الأطفال، مُتّبِعاً في ذلك وصية الإنجيل القائلة: «تثمروا وتتكاثروا».

ومن نواح أخرى عديدة، وضعت التقييدات الجنسية ضوابط لحياة الدهريين ورجال الدين معاً، وأضيف الإجهاض ووأد الأطفال إلى التحريم الإنجيلي للزنى، والشذوذ الجنسي منذ القرن الثاني. وأعطى **باسيل من قيصارية** الكنيسة الشرقية أحكاماً لحفظ النظام ضد الانتهاكات الجنسية التي كانت تشمل الزنى، والإجهاض، والشذوذ الجنسي، والاتصال بالحيوانات، والاغتصاب، والزواج بزوجتين أو زوجين، والزواج الثاني، ونشوز النساء، والرهق: أي سفاح القربى أو غشيان المحارم، أو الاتحادات الممنوعة الأخرى. وفي الغرب، أصدر **تيودور من كانتربري** في القرن السابع، كفارة لمعالجة

الأخلاق، تشمل الشذوذ الجنسي لدى الذكور والإناث، والعادة السرية بين الذكور والإناث. وقد أُدينت بعض الممارسات الزوجية أيضاً مثل لعق القضيب، وممارسة الجنس من الخلف، وممارسة الجنس من الشرج أثناء الحيض. وكانوا يربطون، في العصور الوسطى، ما بين الشذوذ الجنسي والهرطقة(*) وعندما أخذت الأفكار المانوية تتسرب من بلغاريا إلى فرنسا رُفعت دعاوى باللواط ضد بعض الكاثاريين وكانت تسمى البلغارية أو اللواطة.

وقدم **توما الإكويني** في القرن الثالث عشر المعالجة الأكمل للانحرافات الجنسية، في بحث الفضيلة الأساسية في ضبط النفس ونقيضتها رذيلة الشهوة الجنسية. فلكل شيء غايته الصحيحة والإثم هو معاكسة نظام العقل. والهدف المحدد للاتصال الجنسي هو الإنجاب، ومضاد للعقل أن يتحول النسل الصحيح إلى حالة بغيضة أو متعذرة كما في الامتناع عن الحمل، أو غشيان المحارم(**)، أو الزنى، أو الاغتصاب. والقُبل والتمسيد بريئان في حد ذاتهما، إلا أنهما يصبحان إثماً من وجهة النظر الأخلاقية إذا كان الهدف منهما الحصول على المتعة المحرمة. والاستحلام الليلي، كما كانوا يسمونه، ليس إثماً بحد ذاته، ولكن يمكن أن يحدث بسبب أفكار الاشتهاء الجنسي أو بسبب الإفراط في المأكل والمشرب.

وكانت العادة السرية، والاتصال الجنسي بالحيوانات، والشذوذ الجنسي، والاتصال الجنسي غير الطبيعي، من أخطر «الشهوات الجنسية غير الطبيعية بالنسبة إلى الإكويني. وكانت العادة السرية أقلها شراً. غير أنه كان يعتقد أنها مناقضة للعقل ولا تساعد على الإنجاب، ولذلك اعتبرها فاحشة أكثر من غشيان المحارم والزنى والاغتصاب. ويعود الرعب من العادة السرية عند الذكور الذي لايزال يظهر في الكتيبات الرومانية الكاثوليكية عن الأخلاق الجنسية بوصفها فوضى أخلاقية مهلكة، يعود جزئياً إلى «سوء استخدام» مياه المني الثمينة أو

(*) أي الإيمان بوجود ناظم للكون وإنكار الأديان. م.
(**) أي الاتصال الجنسي بين من تحرم الشريعة الزواج بهم من ذوي القربى. م.

إفسادها، في الوقت الذي تم فيه تجاهل الشذوذ عند الإناث واعتُبر مجرد بذاءة أنثوية.

ويبدو متناقضاً، حسبما لاحظ بعض الكتّاب، أن الكهنوتيين اعترفوا على مضض بالبغاء، بوصفه يشكل متنفساً يحتاج إليه رجال الدين ورجال العلم. وقد أدان أوغسطين هذه المهنة، غير أنه قال أيضاً، إن إبعاد البغاء عن شؤون البشر يدنس كل الأشياء بالشهوة الجنسية وبذلك كانت بنات الهوى فجوراً مشروعاً. وأصر الإكويني على النقطة نفسها قائلاً: «أبعدِ البالوعة فيمتلئ المكان بالقذارات... وأبعدِ المومسات عن العالم فيمتلئ باللواط». ويبدو من هذا الكلام أنهم يسمحون بالبغاء ويعدّونه نتيجة طبيعية للتبتل، فيقوم مستويان للأخلاق، ويتم التعبير عن وجهة النظر الجنسية للذكور بشكل مغيظ[9].

وطرح العلمانيون آراءهم لمواجهة محاولات الإكليروس تنظيم حياتهم. وروى كل من **بوكاشيو** في إيطاليا، **وريلييه** في فرنسا، **وتشوسر** في إنكلترا، قصصاً غير محتشمة عن سوء أخلاق الإكليروس، والنُسّاك والراهبات. وقالوا: إنهم سبقوا في مغامراتهم الجنسية الناس العامين. فقد تضمنت القصص أخباراً عن التحريف، إلى جانب ملاحظات لاذعة عن الهياج الجنسي، والخيال الخصب إلى جانب الحقيقة الباردة، واللاأدرية(*) إضافة إلى أخبار الرغبة في حدوث إصلاح ديني. وقلما ظهرت الإثارة الجنسية في الفن بسبب ردود الفعل الرجعية القديمة ضد علنية المظاهر الجنسية في كثير من أعمال النحت والرسم الوثنية الكلاسيكية. إلا أن ذلك لم يستطع أن يمنع انتشار الصور المثيرة جنسياً في أوروبا. وكان الحرفيون في القرون الوسطى، غالباً ما يتدبرون أمر استخدام صورة القضيب. وعرضت المجوهرات والأثاث أحياناً مشاهد مثيرة، وتناولت المخطوطات المزينة برسوم الأفعال الجنسية. وتجد في نسيج بايو المزدان بالصور والرسوم مشهد صور عارية تدعو بوضوح إلى الجماع، إلا أن المشاهد العارية في

(*) وهو مذهب يعتقد المؤمنون به أن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لاسبيل إلى معرفتها. م.

جنة عدن الموجودة في كتيبات مواقيت الصلاة كانت تنتمي إلى مذهب المتعة بقالب روحاني وقد أدت النزعة الإنسانية لعصر النهضة إلى إعادة الاهتمام بالحسيّة الكلاسيكية وتصوير الشكل الإنساني ومشاعر الحب بشكل لا حدود له.

ولادة العذراء والأم:

جاءت ولادة العذراء أو (الحمل العذري) بيسوع المسيح في إنجيلي متى ولوقا، إلا أن ذلك لم يُذكر في الإنجيل الأقدم وهو إنجيل مرقص، ولا في إنجيل يوحنا الأخير، أو في أي رسالة من رسائل بولس أو في غيرها من الرسائل. وإذا كان من الصعب أن تكون الحكاية حكاية أساسية فيما يخص المسيحيين الأوائل، فإننا لا نجد، حتى في إنجيلي متى ولوقا، اقتراحاً يقول بأن سبل الإنجاب العادية لم تكن جديرة بيسوع، أو أن العالم المادي غير نظيف، أو أن العذرية تتفوق على الحالة الزوجية، حسب ما ظن الكثير من المعلمين في الأيام التالية. ففي إنجيل لوقا، قُدمت مريم وكأنها حملت من خلال قوة الروح القدس التي جاءتها وظللتها، تقريباً مثل ولادة صموئيل في العهد القديم. وفي إنجيل متى، قِيل إن الحمل كان تنفيذاً لنبوءة أشعيا القائلة: «انتبهوا إلى أن عذراء ستكون مع طفل»، أو بشكل أكثر دقة «شابة». وقد جاءت النبوءة في سفر أشعيا لتشجيع الملك أحاز بالقول: إن شابة ستنجب طفلاً، وسيتم تحطيم أعدائه قبل أن يكبر. ويتبنى كل من متى ولوقا نسب يسوع من خلال يوسف كأب له. وأشار لوقا، فيما بعد، إلى والدي يسوع. ونجد إشارة في إنجيل مرقص إلى وجود أخوة وأخوات ليسوع، أربعة أخوة لهم أسماؤهم. واستخدمت الكلمات العادية للأخوة والأخوات (في إنجيل مرقص 6 ، 3) وكان الأمر سيبدو طبيعياً في الإطار العبري أن يكون ليوسف ومريم أطفال آخرون غير يسوع، إلا أن النزعات التزهدية (التقشفية) المتأخرة في الكنيسة عملت ضد مثل هذه الإشارات.

ابتهجت قصص الطفولة المشكوك في صحتها في تكثيف العناصر العجائبية في قصة ولادة المسيح المصحوبة بالتلهف الذي غالباً ما يميز مثل هذه

الروايات. وسمّى التبشير الإنجيلي لجيمس في القرن الثاني، قابلة كانت تدعى **سالومي** وقد أُرسلت إلى «الكهف» بعد أن كان يسوع قد وُلِدَ لتقوم بتجربة وترى إن كانت مريم لاتزال عذراء، وكان والدا مريم هنا يُسَمَّيان لأول مرة باسم **يواكيم** وآنا. وكانت مثل هذه القصص، المزخرفة بشكل رفيع، شعبية منذ تلك الأيام حتى هذه الأيام. وقدمت للفنانين في العصور الوسطى الكثير من الموضوعات. وأظهرَ الإسلام في القرن السابع بعض قصص مريم الشعبية، وروى القرآن أن مريم نشأت في معبد وحبلت بيسوع بقوة كلمة الله. وكانت مريم المرأة الوحيدة التي ذُكِرت باسمها الأول في القرآن.

وطُرِحت في الدوائر المسيحية في القرن الخامس مسألة عذرية مريم الأبدية، وانتقلت من كونها رأياً شعبياً لتصبح حالة عقائدية «دوغمائية»، وسمح ذلك بطرح السؤال فيما إذا كان اتحادها مع يوسف يمكن أن نسميه زواجاً. وقُدِّم يوسف وكأنه رجل عجوز مع أننا لا نملك ما يؤكد ذلك في الأناجيل، وربما كان من المعقول أكثر أنه كان شاباً عاشقاً. وكان **أوريجون** قد افترض في القرن الثالث أن أخوة يسوع، أي أبناء يوسف من زواج سابق، كانوا نصف أخوة. ولا توجد أدلّة تؤكد هذا الأمر أيضاً، وإن كان ذلك قد أصبح مقبولاً وكأنه حقيقة. وكانت تكمن وراء مثل هذه الإشارات فكرة تقول: إن الفراش الزوجي لم يكن نظيفاً. وبما أن الزواج كان سنة إلهية، وأن اتحاد يوسف ومريم قد أمر به الرب بوساطة رسول ملائكي، فقد كان على اتحادهما أن يُصوَّر وكأنه كامل. ولذلك أكد أوغسطين على أن مريم كانت زوجة حقيقية، وفقاً لنظرية الموافقة على الزواج الساري المفعول. وأكد الإكويني، فيما بعد، أن مريم ويوسف «وافقا على الرباط الزوجي، ولكن ليس واضحاً أن الرابط رابط جسدي، اللهم إلا شرط كونه يبهج الرب».

وقيل إن طائفة مسيحية، وهي طائفة **الكوليريين** Collyridians في القرن الرابع، قدمت كعكاً لمريم العذراء وفق أسلوب العبادة الوثني للإلهة **كيريس** مع الكعك. إلا أن العبادة الأصلية للعذراء كانت بطيئة التطور، لأن الصلوات

كانت تُقدم إلى الشهداء وقد ماتت مريم بهدوء. ثم نقل رجال الدين صورتها على أساس أنها مثال الحياة المقدسة في الشريعة الجديدة. ونقل **ترتوليان** التغاير ما بين آدم والمسيح الذي قال به **بولس** واضعاً إلى جانبهما حواء ومريم لإضفاء طابع الطبيعة البشرية الجديدة.

وقدم انتصار الصيغة اليونانية **ثيوتوكوس**، أي حاملة الرب، دفقاً قوياً لعبادة مريم. وقد استُخدمت هذه الصيغة من أجل مريم منذ أيام **أوريجون**، ولكنها هوجمت في القرن الخامس من قبل **نسطور**، بطريرك القسطنطينية، الذي قال: إن مثل هذه الصيغة متناقضة مع البشرية الكاملة للمسيح. وكان ينبغي تسمية مريم بـ**كريستوتوكوس**، أي حاملة المسيح. وقد هُزِم **نسطور** وهو يناقش أمام **كيريل الإسكندراني** وتنحّى، مع أن إرسالياته انتشرت في كل آسيا ووصلت إلى الصين. وترسخ العنوان **ثيوتوكوس**، مع أنهم يترجمونها في الغرب بصورة عامة بصيغة لاتينية مختلفة نوعاً ما وتعني أم الرب.

وتنامى تقديم الصلوات لمريم وتطور عبر الزمان. وأُقر حَمْلُها بلا دنس، كعقيدة تقول: «إن مريم العذراء كانت مباركة منذ اللحظة الأولى للحمل... وتم حفظها حرة من كل وصمة إثم أصلية» وأنكر ذلك **برنارد** و **الإكويني** وغيرهما، مادامت مريم قد حبلت من دون أدنى شك بالطريقة الطبيعية. إلا أن هذه الفكرة ترسخت وتم تحديدها كعقيدة من قبل البابا **بيوس التاسع** عام 1854 وفيما يخص عقيدة ولادة العذراء بيسوع، فإن عقيدة حبل مريم بلا دنس، لا يُعدّ، على الأقل بصورة صريحة، أثراً من آثار الخطيئة الأولى على مريم. وكذلك عقيدة رفع مريم العذراء المباركة إلى السماء بعد موتها، فبعد أن أنجزت حياتها الأرضية ارتفعت جسداً وروحاً إلى المجد السماوي، موازية في ذلك صعود ابنها المسيح. وأصبحت هذه العقيدة مُقَرَّة في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية منذ عام 1950 ولم تكن هذه العقيدة معروفة في الأيام الأولى للكنيسة لكنها ظهرت بدءاً من القرن الرابع، وتمسكوا بها في الشرق كما في الغرب، وقام بدور البطولة فيها رجال الدين من أمثال الإكويني.

وأصبحت شعبية مريم العذراء كبيرة في الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية، التي تضم أغلبية المؤمنين بالمسيحية. وقد رُفضت عبادتها في عهد الإصلاح، مع أن بعض البروتستانت شعروا بالحاجة إلى عنصر مؤنث في الألوهية، وشدد علماء النفس مثل يونغ على أهمية الرموز الألوهية المؤنثة، ليتوازى الميل البدئي للنموذج الأنثوي مع الميل الذكوري. ويبدو أن معظم الأديان بحاجة إلى إلهة أو إلى جانب أنثوي في الألوهية، رغم الاستثناء الوحيد في الإسلام. ووُجِد في الدوائر اليهودية ـ المسيحية بعض التأويل للروح القدس كأنثى، وللحمامة ولتشخيص الحكمة. وأخفق ذلك، لكن رغم بقاء الروح القدس في الثالوث الأقدس صيغة غامضة إلى حد ما، تطورت عبادة الأم العذراء بسرعة كبيرة. وإذا أمكن أن تدعى الإلهة الأم، فإن ذلك يتمم العائلة المؤلهة، بالإله الأب والإله الابن.

وفي القرون الوسطى حقق الورع المسيحي الانتصار المستحيل منطقياً، أي عبادة العذرية والأمومة في الشخص نفسه. ولكن هل كان بالإمكان تقويم مريم كأسمى مثال للأمومة من دون الإشارة إلى النقيض وهو العذرية؟ إن رفع مريم، إلى حد ما، عوّض عن المكانة الأدنى للأمومة التي دعا إليها المعلمون المتزهدون في الكنيسة وحصلت على مركزها العالي نتيجة الزيادة السريعة في العبادة العاطفية.

التحول الإصلاحي والنزعة المحافظة

لم تناقش حركة الإصلاح الديني في أوروبا الغربية بعض المسائل الجنسية، وقلما جرت محاولات لاستنباط حل لاهوتي لمسألة الجنس. ورغم أن الإصلاحيين احتكموا إلى الكتاب المقدس إلا أنهم فسروه بطرق محافظة، ولم يتمكن المسيحيون من وضع تفسيرات تتسم بالجدة للعلاقات الجنسية إلا في العصور الحديثة بعد المقاربة النقدية للعرف الكنسي وللكتاب المقدس معاً. والنزعتان، البيوريتانية والڤكتورية، تعتبران الآن حركتا احتشام وكبت جنسي، لكن جذورهما تمتد عميقاً عبر العصور وصولاً إلى الكنيسة في أول عهدها.

وقد تمت المحافظة على التعارض الثنائي بين الجسد والروح إبان الحركة الإصلاحية رغم حصول تحولات في مجالات أخرى، وظلت مكانة المرأة دونية بالقياس إلى مكانة الرجل، وبقيت العبارات المعادية لما هو جسدي متداولة، حين ننشد في عيد الميلاد «عجباً، إنه لا يمقت رحم العذراء»، وكأنه شيء نجس، أو على نحو أكثر ابتذالاً، «ربنا يسوع الطفل لا يبكي»، الأمر الذي كان سيجعله يبدو وكأنه غير سليم الجسم.

لكن الإصلاحيين هاجموا موضوعين جنسيين هجوماً مباشراً: البتولة الأكليريكية ونذور الرهبان بأن يكبحوا شهواتهم. وكان الزواج يمجد على أساس أنه سنة إلهية لكل إنسان، وأُدِين التبتل باعتباره مناقضاً للسنة الإلهية. وانتقد الإصلاحيون الفسق الإكليركي والتسري اللذين جلبا للكنيسة سقوط السمعة وجعلاها أضحوكة للساخرين مثل **بوكاشيو**.

وصرح **زويغلي** أن الزواج يجب أن يكون شرعياً لكل إنسان مادام الكتاب المقدس لا يمنعه في أي مكان. وكان إثماً فيما يخص القساوسة والمتنسكين ألّا يتزوجوا وهم يعرفون أنهم لا يستطيعون أن يحافظوا على طهارتهم. ونصح لوثر الذين سيُرسَّمون(*) أن لا يقسموا على كبح النفس عن الشهوات الجنسية. وقال: إن القسيس الذي عنده محظية يجب أن يتزوجها، رغم غضب البابا، والرأي العام، لأننا بنظر الله متزوجين. وقال: إن حَلْف الأيمان على الطهارة كان بالأصل وهماً وتضليلاً ناتجاً عن مقولة أن التقشفية يمكن أن تكسب تفضيل الرب لها، ولكن من المستحيل مقاومة الإغراء بغير الأسلوب الذي رسمه الرب. وكان **كالڤن** حَذِراً أكثر، فشجب فقط ذلك التبتل الذي يُمارسه الذين لم يستطيعوا أن يحافظوا على قسمهم. واعتقدَ أن ليس من حق الكنيسة أن تشجب ما أظهر الكتاب المقدس أنه خيار مفتوح.

وتزوج لوثر من الراهبة السابقة **كاثرين فون بورا** بعد ثماني سنوات من

(*) أي سيصبحون أعضاء في جماعة الكهنوت. م.

نشر موضوعاته الشهيرة الخمسة والتسعين. ولكن رغم تعليقاته الصريحة على موضوعات أخرى، فقد اتبع بعض أفكار رجال الدين السلبية السابقة عن الزواج. وعَدَّ الزواج بمنزلة «مستشفى للمرضى»، وعلاجاً شافياً للشهوة الجنسية التي تزعج كل إنسان، وحمَّل الاتصال الجنسي شيئاً من العار الذي أتى من سقوط الإنسان. ورأى **كالڤن** أن الاتصال الجنسي شريف ومقدس، فهاجم **جيروم** لوصمه الجنس بعدم النظافة في حين منحه الكتاب المقدس صفة الرمز بالنسبة لاتحاد المسيح بالكنيسة. ولم يكن **كالڤن** مرتاحاً شخصياً للمسرة الجنسية، التي شعر بأنها تحمل بعض الشر في الرغبات غير المعتدلة، وأرجعها هو أيضاً إلى السقوط. وظن **لوثر** أنه يجب أن يصرف النظر عن التبتل، مادام هناك أشخاصٌ خواص كانوا يحافظون عليه، حتى لو كانت نسبتهم واحداً بالألف. وتحت المظهر الخارجي للتبتل أو العذرية اشتعلت الرغبات الشريرة في غالب الأحيان. وقبل كالفن أن العذرية فضيلة، وأنها أرفع شأناً من الزواج إذا لم يتم بصورة إجبارية.

ومن المعروف أن **لوثر** سمح بصعوبة بالزواج بزوجتين في وقت واحد **لفيليب من هيس**، ذلك أنه بَغَضَ الطلاق بُغضاً شديداً واعتقد أن الكنيسة تملك سلطة القيام باستثناءات فيما يخص قاعدة الزواج الأحادي في حالات اضطرارية. وبعد كل ذلك، فإن الباباوات كثيراً ما فسخوا عقود الزواج، وكان للآباء التوراتيون زوجات كثيرات، مع أن مثالهم لم يكن لِيتبعه المسيحيون في الأحوال العادية، ولم يكن هناك أمر إنجيلي ضدها، ويتفق هذا الرأي مع رأي بعض المسيحيين الأفارقة في الوقت الحالي. وعَدّ كالفن تعدد الزوجات مناقضاً للسنة الإلهية بوحدانية الزواج، واعتقدَ أن الآباء العبريين كانوا خاطئين عندما تزوجوا بأكثر من زوجه، ومثل هذا الاعتقاد لا يُعَدُّ طبيعياً فيما يخص رجل دين عاش في ذلك الزمن.

ولعب **توماس كرانمر** في إنكلترا الدور الرئيس في حوادث طلاق هنري الثامن، ناصحاً إياه بمشاورة الجامعات للتأكد من بطلان زواجه الأول، بدلاً من انتظار البابا لكي يفسخ له زواجه بـ**كاترين** عام 1533 ويفسخ له بعد ثلاث

سنوات زواجه بآن بولين. وكرانمر نفسه تزوج للمرة الأولى عندما كان زميلاً في جامعة كامبردج. ومع أنه لم يكن قد رُسم بعد، فقد تطلبت قواعد الجامعة في تلك الفترة التبتل من المعلمين في الجامعة ففَقَدَ الرجل التعيين. وتوفيت زوجته بعد سنة أثناء الولادة. واختير كرانمر مرة ثانية كزميل في الجامعة. ورُسم قسيساً في عام 1523 وجُعل كبيراً لأساقفة كانتربيري من قبل هنري عام 1532. فتزوج في السر مارغريت أوسياندر ابنة أخ مُصلح معروف على مستوى القارة، وجرت حركة في وسط رجال الدين الانكليز الذين كانوا ينتظرون إلغاء التبتل الكهنوتي بقوة إصلاحات هنري الآتية بعد فترة وجيزة. إلا أن ذلك لم يحدث وكان على موضوع الاعتراف بزواج القساوسة في إنكلترا أن ينتظر عام 1547 في عهد إدوارد السادس وعام 1559 في عهد إليزابيث.

ومع أن الزواج الإكليركي أصبح مقبولاً من قبل البروتستانت، فقد بقي سلوك رجال الدين إزاء الزواج والجنس بصورة عامة، يعكس الاعتقاد بثنائية الجسد والروح، مع تمجيد الروح. وظل الكتاب الأنغليكاني(*) للصلوات العامة يستخدم نصوصاً كثيرة من أيام كرانمر وكان هذا الكتاب يفرض مشاعر الثنائية على الكثير من الشعوب التي تكلمت الانكليزية لفترة قرون أربعة تقريباً. وكانت الإجراءات وفق المراسم الدينية للزواج حتى عام 1549 تنص على أن الله «شرّعه يوم كان الإنسان طاهراً» على ألّا يُفهم منه أنه «لإشباع الشهوات الجنسية الجسدية عند الرجال، مثل الوحوش المفترسة التي لا تملك عقلاً.. بل إن هذا يُعدّ بمنزلة تجنٍّ على الحيوانات لأن كثيراً منها أقل نشاطاً جنسياً من البشر».

وقدمت ثلاثة أسباب لشرعية الزواج: أولاً، من أجل «إنجاب الأطفال» وثانياً، «كعلاج ضد الإثم وتجنب الزنى، بحيث يمكن لأشخاص لا يملكون موهبة كبح النفس وضبطها أن يتزوجوا ويحفظوا سمعتهم غير ملطخة. والسبب الثالث يذكر أن الزواج يجب أن يتم من أجل المشاركة الاجتماعية، ويجعل المرء أكثر اطمئناناً وراحة، ويجعل الإثنين مشتركين في السراء والضراء.

(*) نسبة إلى الكنيسة الأنغليكانية في بريطانيا. م.

وتنقل التوصيات التي تقدم في الاحتفال عن بولس وبطرس أقوالاً مهمة، تقول: إن على الأزواج أن يُعامِلوا زوجاتهم بشرف ولطف وكأنهن أوانٍ ضعيفة، وأن على الزوجات أن يُخضعن أنفسهن لأزواجهن الذين تعهدن بطاعتهم. ومعظم هذه العبارات لم يرفضها البرلمان قبل مراجعة كتب الصلاة في عامي 1927 و 1928 ، فأخذت تختفي وإن كانت مازالت تستخدم حتى اليوم في الكثير من الكنائس.

وكان يقال: إن الزواج قد رُسم للإنجاب وكعلاج ضد الإثم، ولكن إذا ما وُلِد طفل، فإن كتاب **صلاة التعميد** يصرّح في الجمل الافتتاحية أن «كل الرجال يُحملون ويولدون في الإثم». وأنت لا تستطيع أن تربح. وتطلب صلاة من الصلوات أن «تموت فيه انفعالات الجسد». ولو استجاب الله لمثل هذا الدعاء لأصبح الطفل مخصياً فعلاً. وفي مراجعة عام 1928 نجد عبارات أكثر لطفاً كأن تقول: إن «كل الرجال هم من مولدهم عرضة للإثم ويُصلّى لكي تموت في الطفل كل الرغبات الشريرة». ومما يثير العجب أن الأسلوبيين «الميثوديين»، وهم يشكلون أكبر كنيسة إنكليزية حرة، اتّبعوا وحسنوا التعليمات الانغليكانية بصدد خدمة القداس، وواصلوا صلواتهم للرضيع المعمد حتى عام 1975 قائلين: «عسى أن تموت لديه كل الأشياء المنتمية إلى الجسد». ويمكن أن تؤدي الإستجابة لهذا الدعاء إلى تدمير عضوية هذه الكنيسة. وكما لاحظ آر. سي. زاوهنر فإن المسيحيين «يتخلون أثناء العماد عن العالم وعن الجسد، وعن الشيطان. وبالطبع فهم لا يفعلون شيئاً من هذا النوع، لأن للعالم وللجسد مكانهما المناسب في حياة جميع الناس ماعدا البوذيين والمانويين»(10).

وتحسن ببطء تقدير الناس في العالم البروتستانتي للزواج والجنس، رغم بعض المعارضة، وبعض التحفظات. وظن **جورج هيربرت** في القرن السابع عشر أن على خوري الأبرشية في الريف أن يبقى متبتلاً لأن مركزه يتطلب منه «أفضل الأشياء وأرقاها». وسخر **وليام لاو** في القرن الثامن عشر من «الأطباء المحترمين في أرديتهم الكهنوتية (وهم) يمارسون الحب مع النساء». ومع ذلك،

فإن **جون دون** في القرن السابع عشر، وهو شاعر وعميد لكلية **سانت بول** (بولس) عرض في أناشيده وسونيتاته ومرثياته المسرات في الحب وفي الاتصال الجنسي مع أنها كتبت ـ أغلب الظن ـ قبل رسمه، وأتت «سونيتّته المقدسة» فيما بعد. وصدرت الموضوعات المتميزة عن رجل دين في القرن السابع عشر وهو الأسقف جيرمي تايلور الذي قدم بعض أهم الأعمال المميزة في مجال التعاليم الجنسية.

في كتبه التي يمكن أن يطلق عليها اسم الألوهية العملية وفي العناوين التالية الممنوعة: العيش المقدس، والموت المقدس، ودكتور دوبيتاتيوم، عرض فهماً نادراً في سعته للعلاقات الجنسية، فقال: إن العذرية لم تكن «أنقى» من الزواج، بالرغم من إمكانية كونها مفيدة لبعض الأشخاص، ولم تكن أفضل لخدمة الرب.. ومقولة بولس: إن المتزوج يولي عناية أكبر بالأشياء الدنيوية عُكست لتبيّن أنهم كانوا متحررين من كثير من الإغراءات الجنسية ويملكون ورعاً متنوعاً أكثر. والواقع أن «حياة الوحدة تجعل الناس في اتجاه واحد حيث يصبحون مثل الملائكة. ولكن الزواج في كثير من النواحي يجعل الزوج الطاهر مثل المسيح». والزواج أفضل أنواع الصداقة «تتحد فيه كل الأشياء الرائعة». وعلى الزوج أن يكون «أباً وصديقاً» وليس «مسيطراً أو مستبدّاً». ومع أن الزوجة تتبع التقاليد، فإن عليها أن تكون متعاونة وأكثر اهتماماً بأعمال البيت وبالعناية بالأطفال. والاتصال الجنسي ـ حسب الأسقف **تايلور** ـ ينبغي أن يكون دون إفراط كي لا يضر بالصحة، لكن «من دون عنف ينقل الرغبات، أو القابليات العاطفية». ومع ذلك رأى الأسقف **تايلور** أن الهدف الرئيس للزواج لايزال إنجاب الأطفال. ويمكن أن يستخدم أيضاً «في تحبيب كل منهما بالآخر». إن الزوجات الصامتات لرجال الدين من هذا الطراز يمكن أن يكنَّ مسؤولات عن مواقف رجالهن الأكثر إيجابية وعن آرائهم في الحب والجنس.

وكان **جيرمي تايلور** مميزاً بتسويغه الاتصال الجنسي أثناء الحيض والحمل، ذلك أن الأمر الأول كان ممنوعاً في سفر اللاويين، وكان الأمر الثاني ممنوعاً من

قبل رجال الكهنوت من أمثال جيروم الذي قال: إن الوحوش تمتنع عن الجماع في هذه الأوقات. ورد تايلور بأننا لسنا مجرد حيوانات، وليس المسيحيون خاضعين لناموس موسى. ومادام بولس قد قال بعدم جواز سلب الزوج أو الزوجة حق الآخر في استخدام جسده (جسد الآخر)، فقد يلتقيان بصورة شرعية أثناء الحيض والحمل، إذا كان ذلك ضرورياً.

ولم يبحث الإصلاحيون أفعال الجنس الأخرى التي أدانها المتبتلون الأخلاقيون في العصور الوسطى مثل الإكويني. إلا أن تايلور قال إن الذنوب التي أطلق عليها اسم «ضد الطبيعة» لم تكن أسوأ من الذنوب الأخرى مثل الزنى الذي كان محرماً بوضوح بأمر إلهي. وكان أقل تساهلاً من بعض الفتاوى عن التسامح الديني إزاء البغاء. وهاجم الإشارة إلى أن طبيعة الذكر بحاجة إلى صمام أمان، في الوقت الذي أقر فيه بأن تحريم الزواج قد يفاقم الشر. وقال تايلور إن السبب الحقيقي للبغاء يتمثل في أن «الرجال يفرضون الضرورات من أجل أنفسهم، ومن ثم يجدون السبل لإشباع رغباتهم».

وظهرت بعد طرح هذه البحوث في المسائل الجنسية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بحوث أخرى خلال المئتي عام التي تلت إلى أن حدث الانفجار في الأزمنة الحديثة. وتابع الكتّاب الذين بحثوا في الزواج سبيل أسلافهم، وبقيت المسائل الجنسية تتأثر بالتقاليد التقشفية لفترة طويلة الأمد في الكنيسة، والتي تم تلخيصها هنا وفي بعض الدراسات الحديثة، بثنائية الجسد والروح.

وكانت مواقف البيوريتانيين (المتطهرين) والفكتوريين، فيما يخص كبح الجنس، مواقف لها سلسلة نسب طويلة، إلا أن هذه المواقف، كانت جزئياً، عبارة عن ردود أفعال في الفترات التي حدثت فيها وكانت تُعدّ فسقاً، أو ما يمكن أن يطلق عليه هذه الأيام اسم تساهل. وقد أدى الكبح والتَّزمُّت إلى التمرد، وأدى الفعل إلى رد فعل. ويمكن رؤية هذا الأمر في الكاثوليكية الرومانية، حيث أدى الانحراف في إيطاليا عصر النهضة، وخصوصاً في ظل

البورغيون، إلى الاشمئزاز. والجمال العاري الذي عرضه الرسامون والنحاتون في فنون رعاها البابوات، كان أكثر مما يحتمله أعداء الإصلاح. فأدان المجلس الكنسي في **ترينت** الصّور التي تثير المشاعر الجنسية. واتخذ البابا **بولس الرابع** قراراً بتغطية الصور الزيتية العارية التي رسمها **ميكائيل آنجلو** في كنيسة **سكستين**. وفي فرنسا كان **الجنسينيون** أكثر قسوة في أحكامهم الأخلاقية رغم انتقادهم آراء المعادين للإصلاح.

وحدث في البروتستانتية نَوَسان مماثل من طرفٍ متطرفٍ إلى آخر. وشجع إفراط القائلين بتجديد العماد (وهم ينتمون إلى مذهب نشأ في أوروبا بُعيد عام 1520 يصر على إعادة تعميد البالغين ورفض عماد الأطفال) في ألمانيا على التشدد الأخلاقي في اللوثرية، وأكثر من ذلك في التقوية التي أكدت على دراسة الكتاب المقدس.

وفي بريطانيا وأميركا، أدت المواقف البيوريتانية (التطهرية) الانكليزية، والخشونة الإكليركية الاسكتلندية التي تبعها فسق عهد التجديد عام 1660 ، إلى عهد الاحتشام الڤكتوري والتمرد الحديث. ووُجدت تيارات كثيرة متعارضة ومتعادية دينية وأخلاقية. وقابل هيمنة كل من التقوى الإنجيلية (الأنغليكانية) وتراخي الكنيسة الرسمية في القرن الثامن عشر، إحياء التأكيد على الطقوس التقليدية في القرن التاسع عشر التي امتدحت التبتل الإكليركي ومجّدت العذرية. وتجمعت، بعدئذ، قوى جديدة لكي تقدم مطالب بمراجعة التعاليم بشأن الجنس في تلك الأيام.

العصر الحديث:

أسهمت عوامل عديدة في قيام فهم جديد للجنس في هذا العصر. وقد أثرت بعض هذه العوامل في كل الأديان. وسنتعرض لهذا الموضوع باختصار في فصل الختام. فقد تميزت بشكل خاص ضمن الاتجاهات المسيحية في فترة السنوات المئة السابقة، المقاربة النقدية لكل من الكتاب المقدس وللتعاليم. ولا بد للأديان الأخرى من مواجهة هذا النقد لمصادرها في المستقبل، إلا أن المسيحية

هي الأكثر تأثراً في وقتنا هذا، بدءاً من البروتستانتية، كما نراها الآن أيضاً في الكاثوليكية الرومانية.

وربما كان الكثيرون من البروتستانت العاديين، والإكليركيين والعلمانيين، أكثر درايةً بالأفكار الجنسية عند علماء النفس وعند النسويين من آباء الكنيسة في القديم وفي العصور الوسطى. لذا، فإنهم عندما يبحثون عن الإرشاد الديني في المسائل الجنسية المربكة، فإن من السهل عليهم القفز فوق العصور، والعودة إلى الكتاب المقدس، لاكتشاف الاتجاهات الطبيعية العبرية في الجنس. وانطلاقاً من هذه النقطة فإن النقد لا يتعرض لتعدد الزوجات في العهد القديم وحسب، بل، يطول أيضاً، حتى ثنائية بولس. ولهذا السبب، غالباً ما يُدَّعى الآن ويُبشَّر بما لا يُصدَّق، من أن المسيحية هي الأكثر مادية في الأديان، وأنك تجد داخل حدودها أكثر المسائل الجنسية الطبيعية. وقد يجد الكاثوليكيون الرومان، حتى في البلدان الليبيرالية، أن من الصعب اتخاذ مواقف فروسية مثل هذه في التاريخ. إلا أن بالإمكان خدمة الاتجاه بالعمل. وأحدث رجال الدين البروتستانت والكاثوليك الأوفر عِلْماً، التواءات غير سهلة، تشير إلى التوترات التي يرزحون تحت وطأتها في الوقت الراهن.

وقد أصدرت مجالس الكنائس بصورة منفردة أو بصورة جماعية الكثير من البيانات الرسمية عن المسائل الجنسية، ويمكن نقل أمثلة قليلة. فالمؤتمرات الأنغليكانية المختلفة التي تعقد في لاميت كل عشر سنوات، والتي افتُتحت عام 1867 ، أعادت النظر بطبيعة الإنسان، والتلاؤم مع الطهارة، وسرمدية الزواج. ولم تُبحث العلاقات الجنسية بشكل كامل قبل عام 1958 ورغم بعض الحجج المتعرجة، فقد انقطع تعليم الجنس التقليدي للكنيسة عند الكثير من النقاط. ورُفضت الأفضلية المطلقة للإنجاب، وتم التأكيد على القيمة الشخصية للاتصال الجنسي، وأُدينت أية إشارة لشروره. والملاحظة الأهم تتمثل بالموافقة على منع الحمل بالأساليب «المقبولة من الضمير المسيحي» بوصفها وسيلة من وسائل تخطيط الأسرة.

وتناولت تقارير أنغليكانية عام 1974 ، ومنها تقرير خاص عن «الزواج والأسرة في بريطانيا في هذه الأيام»، تناولت الفعل الجنسي بوضوح وبصورة طبيعية، واعتُبر النشاط الجنسي موجهاً للكثير من جوانب الشخصية الإنسانية أكثر من انحصاره في إطار الاتصال الجنسي. ولكنّ تقريراً صادراً عن هيئة الأسقفية العامة بعنوان «الزواج ومهمة الكنيسة» عام 1978 ، سمح بالنظر في حالة الطلاق وإعادة الزواج في الكنيسة. وقد رفض مجلس السينودس العام هذا التقرير، ربما بسبب شعوره، بأن تبني مبدأ تغيير الزواج يمكن أن يضعف المسيحي الموجود في ظل ثقافة تبيح الطلاق.

أما الكنائس الأخرى، في أوروبا وأميركا، فقد خفّفت من حدة أحكامها ضد الطلاق وإعادة الزواج. وغالباً ما أعادوا تزويج الأنغليكانيين والكاثوليك.

حاول كثيرون من رجال الدين في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أن يتناولوا الموضوعات الأُخلاقية بحرية أكبر من الماضي، إلا أنهم حوصروا بالرسائل البابوية القاسية وبالقرارات. وقد أعادت الرسالة البابوية Casti Connubii الصادرة عام 1930 التأكيد على الموقف التقليدي. إلا أنه وُجدت إشارات خفية تعبر عن التغيير في وثيقة للمجلس الفاتيكاني الثاني Gaudiumetspes، صدرت في عام 1965 . وأوضحت هذه الوثيقة: «إن الزواج لم يكن قد سنَّ لمجرد الإنجاب»، وإن «الأسرة هي نوع من المدرسة التي تفيض إنسانية». ومع ذلك أحبطت الآمال بصدور شيء من الاعتراف بمنع الحمل الاصطناعي، الذي كان يُمارس بصورة واسعة، فصدرت رسالة بابوية بعنوان: «رسائل إنسانية Humanae Vitae» عن البابا بولس السادس عام 1968 بدأت بتأييد «الفهم الجديد لكرامة المرأة» و«قيمة الحب في الزواج ومعنى الحياة الزوجية الحميمية في ضوء ذلك الحب». إلا أن الرسالة البابوية رفضت تقرير الأُغلبية في اللجنة التحضيرية قائلة: «إن الاستنتاجات التي وصلت من قبل اللجنة لا يمكن اعتبارها، مع ذلك، مُوافَقاً عليها من قبلنا كتصديق حاسم ومرغوب به وكامل، كما لا يمكنهم أن يعفونا من واجبنا في

فحص هذه المسألة الجدية فحصاً شخصياً». ولذلك فإن السلطة البابوية قد فرضت نفسها، .لأن «الكنيسة مؤهلة بجلالها لتأويل القانون الأخلاقي الطبيعي». وقد قدّمت «الكنيسة دائماً التعليم المتماسك عن طبيعة الزواج، وعن الاستخدام الصحيح للحقوق الزوجية». وأقرت أن الزوج والزوجة «ليسا حُرّين في التصرف حسب اختيارهما في خدمة الحياة الموهوبة». ومنعت الكنيسة أي تصرف، قبل عملية الاتصال، وفي أثنائها، أو بعد الاتصال الجنسي، المراد به تحديداً، أن يمنع الإنجاب بغض النظر عن الغاية أو الوسيلة». وأدانت بشكل مماثل التعقيم، إن كان للرجل أم للمرأة، وأدانت فوق ذلك الإجهاض المباشر». وسمحت الكنيسة للناس المتزوجين أن يستغلوا «الدورات الطبيعية مستخدمين زواجهم في كل الأوقات التي لا خصب فيها على وجه التحديد». وكان السبب الذي قُدِّم لرفض منع الحمل هو «أن الرجل الذي ينشأ وهو معتاد على استخدام أساليب منع الحمل قد ينسى الواجب الجليل للمرأة، ولا يقدر توازنها الجسمي والعاطفي حق قدره». ويمكن أن يحدث أكثر من ذلك عن طريق الاتصال الجنسي في الفترات غير المخصبة. إلا أن ذلك لم يذكر.

لقد انفجرت الخلافات حول الرسائل البابوية، وتلقت الصحف آلاف الرسائل من المعترضين من الكاثوليك. ووعظ بعض القساوسة ضدها، وعوقبوا، ولم يُقِم لها آخرون أي وزن خلال المداولات الفعلية. ودعمت البطريركية الأورثوذكسية المسكونية البابا، غير أن أسقفية كانتربيري لاحظت أن مثل هذه التعاليم كانت «مختلفة بصورة كبيرة عن التي قدمتها الجمعية الأنغليكانية». وظهر تشدّدٌ كاثوليكي روماني مماثل في «بيانٍ عن مسائل محددة بشأن الأخلاق الجنسية» نشر عام 1975 وأدانت هذه الوثيقة «الاتحاد الجنسي قبل الزواج» حتى في حال وجود «نية قوية في الزواج وحبّ هو حب زواجي بشكل ما»، ذلك أن العقيدة الأخلاقية التقليدية تقول: إن «أي فعل تناسلي ينبغي أن يحدث ضمن إطار الزواج». وشجبت الشذوذ الجنسي لأنه يفتقر إلى «الغاية الأساسية التي لا مفر منها»، ولأن الأفعال الشاذة جنسياً هي فساد

خطير، وتُقدَّم كأنها نتاج بائس «لرفض الرب». واعتُبرت العادة السرية كأنها فوضى أخلاقية «مؤسفة». ورغم أن علم النفس وعلم المجتمع يعدّانها ظاهرة طبيعية «للتطور الجنسي»، فإن هذا الرأي مناقض لتعليم وممارسة راعي الكنيسة الكاثوليكية». وقيل: إن العادة السرية، قد عُدّت «فعل انتهاك خطير» لمرسوم 1054 «حتى إذا لم يثبت أن الكتاب المقدس يدين هذا الإثم بالاسم». وحكم على الممارسات الثلاث بأنها غير شرعية لأنها بحاجة إلى «الشعور الكامل بالعطاء النفسي المتبادل وبالتناسل الإنساني في سياق الحب الحقيقي».

وتم تبنّي الآراء المختلفة في المستويات الرسمية الأدنى. ومن الأمثلة على ذلك رد على الرسائل الإنسانية وعلى بيان 1975 على لسان الدكتور الكاثوليكي **جاك دومنيان**. فقد بدأ الدكتور المذكور بتعريف الأخلاقية الجنسية بالاستناد إلى «مفهوم الشخص بلغة الحب والكلية الإنسانية». وبالعودة إلى تعاليم العهد الجديد عن الحب فإن الآراء المسيحية بصدد العلاقات الجنسية ترتفع إلى أعلى مستوى. وتحتاج التعاليم الأخلاقية التقليدية بصدد الجنس أن يُعاد فحصها في هذا الضوء وأن تعدَّل الإجراءات السلطوية وفق متطلبات حقوق الرجال العلمانيين والنساء العلمانيات(*). والمسائل الجنسية: المتعة الجنسية، والعادة السرّية عند المراهقين، والجنس قبل الزواج، والجنس أثناء الزواج، ومنع الحمل، أعاد النظر بها جميعاً مع الإشكالات المرتبطة بها التي ينبغي الحكم عليها وفق مبادئ الحب والاعتزاز بالشخصية. وخلص إلى القول بأن الأخلاق الجنسية المسيحية تتطلّب قبولاً إيجابياً «للجنس الإنساني» في علاقات الحب[11].

وتقسّمت الاتجاهات المسيحية فيما يخص المسائل الجنسية في العصر الحديث بوضوح تام، حتى في الكنيسة الكاثوليكية. وأُبديت موافقة عامة على مثال وحدانية الزواج، رغم وجود آراء مختلفة بشأن الطلاق وتكرار الزواج.

(*) أي عامة الرجال والنساء غير العاملين أو المتخصصين في حقل الكهنوت. الناشر.

وبالرغم من الرسائل البابوية فقد وُجِد، على الأغلب، فهم أفضل لبعض الممارسات الجنسية الأخرى التي اعتبرت من جانب كثير من المسيحيين وكأنها أكثر طبيعية مما كانت عليه في الماضي، وبعيداً عن الرعب الذي كان ينتشر سابقاً بسببها. ولم يعد يعتبر الاتصال الجنسي داخل الزواج، بصورة عامة، مدنساً أو محتقراً. وإذا رغب المسيحيون الآن أن يعدّوا دينهم وكأنه يقدّر الأشياء المادية، وبصورة خاصة الجنس، حق قدرها، فإن ذلك يعود إلى أسلافهم العبرانيين، آخذين بعين الاعتبار أن الكثيرين منهم مُعدون بشكل أفضل لأن يفعلوا ذلك أفضل من أي وقت مضى.

هوامش المؤلف للفصل العاشر

1 - G. Murray, Five Stranges of Greek Religion. 1925, p. 91.
2 - Phaedo, 66.
3 - M. Buber, I and Thou, Eng. trs. 1937, p. 16.
4 - Ibid., p. 85.
5 - The Life if Saint Teresa, tr, J. M. Cohen, 1957, p. 210.
6 - Mysticism Sacred and Profane, 1959, pp. 151 f.
7 - For Patristic and later references see D. S. Bailey, The Man Woman Relation in Christian Thought, 1959.
8 - J. Burnaby in A Dictionary of Christian Ethics, ed., J. Macquarrie, 1967, p. 23.
9 - D. S. Bailey, The Man Woman Relation in Christian Thought, pp. 161 f.
10 - Concordant Discord, 1970, p. 432.
11 - J. Dominian, Proposals for a New Sexual Ethic, 1977.

الفصل الحادي عشر

التأثيرات المعاصرة

من الصعب أن تؤدي هذه الدراسة لبعض الاتجاهات والممارسات الجنسية في الأديان الحية الرئيسة إلى استنتاجات متّفق عليها، وعلى العكس، فقد تساعد، إلى هذا الحد أو ذاك، على إبراز الاختلافات. والأديان كلها في العصر الحديث عرضة لضغوط جديدة لا بد أن تؤثر على فهم الجنس. ولأن معظم التأثيرات تأتي من الغرب، فإن المسيحية خاصة، واليهودية، هما اللتان طرأت عليهما تغييرات معينة حتى الآن، وستشمل التغييرات الأديان الأخرى إن كان في القبول أم الرفض.

الطب:

لقد أتت بعض هذه التأثيرات من التطورات العامة في الحقول التالية: الطب، وعلم النفس، وحقوق المرأة، والدراسة المقارنة للأديان. وكانت المعرفة الطبية بمنزلة ثورة في تقديم فهم دقيق أكثر عن عمل ونتائج الاتصال الجنسي؛ فقد كانت التعاليم الغربية القديمة تستند إلى الفلسفة والطب اليونانيين اللذين لا يملكان المعرفة حول سير عملية الحَبَل. وكانوا يظنون أن الجنين يُصنع من مزيج من المني ودم الحيض. ويتمثل دور المرأة بتلقي المني الثمين. وقد سمح هذا الاعتقاد بخضوع المرأة أكثر وأكثر، لأنها اعتبرت بمنزلة جهاز تفريخ، أو أنها «أخدود» وأن على الرجل أن يستخدم المرأة.

وبقي الناس حتى القرن السادس عشر يعتقدون أن المني الذكوري هو «تقريباً إنسان». وأدركوا، فيما بعد، الدور الأساسي الأنثوي باكتشاف المبيض، وكانوا في السابق يرتعبون من فساد المني بممارسة العادة السرية، أو الاستحلام، أو الشذوذ الجنسي بين الذكور. والأكثر من ذلك أن آباء الكنيسة ظنوا أن «الحركات البهيمية» التي يقتضيها الاتصال الجنسي كانت نتيجة السقوط من الجنة، لأنها لم تكن تحت سيطرة الإرادة العاقلة. وتجاهل رجال الكهنوت لفترة طويلة، أو أنهم رفضوا أن يقبلوا أن رعشة الجماع تحتاج إلى إثارة المشاعر، وأن هذه الرعشة ليست متناقضة مع الإرادة بل هي تعبير عن الإرادة والفاعلية. وقيل إنه حتى في العهد الڤكتوري: قيل للنساء أن يغلقن عيونهن وأن يتركن الرجل يعبر عن طبيعته المنحطة؛ وكانت النتيجة أن بعض الرجال ذهبوا إلى المومسات للحصول على المتعة الجنسية وعلى التفهم.

وساد بشكل مماثل أيضاً الجهل بفيزيولوجيا الجنس في كل أنحاء العالم. وعلى سبيل المثال، لم تفطن الصين القديمة أيضاً إلى أن الإخصاب يحدث باتحاد خلايا نطفة الذكر مع بيضة الأنثى. وكان يعتقد أن الإفرازات المهبلية تشكل جوهر سر الـ (ين) أو هو قوة الأنوثة في العالم ـ حسبما كان يعتقد الصينيون ـ وإن الهدف الرئيسي من الجماع هو تمكين الرجل من امتصاص سر وقوة الأنوثة هذه. وظن الصينيون أيضاً أن المني الذكوري محدود جداً، في حين أن لدى المرأة جوهراً أنثوياً لا ينضب. وكان يُظن أن كل قذف للمني يخفف أو يقلل الـ (يانغ) وهو قوة الفحولة أو الذكورة في العالم حسب الاعتقاد الصيني. ويتم التعويض عن طريق كسب كمية مماثلة من الـ (ين) من امرأة ما، أي امرأة. وغالباً ما كان القذف يُمنع إما بضبط ذهني أو بضغط جسمي. وقد ساد الاعتقاد بأن الـ (يانغ) المعزز بالـ (ين) يجري عبر النخاع الشوكي ليفيد في تقوية المخ والجسم كله والشخصية.

وكانوا يعتقدون اعتقاداً مماثلاً باليوغا الهندية التي من المحتمل أن تكون قد

انحدرت من الصين. لكن علم الفيزيولوجيا المعاصر يعتبر هذه الأفكار خاطئة لأن السائل المنوي المكبوح يدخل المثانة ويطرح مع البول. ووفقاً للأفكار القديمة فقد كان المني ثميناً جداً إلى الدرجة التي سمحت بالتنديد بالعادة السرية وبالشذوذ الجنسي، في الوقت الذي تم فيه التسامح مع هذه الممارسات من قبل الإناث. وكان يُنظر باهتمام للقذف الإجباري في الليل، باعتباره يُضعف الـ(يانغ). وكان يُظن أن الشياطين هم المسببون لهذه الحالة، أو أن السّقوبة، وهي شيطانة(*)، تسرق جوهر الرجل الحيوي بالاتصال به في الأحلام. وكان الحلم بامرأة ما يجعل منها روحاً شريرة، وعلى الرجل أن يتجنبها إذا ما رآها في حال اليقظة. وكان يعتقد بمثل هذه الأمور في أوروبا القرون الوسطى، حيث كان يدور النقاش حول الساحرات وحول السّقوبه إن كان بإمكانهن أن يجردن الرجل من عضوه الرجولي، وفيما إذا كان يتم إغواء الراهبات من قبل الحضون المذكرة(**). والفكرة الصينية عن اتحاد المرأة والرجل - «ين» و «يانغ» - بحاجة إلى الكثير من التعليق، إلا أن التفاصيل بحاجة إلى تصحيح في ضوء علم الفيزيولوجيا الحديث.

علم النفس:

لم يكن لدى الباحثين الفيزيولوجيين وحدهم اتجاهات ثورية تجاه الجنس في العالم الغربي، بل وُجِدت اتجاهات مماثلة لدى علماء النفس أيضاً، ولم يكن بإمكان المسؤولين الدينيين أن يتجاهلوهم. وكشف العمل الريادي لفرويد عن بعض المحددات الجنسية في التصرفات وفي السلوكيات، وعن العوامل التي تؤثر على التطور العاطفي لدى الأطفال، وعن الارتباطات ما بين العصاب الوظيفي والكبت الجنسي. ثم أسهمت نظرية (يونغ) عن العنصر الأنثوي الأنيما anima عند الرجل، والعنصر الذكوري أو الأنيموس animus عند المرأة، في تحقيق فهم

(*) السقوبة: شيطانة زعم أنها تجامع الرجال أثناء نومهم. المورد.
(**) الحضون: هي الروح التي يزعمون أنها تجامع النساء ليلاً. م.

أكبر للمشاعر الجنسية المعقدة. وألقت دراسة الأحلام التي أصبحت مميزة منذ فترة طويلة، ألقت ضوءاً أكبر على الرغبات الجنسية.

لقد قدمت الدراساتُ اللاحقة، مثل دراسة **كينسي** والتقارير الأخرى، كمياتٍ هائلة من المادة اللازمة لتقييم أنماط الرغة والسلوك لدى الرجال والنساء. وأُعيد النظر في ضوء جديد ليس فقط، بالجنس «العادي»، بل أيضاً في الشذوذ الجنسي، والممارسات التي اعتبرت في السابق بأنها «غير طبيعية». وقاموس أكسفورد الكبير الذي سبق أن عرّف بإيجاز شديد العادة السرية، بأنها «فعل أو ممارسة للأذى الذاتي»، استبدل بهذا التعريف تعريفاً جديداً في ملحقه لعام 1976 قائلاً: إنها «إنتاج رعشة التهيج الجنسي عن طريق إثارة الأعضاء التناسلية، وليس عن طريق الجماع الجنسي، أي افتعال الشهوة الجنسية بالإثارة الذاتية».

وأكثر من ذلك، كشفت أعمال الأنثروبولوجيين(*) بين الشعوب «البدائية» عن اتجاهات جديدة بصدد الاتصال الجنسي، ولعب الرجال والنساء في مجتمعات متنوعة أدواراً مختلفة. وعُثر على كميات ضخمة من الأدب الذي يتناول الموضوعات الجنسية، بصرف النظر عن الطابع الخيالي للأوصاف، وعن الغرابة في التعبير. وكانت رواية **دي. اتش. لورانس «عشيق الليدي تشاترلي»** إحدى الروايات الأكثر شهرة، وبقيت إلى فترة طويلة ممنوعة في البلاد التي صيغت فيها. مع العلم أن من المحتمل أنها لم تكن أفضل ما كتبه من وجهة النظر الفنية؛ ويجد القارئ الكثير من المظاهر الغريبة فيها. ومع أن كاتبها رجل فإنها تهدف إلى تقديم وجهة نظر المرأة بالاتصال الجنسي، وليس لغير النساء حق إصدار الحكم بمدى نجاحها. وكتب **لورانس** في مقدمةٍ لطبعةٍ متأخرة، تتعلق بها، عن «الطاقة المثيرة للعواطف وللذكريات الكامنة وراء الكلمات التي

(*) في مجال الدراسات الإنسانية. م.

يطلقون عليها اسم [الفاحشة أو الداعرة]». وادّعى أننا الآن «تطوّرنا وازددنا ثقافة جعلتنا نتجاوز التابوات (المحرمات) التي ورثناها في ثقافتنا». ولكن لا يبدو أن استخدامه للمفردات المحظورة (المحرمة) قد جعلها مقبولة أكثر في الاستخدام الشعبي. وفوق ذلك فإن أغرب ما طرحه لورانس هو تلك الفكرة بصدد المواقف الجنسية للكنيسة؛ فقد زعم أن «الكنيسة الكاثوليكية، وخصوصاً في الجنوب، ليست معادية للجنس، مثل الكنائس الشمالية، وليست مع الجنس، كما هو حال السيد (شو) وأمثاله من المفكرين الاجتماعيين». وتخطّى الكنيسة راجعاً إلى الأفعال البدائية التي زعم أنها تتلاءم مع إيقاع الفصول السنوية. فالجنس يتحرك من خلال إيقاع السنة عند الرجل وعند المرأة، متغيراً من دون أدنى انقطاع مرتبطاً مع إيقاع الشمس بعلاقتها مع الأرض؛ وهكذا يجنح الخيال أكثر، لكن مع اهتمام أقل بتعقيدات التصرف الجنسي الإنساني.

وساعدت الدراسات المعاصرة في علم النفس في تفسير الرموز في حياة اليقظة، إضافة إلى تفسير الرموز في عالم الخيال أو في الأحلام. ومع أن عبادة القضيب لم تنتشر في كل مكان، فإن لانتشارها في بعض الأماكن أهمية كبرى، ويتطلب هذا الأمر فحصاً دقيقاً وإدراكاً متّسقاً. ويجري تشبيه «قوة الأفعى»، في نظرية اليوغا، بطاقة الذكر الجنسية. وهي ترتفع لكي تتحد مع أعلى مركز نفسي، ويشار إليها كزهرة اللوتس التي ترمز إلى الفرج. ويُصوّر اتّحاد اللينغا Linga واليوني Yoni في التماثيل وفي الرسم عند عَبَدَة شيڤا وشاكتي، ويُرسم بخطوط بيانية يانتريه Yantric. ويمكن بمساعدة علم النفس الحديث قراءة وتثمين مثل هذه النماذج، بالإضافة إلى الخيال الأكثر غموضاً. ويمكن قول الشيء نفسه عن صور أخرى في الكثير من أنحاء العالم. وتعلم الناس في عصرنا الراهن من فرويد ومن الآخرين كيف يفسرون الكثير من الرمزية اللاشعورية في الحياة وفي الأدب، ومن «العالم الطافي» إلى «أليس في بلاد العجائب». وساعد كل من الطب وعلم النفس في فهم الاتصال الجنسي وانخراط كامل الشخصية في العلاقات الجنسية.

حقوق النساء:

من الواضح من خلال كل الأديان التي ماتزال قائمة، ومن الكثير من الأديان القديمة وأديان ما قبل التاريخ أن الرجال هم السادة لأنهم الأقوى جسدياً، في حين كانت النساء خاضعات. ولايزال موضع نقاش إن كانت النساء أول من قُمنَ بالشعائر الدينية في المجتمعات القديمة المنظمة وفق قواعد الأمومة. وهذا النقاش حامي الوطيس، إلا أنّ فيه القليل من الدقة، والتاريخ القديم يعج بالآلهات وبِعَبَدة الإناث، ومع ذلك، فقد ساد الرجال منذ أمد بعيد جداً.

وعامَلَ القانون النساء في المجتمع الإغريقي القديم وكأنهن مجرد آلات لتوليد الأطفال. ويطبع مثل هذا السلوك التعاليم الجنسية في الكثير من البلدان. واعترف أرسطو بأن لدى النساء ملكة عقلية قوية، إلا أنه قال: إن ذلك كان «من دون سلطة». وكان الذكر، بالنسبة له، النموذج، في حين كانت النساء منحرفات وأدنى من الرجل. وقمع الرومانيون النساء مع أنه وجدت بطلات جمهوريات عارضن الرجال في مناسبات معينة.

ومن المحتمل أن الكثير من النساء احتُرمن وعُشقن من قبل جمهور الرجال في معظم البلدان، ونُظمت القصائد في مديحهن، مثل الزوجة الفاضلة في سفر الأمثال، بصرف النظر عن الشعور بالتنازل في هذه الصيغ. وكان لدى النساء المنتميات إلى الطبقات العليا في المجتمع مجال أوسع من النساء الفقيرات، في ممارسة حياتهن الخاصة مثل موراساكي شيكيبو في اليابان. ولكن معظم النساء كن، في أغلب الأحوال، محظيات وغيشا يعتمدن في حياتهن، بصورة عامة، على ما يقدمه كثير من الرجال ثمناً لتحقيق رغباتهم.

وكان خضوع النساء مظهراً جلياً من مظاهر القانون الروماني وفي العادات وفي التراث التاريخي اليهودي. وهو أمر يعكس اعتقاد الذكور بضرورة ضمان مراكزهم المتميزة وفقاً للتقاليد القديمة وللتعيين الإلهي. وبصرف النظر عما يُدعى في الغالب من أن المسيحية منحت النساء وضعاً جديداً، فإن النساء

في الواقع، بقين في وضعهن الاجتماعي والقانوني دون أدنى تغيير يذكر. وقد قال بولس: «لا يوجد في المسيح ذكر ولا أنثى». ولكنه قال أيضاً: «إن رأس كل رجل هو المسيح، وإن رأس المرأة هو الرجل». وكانت النساء المؤمنات أخوات في العقيدة، غير أن قوة التنسك السائدة في العادات قد ساعدت في المحافظة على المرأة في الدرك الأدنى. وأعلن **كريسوتوم** في القرن الرابع، أن الزوجة لم تكن مساوية لزوجها وأن عليها أن تطيعه. وفي الوقت الذي اعترف فيه شخص مثل كلمنت الإسكندري، بصورة مبكرة، بأن للمرأة طبيعة مساوية لطبيعة الرجل، اعتقدَ أيضاً أن الرجل أفضل من المرأة في كل شيء. وهاجم كارهو النساء مثل **تيرتوليان** و **جيروم**، النساء لأنهن أتباع حواء التي كانت الأولى في أكل الثمرة المحرمة، فكانت سبباً في تحطيم الرجل. وكان غالباً ما يجري التعبير عن الخوف من النساء اللواتي كن حواءات أخريات مثلها، يسعين دائماً لإيقاع الرجال في الشرك مثل امرأة سفر الأمثال الغبية التي «يقبع ضيوفها في أعماق الجحيم».

وكانت مثل هذه الاتجاهات تشكل كارثة فيما يخص الحياة الجنسية المتوازنة، نظراً لأنّ لدى المرأة ـ حسب ما كانوا يعتقدون ـ مضموناً شيطانياً في نشاطها الجنسي. ولم يستطع القساوسة المتبتلون ولا كهنة الاعتراف أن يقدموا بسهولة نصيحة متوازنة بشأن العلاقات الجنسية.

وبالرغم من الموقع المتدني الذي شغلته النساء في السلطة الدينية وفي الحياة الجنسية، فقد شكلن أغلبية العلمانيين من أتباع الدين. وتدين المسيحية في أيامها الأولى إلى الكثير من النساء. وذُكرت أسماء الكثيرات في العهد الجديد. وجرى، فيما بعد، تمجيد نساء بارزات ممن استشهدن في سبيل الدين المسيحي، ومن الراهبات والنساء المقدسات في مختلف الأديان. إلا أن أكثر النشيطات كن عادة خاضعات للرجال فلم يستطعن إقامة الاحتفال بالقربان المقدس. ووجدت كاهنات في بعض الأديان القديمة، كما في بعض أنحاء أفريقيا الحديثة، غير أنهم أنكروا على النساء شغل المناصب العليا في معظم الأديان.

ومن الملاحظ أن الهيئات العليا في الأديان القديمة ترفض أن تُرسَّم النساء كاهنات، في الوقت الذي تنص فيه قوانين الدولة على حقوق متساوية للنساء إن كان في فرص العمل أم التوظيف. ومع ذلك تدّعي هذه الأديان أنها حسّنت أوضاع الإناث. وتكمن وراء مقاومة احتلال النساء مناصب دينية عليا، المخاوف القديمة من تدنيس المذبح بدم النساء.

ولا يُستبعد أن يكون الهدف من فرض الحجاب على المرأة في البلدان الإسلامية هو إبعادهن عن الإغراء، حسبما يُدَّعى. غير أن الناتج من ذلك هو كبحهن وعزلهن على أساس أنهن يشكلن جزءاً من ملكية الرجل. وقام الرجال بإدارة الشؤون العامة بأنفسهم. ويعتبر تعدد الزوجات، حسبما أوضح **إدوارد وسترمارك** في كتابه «تاريخ الزواج الإنساني» انتهاكاً صارخاً لأحاسيس النساء. وربما وقف **وسترمارك** على أرض أقل صلابة عندما قال إن تعدد الأزواج يفترض بصورة مسبقة وجود ميل ضعيف نحو الغيرة[1].

ولعبت النساء دوراً أكبر، في العصر الحديث، ضمن حركات الاستقلال الوطني، وخاصة في الهند في فترة **غاندي**، وذلك كان عاملاً هاماً مكّنهن من التقدم خطوات واسعة على طريق التحرر الاجتماعي، رغم بقاء عوائق كثيرة بانتظار التغلب عليها. وبقيت النساء في كثير من بلدان آسيا وأفريقيا، من اليابان حتى المغرب العربي، يعتمدن كلياً على آبائهن أو أزواجهن في تلبية معظم احتياجاتهن. وإضافة إلى التقدم الذي أحرزته النساء فقد حدثت تراجعات نحو السبل التقليدية.

وكان تحرر النساء، وخصوصاً في البلدان الغربية، وبالدرجة الأولى في صفوف المؤمنين بالمسيحية واليهودية، ناتجاً عن العديد من القوى: القوى الحَضَرية والصناعية والثقافية والسياسية. ومكّنت الكثير من الدراسات الهامة، كما مكّن النشر المتسع للمسائل الجنسية، النساء، إضافة إلى الرجال، من الإجابة على كثير من الأسئلة، رغم أن وسائل الإعلان فتحت مجالاً واسعاً

لاستغلال الجنس والحط من قدر المرأة في الأفلام والأدب الجنسي لتحقيق مكاسب تجارية. وتعم الفوضى في علاقات الجنس والدين، أو تقريباً في الاتجاهات الجنسية وفي أفعال الناس المتدينين. وتتوطد الاتجاهات الجديدة بصعوبة كبيرة في مثل هذه الأوضاع التي تسود فيها العادات القديمة.

اللقاء الديني:

يُشكل لقاء الأديان العالمية ظاهرة كبيرة الأهمية في وقتنا الراهن، مما أخذ يميز الأديان الآن عما كانت عليه في العصور السابقة، حين كانت بعض الأديان تعيش في عزلة تامة عن غيرها، وخاصة في العالم الغربي. وحملت الإمبريالية والإرساليات الأفكار المسيحية، في القرنين التاسع عشر والعشرين، إلى آسيا وأفريقيا. ويقوم المهاجرون والمرشدون المسافرون الآن برد الجميل. وتؤثر مثل هذه الاحتكاكات على السلوك الجنسي، مثلما تؤثر في المجالات الأخرى. فتلتقي الآن البيوريتانية (التطهير) بأفلام الإكس (X)، وتدور الغيتا Gita الأثيرية مع الكاما سوترا.

ومن المدهش في هذه الأيام أن يعتبر الكثيرون في صفوف البشرية الأخرى، العالم الغربي كأنه مسيحي في مجمله، وطليقاً جنسياً وغير أخلاقي. وكما سبق أن رأينا، فإن المسيحية، مثلها مثل البوذية، تطورت كدين تقشفي. وتفوقت الكنيسة المسيحية، إن كان في تعليماتها الموجّهة إلى رجال الدين وإلى الرهبان، أم في الحط من قيمة الجنس بصورة عامة، تفوقت حتى على البوذية: «إلا أننا نتغيّر كلياً». ويتغير حتى أولئك الذين مازالوا يمارسون الطقوس المسيحية.

وبقيت صورة الغرب وكأنه طليق جنسياً سائدة لفترة طويلة. وأدهشت هذه الصورة الناس حتى في الحضارات التي من المفترض أن تكون الممارسات الجنسية فيها طبيعية أكثر من ممارستها في المسيحية. ولقد لاحظتُ قبل أكثر من عشرين سنة في أم درمان، أن امرأة تضع خماراً على وجهها، كانت تختلس

النظر إلى إعلان سينمائيٍّ كبير يصور امرأة أميركية تلبس كنزة خفيفة وبنطلوناً قصيراً وحذاءً لركوب الخيل، تقف وفي يدها سوط فوق جسم رجل مغلوب على أمره.

وفي الهند، أرض اللينغا lingas والعبادات الجنسية، لم يسمحوا بالقُبَل على شاشة السينما حتى وقت متأخر جداً. أما الآن، فهم يستوردون، إن كان في آسيا أم أفريقيا، الأفلام العارية من الغرب. ويعترف الرجال والنساء بإصابتهم بالذعر وبالاشمئزاز من الأفلام والمجلات غير الأخلاقية، في الوقت الذي يزدحمون من أجل رؤيتها وقراءتها، وهكذا أصبح الحكم بأن الغرب المسيحي غير أخلاقي حكماً عاماً، في الوقت الذي يحسدون فيه الغرب على تقدمه المادي، ويتجاهلون التقليد التقشفي في الدين المسيحي، أو أنهم يرون أن الإرساليات التبشيرية قد خسرت المعركة.

وهذه الفوضى الجنسية هي جزء من مشاكل الغرب الخاصة، وهي ناتجة جزئياً عن ردود الفعل على «الڤيكتورية»، وقد جرى تشجيعها من قبل المصالح التجارية الجبارة. وكثيراً ما نسمعهم يقولون عن هذا العصر إنه «عصر التساهل» أو «التسامح»، فيستقبله البعض بالترحاب، في حين يواجهه غيرهم بتجهّم. إلا أن من غير الواضح إن كان التغيير الوحيد الذي سيطرأ في المستقبل هو حلول «الكبت» إِثْرَ حالة النَوَسان إلى الأمام وإلى الوراء التي ميزت تاريخ الغرب في القرون القليلة الأخيرة.

وقد يقدم التِقاء الجذور التاريخية الدينية الكبيرة في العالم المساعدة إضافة إلى التحدي. ويُطرح أحياناً سؤال حول ما الذي يمكن أن نتعلمه من الأديان الأخرى، والجنس يشكل أحد العوامل الهامة. ولا يُستبعد أن يسهم مثال وحدانية الزواج والحب في المسيحية، وتأكيد اليهودية والإسلام على الحياة الدنيا، والسعادة في الاتصال الجنسي في الهندوسية الكلاسيكية، وترابط الأنثى مع الذكر في التقاليد الصينية، لا يستبعد أن يسهم كل ذلك في إيجاد أخلاق

جنسية جديدة تُعدِّلُ وتكيّف إحداها الأخرى، ويتحقق تقدم حقيقي. وبالطبع، فإن أياً من هذه التقاليد ليست بحاجة لأن يجري تبنّيها بصورة مشوشة، بل إنها كلها بحاجة إلى إصلاح وضبط، ويحتاج معظمها، بصورة خاصة، لأن تمنح المرأة مكاناً مناسباً واحتراماً أكبر. ويمكن أن يحوز الجنس والحب تقديراً جديداً إيجابياً وأن يزدهرا إذا ما دُرست العلاقات الجنسية إلى جانب المثل الدينية، وتم تطهير الممارسات مما يحط من قدر الأفراد.

ولقد تكلم **د. جوزيف نيدهام**، الخبير الكبير في شؤون العلم والحضارة في الصين مبيناً الحاجة إلى لاهوت جديد للجنس، فقال:

«كنت منذ زمن طويل مقتنعاً تمام الاقتناع بأن أحد الأخطاء الكبرى في التفكير الصيني عبر العصور قد تمثل بالانفصال الحاد الذي قام به كثير من اللاهوتيين ومن المرشدين الروحيين، ما بين «الحب الجسدي» و«الحب السيرافي [الملائكي]». ولا توجد في الواقع خطوط حادة تفصل ما بين «الحب المقدس و«المدنس»، وما بين الحب الجسدي eros philea والحب غير الجنسي agape. وأعتقد أن هذا التقسيم كان في أساس الاعتقاد المانوي الذي تسرب إلى الإنجيل المسيحي.. ونحن نحتاج اليوم إلى لاهوت جديد للجنس.. في ضوء المعارف الأساسية التي حازها الإنسان منذ القرن السابع عشر عن طبيعة التوليد، وعن بناء دماغ الإنسان ووظائفه[2].

هوامش المؤلف للفصل الحادي عشر

1 – 1891, pp. 495, 515.
2 – Address for Chapel, Cambridge, 1976

فهرس المصطلحات

* ـ سيجري تدوين المصطلحات حسب ورودها في النص، فصلاً فصلاً، مع مراعاة مستوى لزوم المصطلح للسياق قدر المستطاع.

* ـ فيما يخص معاني المصطلحات، وبعض الهوامش النجمية، تمّ الاعتماد بشكل رئيسي على المراجع التالية:

1 ـ قاموس لاروس (فرنسي ـ فرنسي).
2 ـ المنجد في الأعلام.
3 ـ قصة الحضارة.
4 ـ المورد الكبير.
5 ـ المعتقدات الدينية لدى الشعوب ـ عالم المعرفة ـ العدد 173 ـ أيار 1993
6 ـ المهابهاراتا. ترجمة عبد الإله الملّاح.
7 ـ الجنس في العالم القديم، تأليف بول فريشاور. ت. فائق دحدوح.
8 ـ اليوغا تطيل عمرك ـ شري يوجندرا. ت. محمد روحي بعلبكي.
9 ـ تاريخ الأدب العالمي. (موجز) لنخبة من المؤلفين.
10 ـ القرآن الكريم.

الفصل الأول

ـ أوبانيشاد (Upanishad): «العقيدة السرّانية، أو الجوانية»، وهي مجموعة من الأسفار الفلسفية الهندوسية، وُضِعت بين القرن العاشر والخامس قبل الميلاد. وتتناول مسائل أصل الكون، وحقيقة الإنسان، وعلاقة أتمن «النفس أو الروح» بيراهمن «الله». وتعني حرفياً: «الجلوس بالقرب من المعلم».

ـ المانوي (Manichean): أحد أتباع ماني الفارسي (216؟ ـ 276؟ ب.م) الذي دعا

إلى الإيمان بعقيدة ثنوية قوامها الصراع بين النور والظلام.

الفصل الثاني

لينغا (Linga): كلمة سنسكريتية معناها «العلاقة»، وهي رمز للقضيب في الهندوسية وهو رمز الإله شيڤا ـ موضوع العبادة الرئيسي في المعابد الشيڤية.

- شيڤا (shiva): سنسكريتية «الواحد الميمون أو السعيد» ـ أحد الآلهة الرئيسية في الهندوسية ـ يحمل صفات متناقضة فهو «المدمّر» و«المنشئ»، والناسك ورمز الشهوة... إلخ.
- بارڤاتي (Parvati): الإلهة الكبرى، عروس الإله شيڤا الجميلة في الهندوسية.
- دورغا (Durga): إلهة هندوسية ـ راعية اللصوص وقطاع الطرق ـ إحدى صور الإلهة شاكتي، تسكن الجبال ـ اشتهرت بذبحها للشيطان ماهيشا الذي تنكّر في صورة جاموسة.
- كالي «السوداء» (Kali): تصفها أسفار الڤيدا بأنها إلهة الزمن، وبالسوداء أو ذات اللسان الرهيب بين الألسنة السبعة التي تطلق اللهب لتشرب قرابين الزبدة. أما في الأساطير المتأخرة فهي زوجة شيڤا التي تبارك عبادها الذين يدركون الحقيقة وسر الزمن.
- يوني (Yoni): رمز لعضو الجنس عند الأنثى (رمز للإلهة شاكتي).
- أغني (Agni): إله النار وهو المحور الذي يربط عالم الناس وعالم الآلهة في أسفار الڤيدا.
- زوجة شيڤا ـ الإله في الهندوسية وهذا الرمز مع «اللينغا» يعبّر عن تلازم الجنسين إلى الأبد.
- «شجرة العرفان» (Bo-Tree): شجرة مقدسة في الديانة البوذية، والتي تحتها بلغ بوذا مرحلة الاستنارة أو الهداية.
- رودرا (Rodra): إله هندي يجلب المرض والشفاء معاً.
- المهابهاراتا (Mahabharata): ملحمة هندية عظيمة تشبه إلياذة هوميروس عند اليونان، بلغ طولها 107.000 زوج من أبيات الشعر الثُّمانية المقاطع.
- بورانا (Purana): قصة هندية أسطورية.

كاما (الحب والشهوة والمتعة) (Kama): ويُعرف أيضاً باسم كامادينا إله الحب،

زوجته راتي، إلهة الرغبة. تصوره الأسطورة حاملاً قوساً من قصب السكر ووتره من النحل، أمّا السهام فطرفها من الزهور، وممتطياً ببغاء، حاملاً راية الحمراء، وعلامتها السمكة.

- برّهما (Brahma): أحد آلهة الڤيدا الرئيسية في الديانة الهندوسية - ثم مع ظهور الفِرَق والطوائف طغى عليه «ڤيشنو وشيڤا - ولا ينبغي الخلط بين برهما في صورته المذكورة وبين براهمان المحايد من حيث الجنس، الذي هو القوة العليا والحقيقة النهائية للكون، وقد ارتبط بالإله الخالق في الڤيدا، وسمي باسم برجباتي.

- ڤيشنو (Vishnu): «الحفيظ»: أحد الثالوث المقدس عند الهندوس، ويعرف أيضاً باسم أنانتسيانا «النائم على الأفعى اللامتناهية»، وناريانا «مجرى الماء»، وبيتمارا «ذو الازار الأصفر». ويشكل مع الإله شيڤا وشاكتي الآلهة الرئيسية.

- شري (Shri): محظية ڤيشنو وإلهة الحظ السعيد.

- لاكشمي (Lakshmi): إلهة الثروة والحظ السعيد، زوجة ڤيشنو، اتخذت صوراً متعددة لتكون معه في تجسداته الكثيرة.

- شاكتي (Shakti): الإلهة الرئيسية الثالثة في الديانة الهندوسية (إلى جانب ڤيشنو وشيڤا) والكلمة تعني «القوة» أو «النشاط» - يقال إنها زوجة شيڤا.

- تانترا (Tantra): سنسكريتية معناها «خيوط الطّيف»، وهي مجموعة من النصوص المقدسة التي تشبه «سوترا» مع فارق هام أن الأولى وثائق لايطّلع عليها سوى المختصون، أما «السوترا» فهي عامة وشائعة وفي متناول الجميع.

- كريشنا (Krishna): واحد من أكثر آلهة الهند توقيراً وشعبية، عبده الهنود على أنه التجسيد الثامن للإله ڤيشنو. كلمة كريشنا تعني حرفياً «الأسود».

- بهاغفات غيتا (Bhagavad Gita): (أنشودة المولى، وهي بمنزلة «العهد الجديد» في الهند. يبجلونها بعد كُتُب الڤيدا.

- رادا (Radha): حبيبة كريشنا، عُبدت معه في الهندوسية.

- رامايانا (Ramayana): وتعني حرفياً قصة راما، وهي ملحمة سنسكريتية تروي مغامرات راما - وقد تجسَّد فيه الإله ڤيشنو في سبيل الوصول إلى عرشه المسلوب.

- الڤيدا (Veda): الكتب المقدسة الهندوسية، كتب بالسنسكريتية تضم أربعة أسفار: (1) الريج ڤيدا (أنشودة لتمجيد الآلهة)، (2) السماڤيدا وهي ترانيم لتقديم القرابين،

(3) اليايورڤيدا، إضافات مرتبة حسب القرابين (4) آثراڤيدا أي سفر الفقراء.

- دارما (Dharma): «الثابت الوطيد» وهي في الهندوسية «القانون الأخلاقي» وفي البوذية «الحقيقة الكلية»، وفي اليانية «الفضيلة الأخلاقية» والجوهر الأزلي الذي يحرك العالم في آن واحد.
- أرثا (Artha): الثروة، الثراء، الكسب، النجاح.
- موكشا (Moksha): سنسكريتية تعني حرفياً «الانعتاق» - الفرار من التكرار الممل لتجدد الموت وتجدد الميلاد في الهندوسية.
- أرجونا (Arajuna): ثالث الأخوة لآل باندو، ابن الإله أندرا، أحد أبطال المعركة التي روتها ملحمة المهابهاراتا.
- ياما (Yama): إله الموت عند بعض القبائل الآسيوية - وتقول الڤيدا إنه أول إنسان مات ففتح طريق الفناء أمام البشر، وهو حارس منطقة الجنوب (منطقة الموت).
- (Rama) راما صاحب الفأس - التجسيد السادس للإله ڤيشنو الذي دافع عن البراهمة ضد النهب الملكي في الهندوسية، بطل ملحمة رامايانا.
- (Sita) سيتا: بطلة الرامايانا، المرأة المثالية، رمز الوفاء الزوجي.
- (Avatara) أڤاتارا - سنسكريتية معناها الحرفي «الهبوط» في الهندوسية وهي تعني تجسُّد أحد الآلهة في هيئة بشرية أو حيوانية.
- (Soma) السوما: شراب مقدس عند الهنود يصاحب تقديم القرابين والأضاحي، يُستخلص من نبات متعرش، وهو اسم القمر أيضاً.
- (Caste system) نظام الطبقات المغلقة في مجتمع الڤيدا الهندي وهي أربع: البراهمة (الكهنة) - الكشاترية (المقاتلون) - الفيزيا (الزراع والتجار) - الشودرا (أي الخدم).
- (Prajapati) براجاباتي - الإله الخالق عند الهندوس الذي خلعه الإله إندرا عن عرشه.
- (Yoga) إحدى مدارس الفلسفة الهندية الست الرئيسية، وهي كلمة سنسكريتية معناها (النير) أو (الاتحاد)، وهي مدرسة هامة في الفلسفة الهندوسية، أثرت بقوة في الفكر الهندي، نصوصها الأساسية هي «سوترا اليوغا»، جانبها العملي أهم من النظري، ضبط التنفس، الجلوس في وضع معين، الامتناع عن الجنس... الخ.

- (Law of Manu) تشريع مانو: يتألف هذا التشريع من 2685 بيتاً من الشعر ويرجعونه إلى سنة 1200 ق.م، لكن بعض الباحثين يرجعونه إلى القرون الأولى بعد ميلاد المسيح مع الإشارة إلى أن مانو ولد في 216 ميلادية.
- (Guru) الغورو: المعلّم الروحي في الهندوسية والسيخ... الخ.
- (Jina) جينا = ياني: سنسكريتية معناها «المنتصر» أو «القاهر»، وهي صفة تطلق على مؤسسي اليانية الذين تغلبوا على رغباتهم الحسيّة وقهروا شهواتهم ومن هذا المصطلح استمدت اليانية اسمها.
- (Jainism) اليانية = الجينية = الجانتية: ديانة هندية ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد (مع البوذية) يعتقدون أن 24 قديساً ساهم في تأسيسها، آخرهم مهاڤيرا (البطل العظيم).
- (Buddha) بوذا (563 ـ 483ق.م) مؤسس البوذية، اسمه الحقيقي سد هارتا جوتاما، كلمة بوذي تعني «المستنير» «المتنوِّر» أو المستيقظ ـ ابن أحد حكام مقاطعة ساكاس (ولهذا يسمى حكيم ساكاس)، نقطة التحول في حياته مع سن 29 عندما أدرك أن الإنسان يعاني المرض والشيخوخة والموت ـ أقلع عن حياة الإمارة وتحول إلى ناسك متجول حتى جاءه الإلهام (الاستنارة) تحت شجرة البو Bo.
- (Buddhism) البوذية ـ ديانة وفلسفة أسسها «سد هارتا جوتاما» في شمال الهند في القرن السادس ق.م ثم انتشرت في وسط آسيا والصين وكوريا واليابان... تعتمد على تركيز التأمل للوصول إلى حالة النرفانا ـ وهي تُعنَى بإنكار الذات وضبط العواطف وقتل الرغبة أكثر من عنايتها بالشعائر.
- (Dualism) الثنائية: القول بوجود مبدأين أو إلهين للعالم، كما هو الحال في المانوية.
- (Indra) إندرا ـ رب كل حي في الديانة الهندوسية أو هو الشمس التي تولد الحي من الحي ـ إله الحرب والعواصف وملك الآلهة وقائدهم في المعارك في أسفار الڤيدا.
- (Varuna) ڤارونا ـ إله السماء المهيمن في الهندوسية وحافظ القانون الطبيعي والأخلاقي.
- (Sati=suttee) ساتي أو سوتي: عادة دفن الأرملة مع زوجها المتوفي في الهند، وتعني «المرأة الفاضلة» أيضاً في الأساطير الهندوسية.
- (Kama sutra) كاما سوترا: مذهب أو مبدأ الشهوة ألّفه المعلم ڤاشيايانا ويطبق عملياً الحياة الغرامية والجنسية، كما ينطوي على أربع وستين فناً من فنون ممارسة

الجنس، وقد فرض هذا المبدأ واجبات والتزامات على النساء والرجال معاً.

- (Sanakhya) سانخيا: معناها السرد ويُنسب هذا المذهب إلى كابيلا، ربما في القرن السادس قبل الميلاد، وترد فيه الحقائق الخمس والعشرون والتي تدعى (تاتوات).
- (Purusha) بوروشا: أرواح الأفراد من جنس الذكر في الهندوسية (عكس براكريتي التي هي المادة أو أرواح الأنثى).
- (Kundalini) كونداليني: وهي قوة روحية مُتَصَوَّرة، على هيئة أفعى ترقد ساكنة في قاع النخاع الشوكي حتى الوريد الرئيسي الكائن في العمود الفقري.
- (Five M's) الميمات الخمسة: طقوس هندوسية تبدأ بحرف الميم: ماديا أي (الخمر)، ماتسيا (السمك)، مامسا (اللحوم)، مودرا (الحبوب)، ڤيدونا (الجماع).
- (Mantra) مانترا: الأقوال المقدسة في الهندوسية، البوذية ذات الفاعلية القوية.

الفصل الثالث

- (Sangha) السانغا: جماعة الرهبان البوذيين في الدير ـ نظام لسلوك الرهبان في الدير ـ نبذ الحياة الدنيوية والإصغاء لكلمات بوذا وتعاليمه ـ تشمل الرجال والنساء معاً.
- (Nirvana) النيرڤانا: سنسكريتية تعني حرفياً (الانطفاء) أو الإخماد، وهو الهدف الأسمى في الفكر الديني الهندي من تأمل التلاميذ ـ يميّز البوذية أكثر من غيرها ويعني الوصول إلى حالة سامية من التحرر عن طريق إخماد رغبات الفرد ووعيه.
- (Venaya) ڤينايا: نظام سلوك الراهبات في الدير في البوذية.
- (Jataka) جاتاكا: الميلاد ـ مصطلح شائع في البوذية يشير إلى أنواع الحياة الكثيرة التي عاشها بوذا في السابق.
- (Vajrayana) ڤاجرايانا: عربة الماس وتسمى أيضاً البوذية التانترية، وهي فرقة تمثل تطوراً هاماً في بوذية الهند والبلاد المجاورة لاسيّما التبت.
- (Mandala) ماندالا: تعني حرفياً حلقة أو دائرة، وهي رمز تخطيطي يرمز إلى الكون، ووسيلة التأمل عند بوذية اليابان.
- (Karma) كارما: سنسكريتية معناها «الفعل» ـ مصطلح أساسي في الديانة الهندية وتعني أن هذه الحياة حلقة في سلسلة حيوات يحياها المرء، يحددها فعله في الحياة السابقة، ويتضمن المصطلح «الجزاء» و«التناسخ».

الفصل الرابع

- (Mahavira) ماهاڤيرا: (599 ـ 527ق.م) آخر شخصية من 24 ممن أسسوا اليانية أو الجينية، وتعني (البطل العظيم).
- (Digambara) ديغامبارا: هي فريق العراة في اليانية (الفرقة الرئيسية الثانية إلى جانب فرقة الأردية البيضاء) ـ ملتحفوا السماء الذين يسيرون عراة باستمرار ويرفضون دخول النساء في سلك الرهبة.
- (Om) أوم: هي أحد رَمْزَي الصيغة المميزة لفرقة المانترا، التي هي «أوم يايع س» حيث ترمز «س» إلى اسم الإله الذي تعبده الفرقة.
- (Sikh) السيخ: جماعة دينية في الهند وباكستان أسسها المعلم الروحي «ناناك» (1469) نادت بالوحدانية والتقارب بين جميع الأديان، عارضت نظام الطبقات المغلقة في الهند والنظام الكهنوتي.
- (Nanak) ناناك: (1469 ـ 1539) معلم روحي هندي ومؤسس ديانة السيخ، كان في بداية حياته من الهندوس وتأثر بالشاعر الهندوسي الصوفي (كابير) الذي دعا إلى الأخوّة بين الهندوس والمسلمين ونبذ عبادة الأصنام.
- (Ahura Mazda) أهورا مازدا: تعني أنا الموجود الخالق، إله الخير في الزرادشتية.

الفصل الخامس

- (Taoism) التاوية: ديانة ومذهب فلسفي في وقت واحد ـ أسسها (لاوتسو) في القرن السادس قبل الميلاد، يخاطب العواطف، وينزع إلى التأمل الصوفي، حاول أنصاره فيما بعد العناية بالكيمياء بحثاً عن أكسير الحياة.
- (Neo-Confucianism) الكونفوشية الجديدة: تأسست في القرن السابع الميلادي بعد أن كانت قد قامت محاولات لتفسير أفكار كونفوشيوس في القرن الثاني.

الفصل السادس

- (Shinto) الشنتو: الديانة الأصلية لليابان، ويمكن ملاحظتها في الحياة الاجتماعية للشعب الياباني، ومحور الديانة هو الإيمان بوجود قوى روحية هي (الكامي).
- (Zen Buddism) بوذية زن: أي بوذية التأمل، وهي مدرسة هامة في اليابان تذهب إلى أنها تمثّل جوهر البوذية، وهو الوصول إلى مرحلة الاستنارة التي بلغها بوذا الأكبر، وكلمة (زن) تعني التأمل، وهي نفسها كلمة (شن) (Ch, en

الصينية.

- (Izumo) إزومو: مدينة، كانت سوقاً تجارية، وترجع شهرتها إلى كونها مركزاً دينياً هاماً للشنتوية. وفيها هياكل كثيرة.

- (Miko) ميكو: كاهنة معبد الشنتو، تقوم بتأدية الرقصات الأسطورية المقدسة وعددها 35 رقصة.

- (Tenrikyo) تنريكيو: أو عبادة الحكمة الإلهية في اليابان، وهي أوسع وأنجح فرق الشنتو الحديثة، رغم أنها تأسست في القرن التاسع عشر على يد الكاهنة ميكي نكاياما (1817 1889) فتعتبر من الديانات الجديدة المعاصرة. وقد زعمت مؤسستها وهي في سن الأربعين أن روحاً تلبسها وهي «روح سيدة الحكمة الإلهية». وأنشأت عبادة تتميز برقصاتٍ وَجْدٍ وممارساتٍ شامانيةٍ.

- (Ofudesaki) أفوديساكي: النصوص المقدسة الأساسية في ديانة الحكمة السماوية اليابانية، إحدى طوائف ديانة الشنتو اليابانية.

- (Mandala) المندالا: وتعني حرفياً «حلقة أو دائرة» وهو رسم تخطيطي رمزي في تأدية الشعائر المقدسة كأداة للتأمل. وتمثل «المندالا» أساساً للكون أو منطقة تصلح لمشاهدة الآلهة. ويدخل الإنسان أو العالم الصغير ذهنياً إلى «المندالا» التي ترمز بصرياً إلى العالم الكبير (الكون) ويتقدم نحو مركزه. وقد ترسم على ورق أو قماش بغرض التأمل كما ترسم على أرض معدّة بعناية وبخطوط بيضاء أو ملونة.

- (Jisso) جيسو: هو الإله الواحد الحقيقي في جماعة سيكونو (بيت النماء) وهو رحيم شفوق بالموتى والأطفال.

- (Jizo) جيزو: بوذا المنتظر في اليابان ـ الذي يساعد الموتى، وهو المخلّص في بوذية الصين.

- (Pure Land) الأرض الطاهرة: مدرسة الأرض الطاهرة في البوذية.

المحتويات

صدر عن الدار

